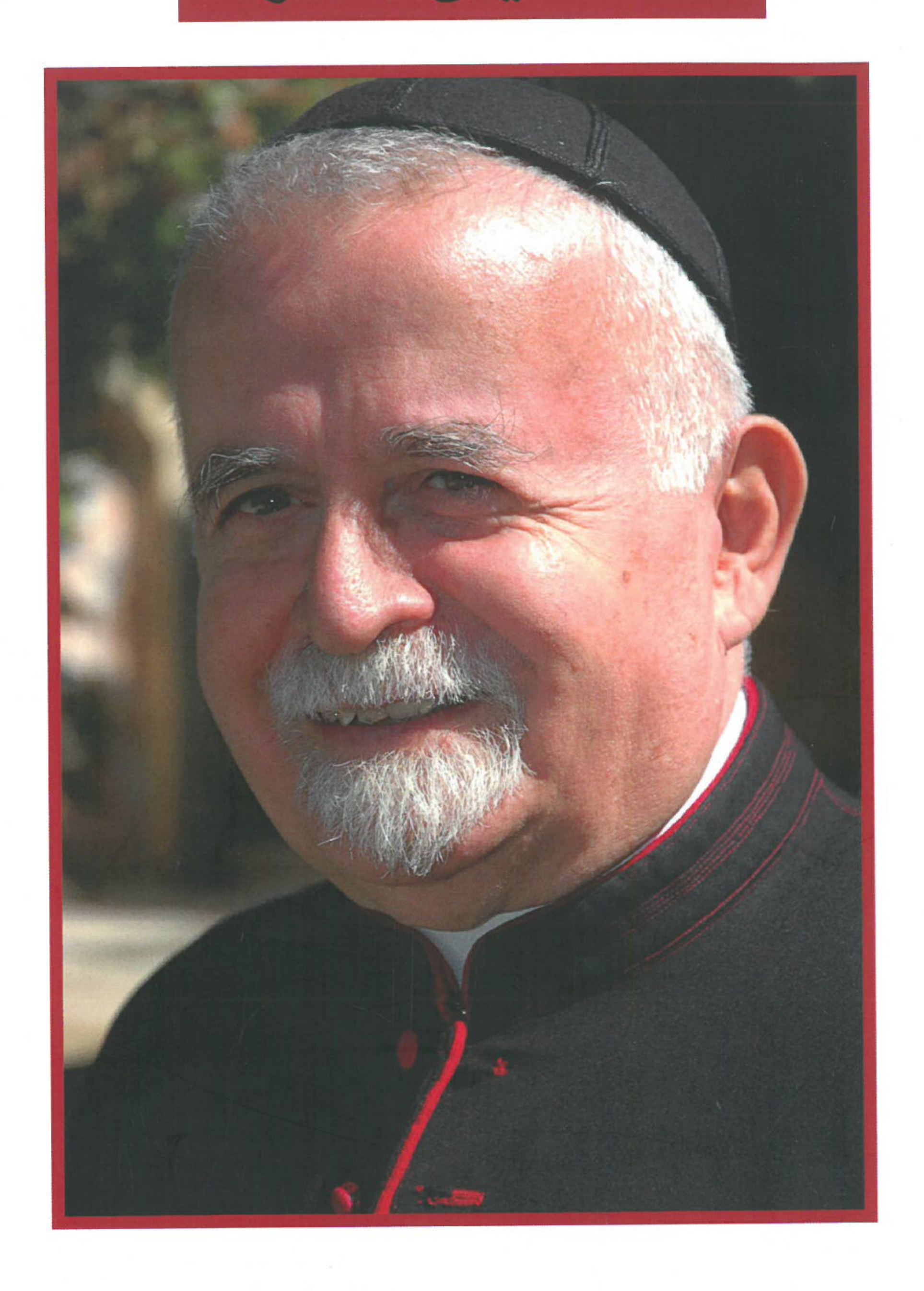
يوحنا الحلو

كلفة العيش المشترك



دار سائر المشرق

الطبعة الأولى
٢٠١٩

جديدة المتن - نهر الموت
سنتر بايلايان - الطابق السابع
رقم الهاتف والفاكس ٠١/٩٠٠٦٢٤

info@entire-east.com
www. entire-east.com

ISBN 978-614-451-159-6

تمهيد

أيها القارئ الكريم،

أقدّم لك مذكّرات عمي المونسنيور يوحنا الحلو رحمه الله، والتي كنتُ قد اِحتفظتُ بها طيلة عشر سنوات بعد وفاته، بعدما طالبني بها محبّوه وهم كثر والحمد لله بنشرها.

هذا وقد أوصانا بأن نطبعها مع كتابٍ آخر كان قد ترجمه للقديس أغوسطينوس بعنوان «عظة الجبل».

منذ سنة تقريبًا نفّذتُ وصيّة نشر «عظة الجبل» بواسطة دار المشرق للآباء اليسوعيين، فضممته إلى سابقاته من المجموعة الأغوسطينية في الدار المذكورة. وبقي لي أن أنفّذ الجزء الثاني من الوصية وهي طبع المذكّرات ونشرها. ولكن كيف؟

قبل الدخول في هذه المسألة، أريد أن أُطلعك قليلاً عمّا حمل عمي على تدوين مذكّراته.

عاش المونسنيور يوحنا الحلو أحداثًا أليمة وصعبة في لبنان عامةً، وفي أبرشية صيدا المارونية خاصةً، بدءًا من الحرب العالمية الثانية، مرورًا بثورة ١٩٥٨، وصولًا إلى الحرب اللبنانية بتفاصيلها البشعة، هذا بالإضافة إلى مشاكل داخلية حصلت ضمن الكنيسة نفسها...

شجّعه أصدقاؤه والمقرّبين منه على تدوين تلك الأحداث التي عاشها وشاهدها وشهد عليها. وقد بدأ بتدوينها باللغة الفرنسية، يومًا بيوم، خاصةً إبان الحرب الأهلية اللبنانية. وعندما كان يُسأل لماذا باللغة الفرنسية؟ كان يجيب بمزيج من الدعابة والسخرية: «ربما وقعت بأيدي أحدهم فلا يفهم ما هو مكتوب...»

أما وقد وصلت نيران الحرب اللبنانية إلى دار المطرانية عام ١٩٨١ يوم عيد الفصح، وتم حرقُ هذه الدار ونهْبُها، فقد كان نصيب هذه المذكّرات الاحتراق.

نعم احترقت المذكّرات، لكنّه عاد ودوّنها من جديد شيئًا فشيئًا، متحاشيًا تدوين ما هو سلبي ومضرّ بالكنيسة، خاصةً لدى تدوينه السنوات الثلاث العجاف الأخيرة من حياته...

أُعفي المونسنيور يوحنا الحلو قصرًا من خدمته الرعوية في الأبرشية، فاختار مسكنًا له ثانوية راهبات مار يوسف الظهور في صيدا حيث تفرّغ لأعمال الترجمة ومتابعة تدوين مذكّراته، طبعًا بالإضافة إلى الصلاة والتأمل بتلك الحياة التي كان وفاؤها له شحيحًا.

بالعودة إلى نشر المذكّرات، فقد عشت صراعًا داخليًا، لأنني وجدتها مهمة صعبة ملقاة على عاتقي. وقد قادني هذا الصراع إلى البحث في المكتبات عن كتب شبيهة، وخاصة عن مذكّرات أستنير بها بعض الشيء، لأحسن التصرّف بشأن مذكّرات عمي المونسنيور حلو. فقرأت سيرة الكاردينال مار نصر الله صفير الكلّي الطوبى، ومذكّرات قدس الأباتي بولس نعمان، ومذكّرات معالي الوزير فؤاد بطرس. ولاحظت أن المشترك فيها هو اسم الناشر والباحث الصحافي الأستاذ أنطوان سعد، فقلت في نفسي من هو هذا الرجل الذي وضع هؤلاء الكبار مذكّراتهم بين يديه؟ للتو بدأت أبحث عن وسيلة تصلني به إلى أن حصلت على رقم هاتفه وتواصلنا.

أما المفاجأة التي تلقيتُها خلال الاتّصال الأول به، فكانت قوله لي بأنه يريد أن يطلق المذكّرات بشهر آذار في إطار المهرجان اللبناني للكتاب في إنطلياس، أي بعد شهر من هذا الاتّصال، لأنه على علم بها، بناءً على محادثة جرت مع عمي بخصوصها قبل وفاته بفترة قصيرة. وعليه بدأت عملية التحضير ومسابقة الوقت لإتمام ما هو مطلوب لإنجاح هذا العمل.

تضمّنت هذه المذكّرات ذكريات خاصة بكاتبها عامة شاملة على مساحة الوطن، فيها الحديث عن محبة الوالدَين والعائلة، والقرية وكنيستها، ذكريات الصفوف الابتدائية، إشارات الدعوة الكهنوتية، مرحلة التعليم في مدرسة الآباء اليسوعيين كما الجامعة، الحياة

الكهنوتية في المطرانية وخدمة الأبرشية بحلوها ومرّها، والأحداث السياسية والعسكرية في لبنان عمومًا ومنطقتَي الشوف والجنوب خصوصًا، والأهم تجربته في العيش المشترك...

لقد أعطى مساحة خاصة في هذه المذكّرات للحديث عن العيش المشترك وأهميته وضرورة التمسّك به، وما قصَدَ به المفهومَ الكلاسيكي فقط، أي العيش ما بين طوائف مختلفة ضمن مجتمع واحد، بل أيضًا العيش المشترك ضمن الطائفة الواحدة أو المذهب الواحد.

تمسّك بهذا النمط من العيش بكلّيّته في حياته ولم يتخلَ عنه قط، رغم كلفته الباهظة عليه وعلى شعبه، إنما يبقى السؤال، أيهما كانت كلفته أكبر عليه العيش المشترك مع طوائف مختلفة أو ضمن الطائفة الواحدة والمذهب الواحد؟!

عمي سلام عليك

فرنسيس عازر الحلو
بيروت في ١٧-٢-٢٠١٩

مقدّمة

ما قصدت من كتابة هذه الصفحات مالًا أجنيه، ولا سعيت إلى مجدٍ زائل أتوّج حياتي به، بعد أن عزفت عنه، بإباءٍ طوال جهادي فوق هذه الأرض اللبنانيّة الّتي تفانيت في حبّ من مرّوا عليها. ولا ابتغيت شهرةً تنطفىء، كفقاقيع الصابون، عند أوّل نسمةٍ تهبّ عليها، إنّما جُلّ ما أردته، هو أن أنقل، بدقّة وأمانة، بعض ما سمعت ورأيت وعشت من أحداثٍ تركت في نفسي أثرًا يرافقني حتّى الموت، ساعة يُطلب منّي أن أسلّم الوديعة إلى خالقي ومخلّصي الّذي وهبني، مشكورًا، ذاكرة استوعبت كلّ ما مرّ بي من أحداث، وأهوال وما نلته من نعم، أرجو أن أكون قد تاجرت بها، وفق ما يريده منّي، تمجيدًا لاسمه القدّوس وخدمة لأخي الإنسان، أيًّا يكن دينه ومذهبه ومشربه السياسي.

وآمل أن أكون لها أمينًا، أدوّنها في هذه السطور مادّة تعليميّة أضعها أمامه راجيًا أن يجد فيها ما يساعده على التعرّف على ما رأيت وسمعت وعشت؛ ويعمل، بصدق وتجرّد، بعيدًا عن كلّ هوس وهوى، على تعريف أبناء أجيالنا الطالعة الّذين يُعطى لهم أن يعيشوا فوق أرضنا اللبنانيّة، بأهمّيّة العيش المشترك ووحدة المصير، ضنًّا به مهما غلت التضحيات، تحقيقًا لأن يكون لبنان رسالة إلى العالم بأسره على حدّ ما سمّاه قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني، وحلّ في أرضه ضيفًا كريمًا.

وإذا كانت الأحداث الّتي أسردها في مذكّراتي قد آلمت الكثيرين من أبناء وطني، فإنّي أرجو الاطّلاع على الدّاء، دفعًا إلى اتّخاذ أسباب الوقاية منه قبل الوقوع فيه، فيعمل كلّ منهم على التلاقي مع الآخر، رفعًا لشأن هذا الوطن، الّذي أراه أكثر حاجة إلى العمل البنّاء منه إلى الكلام الفارغ الرنّان وأكثر نفعًا في تعاون بنيه على الخير والصلاح منه على التراشق بالنعوت والصفات الّتي تهدم ولا تبني وتباعد بين الأقربين إلى ما لا رجوع عنه، حتّى

الطلاق النهائي. وإن كان لقارئي المؤمن، أيًّا يكن دينه نفعٌ من هذا الكتاب الّذي أضعه بين يديه، فكيف بأخي الكاهن الّذي يقف الحياة على الخدمة ويتبنّى التضحية والبذل شعارًا له في حياته الكهنوتيّة، يأبى أن يرى فيه مشجّعًا على أن يجسّد دعوته مهما غلت التضحيات، وعزّت العطاءات ويقبل أن يُعطي من نعم الله عليه بلا حساب...

الفصل الأول

البداية من «وادي القديسين»

لقد ولدتُ في قريةٍ جبليّة، صغيرة، من لبنان الجنوبي، تدعى وادي جزّين بحسب ما جاء على خريطة لبنان، فلقّبها بعض المؤمنين باسم «وادي القدّيسين»، عن خطأ أو عن صواب لكثرة ما أعطت في ماضيها من دعوات رهبانيّة وكهنوتيّة، من الرجال والنساء، تفوق ما أعطته كبريات الرعايا في لبنان على هذا الصعيد، وإن يكن موسم عطائها في هذه السنوات الأخيرة قد أصيب بالمحل إلى حدٍّ ما، غير أنّها لا تزال تفاخر من بين الكثيرين والكثيرات الّذين قدّمتهم إلى الكنيسة بالمثلّث الرحمات المطران إبراهيم الحلو الّذي رعى أبرشيّة صيدا إحدى وعشرين سنة، كما كان، لأقلّ من سنةٍ مدبّرًا رسوليًّا للكنيسة المارونيّة خلال عهد البطريرك أنطونيوس خريش، طيّب الله مثواه مع احتفاظه بلقب راعي أبرشيّة صيدا.

أجل، في تلك القرية الوادعة المنبسطة بارتياح بين شلّال جزّين الهادر شتاءً المترقرق صيفًا، على كتف الوادي، وحرج صنوبر بكاسين، الدائم الخضرة، على مدار السنة، وحيث لا تشبع العيون من النظر إليه، أبصرتُ النور في عائلة وديعة، متواضعة قانعة بما قسمه الله لها من أرض ورثتها عن الآباء والأجداد ومن تقوى راسخة تنشأت عليها، فراحت تستغلّ أرضًا وتستنبتها، بعرق الجبين ودم القلب، القوت اللازم قيامًا لأفرادها وأولادها الستّة الّذين ترعرعوا في كنف والدين حنونين، راحا يعملان بخوف الله، وينشئان أولادهما، درجًا على تقليد حميد لم يحيدا عنه قيد أنملة؛ مع أنّهما قد فجعا بخسارة بكر العائلة في الرابعة والعشرين من عمره إثر حادث مؤلم، تاركًا في القلوب حرقة كاوية لم يخفّف من شدّتها سوى الإيمان بالله والتسليم الكلّي لمشيئته عزّ وجلّ.

تزوّجت الشقيقة الكبرى أنيسة من أحد أبناء القرية ورزقت خمسة صبيان اعتبرتهم نعمةً من الله وبركة للعائلة، أمّا الابنة الثانية أوجيني فقد اختارت لها حظًّا لا ينزع منها، على حدّ قول السيّد المسيح لمرتا شقيقة لعازر يوم دخلت دير الراهبات الأنطونيّات المارونيّات وفيه وقفت حياتها على خدمة الربّ والقريب. وأمّا الصبيان الثلاثة الباقون، وأنا أكبرهم، فقد

عمل أصغرهم يوسف في حقل التعليم في مدارس الإخوة المسيحيّين في بيروت على مدى خمس وعشرين سنة إلى أن لبّى نداء ربّه في عزّ شبابه، تاركًا خمس بنات في عهدة زوجةٍ حدبت عليهنّ بكلّ ما آتاها الله من حنانٍ وحكمة وحسن تدبير؛ وممّا قال في رثائه الأخ إيلدوفونس خوري: «لقد كان المعلّم اللطيف واللطف من ثمار الروح القدس. وكان المعلّم الطويل البال... وطول البال من ثمار الروح القدس، وكان المعلّم الوديع... والوداعة من ثمار الروح القدس. وكان المعلّم السراج المضيء على مثال يوحنّا المعمدان، فتمتّع تلاميذه زمنًا بنوره... وطالما التمس الأهلون لأولادهم مكانًا في صفّ المعلّم جوزف «دون سابق معرفة... إنّما تأثّرًا بما كان يقال عنه...» .

الثالث من الصبيان وهو عازر يحمل اسم جدّه لأبيه وربّى العائلة المؤلّفة من ثلاثة صبيان وابنة وحيدة، وراح يتابع العمل في الزراعة متّكئًا على وظيفة في أحد المصارف متنقّلًا بين صيدا وجزّين قيامًا بأود العائلة الّتي دأب في تربيتها بخوف الله مع شريكة الحياة الفاضلة الّتي اختارها من بين بنات الرعية.

أمّا الصبي الثاني الّذي ولد في السادس من كانون الأوّل ١٩٢٢، ذكرى مولد يوحنّا المعمدان بحسب الطقس الماروني، فقد دعي يوحنّا تيمّنًا بشفيعه ولا يزال يذكر الاحتفال بالقربانة الأولى مع عددٍ من أبناء الرعيّة في كنيسة السيّدة العذراء، وقد هيّأتهم لذلك الاحتفال راهبة من جمعيّة راهبات القلبين الأقدسين حيث لا يزال يذكر قامتها الطويلة وثوبها الأسود الفضفاض اللّاحق بالأرض، والترنيمة الّتي علّمتهم إيّاها وعلى أنغامها دخلوا الكنيسة في جوّ مهيب وهم يرتّلون: «يسوع يسوع كن أخي للأبد».

صاحبنا ذاك وقد عرفتموه لقد وقعت عليّه أنظار الكثيرين ممّن راحوا يحاولون عبثًا إدخاله إلى إحدى الرهبانيّات المارونيّة، حيث كان المرحوم عمّه الأب مخائيل أبي شاهين الحلو راهبًا فيها وعضوًا مميزًا بعمله وفضيلته، وقد اختطفه الموت إثر إصابته بمرض التيفوس سنة ١٩١٧، إذ كان يساعد المرضى المصابين بذاك الدّاء في بلدة الدّامور بكلّ غيرة واندفاع، من دون أن يتّخذ ما يلزم من وقاية، ففتك به الدّاء العضال ولم يمهله سوى أيّام قليلة غادر بعدها وهو في السادسة والأربعين من عمره تاركًا في نفوس والديه وإخوته وأقاربه وأبناء الرهبانيّة أسفًا عميقًا وحسرة كاوية، على ما كانت تتحلّى به نفسه من فضائل،

أبقت ذكره حيًّا في النفوس. فاندفع أحد تلاميذه وكتب سيرة حياته، وهو الأخ باسيل غانم الّذي أصبح فيما بعد رئيسًا عامًّا على الرهبانيّة المذكورة لشدّة ما كان متأثّرًا بمثله الصالح. وكان لي خالان هما الأباتي فرنسيس والأب مخائيل الحلو في الرهبانيّة وفي الكنيسة خادمين للربّ صالحين، فرضا احترامهما على جميع عارفيهما. وفي هذا الجوّ كان توقٌ إلى اكتساب أحد أبناء العائلة إلى متابعة الرسالة، لكن عندما كنت أشعر بمجيء كاهن غريب إلى البيت أختار الهروب من البيت إلى البستان أختبئ فيه إلى حين مغادرة الزائر البيت الوالدي.

صحيحٌ إنني ما كنت أفكّر بما كان أصدقاء العائلة يريدون أن يروه فيَّ، بيد أنّ التقوى الّتي نشأتُ عليها في البيت الوالدي حيث زرع والداي في قلبي حبّ العذراء مريم منذ الصغر، لأنّه ما من مساءٍ يمرّ إلّا وكان أفراد العائلة وقبل أن يخلدوا إلى الراحة والنوم يجتمعون كبارًا وصغارًا أمام أيقونة العذراء الّتي تتصدّر البيت، ويتلون الطلبة وفي نهايتها يفرض الوالد تلاوة الأبانا والسلام والمجد على نيّة إخوته المغتربين في الولايات المتّحدة الأميركيّة قائلًا وطالبًا من الله تعالى أن يردّهم بالسلامة إلى الوطن. ومنذ ذلك الحين كنّا نعرف أنّ لنا في بلاد الاغتراب عمّين: حنّا وبطرس. وهكذا توطّدت القرابة بين شطري البيت المغترب والمقيم، وحتّى الآن ومع كرّ السنين وجيلًا بعد جيل لا يزال الوصال قائمًا بين أبناء العمّ والأحفاد وبين أفراد العائلة المتأصّلة الجذور في لبنان وتلك الّتي هاجرت منذ أكثر من مائة سنة إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة إلى غير ولاية من ولاياتها.

بدأتُ دروسي في مدرسة القرية في وادي جزّين ثمّ أرسلني والداي إلى مدرسة سيّدة مشموشة حيث درست أربع سنوات أصول اللغتين العربيّة والفرنسيّة. ولا أزال أذكر بالخير، حافظًا الجميل لأحد آبائها الأب روفائيل مطر، الّذي كان ينهي ملاحظاته الدقيقة لي في كلّ موضوع إنشاء بهذه الكلمة: تشجّع، جملتك صحيحة ومتينة، إنّما عليك أن تطالع أكثر وأكثر ليزداد تفكيرك اتّساعًا...

وكنت أحترم الآخرين أيًّا يكن دينه ومذهبه فوضعت الإدارة سريري في منام جمعت فيه الطلّاب المسلمين حتّى إذا ما أرادوا أن يصلّوا بحسب ما يأمر به دينهم قاموا بذاك الواجب الدّيني بكلّ راحة ومن دون أيّ إزعاج يأتيهم من قبل طلّابٍ آخرين حتّى كانت

الروح العائليّة مسيطرة في ذلك الجوّ والاحترام المتبادل والسلام سيّد الموقف تحت رعاية الآباء.

دعوةٌ مفاجئة

كان ذلك في اليوم العاشر من أيلول عام ١٩٤٠، إذ دُعيت من البيت الوالدي في وادي جزّين الساعة الثالثة بعد الظهر، على ما أذكر، إلى بيت عمّتي أم خليل، المجاور لبيتنا، دون أن أعرف الغاية من تلك الدعوة. ولكنّني ما إن دخلت حتى وجدتُني أمام جمع من النّاس يملأ البيت لا يكاد يبقى فيه محلّ لزائر جديد. وضمّ الحضور وجوهًا غريبة ألتقيها للمرّة الأولى في حياتي، بينهم كهنة وطلّاب إكليريكيّون يجلسون على ديوانٍ يلفّ جدران البيت الثلاثة الداخليّة. حيّيت وسلّمت على الجميع بدءًا بالضيوف وصولًا إلى أهل الدّار. ولمّا انتهيت من السلام إذا بأحد الكهنة الأجانب المدعو شارل سوتيه Charles Sautier وهو راهب يسوعي، يدعوني إلى الجلوس بقربه. كان يشغل مدير المعهد الإكليريكي الشرقي التابع لجامعة القدّيس يوسف للآباء اليسوعيّين في بيروت، وقد درج على عادة حميدة تقضي بأن يزور في العطلة الصيفيّة الطلّاب الإكليريكيّين في بيوتهم للتعرّف عن قرب على محيطهم العائلي اعتقادًا منه بأنّ زيارة الإكليريكي في بيته ومع عائلته تعطي المسؤولين عنه في المعهد فكرة قريبة من واقعه الحياتي تساعد المشرفين على تربيته في المدرسة الإكليريكية.

لدى انتهائي من السلام على الجميع وجلوسي إلى جانب الأب المذكور، ذي القامة الطويلة واللحية المتدلية حتّى منتصف الصدر تقريبًا، راح يطرح عليّ الأسئلة باللغة الفرنسيّة على مسمعٍ من الجميع، عن اسمي وعمري ودروسي وعمّا إذا كنت على علاقة طيّبة بالكنيسة فكنت أجيب على أسئلته باقتضابٍ خوفًا من الوقوع في خطأ لغوي أمام ذاك الجمهور الّذي كان يصوّب عليّ أنظاره ويفتح آذانه لاستيعاب السؤال المطروح وجوابي عليه. وإذ كان لا بدّ من الصراحة الّتي لزمتها من صغري وعليها درجت ولا أزال حتّى الساعة هذه، فما كان لي آنذاك أن أتراجع عن الردّ على كلّ سؤال يطرحه عليّ من دون أن أخفي ما كنت عليه من استهجان للخرق الطويل في ثوب الأب المذكور في غمبازه الأسود، الّذي

كان يتراوح طوله بين خمسة عشر سنتيمترًا وعشرين، تسبّب له به هجوم شرس من العلّيق والقندول وهو يجتاز حرج الصنوبر الفاصل بين وادي جزّين وبكاسين سيرًا على قدميه. ولقد حاولت سيّدة في أحد البيوت الأولى الّتي زارها في أسفل البلدة أن تسدّ ذلك الخرق الطويل بواسطة ثلاثة دبابيس كبيرة استرعت انتباهي، فرحت أنظر إليها معجبًا ببساطة ذلك الكاهن وتجرّده عن المظاهر الدنيويّة الّتي يقع ضحيّتها الكثير ممّن يقفون النفوس على خدمة المذبح بالقول ولا يحقّقون بالفعل ما يعلنون عنه. وعلى مرّ السنين ما زلت متأثّرًا بذلك المشهد الّذي ارتضاه لذاته برهانًا عن صدق طويّته وعراقة معدنه وإيمانه الّذي حمله في ما بعد على اللحاق بالعسكر إلى الجبهة في تومات نيحا سنة ١٩٤١ ليظلّ بقربه في ساعات الخطر أملًا في أن يفتح أمام جنوده باب الخلاص الأبدي ويعيد إلى نفوسهم مجال التقوى والندامة.

إنتهت الزيارة، وانفضّ عقد المجتمعين وودّع الأب المذكور ورفاقه أهل البيت والحاضرين وقفل عائدًا إلى بكاسين ومنها إلى بيروت مقرّ عمله، حاملًا في جعبته فكرة واضحة خاصّة به دون سواه عن ذاك الفتى الّذي استدعاه والتقاه وتحدّث إليه أمام الجمع. كما عاد الفتى إلى بيته متأثرًا بما رأى وسمع من دون أن يُشرك أحدًا من أقرب المقرّبين إليه بما جرى له مع ذلك الكاهن الغريب.

بعد أيّامٍ قليلة استلمت كتابًا من الأب المذكور بالفرنسيّة خطّه بيده تصعب قراءته فكيف بي أنا غير المعتاد على اللغة الفرنسيّة وفكّ أسرار كتابتها؟ يبدأه بدعوتي إلى الالتحاق بالمدرسة الإكليريكيّة قبل الخامس والعشرين من شهر أيلول، لأنّه شعر لديّ برغبة في أن أكون كاهنًا للرب يسوع، منهيًا دعوته الملحّة بهذه الكلمة «أنا بانتظارك». طويت الكتاب ثمّ مزّقته من دون أن أقول كلمة واحدة عنه إلى المرجع ذاته وفيه إلحاح مشفوع بما يشبه الرجاء بعدم التأخّر عن الالتحاق بالمدرسة الإكليريكيّة في بيروت الّتي التحق بها نسيبي الطالب إبراهيم الحلو، إذّاك أطلعت والديّ على ما جرى من الألف إلى الياء، من لقائي بذاك الكاهن في بيت عمّتي أم خليل إلى التحرير الأوّل الّذي بعث به إليّ فالثاني الّذي كان لا يزال معي. أمّا والداي وبعد أن سمعا ما أفضيت به إليهما فلم ينبسا بكلمةٍ واحدة تساعدني على اختيار موقف أرتاح إليه وقد وقع عليهما الخبر كالصاعقة.

في المساء قصدت خالي الأب فرنسيس الحلو في جزّين حيث كان في زيارة لوالدته جدّتي أم أسعد وأطلعته على كلّ ما حدث لي منذ لقائي بالأب اليسوعي شارل سوتيه، فكان موقفه منّي قاسيًا جدًّا مظهرًا رفضه الحاسم لكلّ ما جرى واتّهمني بالتصرّفات الصبيانيّة الّتي تنقصها الواقعيّة والوعي لاتّخاذ قرار بتلك الخطورة، وتركته في المساء على شيءٍ من القهر الّذي أثاره فيّ موقفه ذاك. إنتحيت جانبًا في المساء وتلوت المسبحة منفردًا وذهبت إلى فراشي دون أن أطلع والديّ على ما جرى لي في لقائي بالخال الأب فرنسيس.

ولكنّ الريح عصفت في اليوم التالي بعكس ما كانت عليه في المساء، فإذا بالخال يدعوني وبكلّ هدوء يسألني عمّا إذا كنت لا أزال مصرًّا على الدخول إلى المدرسة الإكليريكيّة في بيروت. وبلهجة أبويّة محبّة يبارك رغبتي ويشجّعني على المضيّ تحقيقًا لها. وللحال شكرته وطلبت دعاءه للسير في ما قد صمّمت عليه. وانتشر الخبر في العائلة، وراحت الوالدة تعمل ليل نهار على تحضير ما يلزمني للانتقال إلى بيروت إلى المعهد الإكليريكي الشرقي لاسيّما وقد تأخّرت عن موعد الدخول ما يقارب العشرين يومًا وأكثر...

حان وقت فراق الأهل والإخوة والأخوات والأقارب الّذين ما صدّقوا الخبر في بداية الأمر حتى تأكّدوا منه إذ رأوني أجمع ثيابي وأغراضي في حقيبةٍ ذات صباح لأضعها في سيّارة عموميّة للركّاب يسوقها المدعو نقولا الشويري انطلاقًا إلى العاصمة بيروت. وبالطبع كان الوداع مؤلمًا بالنسبة إليّ وإلى أهلي وإخوتي وبخاصّة إلى والدتي الّتي وقفت عل بعد أمتار قليلة من السيّارة الّتي تقلّني واتّكأت على حائط من حجر صمّ تذرف الدموع، وأنا فقبل أن أصعد إلى السيّارة ألقيت نظرة إلى الوراء لأراها تبكي وتشهق لكي يظلّ ذاك المنظر مرتسمًا أمامي حتّى الآن وكأنّ الدموع الّتي ذرفتها والدعاء الّذي رافقني به لا يزال يمدّني بالقوّة والنشاط لمتابعة الطريق الّذي نويت السير فيه حتّى النهاية على ما فيه من صعوبات وتضحيات. أما الوالد وقد كان من المتعبّدين للعذراء مريم ولا يمرّ يوم عليه، أيًا يكن شغله، دون أن يتلو سبحتها فقد راح يرافقني بصلواته راجيًا أن يقوم في عائلته كاهن يتابع رسالة شقيقه المرحوم الأب مخائيل الذي توفي شهيد غيرته الرسولية سنة ١٩١٧ في دير الناعمة كما ذكرت سابقًا.

الدخول إلى المعهد الإكليريكي

تركت البيت الوالدي يوم الإثنين ١٤ تشرين الأوّل ١٩٤٠ وعند الساعة الواحدة من ظهر ذلك اليوم توقّفت بي سيّارة السيّد نقولا الشويري أمام باب جامعة القدّيس يوسف فنزلت منها وأخذت حقيبتي بيدي فإذا بشاب في أعلى الدرج يناديني باسمي دون أن تكون لي معرفة سابقة به لا بواسطة التلفون ولا بلقاء شخصي، وإذ تعرّف إليّ أخذ منّي الحقيبة واقتادني إلى مكتب الأب سوتيه مدير الإكليريكيّة آنذاك مرورًا بملعب الإكليريكيّين الّذين كانوا يلعبون بالكرة الطائرة موزّعين فرقًا فرقًا حسب أعمارهم وصفوفهم وفي آخر الملعب تحت القناطر الشهيرة كان الإكليريكي الناشىء نسيبي إبراهيم الحلو مرتديًا العباءة السوداء، أسرعت للسلام عليه فارتدّ عنّي خائفًا من مخالفة النظام القاضي آنذاك بعدم التعاطي مع كلّ غريب عن المعهد إلّا بعد إستئذان المدير المسؤول وكانت لي الصدمة الأولى في ذلك الجوّ الجديد.

أوّل عمل فرضوه عليّ هو المثول أمام خيّاط المعهد لكي يأخذ القياس ويعمل على خياطة عباءة سوداء يجب أن ألبسها للحال بعد الانتهاء من خياطتها الّتي لم تستلزم أكثر من يومين لأنّ النظام آنذاك ما كان ليقبل بوجود طالب في المجموعة لا يرتدي الثوب الإكليريكي. أمّا أنا فقد رفضت الرضوخ لهذا القانون وبقيت في ثوبي المدني طوال عشرة أيّام وأكثر والعباءة معلّقة في الحائط وراء السرير والزملاء ينظرون إليّ في قاعة الدرس والملعب كما إلى إنسان غريب. وبقيت هكذا حتّى صباح يوم أحد ارتديت فيه الثوب الإكليريكي الأسود وانتظمت في الصف نزولًا إلى قاعة الدرس لتلاوة صلاة الصبح مع الطلبة الإكليريكيين، إذّاك علا التصفيق والجميع ينظرون إليّ ضاحكين وكأنّهم قد ربحوا ما لم يكن بالحسبان، ومن ثمّ ابتدأت أنخرط شيئًا فشيئًا في السلك الإكليريكي ورحت إلى الحلّاق وهو إكليريكي من فئة الكبار يدعى جورج مسابكي ليقصّ شعري وسمعته يقول بصوت لم يسمعه غيري من الزبائن: «حرام جزّ هذا الشعر الجميل ورميه في النفايات... سمعت كلّ ذلك دون أن يصدر عنّي أيّ اعتراض وكأنّني كنت موافقًا على ذلك الكلام.

دخلت المدرسة الإكليريكيّة وفي محفظتي خمس وستّون ليرة لبنانيّة لا غير، إذا ما قسناها بعملة اليوم وجدناها غير كافية لشراء رغيف خبز، أمّا في ذلك الزمن فقد كانت تساوي عشر ليرات عثمانيّة ذهبًا، سألني الأب المدير عمّا لديّ من مال فأخبرته إذّاك أخذ المبلغ بكامله قائلًا: «الستون ليرة أعتبرها نصف القسط المدرسي المتوجّب عليك، هكذا أسجّلها والخمس ليرات الباقية اعتبرها مصروفًا خاصًا بك تستطيع أن تنفقه بحسب حاجاتك، أحتفظ بها لديّ وديعة لك لحين الطلب. هكذا دخلت وهكذا عوملت وانخرطت في السلك وأدخلوني الصفّ الثالث التكميلي معفى من اللغة العربيّة مضطرًّا إلى درس اللغة اللاتينيّة الّتي كنت أجهلها تمامًا، مع العلم أنّ الطلّاب يبدأون درسها في الصفّ الأوّل المتوسّط. فرحت أكدّ وأجدّ في دروسي، متقيّدًا بالنظام المرعي على ما يفرض من انضباط، ويستلزم من تضحيات، رضيت بها، وصولًا إلى ما كنت أهدف إليه، وأبتغيه من تجاوب تام مع إرادة الله عليّ؛ وقد اختارني تلميذًا له في هذه الحياة الدنيا، أدعو باسمه مع ما بي من وهن وضعف.

مفاجأةٌ غيرة سارة

صباح الأحد الواقع من الثامن من حزيران ١٩٤١ وبعد أن حضرنا، نحن معسكر الطلّاب الإكليريكي القدّاس الإلهي في معبد المعهد الأكليريكي وانتقلنا إلى غرفة الطعام، إذ بمدير المعهد الأب شارل سوتيه يفاجئنا بحضوره بعد تلاوة الصلاة، عابس الوجه، مقطب الجبين، بخبر اندلاع الحرب على أرض لبنان بين الجيش الفرنسي القائم على أرضه والتابع لحكومة المارشال بيتان، وبين الجيش الأوسترالي بقيادة الحكومة الإنكليزية المهاجم من جهة فلسطين على ثلاث جبهات في الجنوب اللبناني. وهذا يستدعي إيقاف الدروس وإرسال الطلّاب إلى منازلهم سريعًا. فكان لهذا الخبر وقع مفاجئ علينا جميعًا ولاسيّما على من كانت بيوتهم في الجنوب.

كان علينا نحن إبراهيم وأنا أن نسرع في الذهاب قبل وصول الجيش الغازي إلى جزّين. ولهذا فقد تطوّع أحد الآباء لحجز محلّين لنا في سيارة عمومية تنطلق من بيروت إلى جزّين مرورًا بالقرى الشوفية. وكانت آخر سيارة تنطلق من بيروت إلى جزّين في ذلك النهار

الذي أصبح الجيش الغازي على مشارفها وفيها ومنها ستدوم المعركة بين الجيشين حتى الرابع عشر من تمّوز يوم إعلان الهدنة. وعاشت تلك المنطقة أربعين يومًا تقريبًا في حربٍ ليل نهار سقط فيها أكثر من قتيل بين المواطنين ما عدا القتلى بين الجيشين المتحاربين.

هنا لا بدَّ من أن أذكر أن الأب سوتيه مدير المعهد الإكليريكي الذي سبق ذكره قد تطوّع مرشدًا للجيش الفرنسي القادم ومعظم أفراده من السنغاليين الذين كان المسيحيون منهم يتوقون إلى أن يتزودوا بالقربان المقدّس، وسواهم كانوا يطلبون العماد في ساعات الخطر. وأصيب الأب سوتيه المذكور بشظية في ساقه نتج عنها نزيف قوي قبل نقله إلى المستشفى فاضطر الأطبّاء إلى بتر رجله فوق الركبة. وهكذا أكمل نشاطه على عكازين مثالًا في الصمود والتضحية والعطاء.

ذكريات خاطفة من حياتي المدرسيّة

عندما أرسلني والديّ إلى مدرسة سيّدة مشموشة ولي من العمر إحدى عشرة سنة، وضعتني الإدارة في الصفّ السابع الابتدائي أي قبل صف السرتفيكا مباشرة. وفي الشهر الأوّل من السنة الدراسيّة أحرزت المقام الأوّل في كلّ المسابقات الّتي أُعطيت خلال الشهر. وكانت قراءة العلامات في نهاية الشهر تضفي على الأوّل تهاني الإدارة، بتعليق أوسمة على صدر الطالب توازي ما توصّل إليه من مقامات أولى خلال الشهر في كلّ مسابقة، وإذا بصدري يتّسع لستة أوسمة، حملتها عليه وذهبت مستفيدًا من العطلة إلى وادي جزّين. وبالطبع سرّ أهلي بهذا النجاح أحرزه، وخافوا عليّ من صيبة العين، فنزعوا الأوسمة عن صدري خوفًا عليّ من عين حسد ووضعوها في علبه حملتها إلى الإدارة شاكرًا. وبعد أيّام قليلة، التقى والدي مدير المدرسة الأب باسيل غانم الّذي قال له: «بإمكاني أن أنقل ابنك إلى الصفّ السادس، صف السرتيفيكا، حيث يمكنه أن يكون بين الستّة الأوّلين، ففضّل والدي رحمه الله أن أكون الأوّل وأبقى في الصفّ السابع.

وعندما كنت في كليّة القدّيس يوسف في بيروت في الصفّ الأوّل ثانوي طلب منّا الأستاذ وهو الخوري حنّا قمير أن ينظم كلّ من الطلّاب قصيدة بحسب الموضوع الّذي يختاره فرضخنا للطلب، وراح كلّ يشحذ قريحته ويحاول نظم قصيدة يرتاح إليها. وهكذا

صار، ولمّا اجتمعت تلك القصائد بين يدي الخوري حنّا قمير، أستاذ الصف كانت العلامة الّتي استحقتها قصيدتي سبعة على عشرين أي بمستوى النظم العاطل جدًّا. ولم أعد أجرؤ منذ ذلك على أن أفكّر بنظم بيت من الشعر واستعضت عن النظم بالحفظ.

في الصفوف الثانويّة كما في المتوسّطة والابتدائيّة في كليّة القدّيس يوسف في بيروت، يتابع الطلّاب الإكليريكيّون دروسهم جنبًا إلى جنب مع الطلّاب العلمانيّين. وكان التنافس على المقامات الأولى في المسابقات الأسبوعيّة والامتحانات على أشدّه بين الطلّاب العلمانيّين والطلّاب الإكليريكيّين، وكان التنافس بينهم على أشدّه على المقامات الأولى في المسابقات الأسبوعيّة. وكانت الشهادة المعطاة تتطلّب مصادقة المدير العام الّذي كان الأب أرمان ده جرفانيون آنذاك. وإذ دخلت إلى مكتبه لتصديق الشهادة بتوقيعه عليها، فاجأني قائلًا: «يبدو أنّ الجيش الأسود قد ظفر بالقسم الأكبر هذا الأسبوع من الشهادات الأولى»، ولم أكن أدري إن كان يقول ذلك عل مضض أم عن ارتياح. وما كان لي دومًا السلام المنشود، وإذ كنت المسؤول الثاني في الجماعة الّتي أنتمي إليها، لاحظت في صفّ الفلسفة الذي كان يجمع ثمانية وخمسين طالبًا تحاملًا من أحد التلامذة العلمانيّين، المدعو بيار قماطي وهو بيروتي المولد والنشأة على الطالب الإكليريكي المدعو جان جلخ، وإزعاجًا لم يقف عند حدّ بالرغم من طلب الكفّ عن ذاك الإزعاج المقصود، الّذي كان يلاحقه به، لكونه جارًا له في الصف. أحببت بعد نفاد صبري أن أستعمل معه دواءً آخر وهو أنّني وجّهت إليه صفعتين على خدّيه بينما كان نازلًا أمامي على الدرج بعد الصف، وقفلت راجعًا صعودًا، أنتظر استدعاء مدير المدرسة أو مدير المعهد الإكليريكي، ولكنّي لم أنل لومًا من أحد، وكأنّ شيئًا يستوجب اللوم لم يكن، وقد كنت مستعدًّا للدفاع عن موقفي ذاك أمام السلطة إذا استدعتني إليها، ويبدو أنّ صاحبنا لم يشك إليها أمره.

حياتي في المعهد الإكليريكي

قضيت في المعهد الإكليريكي الشرقي المذكور إحدى عشرة سنة، خمسًا منها في الصفوف التكميليّة والثانويّة وستًّا في الفلسفة واللاهوت باللّغة اللاتينيّة أنهيتها متوّجة بشهادة الإجازة في الفلسفة واللاهوت. وكنت والحمد لله خاضعًا للنظام المعمول به،

بلا تذمّر، واضعًا أمام عيني الكهنوت الّذي كنت أتوق إليه وأستعدّ له بكلّ جوارحي، روحيًّا وعلميًّا. وكانت علاقتي بالإدارة حسنة، محافظًا على النظام المرعي في المدرسة الإكليريكيّة، محترمًا للزملاء الرفاق. وكنّا نتقاسم معًا العيش بتفاهم وانضباط، بعيدًا عن كلّ تشويش؛ كما يحدث عادة في المجتمعات الطلّابيّة المغلقة. أمّا العطلة الصيفيّة فقد كنت أقضيها في البيت الوالدي في وادي جزّين وأعمل مع زميلي في المدرسة ونسيبي الطالب إبراهيم الحلو على تأمين التعليم المسيحي لأولاد الرعيّة «وادي جزّين» كما كنّا نهتمّ بالكبار منهم ونرعاهم ونهيّئ معهم وبواسطتهم رواية تمثيليّة باللغة العربية يقومون بها بمناسبة عيد السيّدة العذراء في ١٥ آب يخصّص ريعها لوقف السيّدة. وبالتالي يكون ذلك المدخول الّذي نجنيه من ذلك الاحتفال تحسينًا للوقف المذكور.

على سبيل المثال، في إحدى العطلات الصيفيّة جمعنا من ريع الرواية التمثيليّة ومن مدخول يانصيب خيري ما سمح لنا بمدّ سطح الكنيسة بالباطون المسلّح دون الاستعانة بصندوق الوقف. وأظنّ وكما يقول العارفون أنّ مدّ السطح بالباطون المسلّح قد حمى الكنيسة من الانهيار يوم ضرب الزلزال سنة ١٩٥٦ المنطقة وخرّب الكثير من بيوتها ومعابدها. كما وإننا في عطلةٍ صيفيّة أخرى ودرجًا على ما تعوّدناه وعوّدنا عليّه شبيبة الرعيّة فقد جمعنا مبلغًا بالطريقة نفسها واشترينا به بلاطًا من الموزاييك لتبليط أرض الكنيسة الّتي كانت منذ بنائها من العدسة المعروفة منذ القديم.

مدرسةٌ صيفية للّاجئين الفلسطينيين إلى جزّين صيف ١٩٤٨

أمّا العمل الآخر الّذي قمنا به خارج الرعيّة تلقائيًّا ودون الاستعانة بأحد لا من الداخل ولا من الخارج، فهو في صيف ١٩٤٨ عندما حلّ في جزّين عدد لا يستهان به من أهالي فلسطين المهجّرين إثر حربهم ضدّ اليهود المستوطنين. في ذلك الصيف عرضنا، الشمّاس إبراهيم وأنا، على الخوري مارون مطر مشروعًا خاصًّا بنا، وهو أن نفتح مدرسة صيفيّة في جزّين لأولئك الأولاد الّذين تهجّروا من وطنهم وتركوا مدارسهم في شهر أيّار، مدرسة مجّانيّة بكلّ معنى الكلمة. ولمّا تمّ الاتّفاق في ما بيننا نحن الثلاثة قصدنا مدرسة راهبات القلبين الأقدسين في جزّين وعرضنا الفكرة على الراهبات فاستحسنّها وشجّعننا

عليها. وللحال فتحنا المدرسة بجميع صفوفها، وبدأنا نجمع التلاميذ قبل الظهر ونعطيهم بالمجان دروسًا في اللغتين العربيّة والفرنسيّة وفي أصول الحساب. وإذ زاد العدد على المائة طالب بعد أن رحنا نستقبل، إضافة إلى الفلسطينيّين، طلّابًا من جزّين، جاءنا من هذه المدينة شبّان أحبّوا أن يساعدونا في ما نقوم به. ولمّا كان هذا المشروع العفوي ناجحًا ما كان النّاس ليصدّقوا بأنّه مجّاني مائة بالمائة، بل راحوا يظنّون أنّ في الأفق مساعدات ستأتينا من السفارة الفرنسيّة أو البعثة البابويّة، وذاك هو عين الخطأ، وكأنّ الخدمات بالمجان لم يعد لها وجود في قاموس النّاس ولا يمكنهم أنّ يتصوّروا وجود أناس أو شبّان يضحّون، هكذا خدمةً لإخوان لهم في البشريّة. ولكن ما لا يؤمن به النّاس العاديّون يبقى حاضرًا ومقبولًا أمام الله عزّ وجلّ وذاك هو الأهمّ.

في اليوم الّذي تقرّر إغلاق المدرسة وهو السابع والعشرون من آب ١٩٤٨ أي بعد شهر ونصف من التعليم اليومي، التقينا، الخوري مارون والشماس إبراهيم وأنا، كالمعتاد في كنيسة السيّدة العذراء بوادي جزّين، وقبل أن ننطلق في رسالتنا المذكورة وصلت سيّارة إلى دار الكنيسة صباحًا تقلّ المونسنيور الياس الزيناتي، نائب عام المطران أغوسطين البستاني راعي الأبرشيّة، في زيارة إلى الرعيّة ومعه شاب يدعى جان أبو جودة يرافقه من بيت الدّين. بعد السلام والاحترام والترحيب بالضيف الكبير، قال لي رفيقاي إنّ وصول المونسنيور إلى الرعيّة قيامًا بالزيارة الرعائيّة نيابة عن المطران، يوجب عليك البقاء معه ودعوته إلى البيت لأنّ والدي، رحمه الله، كان وكيلًا للوقف. وهكذا لم أصعد معهما إلى جزّين ولزمت الضيف الكبير، وبعد أن احتفل بالقدّاس الإلهي، ذهبت بصحبته إلى البيت حيث استراح قليلًا ثم قام بزيارة كاهن الرعيّة.

عند الظهر عاد رفيقاي من جزّين بعد أن تعرّضا لحادث مؤسف، إذ بعد أن أعلنا عن إغلاق المدرسة الصيفيّة الّتي افتتحناها طوال شهر ونصف وقفلا عائدين إلى البيت في وادي جزّين سيرًا على الأقدام، وبينما هما سائران على الطريق نزولًا من محلّة المعبور، إذا بمجموعة من الأولاد الّذين ساءهم إغلاق المدرسة يرشقونهما من فوق بالحجارة وقد نجيا منها بأعجوبة. وكأنّ عمل الخير المجّاني يكافأ بهذا الشكل من الّذين استفادوا منه... ولمّا وصلا إلى البيت أخبراني بما جرى لهما من أيادي من حاولنا أن نساعدهم في تخفيف

الضّيق عنهم. وتبادلنا نحن الثلاثة التهاني لأنّ خير الأعمال هي تلك الّتي يبقى أجرها مرعيًّا لدى الله وليس لدى النّاس... ورحنا نردّد قول الشاعر:

إِصنع جميلًا ولو في غير موضعه   فلن يضيع جميل أينما زرعا

ومع تقادم الأزمان وتقدّمنا في السنّ وخبرة الحياة نرى أنّ سياسة الإنسان في كلّ زمان ومكان تتشابه وهي هي... وحالنا حال... الزارع الذي يلقي البذور وقلبه طافح بالإيمان والرجاء آملا بالحصاد الوفير.

إن السنوات الّتي قضيتها طالبًا إكليريكيًّا في مراحل الدراسة الثانويّة والفلسفيّة واللاهوتيّة أكسبتني حبًّا لدعوتي الكهنوتيّة والتزامًا بها على الصعيد الأبرشي والكنسي العام، كما جعلتني قابلًا لكلّ تضحية مهما غلت، رفعًا لشأن أبرشيّتي وكنيستي، متفهّمًا للرسالة الّتي يجب أن أقوم في محيطها، حيث يعيش المسيحي المنتمي إلى مختلف الطوائف المسيحيّة والمسلم السنّي والشيعي والدرزي، وحتّى اليهودي الّذي كان لا يزال له وجود في مدينة صيدا.

الفصل الثاني

درب الكهنوت

إعتادت إدارة المعهد الإكليريكي الشرقي التابع للآباء اليسوعيين حيث درستُ الفلسفة واللاهوت على مدى ست سنوات (إثنتان للفلسفة وأربع سنوات للاهوت) أن تقدّم الطلّاب في نهاية السنة السادسة إلى قبول درجة الكهنوت المقدّس. ولما جاء دورنا وكنا ثلاثة إكليريكيين من أبرشية صيدا: إميل عيد وبطرس حرفوش والداعي يوحنّا الحلو، فضلًا عن الراهبين الأخ غسطين حرفوش والأخ نعمة الله الحلو (نسيبي)، كان من الضروري، استعدادًا لقبول هذا السرّ المقدّس، القيام برياضةٍ روحية تحت رعاية وإدارة الأب شارل سوتيه Charles Sautier الذي كان قد ترك بيروت والتحق بإكليريكية غزير مرشدًا. وكانت الرياضة الروحية في دير تعنايل للآباء اليسوعيين على مدى ثمانية أيام. ولما أنهيناها نزلنا إلى بيروت إلى المعهد تحضيرًا للسيامة الكهنوتية يوم الأحد ٦ أيار في كنيسة مار يوسف للآباء اليسوعيين في قدّاسٍ احتفل به سيادة المطران أنطونيوس خريش، الأسقف المعاون لمطران صيدا أغوسطين البستاني الذي لم يستطع الحضور، لأسباب صحّية، لرسامة ثمانية كهنة جدد: خمسة من الأبرشية بينهم راهبان وثلاثة من أبرشيات أخرى. وعاون المطران المحتفل حضرة الخوري يوسف الخوري، المطران فيما بعد.

عدد الحاضرين كان ضخمًا... تقبّلنا التهاني بعد القدّاس الإلهي من الجميع وقد حضرت السيامةَ بلدتي وادي جزّين بأكملها، ومنها ولها بين الكهنة وجود كاهنان...

في اليوم التالي، احتفلت بقدّاسي الأوّل في كنيسة المعهد الإكليريكي المذكور وكان من بين الحاضرين والداي، رحمهما الله، ومعهما ميشال ابن شقيقتي أنيسة.

أخذت أستعد للصعود إلى البلدة الحبيبة وادي جزّين للاحتفال بقدّاسي الأوّل فيها. وكان ذلك في الرابع والعشرين من شهر حزيران ١٩٥١، فاستقبلني أبناء الرعية في أعلى البلدة وسرنا إلى الكنيسة وفي مقدّمهم كاهن الرعية، فاحتفلت بالقدّاس في كنيسة السيّدة بحضور رهبان وكهنة من البلدة. بعدها، انتقلنا معًا باحتفال إلى البيت الوالدي في جوٍّ من الفرح تخلّلته الأهازيج والزغاريد، من دون أن يخلو ذاك الجوّ من طلقات نارية تعبيرًا من قبل بعض الشبّان عن فرحتهم بالكاهن الجديد. وكان غداءٌ ضمَّ قسمًا كبيرًا من الأهالي، وفي

مقدّمهم خالاي الأبوان فرنسيس ومخائيل الحلو. كان الفرح العاطفي الحقيقي عارمًا بين الأهل والأصحاب، لاسيّما لدى والديَّ الذي اختنقا بدموع التأثّر وقد دعا الله من العائلة واحدًا من أولادهم لخدمته تعالى.

بداية الحياة الكهنوتيّة

بعد شهرٍ من وصولي إلى البيت الوالدي في وادي جزّين، استلمت رسالة من أمين سرّ المطرانيّة المارونيّة في بيت الدّين حضرة الخوري يوسف البستاني، يدعوني فيها، باسم سيادة المطران أغوسطين البستاني راعي الأبرشيّة آنذاك، إلى الالتحاق بالكرسي الأسقفي في بيت الدّين، فلبّيت الطلب للحال دون تردّد، عملًا بما تعلّمناه. ولدى وصولي، تبلّغت نبأ تعييني أمين سرّ سيادة المطران بستاني، الذي أحاطني برعاية خاصّة على أنّي لم أكن أتوقّع مثل تلك الوظيفة ولا أتوق إليها. كما طلبت مني اللجنة الرسوليّة البطريركيّة أن أعلّم الفلسفة في مدرسة عين ورقة البطريركيّة، الّتي دأبت اللجنة في تنشيطها بإرسال ثلاثة ممّن تخرّجوا كهنة تلك السنة من المعهد الإكليريكي الشرقي، وهم: الخوري إميل عيد، والخوري بطرس حرفوش، والخوري يوحنّا الحلو. وكانت الأوامر الصادرة عن اللجنة المذكورة الّتي كان يرأسها المطران بولس المعوشي، شديدة اللهجة غير قابلة للرفض ولا للتسويف. واتّخذوا تنفيذًا لأوامرهم أسلوب المصادرة. سمحت المطرانيّة للأبوين حرفوش وعيد بالالتحاق في المدرسة الإكليركية المذكورة، وأبت السماح بمصادرتي حتّى جرت مراسلة بشأني مع المجمع الشرقي في روما، الّذي نزل عند رغبة المطران بستاني، فاستبقاني لديه بصفة أمين سرّ على مدى سنة كاملة، لم أكن خلالها مرتاحًا إلى أي نشاط كهنوتي أو رسولي أقوم به. فضقت ذرعًا بوضعي ذاك وألححت بالخروج والالتحاق بإكليريكيّة مار مارون في غزير، الّتي كان يديرها الآباء اليسوعيّون، الّذين تدخّلوا لدى المطرن بستاني فسمح لي بالعمل فيها لمدّة سنة مدرسيّة فقط، انتهت في حزيران ١٩٥٣، عدت بعدها إلى المطرانيّة في بيت الدّين قيامًا بما كنت فيه سابقًا قبل انتقالي إلى غزير. ولقد كانت إقامتي في إكليريكيّة غزير ناظرًا لفئة الصغار وأستاذًا للغة العربيّة في الصفّ الثالث المتوسّط، وكان بين تلامذتي إثنان أصبحا فيما بعد مطرانين هما: المطرن يوسف بشارة والمطران سمير مظلوم، على كل حال، أظنّ أنّ عملي في غزير كان مفيدًا على الصعيدين الشخصي والتربوي، لكنّ الرياح

لا تجري دومًا وفق ما يريد ربّان السفينة، لذلك يبقى عليه أن يتقبّل العاصفة إذا اشتدّت وعتت ويتدبّر أموره بحكمة ورباطة جأش ويترك الأمور للعناية الإلهية.

عودةٌ إلى المطرانية

عدت إلى الكرسي الأسقفي في بيت الدّين وفي الأفق مشكلة جديدة يعمل المطران على حلّها، وهي مشكلة كاهن جديد لخدمة رعيّة صيدا بعد افتتاح الكاتدرائيّة في شارع رياض الصلح، يوم عيد مار مارون في ٩ شباط ١٩٥٣. والموضوع هو أنّ خلافًا نشب بين المطران راعي الأبرشيّة منذ السنة ١٩٤٥ وقسم من أبناء تلك الرعيّة. صحيحٌ أنّ الخوري لويس عطيّة أخذ الخدمة في الرعيّة عن والده المرحوم الخوري يوسف الّذي كان أخذها بدوره عن والده، وأنّ تلك السلسلة الخيّرة من كهنة آل عطيّة الكرام طيّب الله مثواهم وأراحهم في ملكوته السماوي، أدّت للرعيّة خدمات جلّى، وهذا أمر يجب الاعتراف به، إنّما طالبت فئة من أبناء الرعيّة بكاهنٍ جديد يساعد الخوري لويس بعد افتتاح الكاتدرائية. غير أن هذا الطلب الّذي جاهرت به مجموعة منذ السنة ١٩٤٥ لم يلقَ تجاوبًا لدى المطران بستاني راعي الأبرشيّة وواجهته فئة أخرى في الرعيّة بالرفض القاطع، والمقاطعة التامّة لكلّ كاهنٍ جديد يأتي لمعاونة الخوري لويس عطيّة. وانقسمت تاليًا الرعيّة قسمَين متناحرين على مرأى ومسمع من القريب والغريب حتّى على مسمع المطران.

أثناء وجودي صيف ١٩٥٣ في الكرسي الأسقفي في بيت الدّين طلب منّي المطران خريش معاون المطران بستاني بإلحاح أن أختار بين أمرَين: تسلّم إدارة الأوقاف التابعة للمطرانيّة أو القبول بخدمة رعيّة صيدا، إذّاك آثرت العمل في صيدا في الرعيّة على ما فيها من مشاكل على التعاطي بأمور الأوقاف. وإذ لم يكن للمطرانيّة مكان في صيدا لاستضافة الكاهن الجديد المزمع تعيينه فيها، جرى اتّصال بإدارة مدرسة الإخوة المريميّين الّتي كانت قائمة في صيدا، حيّ البوّابة الفوقا، لكيّ تؤمّن لي إقامة موقّتة ريثما يصير بناء للمطرانيّة إلى جانب الكاتدرائيّة. وتمّ الاتّفاق بيني وبين رئيس مدرسة الإخوة المريميّين في صيدا المدعو الأخ أوجانيان على أن تؤمّن لي المدرسة المأكل والمشرب والمسكن، وأدرّس فيها اللغة العربيّة من الصفّ الخامس حتّى الرابع المتوسّط، مع الأدب العربي في الصفّ

الأوّل الثانوي، على أن تدفع لي المدرسة شهريًّا تسعين ليرة لبنانيّة مدى السنة، إثني عشر شهرًا. وبقيت أتنقّل في الخدمة بين المدرسة والرعيّة، حتّى قام بناءٌ للمطرانيّة إلى جانب الكاتدرائيّة، تسلّمت مفاتيحه من سيادة المطران خريش في أوائل السنة ١٩٥٧، خصّني فيه بمكتب وغرفة نوم في الطبقة السفلى لهما مدخل خاص من الجهة الشرقيّة الشماليّة، يسهل الدخول منه على أبناء الرعيّة للاتّصال بي بسهولة.

حياتي الكهنوتيّة في رعيّة صيدا

في ٢٣ تشرين الأوّل ١٩٥٣ صدر مرسوم تعييني خادمًا مفوّضًا بكلّ الصلاحيّات في رعيّة صيدا، الّتي تضمّ كنيستين مفتوحتين للخدمة، ما عدا الكنيسة القديمة في مدينة صيدا القديمة والمزار على اسم مار الياس على الجبل القائم شرقي المدينة. ووقّع المرسوم المطران البستاني ومعاونه المطران خريش، تدليلًا على أنّهما متّفقان على القرار، وبالتالي لا مجال للطعن به بأيّ شكل من الأشكال. ويقضي المرسوم المذكور بتقديم ثلاثة أرباع الصواني الّتي تجمع من حسنات المؤمنين في القداديس إلى الخوري لويس عطيّة والربع الباقي، إضافة إلى النذور، تبقى لخدمة الكنيسة من شمع وبخور وتنظيفات وشراء ما يلزمها من أواني المذابح وبدلات التقديس.

إستلم كلّ منّا عطيّة وأنا نسخة من مرسوم التعيين، وما إن عرف به مؤيّدو الخوري لويس حتّى راحوا يدعون إلى اجتماعات لإبطال مرسوم التعيين والتدخّل المباشر لدى المطران بستاني بقصد الرجوع عنه، فذهبت مداخلاتهم سدىً. وقد قال بعضهم بالعمل تهديدًا ووعيدًا على منعي من إقامة القدّاس في الكنيسة في الساعة المعيّنة يوم الأحد، غير أنّ ذلك بقي كلامًا ينتقل على ألسنة النّاس إليّ دون أن ينفّذ منه حرف. وكان لبعض النساء دور لا يستهان به في إشعال النّار وبثّ روح التفرقة في صفوف أبناء الرعيّة. وهنا أتوقّف على لقاءين أنقل ما جرى فيهما معي تنويرًا للأذهان عن تصرّف قسم من أبناء الرعيّة تجاهي:

في الأحد الأوّل من إقامتي القدّاس في الكاتدرائيّة وبعد الانتهاء منه وبينما كنت أخلع ثياب التقديس وراء المذبح، جاءني شاب يقول: «أربعة شبّان على باب الكنيسة

الكبير يريدون التحدّث إليك.» خرجت إليهم وحتّى اليوم وبعد مرور ثلاثة وخمسين سنة لا أزال أذكر أسماءهم: يوسف عبّود وجورج وزير وميشال رومانوس وجورج عبّود. وأولى الكلمات الّتي واجهوني بها هي: «إنّنا في هذه المدينة لا نريد كاهنًا سوى الخوري لويس عطيّة، وإن لم يكن لنا شيء ضدّك، نرجوك عدم قبول هذا التعيين الّذي صدر عن المطران وتاليًا تقديم استقالتك.» وكان جوابي بالطبع إنّي لن أرفض هذا التعيين ولن أقدّم استقالتي، و»إن كنتم غير راضين عمّا صدر عن المطران فلكم وحدكم أن تطلبوا منه التراجع عمّا فعل. وأمّا رضوخي أمام طلبكم أو أمام طلبات البعض من أبناء الرعيّة فهذا شيء أرفضه كلّيًّا ولن يزيدني إلّا تمسّكًا بقرار المطران.»

بعد أخذٍ وردّ لم يدم أكثر من عشر دقائق دعوني إلى تناول طعام الغداء إلى مائدة أحدهم يوسف عبّود. فاعتذرت عن قبول دعوتهم لكوني مرتبطًا بدعوة أخرى في الوقت عينه، فطلبوا الاجتماع في بيت يوسف المذكور، فلبّيت الدعوة. وجاء إثنان منهم في الوقت المعيّن وأقلاني في سيّارة جيب خاصّة بالدكتور بازيل عبّود إلى بيت صاحب الدعوة، حيث تناولت أحاديثنا الكثير من أمور الرعيّة وعلاقتهم بالمطران والأسباب الّتي تدعوهم إلى التمسّك بالخوري لويس عطيّة كخادم لنفوسهم دون أن يوفّروا من انتقاداتهم الفئة الأخرى من أبناء الرعيّة الّذين يناوئونهم في السيطرة على الرعيّة وخادمها، وهي سياسة، وإن تكن ممقوتة، فهي مرعيّة لسوء الحظ في مجتمعنا اللبناني حيث الإنسان قلّ ما يضحّي بما يظنّه مصلحة له شخصيّة في سبيل المصلحة العامّة، ولهذا يظلّ اللبنانيون متقاتلين متنافرين لا يجتمعون على رأي موحّد ولا يقوم لهم وبينهم من تتوحّد عليه كلمتهم.

أمّا اللقاء الثاني وهو يعبّر كثيرًا عن صدقيّة هذا الشعب وصراحته، فقد جرى بيني وبين أحد أبناء عائلة مارونيّة عريقة في مدينة صيدا والجنوب وسواها من مدن لبنان كبيروت وزحلة. إتّصل بي هاتفيًّا خلال إقامتي في مدرسة الإخوة المريميّين مساء أحد الأيّام، وطلب مقابلتي، طالبًا الدخول إلى المدرسة من باب جانبي يُطل على أسواق المدينة الداخليّة بدلًا من الباب الرسمي الّذي يطلّ على الشارع العام، كي لا يراه مؤيّدوه الداعم لسياستهم وتصرّفاتهم، وتحاشيًا لانتقاداتهم له، ولومه على هذه الزيارة غير المقبولة. وتنفيذًا لطلبه فُتح له الباب الجانبي ودخل منه لوحده. واجتمع إليّ مؤيّدًا مواقفي السليمة الجامعة لشتات الرعيّة، وهنّأني على ما أقوم به معتذرًا منّي عن كلّ ما يصدر عنه من مواقف ضدّي، طالبًا

إليّ عدم التوقّف عندها، وهي لا بدّ وأن تستمرّ ضدّي لأنّه لا يريد أن يخسر الفئة الأخرى التي يساندها، إنّما عليّ أن أتابع ما أقوم به لأنّه عين الصواب ويجب متابعته بجرأة وشجاعة لأنّ فيه خير الرعيّة، ومصلحة أبنائها...

موقفان إثنان أنقلهما بكلّ دقّة وأمانة ليتبيّن للقارئ، اليوم، ولو بعد نصف جيل من الزمن العقليّة السائدة آنذاك، والّتي خبرتها بنفسي ولم تتغيّر حتّى اليوم في مجتمعنا المسيحي واللبناني. فكم من إنسان يبدو مؤيّدًا لك، في الظاهر، وفي الحقيقة، يعمل ضدّك والعكس قد يكون أيضًا صحيحًا. وعلى من أراد أن يتّعظ فليتّعظ. ومن أراد أن يتعلّم فله أيضًا أن يتعلّم.

كلمةٌ كادت أن توقع فتنة

جاء في كتاب المدعو جورج شكر الموظّف على ما أظنّ في دوائر الأمن العام في صيدا سنة ١٩٥٥ كلمة عن الرسول محمّد اعتبرها المسلمون في صيدا إهانة كبرى بحقّ نبيّهم فهاجوا وماجوا، وأضربت المدينة بكلّ من فيها وما فيها من مدارس. وراحت فئةٌ تجوب الشوارع وتدعو إلى الإضراب من دون أن يخلو الأمر من بعض الاستفزاز الكلامي، لكن من غير التعرّض للكنائس والممتلكات المسيحيّة أو للموظّفين المسيحيّين. وكأنّ تلك التظاهرات كانت بمثابة تنفيس عمّا في الصدور من غضب. وعلى سبيل المثال، وبينما كنت أحتفل بالقدّاس الإلهي الساعة السابعة من صباح الأحد والمؤمنون القلائل في الكنيسة يستمعون إلى قراءة الإنجيل، ووجهي متّجه إليهم وإلى الباب الخارجي الكبير المفتوح على مصراعيه، إذا بشاحنة صغيرة تحمل بضعة أشخاص تتوقّف في الشارع أمام البوّابة الكبيرة، وأخذ من فيها يهتفون دون أن ينزلوا من السيّارة، فإذا بسيّدة صيداويّة معروفة في المحيط الصيداوي، تخرج من الكنيسة إليهم وتطردهم من أمام بابها، ثمّ تعود إليها لتتابع سماع القدّاس. وفي ما جرى دليل على أنّ وراء الجمهور من يدفع إلى الإضراب والتظاهر، أمّا الشعب فقطيع يُساق إلى حيث يريد الزعيم، وهذا ما ذكّرني بكلمة كان يردّدها على مسامعنا أستاذ التاريخ في جامعة الآباء اليسوعيّين: «حذار حذار الرأي العام، إنّه لقطيع مغفّل ينقلب بين ليلةٍ وضحاها عليك أو معك بحسب ما يتلقّى من التعليمات أو

التوجيهات المغرضة التي يفوته فهم حقيقتها...» وهرب الموظف المذكور من لبنان بتدبيرٍ حكومي رعاه الرئيس كميل شمعون.

أفقٌ جديد ينفتح أمامي

بينما كنت مهتمًّا بشؤون التدريس في مدرسة القديس لويس للإخوة المريميّين، أخصّ بقسم من نهاري ووقتي الرعيّة والتعليم المسيحي في بعض مدارس رسميّة في صيدا، اتّصل بي الأب سامي خوري مدير المطبعة الكاثوليكيّة للآباء اليسوعيّين في بيروت وطلب منّي العمل على نقل اعترافات القدّيس أغوسطينوس إلى العربية، ووضعها تحت تصرّف القرّاء في سلسلة جديدة يسمّيها «التراث الروحي» وهو مشروع اتّفق على تحقيقه مع مجموعة من الأدباء والمفكّرين المسيحيّين. تردّدت بقبول ما طرحه عليّ لأنّ وقتي ضيق، ولكن بعد الإلحاح قبلت. وأخذت بنقله، عن اللغة اللاتينيّة، فأعجبت بمضمونه وهذا ما كان يدفعني إلى الترجمة بجديّة وإيجاد الوقت ليل نهار إلى أن أتممت الترجمة ونقّحتها وبعثت بها إلى الأب سامي في المطبعة فقبلها وأرسل إليّ اتّفاقيّة تقضي بأن تأخذ المطبعة على عاتقها نفقات الطباعة على أن يكون لي الحقّ بمائة نسخة من الطبعة الأولى وعشرة بالمئة من ثمن المبيعات الإجمالي كلّ سنة يحوّل إليّ في الشهر الثاني أو الثالث من السنة التاليّة. ودرجت مع المطبعة الكاثوليكيّة وإدارة دار المشرق على هذا المنوال. وقد لقي هذا الكتاب تأييدًا وإقبالًا على قراءته وتهاني للمترجم من قبل الكثيرين، وفي مقدّمهم غبطة البطريرك بولس المعوشي المالك سعيدًا آنذاك، كما أرسل إليّ بتشجيعٍ خاص الأخطل الصغير الأستاذ الشاعر الكبير بشاره الخوري الّذي كان يقيم في رعيّة مار يوحنّا سدّ البوشريّة. فكانت تلك التهاني الموجّهة بمثابة وسام رفيع دفعني إلى متابعة الترجمة لكتب أغوسطينوس أضخمها كتاب «مدينة الله»، في ثلاثة مجلّدات «les Soliloquos»، وما كان ذاك العمل الأدبي والروحي إلّا ليغني المكتبة العربيّة الروحيّة واللاهوتيّة بشهادة الكثيرين وإقبال القرّاء عليها ويشهد على صحّة ما أقول أنّ كتاب «الاعترافات» أصبح في الطبعة الثامنة حتى الآن.

ولمّا كان لهذا العمل الأدبي والروحي تأييد معنوي وتشجيع من قبل القارئين فقد تجاوبت مع تلك الرغبة الّتي لمستها من قبلهم وانطلقت في هذا المضمار أترجم إلى العربيّة

وأكتب مقالات على صفحات جريدة النهار الّتي كانت تفسح لي مجالًا في المناسبات الّتي أجدها مؤهّلة لذلك حتّى أصبح من السهل عليّ أن ألج عالم الصحافة دون أن يعوقني ذلك عن أيّ عمل ديني أو رسولي تفرضه عليّ خدمتي الرعويّة. ولقد بلغ عدد المقالات المجموعة في كتابٍ سمّيته «كلمات كان لا بدّ منها» مائة وسبعين ولديّ مجموعة أخرى فاق عددها المائة نشرتها في كتاب آخر تحت عنوان «نقاط على الحروف» تجاوبًا مع رغبة الكثيرين.

زلزال سنة ١٩٥٦ والخراب الّذي نتج عنه في الأبرشيّة

ليل السادس عشر من آذار ١٩٥٦ ضرب الأبرشيّة زلزالٌ قوي عند الساعة التاسعة ليلًا، وكان مركزه في منطقة بسري حسب ما قيل، فهدم كنائس عدّة وقضى على قرى بأكملها حتّى بلغ عدد الكنائس الّتي هدمت كلّيًا أو تضرّرت جزئيًّا ستًّا وأربعين كنيسة، كما وقعت ضحايا بشريّة بريئة يؤسف عليها جدًّا. وتنادى الجميع في الداخل والخارج إلى مداواة الجراح وإعادة بناء ما تهدّم وأنشئت إدارة في الحكومة سمّيت مصلحة التعمير، تسلّمها المرحوم إميل البستاني، وراح يعمل ضمن أسلوب مدروس من أجل إعادة تعمير القرى واتّخذ خطّة لذلك تقضي بتقديم المواد اللازمة من بحص ورمل وحديد وترابة دفعًا للناس إلى العمل. وكثرت ورش العمل في البلاد كما كان من قبل الوزارة أن راحت تبني في بعض القرى المنكوبة مجموعة من البيوت وفق تصاميم معيّنة تضعها تحت تصرّف من هدمت بيوتهم عرفت حتّى الآن باسم بيوت التعمير؛ وهي لا تزال تؤلّف في بعض القرى مجموعة متميّزة عن سواها من بيوت الضيعة يسكنها أناس إمّا بوضع اليد وإما بموجب صكّ ملكيّة حصلوا عليه لقاء مبلغ معيّن فتسجّل بإسمهم. وحصلت في الأبرشيّة ورشة إعمار عمّت سائر مناطقها من البقاع إلى الجنوب فقضاء جزّين وصيدا وصور إلى الشوف حتّى أعيد بناء الكنائس المهدومة على شكل هندسي جديد، استدعى أموالًا طائلة، كان لراعي الأبرشيّة ومعاونيه آنذاك اليد الطولى في جمع المعونات من الخارج والداخل حتّى أصبح لدى الأبرشيّة أربع وستّون كنيسة جديدة بكلّ معنى الكلمة، أو مرمّمة ترميمًا لائقًا، وراح يتندّر المسؤول الأوّل راعي الأبرشيّة المطران أنطونيوس خريش يقول: «الست والأربعون كنيسة أصبحت أربعًا وستّين، وذاك بفضل ربّي والمحسنين في الداخل والخارج

وغيرة المؤمنين واندفاعهم إلى العمل في الأبرشيّة ورعاياها.» وتقديرًا لما كان قد أنجز على هذا الصعيد، دعا المطران أنطونيوس خريش سيادة السفير البابوي في لبنان ألفردو برونييرا إلى الأبرشيّة وأطلعه خلال زيارة دامت ثلاثة أيّام على الكنائس الجديدة والمرمّمة فيها، خرج منها مشيدًا بدماثة أخلاق أبناء الأبرشيّة الّذين كانوا يستقبلونه بطريقة قلّما وجد لها مثيلًا في سواها من الأبرشيّات الّتي قام بزيارتها. صحيحٌ أن الزلزال أوقع خرابًا في المنازل والمعابد كما أوقع خسائر بشريّة لا تعوّض غير أنّ العمار الّذي قام به السكّان قد غيّر إلى حدّ ما وجه الضيعة الأصيل حيث كانت البيوت مبنيّة بحجر فأصبح القسم الأكبر ممّا تجدّد فيها مبنيًّا بحجر الباطون ما عدا الكنائس التي حافظ فيها المشرفون على بنائها على الحجر الصلب المقلوع من الأرض اللبنانيّة. كما كان لكلّ كنيسة يعاد بناؤها مهندس يضع خرائطها ويشرف على تنفيذها من قبل المطرانيّة.

وفاة المرحوم والدي

في الثامن عشر من تشرين الثاني ١٩٥٦ توفي المرحوم والدي عن ٦٨ سنة إثر مرضٍ في القلب ألزمه الانقطاع عن العمل والفراش طوال ستة أشهر عن عمر قضاه في خدمة العائلة التي ربّاها إلى جانب الوالدة الحنون بالتعب وعرق الجبين عائشًا أمامها بخوف الله والتقوى الراسخة حيث كان لكلّ فرد منها المثال الحي في الإيمان والعمل الصادق أخذن عنه حب الصلاة ونشر السلام بين الجميع واحترام الكل.

جرى له مأتم حاشد شارك فيه أساقفة ورؤساء عامون وكهنة عديدون قدّموا للعائلة التعازي بحضورهم وصلواتهم عن روح الوالد الذي فارق الحياة متسلّحًا بسبحة العذراء التي ما تخلّى عن تلاوتها يومًا من حياته وكانت على ما أعتقد رفيقًا له من دار الشقاء إلى دار البقاء.

وفاة المطران أغوسطين البستاني

أواخر شهر أيلول عام ١٩٥٧ وفي ذاك العام الحافل بالمآسي الّتي خلّفها الزلزال في الأبرشيّة، بدأت صحّة المطران أغوسطين البستاني الّذي انتخب مطرانًا على الأبرشيّة سنة ١٩١٩ خلفًا للمطران بولس بصبوص تتدهوّر وأصيب ذات ليلة بنزيف قوي في معدته أدخل

على أثره ليلًا إلى المستشفى اللبناني المعروف بمستشفى الجعيتاوي في بيروت، وراحت أحواله الصحية تتدهور شيئًا فشيئًا، ويومًا بعد يوم. وكنت أقوم بزيارته في المستشفى ببيروت متنقّلًا من صيدا حسبما تسمح لي بذلك أعمالي المدرسيّة لأقضي إلى جانبه في الغرفة بضع دقائق يبدو، كما علمت لاحقًا، أنّه كان يرتاح إليّ فيها ويطمئنّ. وبعدما انقطعت عن زيارته عشرة أيّام متلاحقة لكوني أصبت فيها بنوع من الكريب سميّ آنذاك «الضنك»، زرت سيادته في المستشفى فعاتبني قائلًا: «لقد تأخّرت عن زيارتي لماذا؟» وإذ لم يكن عارفًا بما أصبت به أخبرته معتذرًا، إذّاك قال بصوت منخفض «الحمد لله على السلامة.»

بقي المطران في انحطاطٍ مستمرّ بقواه الجسديّة دون أن يغيب عن الوعي حتّى الثامن والعشرين من تشرين الأوّل ١٩٥٧ حيث أسلم الروح إلى خالقها بعد عمرٍ بلغ الحادية والثمانين سنة قضاها راهبًا ورئيسًا عامًّا لرهبانيّته وراعيًا لأبرشيّة صيدا التي عرفت في عهده تطوّرات عديدة سياسيّة وأمنيّة منها بداية الانتداب الفرنسي، وثورة الدروز ١٩٢٥ ضدّ الحكم الفرنسي ومن ثمّ عهد الاستقلال الّذي لم يكن مطمئنًا إليه فراح يسأل، على حدّ ما كان يخبرني، رجال الاستقلال كالشيخ بشاره الخوري والشيخ بيار الجميّل وكميل شمعون وسواهم من رجالات المسلمين قائلًا لهم في السرّ والعلانية: «هل من ضمانة لهذا الاستقلال أيّها السادة وما هي تلك الضمانة؟» هذا سؤالٌ ردّده عليّ بعد حين عندما رحت أعمل تحت رعايته أمين سرّ لديه...

أعلن خبر وفاة المطران بستاني عهدَ كان الأستاذ كميل شمعون رئيسًا للجمهوريّة اللبنانيّة على خلاف شديد مع غبطة السيّد البطريرك بولس المعوشي. وفي أثناء الدفن كان الرئيس في زيارة إلى البرازيل فانتدب من يمثّله في حضور الجنازة في الكرسي الأسقفي في بيت الدّين حيث عرض الجثمان في معبد سيّدة الخلاص على مدى يومين.

ولمّا صار نقل الجثمان من المستشفى في بيروت إلى بيت الدّين جرى للمثلّث الرحمات استقبالات شعبيّة حافلة في دير القمر، مسقط رأسه، وفي معاصر بيت الدّين وفي بيت الدّين حيث احتشدت جماهير غفيرة تكريمًا للراعي الّذي سهر على شؤون الأبرشيّة طوال ستّ وثلاثين سنة وترك على الصعيد السياسي في عهدَي الانتداب الفرنسي والاستقلال بصماتٍ لا يزال يذكرها رجال السياسة العارفون بدقائق الأمور.

وكانت الأخويّات تأتي وتزور وتصلّي أمام نعش الحبر الجليل كما جاءت وفود درزيّة من مختلف مناطق الشوف للمشاركة في وداع الراحل الكبير لما كانت له معها من علاقات طيّبة لا يزال إخواننا الدروز يذكرونها. وعلى سبيل المثال لا الحصر كان سيادته، رحمه الله، قد أخبرني في أوّل عهدي في الخدمة الكهنوتيّة أنّه ذات يوم في السنة ١٩٢٥ كانت المعارك حامية الوطيس بين الجيش الفرنسي وأهالي مزرعة الشوف الدروز الّذين قاوموا الفرنسيّين بشراسة، ولمّا دخلها الفرنسيّون، وقد هرب أبناؤها الدروز ولم يبقَ منهم سوى النساء، إذّاك جمع الجيش الفرنسي النساء الدرزيّات واقتادهنّ إلى قصر المير بشير في بيت الدّين؛ وإذ وصل الخبر إلى المطران أغوسطين تدخّل حالًا وطلب من القائد الفرنسي المسؤول أن يرسلهنّ مع أحد الكهنة الّذي كان قد أرسله إليه إلى الكرسي في بيت الدّين حفاظًا على كرامتهنّ، وهكذا، فقد كان لهذا العمل الشريف الّذي قام به المطران بستاني التقدير الكبير لدى الدروز على اختلاف فئاتهم؛ وأطلقوا عليه منذ ذلك الحين لقب «مطران الدروز» الّذي رافقه طوال حياته. وقبيل صلاة الجنّاز وعند اجتماع الكثيرين ومن بينهم الأستاذ كمال جنبلاط وشقيقته الّتي دخلت الكنيسة وهي تبكي على مشهد ومسمع الكثيرين، أراد جنبلاط أن يقول كلمة رثاء فطلب منه سيادة المطران خريش ألّا يضمّنها مواقفه السياسيّة المعروفة آنذاك ضدّ سياسة الرئيس كميل شمعون، خوفًا من أن يزيد الخلاف، ويرسّخه أكثر فأكثر بين الزعيم الدرزي ورئيس الجمهوريّة، الّذي لم يكن حاضرًا إنّما كان إخوته وجماعته بين الحضور. وتقيّد الزعيم جنبلاط بما طلب منه المطران خريش.

ولمّا جاء غبطة البطريرك معوشي لترؤس صلاة الجنّاز الّتي أقيمت في الدّار الخارجيّة للكرسي الأسقفي بسبب ضيق الكنيسة بالحشود الغفيرة وكان يرافقه عدد كبير من بكركي وبيروت، أقيم حاجز من قبل الأمن العام في قرية كفرحيم، فصل بين المرافقين الأقربين لغبطته، وسمح لهم بالمرور في دير القمر. أمّا القسم الأكبر من السيّارات الباقية فقد وجّهوها للمرور في دير دوريت وبعقلين ومن ثمّ تتجه إلى بيت الدّين ومنها إلى الكرسي الأسقفي، لحضور المأتم بغية الإقلال من أهميّة الموكب التابع لغبطة السيّد البطريرك مرورًا بدير القمر. وكان مدير الأمن العام آنذاك السيّد فؤاد شمعون شقيق الرئيس الغائب...

ترأّس غبطته صلاة الجنّاز لراحة نفس المطران بستاني كما رثاه سيادة المطران ميخائيل ضومط مطران صور بكلامٍ مؤثّر ولغة جميلة وتعابير بليغة استرعت انتباه السامعين والقارئين. وبعد الصلاة أقيم تطواف بالنعش ثمّ حمل إلى المدفن الخاص في السكرستيّا الّذي كان سيادته قد حفره بتوجيه منه في أرضها إلى الجهة الجنوبيّة منها. ووضعت عليه فيما بعد كتابة تحمل تاريخ مراحل حياة الفقيد الجليل.

الفصل الثالث

أحداث ثورة سنة ١٩٥٨ وما بعدها

في السنة الأخيرة من عهد الرئيس كميل شمعون قامت ثورةٌ في لبنان ضدّه باعتبار أنه كان يطمح إلى تجديد ولايته، فقاومه قسم من اللبنانيّين وقامت تظاهرات في المدن وقع فيها قتلى وجرحى وبقيت عدّة شهور جرت خلالها إضرابات عرفتها صيدا الّتي تزعّمها آنذاك المرحوم معروف سعد، الّذي أقام في المدينة القديمة وحصر الدخول إليها ببوّابتين أو ثلاث أقام فيها حرّاسًا مسلّحين من جماعته. غير أنّ القلعة البريّة المعروفة بقلعة الملك القدّيس لويس، كانت تحت إشراف الجيش اللبناني الذي خسر أكثر من شهيد، لكي يستطيع السيطرة عليها.

وقفت المطرانيّة المارونيّة موقفًا حياديًّا من الجميع، وبالرغم من هذا الموقف فقد صوّب الشمعونيّون أصابع الاتّهام إلى سيادة المطران أنطونيوس خريش، راعي الأبرشيّة، لكونه صديقًا للبطريرك المعوشي الّذي كان يرفض التمديد للرئيس شمعون؛ بينما كان غيره من الأساقفة المحليّين يتجاوبون علنًا مع رغبة الرئيس ويعملون على تحقيقها. وعملًا على إثارة المطران خريش ضدّ كمال جنبلاط، اتّصل أحدهم في يومٍ من الأيام من دير القمر بالمطران خريش في صيدا يقول له إنّ كمال جنبلاط بمسلّحيه احتلّ كرسي المطرانيّة في بيت الدّين فكان جواب المطران خريش دون أن يتحقّق من الخبر هذا غير صحيح وإنّي لا أصدّق أنّ كمال جنبلاط يدخل إلى الكرسي الأسقفي بقوّة السلاح ليحتلّها. وكان الخبر بكلّ ما فيه مدسوسًا. وفي صيدا كانت علاقاتنا مع الجميع حسنة؛ ورفضنا العنف أيًّا يكن مصدره وبالطبع كان لذاك الموقف ارتياح في صفوف المسلمين وانقباض في صفوف بعض المسيّحيّين المتهوّرين. واستنادًا إلى ذلك الموقف الحكيم كانت المطرانيّة في صيدا ملتقى للشخصيّات الصيداويّة المسلمة والمسيحيّة الّتي تعمل على التهدئة وتكره العنف وما يجرّ على المجتمع من خراب وطعن للعيش المشترك في الصميم.

وانطلاقًا من ذاك الموقف السليم كانت كلمة المطرانية المارونية في صيدا مسموعة لدى الفئات الإسلاميّة الرافضة لتمديد الولاية للرئيس شمعون وإليكم هذين الحدثين اللذين عشتهما شخصيًا مع الزعيم معروف سعد خلال الثورة المذكورة.

في أحد الأيّام، وعند الساعة الرابعة بعد الظهر، جاءني الأب بطرس خشّان الراهب الماروني اللبناني الّذي كان مرشدًا روحيًّا للإخوة المريميّين في مدرستهم الكائنة على البوّابة الفوقا، وقد بدت على وجهه وحركاته مظاهر القلق والخوف يقول إنّ العشّي سليمان في المدرسة قد أصيب بطلقٍ ناري في رجله أمام باب المطبخ ونُقِل إلى مستشفى الشاب في صيدا للمعالجة؛ وجمهور الإخوة في خوف وقلق... وإذ كان الأب خشّان في أقصى درجة من الذعر والخوف قال لي: «وما العمل؟» إتصلت للحال هاتفيًا بالأستاذ معروف سعد الّذي كان قد جعل من مدرسة المقاصد مركزًا له وأخبرته بما جرى. وبعد أن استمع إليّ بكلّ هدوء، قال لي بدوره: «وما العمل؟» أجبته: «إنّ زيارة منكم تفقديّة للمدرسة بمن فيها من الإخوة والاعتذار عمّا جرى يساعد كثيرًا على تهدئة الأفكار»، فأجاب: «هذا صحيح؛ وكيف لي أن أدخل إلى المدرسة وأنا مهدّد شخصيًّا من قبل القوى المسلّحة وهي تسيطر على مدخل المدرسة الشرقي؛ وعلى كلّ حال فالطلب عزيز عليّ فافتحوا لي الباب الغربي الّذي يعطي على السوق الداخلية في المدينة وانتظروني غدًا الساعة الثامنة صباحًا.»

بلّغت الأب المذكور بما سمعت من الأستاذ معروف وعند الساعة السابعة والنصف من صباح اليوم التالي انتقلت إلى مدرسة الفرير وقابلت الأخ الرئيس ثمّ انتقلنا من الداخل إلى البوّابة الّتي جرى الاتّفاق على فتحها. وعند الثامنة صباحًا تمامًا فتحت البوّابة، وانتظرنا دقيقتين وإذا بالأستاذ معروف يأتي ومعه مرافقه الخاص وهو صيداوي، وآخر يحمل بيده قنبلة يدويّة بحجم كرز الصنوبر، لم أكن لأرى مثيلًا لها حتّى تلك الساعة. دخلوا المدرسة متحفّظين وانتقلوا في الداخل من غرفة إلى غرفة دون أن ينكشف أمرهم للمسيطر على الجهة الشرقيّة مقابل المدرسة، والتقى الإخوة في الصالون الصغير وأبدى اعتذاره عن كلّ ما حدث وتناول مرطّبًا وغادر المكان بتحفّظٍ كلّي كما دخل لتعود الطمأنينة إلى قلوب الإخوة المريميّين.

أمّا الحدث الثاني فهو أنّ أحد أبناء الرعيّة المدعو جوزيف وزير قد ذهب مع عائلته إلى جزّين مسقط رأس زوجته عند اندلاع الإضراب والثورة من دون أن يتزوّد بالكافي له ولعائلته لدى خروجه من البيت في صيدا. وإذ نفد كلّ ما لديهم نزل إلى صيدا والتقى أخاه جورج الّذي ما زال في المدينة، وانتقلا معًا إلى المطرانيّة يعرضان حاجتهما على المطران

خريش، وفي حديثهما بعض العتب واللوم على البطريرك المعوشي وعلى من شدّ إزره كالمطران خريش مثلًا قائلين: «هذا ما أوصلنا إليه البطريرك المعوشي وجماعته»، وطلب منه جوزيف التدخّل لدى معروف سعد للسماح له بإخراج ما تحتاج إليه العائلة من بيته الكائن في الطبقة السفلى من بيت شوكت نمّور على البوّابة الفوقا الّذي يحتلّه جيش التنظيم الناصري مقابل القلعة البريّة.

بعدما سمع المطران خريش هذا الحديث الذي لم يخلُ من اللوم والعتاب على من تسبّب بتلك الحالة، توجّه إليّ المطران وسألني عمّا يمكن عمله خدمة لهما. إذّاك اتّصلت بالأستاذ معروف، طالبًا الاجتماع إليه، اضطراريًا، فتجاوب مع ما قلته له وطلب منّي أن أدخل إليه في مدرسة المقاصد الإسلامية من البوّابة على محلّة الشاكريّة التي يشرف عليها شاب من آل الناكوزي، وهكذا صار، ولمّا التقيت الأستاذ معروف في مدرسة المقاصد وبجانبي زوجة الأستاذ جوزيف وزير وشقيقته، استمهلني بعض الوقت ليقدّم لنا مرطّبات، ثمّ خرج معي مجتازًا الأسواق الضيّقة الّتي لم يكن لي عهد بها، توًّا إلى بيت صاحب العلاقة جوزيف وزير، ومعنا صاحبة البيت، وهناك انتحينا زاوية من البيت تنعم، حسب ما قيل آنذاك، ببعض الأمن وراحت السيّدة تجمع كلّ ما كانت بحاجة إليه وتحلم به من ملبوس ومأكول، وتجمعه في زاوية من البيت وهو ينتظر إلى أن حقّقت أمنيتها، إذّاك غادرنا مطمئنين ورحنا نبحث عن أسلوب لنقل الأغراض إلى الشارع من أقرب نقطة تؤدّي إليه ليصير نقلها فيما بعد إلى جزّين في شاحنة. وإذ كان نقلها على أكتاف العتّالين يتطلّب مالًا كثيرًا لكون المسافة طويلة بين البيت والشارع الّذي يقف فيه الكميون في شارع المطران. إذّاك طلبوا منّي أن أتدخّل لدى مخفر الجيش القائم على سطح بناية الشمّاع مقابل بيت نمّور كلّما يسمحوا للعتالة بنقل الأغراض عن طريق البوابة الفوقا رجال المقاومة، الّذين أسقطوا قتيلًا من أفراده بينما كان ينقل غذاءً إلى زملائه على سطح القلعة البريّة. دخلت في حديثٍ مع الجيش الّذي انتقلت إليه وبعد كرٍّ وفرٍّ سمحوا للعتّالة بنقل الأغراض على الطريق القصير بعد أن ينزع رجال المقاومة المتراس الرملي الكائن على سطح بناية نمّور مقابل مركز الجيش على القلعة البرية، وهكذا صار، سمحوا لهم بنقل أغراض الشخص الّذي ذكرته مرورًا تحت القلعة، واحدًا واحدًا في صفّ منتظم شرط أن أتقدّمهم أنا، ذهابًا وإيابًا، إلى

أن أكملوا نقل الأغراض ووضعها في الكميون، الّذي نقلها إلى جزّين: هكذا كان علي أن أرافق الحمّالين ذهابًا وإيابًا إلى أن أنهوا نقل الأغراض من البيت إلى الشاحنة.

إنّ من يسمع هذه الأخبار اليوم بعد مرور نصف قرن عليها قد يتعجّب ولا يصدّقها بسهولة، لكن تلك هي الحال الّتي عشناها ولا تزال ماثلة أمام عيني، وأنقلها كما جرت على مسامع قارئيها، تأكيدًا على قواعد العيش المشترك الّذي لا يقوم إلّا على البذل والعطاء والانفتاح على خدمة الغير دون منّة ولا تكلّف. غير أنّ الإنسان الّذي عاش تلك الأحداث وما رافقها من تطوّرات وما تبعها من مواقف وطنيّة وشعبيّة، تأييدًا لسياسة غبطة البطريرك المعوشي المناوئة لسياسة رئيس الجمهوريّة الأستاذ كميل شمعون؛ ولاسيّما بعد رجوعه من روما وقد اشترك بالمجمع الفاتيكاني الثاني ومرّ في عودته إلى بكركي من المطار في شوارع البسطة، يشهد كيف أن المسلمين خرجوا إلى استقباله وذبحوا الخرفان على الطرقات وكانوا يهتفون بأعلى أصواتهم بحياته قائلين: «يعيش البطرك محمّد بولس المعوشي» وقد أعطي لنا أن نكون شهودًا لحقيقة ما رأينا وسمعنا، وكأنّ البلاد قد توحّدت بمسلميها قبل ومسيحيّيها حول غبطته، وسياسته الرشيدة الحكيمة... وكما عشنا تلك الطفرة الحماسيّة تأييدًا للبطريرك سيأتي يوم ولن يكون بعيدًا يحرّم فيه على المسيحي أن يبقى سليمًا إذا مرّ في شارع البسطه، كما هي حال المسلم الّذي يمرّ في شوارع الأشرفيّة أو الجمّيزة، تلك أيّام عشت حلوها، وسأعيش مرّها وكلّ آتٍ قريب. وسأظلّ أذكر تلك الكلمة الّتي كان يردّدها على مسامعنا أستاذ التاريخ في الصفوف الثانويّة في جامعة القدّيس يوسف في بيروت، وكأنّنا بحاجة إلى أمثلة واقعيّة في بلادنا لم نتأخّر عن التحقّق منها بأنفسنا.

نشاطي في المدينة

بعد أن انتقلت من مدرسة الفرير إلى بناء المطرانية الجديد بقرب الكاتدرائية طلب مني المطران أنطونيوس خريش راعي الأبرشية أن أستقيل من التدريس لدى الإخوة المريميين، فامتثلت للطلب وقدّمت استقالتي إلى رئيس المدرسة آنذاك الأخ أوجانيان وهو من التبعية السويسرية فرفض قبولها، ثم أصررت عليها إذّاك راح يطلب من أصدقاء لي وله في الرعية لإقناعي بعدم الاستقالة لكن تلك التدخّلات لم تجدِ نفعًا. فإذا به يأتيني صباح أحد الأيام

يقول لي بهذه اللهجة غير المنتظرة حرفيًا ما دمت على رأيك فإني أرى أن لا حقّ لك بأي غرش تعويض، فكان جوابي له يمكنك أن تقول هذا الكلام لمن يطالب بتعويض له عن ست سنوات تدريس، أمّا أنا فما فكرت بهذا الشيء ولا طالبت به. وهكذا انتهت علاقتي بالمدرسة المذكورة.

إنما بعد انقطاعي عن التدريس لدى الإخوة المريميين تفرّغت لتدريس التعليم المسيحي في مدارس صيدا الرسمية وحصرًا في ثانوية الصبيان القائمة قرب مخيّم الفلسطينيين في عين الحلوه وفي مدرستين تكميليتين للصبيان والبنات في صيدا حيث بلغت ساعات التعليم أسبوعيًا في هذه المدارس الثلاث سبع عشرة ساعة وبالمجان عملًا بالقول المأثور «مجّانًا أخذتم مجّانًا أعطوا» وهذا ما كنت أعتبره نعمة لا تقدر بثمن أفاضها الله علي صحّة وسلامًا وراحة ضمير أشكره تعالى عليها...

كنت ألتقي في تلك المدارس برجال دين مسلمين مصريين كانوا يؤمنون بالتعليم الديني لأبنائهم لقاء أجور معيّنة تدفعها لهم السلطات الدينية المحلية. ومن بين أولئك الرجال شيخ يدعى «عبد السلام» التقيتُه في أوقات الفراغ ونتحدث معًا في أمور سياسة وبخاصة يوم كانت الثورة على أشدّها في الجزائر ضد الفرنسيين وكان لها من المتحمّسين الغيورين المتشوقين إلى رؤية الجزائر تتمتع بالاستقلال التام، حتى أنه ذات يوم وقد خرج عن المعقول في حديثه أمامي وأمام أساتذة المدرسة كان جوابي على قوله الناشز قاسيًا فخرج من الاجتماع...

كما وإني كنت على اتصالٍ بأفراد الهيئة التعليمية المسيحيين في صيدا والجوار وأجمعهم مرّة في الشهر في أحد الأديار أو المدارس لقضاء يوم صلاة وتأمّل في الواجبات الروحية والتربوية المنوطة بهم وبقيت على اتصال عادي بهم حتى اندلا ع الثورة وانطلاق الأحداث التي اضطرتنا إلى التخفيف من تلك النشاطات الدينية خوفًا من بعض المتزمتين المتعصبين الذين باتوا يتحينون الفرص للحدّ من النشاط المسيحي الذي كانوا يلبسونه اللباس الذي يبتغون منه إثارة النعرات وقد كنا بغنى عنها...

صيدا تصبح مقرًا للمطرانية

منذ أن أصبحت دار المطرانيّة جاهزة لاستقبال من أعطي له أن يسكن فيها دعاني سيادة المطران حريش وسلّمني مفتاحها وعيّن لي حيث يجب أن أقيم أكون في متناول من يحتاج إليّ من أبناء الرعيّة، وانتقلت من مدرسة الإخوة المريميّين الّتي استضافتني منذ السنة ١٩٥٣ وأعطاني بعض التفويضات خدمةً لمن يطرق الباب؛ وكان الخوري يوحنّا كوكباني آنذاك نائبًا عامًّا يتمتّع بالحقوق الّتي يوليها القانون الكنسي، ومن ثمّ أصبح الوجود الماروني فاعلًا ليس فقط في المدينة بل وفي الجوار أيضًا، بحيث أنّ الكثيرين من ذوي الحاجات الّذين كان عليهم أن يصعدوا إلى بيت الدّين للاجتماع إلى المطران قضاءً لحاجاتهم أصبح المسؤول الروحيّ الأعلى للأبرشيّة قريبًا منهم، دون أن يتخلّى عن مركزه الأساسي في بيت الدّين، حيث ظلّ يقيم عدّة شهور من السنة، دون أن يغلق مكتب العمل في صيدا الّذي كان يفتحه مرّة في الأسبوع. كما كانت الاجتماعات الكهنوتيّة الشهريّة تعقد مرّة في الشهر في صيدا أو في بيت الدّين، تبعًا لإقامة الأسقف هنا أو هناك. وكان البقاع الغربي آنذاك جزءًا من الأبرشيّة عزيزًا مخدومًا روحيًّا بكلّ دقّة وأمانة وفيه وكيل أسقفي هو المرحوم البرديوط جرجس جبران الخوري عمّ الخوري طانيوس الخوري الّذي أصبح مطرانًا على الأبرشيّة خلفًا للمطران إبراهيم الحلو سنة ١٩٩٦.

إفتتاح مدرسة مار الياس الابتدائية في صيدا

في السنة ١٩٦١ اشترت المطرانيّة أرضًا محاذية للكاتدرائيّة من الجهة الجنوبيّة وفيها بيت قديم كان لسنين طويلة يستعمل كمدرسة رسميّة تسمّى المدرسة الرشيديّة منذ العهد العثماني حتّى أنّ معظم المتعلّمين كانوا قد درسوا فيها لكونها حكوميّة مجّانيّة. وبعد أن أصبحت ملكًا للمطرانيّة عرضتُ على سيادة المطران أنطونيوس خريش راعي الأبرشيّة آنذاك أن نجعل منها مدرسة ابتدائيّة مجّانيّة وإذ راقه العرض الذي تقدّمتُ به، ذهبت برفقته إلى أمانة سرّ المدارس الكاثوليكيّة في بيروت واجتمعنا إلى قدس المونسنيور إغناطيوس مارون الّذي استحسن الفكرة وشجّعنا على تحقيقها. فراح بما لديه من نشاط يعمل على الحصول على رخصة من الوزارة الّتي أصدرتها بتاريخ الثاني والعشرين من تشرين الأوّل ١٩٦٢ باسم

الخوري يوحنّا الحلو. ولكنّني لم أنتظر صدور الإذن الرسمي فرحت أعمل على تدبير بضع طاولات وترميم ما يلزم للطبقة السفلى من البناء وإعداد كلّ ما يلزم، داخلًا وخارجًا، لتفتح المدرسة أبوابها لاستقبال الطلّاب الّذين بلغ عددهم تلك السنة ثمانية وستّين طالبًا موزّعين على كلّ الصفوف الابتدائيّة حتّى صف الشهادة الابتدائيّة، الّذي ضمّ تلك السنة إثني عشر طالبًا. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الطلّاب كانوا ينتمون إلى ما في البلاد من طوائف وكنت أستقبل من دون تمييز بين زيدٍ وعمر وحسن ومارون، وبخاصة لأنّ القسط المدرسي المسموح به من قبل الدولة في المدارس المجّانيّة هو آنذاك تسع وعشرون ليرة لبنانيّة، إضافة إلى ثلاث ليرات للتأمين على كلّ طالب. وهكذا انطلقت المدرسة باسم مدرسة مار الياس. ولمّا جاء وقت الامتحان في الشهادة الابتدائيّة تقدّم الإثنا عشر طالبًا، فنجح منهم ستّة ورسب الباقون. فكانت النتيجة مرضيةً بالنسبة إليّ لأنّي كنت أعرف مقدرة كلّ منهم ومؤهّلاتهم العلميّة بعد أن جاؤوني كبارًا في العمر نسبيًا وكسالى من مدارس حكومية ومحلية، أمّا لدى المطران خريش فلم تلقَ الرضى، وقد كان يريدها انطلاقة حسنة أفضل ممّا كان.

بالرغم من كلّ الصعوبات الماديّة والأمنيّة الّتي عشتها في المدرسة راحت تنطلق من حسنٍ إلى أحسن، وازداد العدد حتّى بلغ الخمسمائة والخمسين طالبًا، موزّعين في كلّ صف على فئتين وأكثر. ووفّقني الله في التعاون مع أساتذة أحبّوا العمل في المدرسة والتزموا التضحية في سبيلها بوقتهم، حتّى أصبحت في صيدا والجوار معروفة بحسن التدريس فيها، والانضباط في صفوف المعلّمين والطلّاب. وعندما كان يخرج الطالب من الصف الابتدائي متسلّحًا بالشهادة الابتدائيّة كان يدخل إلى الثانويّات الرسميّة وحتّى إلى مدرسة الفرير في الرميلة بسهولة ودون أي تردّد من قبل المشرفين عليها. وكنت أسمع أولياء الطلبة بعد أن تخرّج أبناؤهم في الصفوف الثانويّة يتباهون بما يحرزه أبناؤهم من نجاح في مجالات الدراسة لكونهم وجدوا في مدرسة مار الياس أساسًا متينًا، انطلقوا منه بثبات، فكان النجاح نصيبهم. وأتذكّر هذا الطالب أو ذاك يقف أمامي أبوه أو أمّه، أو يلتقيني صدفة في زيارة أو على طريق ليشكرني على أنّ ابنه صار طبيبًا أو محاميًا أو ضابطًا في الجيش، بفضل العدّة الأولى الّتي تسلّمها في مدرسة مار الياس. ومن بين الطلّاب القدامى الّذين انطلقوا

صيدا تصبح مقرًا للمطرانية

منذ أن أصبحت دار المطرانيّة جاهزة لاستقبال من أعطي له أن يسكن فيها دعاني سيادة المطران خريش وسلّمني مفتاحها وعيّن لي حيث يجب أن أقيم أكون في متناول من يحتاج إليّ من أبناء الرعيّة، وانتقلت من مدرسة الإخوة المريميّين الّتي استضافتني منذ السنة ١٩٥٣ وأعطاني بعض التفويضات خدمةً لمن يطرق الباب؛ وكان الخوري يوحنّا كوكباني آنذاك نائبًا عامًّا يتمتّع بالحقوق الّتي يوليها القانون الكنسي، ومن ثمّ أصبح الوجود الماروني فاعلًا ليس فقط في المدينة بل وفي الجوار أيضًا، بحيث أنّ الكثيرين من ذوي الحاجات الّذين كان عليهم أن يصعدوا إلى بيت الدّين للاجتماع إلى المطران قضاءً لحاجاتهم أصبح المسؤول الروحيّ الأعلى للأبرشيّة قريبًا منهم، دون أن يتخلّى عن مركزه الأساسي في بيت الدّين، حيث ظلّ يقيم عدّة شهور من السنة، دون أن يغلق مكتب العمل في صيدا الّذي كان يفتحه مرّة في الأسبوع. كما كانت الاجتماعات الكهنوتيّة الشهريّة تعقد مرّة في الشهر في صيدا أو في بيت الدّين، تبعًا لإقامة الأسقف هنا أو هناك. وكان البقاع الغربي آنذاك جزءًا من الأبرشيّة عزيزًا مخدومًا روحيًّا بكلّ دقّة وأمانة وفيه وكيل أسقفي هو المرحوم البرديوط جرجس جبران الخوري عمّ الخوري طانيوس الخوري الّذي أصبح مطرانًا على الأبرشيّة خلفًا للمطران إبراهيم الحلو سنة ١٩٩٦.

إفتتاح مدرسة مار الياس الابتدائية في صيدا

في السنة ١٩٦١ اشترت المطرانيّة أرضًا محاذية للكاتدرائيّة من الجهة الجنوبيّة وفيها بيت قديم كان لسنين طويلة يستعمل كمدرسة رسميّة تسمّى المدرسة الرشيديّة منذ العهد العثماني حتّى أنّ معظم المتعلّمين كانوا قد درسوا فيها لكونها حكوميّة مجّانيّة. وبعد أن أصبحت ملكًا للمطرانيّة عرضتُ على سيادة المطران أنطونيوس خريش راعي الأبرشيّة آنذاك أن نجعل منها مدرسة ابتدائيّة مجّانيّة وإذ راقه العرض الذي تقدّمتُ به، ذهبت برفقته إلى أمانة سرّ المدارس الكاثوليكيّة في بيروت واجتمعنا إلى قدس المونسنيور إغناطيوس مارون الّذي استحسن الفكرة وشجّعنا على تحقيقها. فراح بما لديه من نشاط يعمل على الحصول على رخصة من الوزارة الّتي أصدرتها بتاريخ الثاني والعشرين من تشرين الأوّل ١٩٦٢ باسم

الخوري يوحنّا الحلو. ولكنّني لم أنتظر صدور الإذن الرسمي فرحت أعمل على تدبير بضع طاولات وترميم ما يلزم للطبقة السفلى من البناء وإعداد كلّ ما يلزم، داخلًا وخارجًا، لتفتح المدرسة أبوابها لاستقبال الطلّاب الّذين بلغ عددهم تلك السنة ثمانية وستّين طالبًا موزّعين على كلّ الصفوف الابتدائيّة حتّى صف الشهادة الابتدائيّة، الّذي ضمّ تلك السنة إثني عشر طالبًا. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الطلّاب كانوا ينتمون إلى ما في البلاد من طوائف وكنت أستقبل من دون تمييز بين زيدٍ وعمر وحسن ومارون، وبخاصة لأنّ القسط المدرسي المسموح به من قبل الدولة في المدارس المجّانيّة هو آنذاك تسع وعشرون ليرة لبنانيّة، إضافة إلى ثلاث ليرات للتأمين على كلّ طالب. وهكذا انطلقت المدرسة باسم مدرسة مار الياس. ولمّا جاء وقت الامتحان في الشهادة الابتدائيّة تقدّم الإثنا عشر طالبًا، فنجح منهم ستّة ورسب الباقون. فكانت النتيجة مرضيةً بالنسبة إليّ لأنّي كنت أعرف مقدرة كلّ منهم ومؤهّلاتهم العلميّة بعد أن جاؤوني كبارًا في العمر نسبيًّا وكسالى من مدارس حكومية ومحلية، أمّا لدى المطران خريش فلم تلقَ الرضى، وقد كان يريدها انطلاقة حسنة أفضل ممّا كان.

بالرغم من كلّ الصعوبات الماديّة والأمنيّة الّتي عشتها في المدرسة راحت تنطلق من حسنٍ إلى أحسن، وازداد العدد حتّى بلغ الخمسمائة والخمسين طالبًا، موزّعين في كلّ صف على فئتين وأكثر. ووفّقني الله في التعاون مع أساتذة أحبّوا العمل في المدرسة والتزموا التضحية في سبيلها بوقتهم، حتّى أصبحت في صيدا والجوار معروفة بحسن التدريس فيها، والانضباط في صفوف المعلّمين والطلّاب. وعندما كان يخرج الطالب من الصف الابتدائي متسلّحًا بالشهادة الابتدائيّة كان يدخل إلى الثانويّات الرسميّة وحتّى إلى مدرسة الفرير في الرميلة بسهولة ودون أي تردّد من قبل المشرفين عليها. وكنت أسمع أولياء الطلبة بعد أن تخرّج أبناؤهم في الصفوف الثانويّة يتباهون بما يحرزه أبناؤهم من نجاح في مجالات الدراسة لكونهم وجدوا في مدرسة مار الياس أساسًا متينًا، انطلقوا منه بثبات، فكان النجاح نصيبهم. وأتذكّر هذا الطالب أو ذاك يقف أمامي أبوه أو أمّه، أو يلتقيني صدفة في زيارة أو على طريق ليشكرني على أنّ ابنه صار طبيبًا أو محاميًا أو ضابطًا في الجيش، بفضل العدّة الأولى الّتي تسلّمها في مدرسة مار الياس. ومن بين الطلّاب القدامى الّذين انطلقوا

في العالم وأسّسوا العيال كانوا يقولون لي أمام من نلتقيهم هنا أو هناك صدفة: «أيا ليت مدارس اليوم تؤمّن لأولادنا التربية الّتي أمّنتها لنا نحن في الماضي...» وهذه أقوال تعزّي القلوب الّتي عانت في ذاك السبيل التربوي الّذي يتطلّب سهرًا متواصلًا وجهدًا قلّ من يقبل به بالمجان. وقد كنت أدفع من جيبي في سبيل إطلاق المدرسة في ذاك المحيط، علمًا بأنّ وجودي فيها لم يؤتني أيّ غرش، ولا أخذت أجرًا وإن يكُن زهيدًا، ولا كان المسؤولون في المطرانيّة يمدّونني في ذاك المضمار إلّا بالبركة والدعاء أغلى شيء لديّ.

عندما كنت أقع في عجز عن تسديد رواتب المعلّمين الصيفيّة كان الشبّان الأصدقاء في صيدا ينبرون لإقامة كرمس في ملعب مدرسة مار يوسف الظهور الّذي كانت إدارة المدرسة المذكورة تضعه تحت تصرّفنا خلال النهار لكونه يؤمّن الانضباط من الداخل والخارج، فنخرج في نهاية النهار وقد جمعنا ما يلزم وربّما أكثر ممّا يلزم، تغطية للعجز الحاصل في ميزانيّة مدرسة مار الياس.

تظاهرة دامية

في شهر أيّار سنة ١٩٦٩ قامت تظاهرة مسلّحة في صيدا وأحبّت أن تسير في شارع رياض الصلح وصولًا إلى ساحة النجمة فواجهتها الدولة بفرقةٍ من الدرك على البوّابة الفوقا وصدّتها، فما كان من المتظاهرين إلّا أن استعملوا السلاح فواجهتهم القوى الأمنيّة بالمثل وسقط عدد من القتلى والجرحى ليس ببعيد عن مدرسة مار الياس، كما وصل الرصاص إلى الطبقة العليا فاضطررت إلى جمع التلاميذ في الطبقة السفلى حتّى يهدأ إطلاق النّار؛ وهذا ما لم يحدث، وللحال فرض منع التجوّل ونزل الجيش إلى الشارع، فاضطررت إلى إرسال التلاميذ قدر المستطاع، على سلّم من الجهة الشرقيّة للمدرسة، لأنّ خروجهم كما هو مألوف إلى شارع رياض الصلح كان مستحيلًا.

بعد أن انتهيت من تصريف الطلّاب بسلام على ذاك الشكل، بقي في المدرسة ثلاثة طلّاب، إثنان شقيقان من آل خليفة من قنّاريت وآخر من محلّة التعمير في صيدا اسمه محمّد الضابط، أخذتهم معي إلى المطرانيّة، واستبقيتهم حتّى الساعة الخامسة أو السادسة مساءً على أمل أن يأتي أحد أقربائهم ليأخذهم، ولكن قرار منع التجوّل كان لا يزال قائمًا،

إذّاك قصدت ضابطًا في الجيش متمركزًا على البوّابة الفوقا أمام محلّات البابا الممتازة، وإذ رآني آتيًا إليه وحيدًا في الشارع، فاجأني بقوله: «يا أبونا ممنوع التجوّل في السوق»، وإذ أردت أن أعرض عليه حاجتي، إذا بسيّارة تمرّ في الشارع فيوقفها، فتوسّطت قائلًا له: «دعه حرًّا لينقل معي الأولاد إلى بيوتهم»، فأذن بذلك ونقلت الأولاد كلًّا منهم إلى بيته، بدءًا بمحمّد الضابط الّذي تأكّدت من وصوله إلى البيت حين فتحت أمّه الباب وشكرتني، ومن ثمّ نقلت الأخوين إلى قنّاريت وفي طريق عودتي توقّفت أمام الضابط الّذي ما زال واقفًا محلّه ودعوته إلى المطرانيّة لكي يغتسل ويتناول بعض المرطّبات الّتي قد تخفّف عنه. وبعد أن تردّد قليلًا في قبول دعوتي، سار معي وسلّم المهمّة الموكولة إليه إلى معاونٍ له كان بقربه. واصطحبته إلى دار المطرانيّة حيث تناول بعض حبّات الأكي دنيا، فإذا به يكشف لنا عن يده، وكان يلفّها بمنديل، وعن ساقه اليمنى وقد كانت تعرّضت لرشقٍ من الحجارة صبّه عليها المتظاهرون في الشارع ساعة التقوا الجيش الّذي نزل إلى الشارع لصدّ المتظاهرين. وبعد أشهر قليلة استشهد ذلك الضابط على الحدود اللبنانيّة–الإسرائيليّة، على أيدي جماعة من المسلّحين، إذ كان يقوم بواجبه العسكري على الحدود.

تفاقمت الأمور، وبدأ الفلسطينيّون يتحرّكون بسلاحهم ويقومون بعمليّات على الحدود اللبنانيّة–الإسرائيليّة، وفئات لبنانيّة موالية لهم، تؤيّدهم في تلك التحرّكات الّتي ما كانت لتخدم الأمن في لبنان، الّذي أخذ بالتقهقر، فيما الدولة بأجهزتها الأمنيّة رهينة السياسيّين المنقسمين حول موضوع الفلسطينيّين، فمنهم من يريد السماح لهم بالقيام بعمليّات ضدّ إسرائيل ومنهم من يرفض ذلك، ويأبى عليهم ذلك لئلّا تصبّ إسرائيل جام غضبها كما فعلت يوم ضربت مطار بيروت وقضت على مجموعة من الطائرات دون أن يعترض على ذلك العمل الإجرامي الّذي لم يقع له مثيل ضدّ دولة عربيّة أخرى إلّا في حالات الحرب بين الدولتين، سوى رئيس جمهورية فرنسا الجنرال ديغول.

حصرًا لتلك الفوضى الّتي خلقها الفلسطينيّون جرى اتّفاق سمّي «اتّفاق القاهرة» وقّعه قائد الجيش إميل بستاني باسم لبنان في القاهرة يسمح بموجبه للفلسطينيّين بأنّ يتّخذوا من منطقة العرقوب في جنوب لبنان منطلقًا لمهاجمة إسرائيل، من دون أن يكون للدولة اللبنانيّة أن تراقب أعمالهم وتحرّكاتهم. ولكنّهم لم يكتفوا بما أقرّ لهم في اتّفاق القاهرة، فاستباحوا الأرض اللبنانيّة ذهابًا وإيابًا، نقلًا للسلاح والمسلّحين، على مرأى

ومسمع من الكبير والصغير. ومن ثمّ بدأت الفوضى تذرّ قرنها بين اللبنانيّين أنفسهم. وأخذوا يتساءلون عن حق قائلين: «لماذا يحقّ لفلسطيني أن يتنقّل بسلاحه هنا وهناك، ويحرّم ذلك على اللبناني؟»

كنت مرّة في صيدا عند حلّاقٍ يقص شعري، فإذا بفلسطيني يدخل وبيده رشّاش وعلى جنبه مسدّس وقنبلة يدويّة معلّقة إلى جنبه، فوضع رشّاشه أرضًا وجلس وما زلت على الكرسي بين يدي الحلّاق. لكنّني أمام ذاك المشهد الّذي انزعجت منه كثيرًا قلت للداخل الكريم: «أهكذا تتنقّل في المدينة بين النّاس وتدخل المحلّ؟ وهل أنت في جبهة قتال؟ وماذا لو كان في المحلّ أولاد أو من يخشى هذا المنظر؟» فكان جوابه إنّه آتٍ توًّا من الجبهة ولم يتسنَّ له المرور إلى البيت في المخيّم ليضع فيه مجموعة تلك الأسلحة الّتي كان يحملها...

نتائج اتّفاق القاهرة الوخيمة

إنّ اتّفاقًا كهذا يتمّ بين دولةٍ معترف بها رسميًّا في الأمم المتّحدة وعلى علاقات ديبلوماسيّة مع دول العالم ومجموعة من الثوّار ينال من كرامة الدولة اللبنانيّة وسمعتها لأنه يعترف بحقٍّ للفلسطينيّين بحقّ إجراء التمارين العسكريّة فوق أرضه وحمل السلاح والهجوم على إسرائيل من منطقة العرقوب التي سمّيت «Fath land». كما أعطى ذلك الاتّفاق الحقّ للفلسطينيّين بأن يسهروا على أمنهم بأنفسهم داخل المخيّمات، فضلًا عن أنّه يلغي أو يضرب عرض الحائط بالاتّفاق المعقود بين لبنان وإسرائيل سنة ١٩٤٩ بوقف القتال بين الدولتين. كما أوقع نوعًا من الجفاء بين الفلسطينيين واللبنانيين نتج عنه معارك دامية بين الفلسطينيّين والجيش اللبناني وأوجد حذرًا وتخوّفًا لدى بعض الفئات اللبنانيّة، أمثال الكتائب والأحرار من هذا الاتّفاق الّذي يعطي الفلسطينيّين حقوقًا لم يكن لها مثيل في الدول العربيّة الأخرى، ويثير خوفًا شديدًا لدى المسيحيّين على مستقبلهم ومستقبل أولادهم. وقد ظهر هذا الاعتراض جليًّا لدى حزب الكتائب اللبنانيّة وحزب الوطنيّين الأحرار وسائر المسيحيّين.

أبرشيّة صيدا المارونيّة

من الضروري في ظلّ هذه التخوّفات والمستجدّات على الصعيد اللبناني أن نلقي نظرة على الأبرشيّة الّتي كانت تضمّ آنذاك البقاع الغربي وقضاءَي حاصبيّا ومرجعيون والقسم الأكبر من قضاء صيدا الزهراني وقضاءَي جزّين والشوف، إضافة إلى قضاء القنيطرة في سوريا ورعيّتين صغيرتين في الجولان الّذي احتلّته إسرائيل والّتي وكّل أمرهما إلى مطران حيفا الماروني لصعوبة الوصول إليهما... تضمّ الأبرشيّة جميع الطوائف الموجودة في لبنان: إسلاميّة ومسيحيّة ودرزيّة إضافة إلى مجموعة صغيرة من اليهود مقيمة في صيدا، حتّى إذا دعا زعماء المدينة المسلمون الرؤساء الروحيّين المسيحيّين نراهم يلبّون الطلب لتدارس الأحوال. إنّ العلاقات القائمة بين الطوائف المختلفة ضمن الأبرشيّة كانت جيّدة وتقوم على تبادل الزيارات بمناسبة الأعياد الدينيّة أو بمناسبة الظروف الخاصّة الّتي تعيشها كلّ طائفة، كما وأنّ الفلسطينيّين الموجودين بعدد وفير ضمن الأبرشيّة كانوا على اتصال براعي الأبرشيّة يزورونه من دون أن يبادلهم الزيارة في المخيّمات. لكن ما أعطي للفلسطينيّين من حقوق لم ينلها اللبنانيّون جعلهم يمتدون من العرقوب إلى نواحي عدّة في الجنوب، يقيمون الحواجز ويفتّشون السيّارات وركّابها وهذا أمر لم تضع له الدولة اللبنانيّة حدًّا ممّا أثار حفيظة المسيحيّين بنوع خاص، حتّى إنّ البعض منهم بدأ يغادر المنطقة، إمّا إلى الداخل وإمّا إلى الخارج تاركًا أثرًا سيّئًا وعلامة استفهام حول مصير المسيحيّين وسائر اللبنانيين. وممّا زاد في الطّين بلّة أنّ السياسة الّتي انتهجها بعض الأحزاب المسيحيّة، بدلًا من أن تضع حدًّا لفكرة النزوح راحت تشجّع على ذلك، داعية بالسرّ والعلن إلى إنشاء كانتون مسيحي بين كفرشيما وجسر المدفون، لأنّ حياة المسيحيّين في الأطراف من لبنان وفي المدن ذات الأكثريّة الإسلاميّة أصبحت في خطر. ولهذا دعوا إلى التجمّع في الإطار الّذي سبق ذكره آنفًا. وعدم التصدّي لتلك السياسة الهوجاء دفع بكثيرٍ من المسيحيّين إلى بيع ممتلكاتهم خوفًا من أن يحلّ بهم ما حلّ بالفلسطينيّين مع اليهود فاضطروا إلى أن يتركوا كلّ شيء غنيمة باردة بين أيدي هؤلاء واللجوء إلى البلدان العربيّة المجاورة، منذ أكثر من نصف قرن ولا يزالون ينظرون بألمٍ وحسرة إلى ما تركوه.

كانت للسياسة الّتي انتهجتها المطرانيّة المارونية على اختلاف العهود آثار فاعلة نسبيًّا في مقاومة ما كانت الأحزاب المسيحيّة تبثّه من أفكار على هذا الصعيد. وكان البعض من أقصى الجنوب يستشير سيادته في ما يجب اتّخاذه من مواقف تجاه تلك السياسة. أمّا هو فكان يواجه تلك الأفكار الانعزاليّة الهدّامة بالقول أمام النعاة: «ها أنا باقٍ ومستعدّ لأشتري وأعمّر بدلًا من أن أبيع، وإيّاكم ثمّ إيّاكم الأخذ بتلك الأقوال الّتي يروّجها زعماء مسيحيّون، لا يهمّهم إلّا مصلحتهم الشخصيّة، ولا يفكّرون بأبعد من أنوفهم لأن لبنان لا يقوم إلّا على العيش المشترك بين جميع أبناء الطوائف القائمة فوق أرضه.»

الفصل الرابع

السقوط الكبير

بعد وفاة المثلّث الرحمات البطريرك بولس المعوشي في الأيّام الأولى من كانون الثاني ١٩٧٥ وقيام المطارنة الموارنة بقبول التعازي، إذا بالمطران خريش راعي الأبرشيّة يعود إلى كرسيه في صيدا، فأبادره لدى دخوله بعد السلام قائلًا: «لماذا يا سيّدنا تعود إلينا محمّلًا جميع أغراضك؟ ولِمَ لم تتركها في بكركي لأنّك ستكون الخلف الوحيد المؤهّل لاستلام السدّة البطريركيّة؟» نظر إليّ نظرة استفهام لكوني بادرته بما يحلم به كلّ مطران ماروني بعد شغور الكرسي البطريركي. وكان الآباء إبراهيم الحلو وحنّا خشّان وطانيوس الخوري حاضرين، ولئلّا يظهر أمامنا بمظهر الراغب في أن يتحقّق ما أقول أجاب: «البطريركيّة ليست لنا، بل للطامحين إليها، مبروك عليهم.» أمّا الخوري إبراهيم فقال: «لن تكون إلّا للمطران يوحنّا شديد مطران البرازيل»، أكمل المطران خريش طريقه صاعدًا إلى غرفته في الطابق الثاني وبقينا نحن لفيف الكهنة المذكورين في المكتب نصطلي حول مدفأة الغاز لأنّ البرد كان قارسًا في ذلك النهار. وبعد دقائق قليلة طلبني سيادته على التلفون الداخلي فصعدت إليه مستفسرًا عمّا فاجأته به، وعمّا إذا كان لديّ من أخبار أخرى جمعتها من هنا وهناك، فكان جوابي يؤكّد ما قلته له منذ دقائق قليلة وهو داخل علينا، شارحًا أنّ توقّعاتي منطلقة من كونه المرشّح الأخير الّذي سيتّفق عليه الجميع بعد انقطاع الأمل من نجاح أحد المرشّحَين الأقويّين اللذين سوف يتقاسمان الأصوات. وللحال طلب الخوري إبراهيم وسأله تكرارًا رأيه في المرشّح الأقوى حظًّا فظلّ مصمّمًا على المطران يوحنّا شديد، وتوقّفنا عن الحديث ولم نعد إليه إلّا بعد انتخابه بطريركًا، فذكّرني بما قلته له قبل أسبوعين وأكثر وأسرّ في أذني قائلًا: «كنتَ على حقّ في توقّعاتك على عكس ما قاله نسيبك الخوري إبراهيم».

انتخاب الخوري إبراهيم الحلو مطران على الأبرشية

شغور الكرسي الأسقفي دفع البطريرك الجديد، راعي الأبرشيّة السابق، إلى تعيين الخوري إبراهيم الحلو مدبرًا لشؤونها الروحيّة والإداريّة بانتظار انتخاب مطران أصيل عليها. ولدى التئام مجمع الأساقفة الموارنة تمّ انتخاب الخوري إبراهيم الحلو مطرانًا على أبرشيّة

صيدا، وأعلن عنه بعد وفاة المرحومة والدتي بثلاثة أيّام، فكان عليّ في الوقت عينه أن أقف إلى جانب المطران مستقبلًا المهنّئين ومتقبّلًا التعازي بالمرحومة والدتي ممّن لم يستطيعوا المشاركة في يوم جنازتها.

في اليوم الثالث والعشرين من شهر آب ١٩٧٥ جرت سيامة المطران إبراهيم والمطرانَين، رولان أبو جودة معاونًا بطريركيًّا، وأنطون جبير رئيسًا لأساقفة أبرشيّة طرابلس، وتمّ ذلك في القدّاس الاحتفالي الّذي أقيم عصرًا في الساحة الخارجيّة للبطريركيّة في بكركي بحضور جمع غفير من أبناء الأبرشيّتين وأصدقاء وأقارب الأساقفة الثلاثة. وفي اليوم التالي أي الأحد صباحًا عند الساعة العاشرة جرى استقبال لسيادته على جسر الدامور على حدود الأبرشية الشمالية وسار الموكب في رتلٍ من السيّارات وصولًا إلى الكاتدرائيّة، حيث أقيم القدّاس الإلهي بحضور حشدٍ كبير من أبناء الأبرشيّة ومن مختلف الطوائف، والشخصيّات الرسميّة مدنيّة وعسكريّة ودينيّة، ألقى خلاله المطران الجديد خطابًا شاملًا تحدّث فيه عن قداسة الرسالة الملقاة على عاتقه في أبرشيّةٍ تعاقب عل رعايتها سلسلة من المطارنة الكبار الّذين تركوا بصماتهم الطيّبة فيها على الصعيدين الروحي والدنيوي. وطلب من الله أن يمنّ عليه بالقوّة ويمتّعه بالحكمة لكي يتابع الرسالة في هذه الظروف الصعبة والدقيقة الّتي بدأ يعيشها المواطنون ولاسيّما في الجنوب الغالي، وخصّ الفلسطينيّين المهجّرين والمشرّدين في أنحائها بكلمةٍ تركت في قلوبهم أثرًا طيّبًا كانوا دومًا يذكّرونه بها كلّما كان لهم لقاء بسيادته.

في تلك الفترة، وبعد اغتيال الأستاذ والنائب السابق معروف سعد برصاصة غادرة يوم كان يقود تظاهرة على ساحة النجمة في صيدا قامت احتجاجات صاخبة على مدى أيام، جرى خلالها إغلاق المرافق التجارية والمدارس في صيدا. ووقعت حوادث بين الجيش والمنظّمات المحلية والفلسطينية سقط خلالها قتلى وجرحى وسّعت الخروق بين الجيش والسكان والزعماء السياسيين، ولكن السلطات الدينية مسيحية وإسلامية ظلّت على تواصلٍ مستمرّ في ما بينها حدًّا للمشاكل الدموية التي طالت عددًا لا يستهان به من الأهالي. كما وأن تلك السلطات ظلّت على تواصلٍ ببعض الفعاليات السياسية في جزّين والشوف، إنما لم تستطع أن تضع حدًّا للنيران التي بدأت تتنقّل من مدينةٍ إلى أخرى وزادها توترًا واشتعالها

انقسام الجيش إلى ما يسمّى جيش الملازم أوّل أحمد الخطيب الذي شقّ عصا الطاعة على السلطة العسكرية، وانضمّ إليه أفراد أخذوا يزدادون بتشجيعٍ مما يسمّى الحركة الوطنية والفصائل الفلسطينية التي راحت تستغل هذه الظاهرة الثورية وتموّلها بالمال والسلاح، حتى راحت تستولي على الثكنات في أنحاء الجنوب من النبطية وصور وصيدا. وهذا ما دعا العناصر المسيحية في تلك الثكنات إلى الانكفاء عن الجيش والاضطرار إلى التزام بيوتها، وخلق أزمة جديدة راحت تتطوّر شيئًا فشيئًا عندما توقّفت السلطة الثائرة في هذه المناطق عن دفع رواتب ومعاشات العناصر التي التزمت بيوتها وأبت الالتحاق بما يسمّى جيش لبنان العربي المتحالف كليًّا مع الفصائل الفلسطينية والأحزاب اليسارية المناوئة للسلطة الحاكمة التي أسموها «المارونية السياسية» معتبرين أنه يجب الامتناع عن التقيّد بأوامرها...

في المقابل، ظلّت السلطات الدينية في صيدا، مسيحية وإسلامية، على اتصال فيما بينها بقصد تهدئة الأجواء على قدر الأمكان. كما وأن المطران الجديد للأبرشية حاول كذلك الحفاظ على حسن العلاقة ما بينه وبين زعماء الشوف، وفي مقدّمهم المرحوم كمال جنبلاط. وكانت تقام في الكرسي الأسقفي في بيت الدين اجتماعات لرؤساء بلديات المنطقة مسيحيين ودروز من أجل إشاعة السلام الهشّ الذي لم يدم طويلًا، وبخاصة بعد اغتيال جنبلاط الذي كلّف المسيحيين في منطقة الجبل مئات الضحايا البريئة الذين قتلوا في بيوتهم وعلى الطرقات حين إشاعة خبر اغتياله على أيدٍ أثيمة لا تمتّ إلى المسيحيين بشيء.

وانطلقت المسيرة بصعوبة لأنّ الوطن كان في غليانٍ شديد وخطر التهجير والموت كان يطارد المواطنين في بيوتهم وعلى الطرقات وبدأت التفجيرات تتنقّل من مكانٍ إلى آخر، من مدينةٍ إلى أخرى، جنوبًا وشمالًا شرقًا وغربًا، والرعب يسيطر على الكبار والصغار، ولم تسلم زاوية في الأبرشيّة من شرّها. وتنادى الرؤساء الروحيّون والمدنيّون في صيدا غير مرّة، لتدارس الأوضاع الراهنة والعمل بما أوتوا من حكمة ودراية على الحدّ منها ولجم المتطرّفين الّذين راحوا يعيثون في البلاد فسادًا، فتارةً كانوا يصلون من خلال اتصالاتهم إلى نتائج حسنة أو مقبولة وطورًا كانوا يقفون عاجزين أمام ما يجري على الساحة؛ حيث كنّا نرى ونشهد ونسمع بالأبرياء والعزّل يسقطون ضحايا الإجرام والعنف.

وإذ كان الوقت يمرّ كنّا نرى الأزمة تشتدّ حتّى باتت الطرقات غير آمنة والقرى ذاتها تتعرّض لهجومات غادرة توقع ضحايا بريئة بين السكّان الآمنين. أقول ذلك وقد كنت شاهدًا لما يجري وعاملًا دومًا على تحرير مخطوفٍ هنا في المنطقة أو هنالك في المناطق الشرقيّة الّتي يسيطر عليها حزب الأحرار والكتائب اللبنانيّة، حتّى أنّه ما كان يمرّ يوم أو ليل إلّا وتنهال علينا الطلبات المباشرة الّتي ينقلها إلينا ملهوفون على فقد نسيب أو عزيز، هنا أو هناك. وكم مرّةٍ كنّا نفاجأ بالتهديد والوعيد إن لم يعد من المناطق الشرقيّة من احتجز هناك، لدى مجموعة معيّنة أو افتقد ولم يعد، فتقع التهمة جزافًا على فئة لا ناقة لها في الأمر ولا جمل، ولا مجال للاتّصال إلّا بالمطرانيّة المارونيّة في صيدا، يحمّلونها بعض المسؤوليّة عمّا يجري في الجزء الشرقي من بيروت وينتظرون منها تدخّلًا سريعًا من أجل تحرير مخطوف!

أحداثٌ مثيرة

على سبيل المثال لا الحصر أذكر حادثة جرت لي، فبينما كنت في المكتب في دار المطرانيّة ذات صباح، دخل عليّ فجّأة شاب غريب لم يكن لي عهد به مضطربًا متشنّجًا يحمل بيده جريدة «المحرّر» ومن دون أن يلقي التحيّة العاديّة ضرب بيده على زاوية مكتبي قائلًا: «أنا أريد أن انتقم لوالدي الّذي شنقوه في ساحة جونيه.» وكان الخبر المدسوس مذكورًا في الزاوية السفلى من الصفحة الأولى للجريدة. وبالطبع أنا ما صدّقت الخبر وحاولت إقناع الشاب بالأكذوبة المدسوسة فأبى أن يصدّق وبقي يهدّد بصوتٍ عالٍ وأنا وحيد في المكتب أحاول تكذيب الخبر وصاحبنا متمسّك بما كتبته الجريدة. ومع يقيني أنّ الخبر مدسوس، إشعالًا لنار الفتنة، طرأ على بالي حلّ قد يدخل بعض الهدوء إلى نفس ذلك الشاب، فقلت له: «أتريد أن تأكل عنبًا أم قتل الناطور؟ أتريد أن تقتلني ثأرًا لدمّ والدك الّذي تدّعي الجريدة أنّه مقتول في جونية على أيدي المسيحيّين؟ إنّي واثق من أنّ الخبر المنشور كاذب وأنا مستعدّ الآن إلى أن أذهب وإيّاك إلى مركز البريد في المدينة لإرسال برقيّة إلى البطريرك الماروني وأخرى إلى بيار الجميّل، أطالب فيهما بوالدك. ولو لم يكن الهاتف معطّلًا بين صيدا وبيروت لكنت اتصلت هاتفيًّا أمامك...» هدأ روع الشاب؛ إذّاك تناولت ورقة بيضاء وكتبت عليها برقيّة بالمطلوب، فقرأتها عليه ولمّا سمعها جلس وشرب فنجان قهوة، ثمّ خرجنا معًا إلى مركز البرق والبريد في المدينة الّذي لم يكن فيه سوى

موظّف واحد من آل حجازي، يتمشّى لقلّة الشغل. حيّيته وطلبت منه أن يرسل البرقيّة الّتي بيدي تهدئةً لخاطر الشاب الّذي كان يرافقني، فأجابني الموظّف حجازي بأنّ الاتصال مقطوع من هنا مع المنطقة الشرقيّة. فقلت له: «حاول مع بيروت» وإذ رفض الموظّف في بيروت أن يتصّل برقيًّا بالشرقيّة، رجوته أن يقرأ عليه فحوى الكتاب، لعلّه يقبل ويتجاوب معنا؛ وبعد أخذٍ وردّ استمرّ أكثر من ربع ساعة، رضي الموظّف في بيروت بأن يقبل البرقيّة ويرسلها. فدفعت أجرتها واستلمت إيصالًا بالمبلغ المدفوع، وعدت إلى المطرانيّة سيرًا على الأقدام، بينما تركني صاحبنا على الباب الخارجي لمكتب البريد دون أن يقول كلمة شكر، وانصرف في حال سبيله.

في يوم من الأيّام سمعت أنّ تاجرًا كبيرًا في صيدا ذهب إلى بيروت الشرقيّة ليشتري بضاعة لمحلّاته في صيدا، من الحديد والخشب والخرضوات، ولم يعد لا هو ولا سائقه. فجاء من قبله بعض من أهله وذويه يقصّ علينا الخبر المزعج، وأجرينا الاتّصالات المكثّفة دون أن يلقى الأهل نتيجة. فارتأى المطران إبراهيم أن يذهب إلى القصر الجمهوري بعد أن اتّصل بمدير غرفة الرئاسة، الأستاذ كارلوس خوري. رافقته إلى القصر وكان اجتماعٌ إلى ضابطٍ كبير في القصر إضافة إلى الأستاذ كارلوس فأُجرِيَتْ اتّصالات، فَهِمنا من خلالها أنّ الشخصين المطلوبين قد وجدا سالمين وسيعودان بعد قليل إلى صيدا. حملنا هذا الخبر وعدنا إلى صيدا، وفي طريقنا اِلتقينا سيّارتين من أقارب المخطوفين، قرب معمل كهرباء الجيّة، وإذ تعرّف من في السيّارتين إلى سيّارتنا أوقفونا بإشارة، فتوقّفنا وإذ سألونا أخبرناهم بما عرفناه في القصر عن المخطوفين، اللذين يعودان قريبًا جدًّا إلى صيدا، فصفّق للخبر ركّاب السيّارتين وهم الأقارب للمخطوفين، وشكرونا وأكملنا طريقنا إلى صيدا، حيث تناولنا سيادته وأنا، طعام الغداء ومن بعده صعد سيادته إلى بيت الدّين وبقيت في صيدا لوحدي.

عند المساء، استقبلت في مكتبي في دار المطرانيّة بصيدا ثلاثة مواطنين أتوا معًا لزيارتي وهم: جورج وزير وميشال صافي وثالث من آل عنتر اسمه على ما أظنّ مصطفى، يملك في صيدا على طريق جزّين محلًّا للأدوات الكهربائيّة. وبينما كان الحديث طبيعيًّا، فيما بيننا، إذا بالسيّدين صافي وعنتر يخرجان بسرعة من باب المكتب دون أن يستأذنا أو يودّعا، وبعد برهة وجيزة لا تتجاوز الثواني العشر يخرج جورج وزير متباطئًا دون أن يقول لي

كلمة، فلحقت به لأرى ما الأمر، فصرخت بي بضع نساء مسلمات في ساحة المطرانيّة قائلات: «يا أبونا خلّيك جوّا»، بينما كان يتقدّم الكلّ شابان أو أكثر واجهاني بالعبارة التالية: «إنتو بتخطفو ونحنا منخطف كمان» وظلّت النساء يصرخن: «يا أبونا فوت لجوّا». وأنا واقف لأرى ما يريد منّي أولئك الشبّان، وسألتهم: «ماذا تريدون؟» أجابوا: «أنتم تسخرون منّا وتضحكون علينا، منذ ساعات قلتم لنا بأنّ السيّد قاسم وسائقه يعودان، وها هما في طريقهما إلى صيدا، وحتّى الآن لم يصلا. فما معنى ذلك؟» أجبت بكلّ هدوء ورباطة جأش وأنا واقف على الباب: «الحقيقة إنّني ذهبت اليوم ظهرًا مع المطران إلى القصر الجمهوري وراجعنا المسؤولين بشأنهما، فأكّدوا لنا إنّهما في طريقهما إلى صيدا، وقد يسبقانكما إليها. إرتحنا إلى ما سمعناه من أعلى مركز في الجمهوريّة اللبنانيّة ونقلنا ما سمعناه بحرفيّته إلى اللّذين التقيناهم على الطريق قرب محطّة الكهرباء. أين هو ذنبنا ونحن نهتمّ بالموضوع بكلّ جدّيّة، والبرهان على اهتمامنا هو ذهابنا إلى القصر الجمهوري لهذا الشأن دون سواه؟ فإذا لم يحضرا الليلة فأنا مستعدّ لأذهب غدًا صباحًا إلى بيروت للسؤال عنهما لدى الرئيس كميل شمعون. وإذا كان أحد منكم يريد أن يرافقني فليأتِ إلى هنا غدًا صباحًا الساعة السابعة...» سكت الرجال وامتنعوا عن مرافقتي ونظروا إلى بعضهم بعضًا فإذا بسيّدتين من الحاضرات تقولان: «نحن نذهب بمعيّتك» وهكذا صار.

صباحًا استأجرت سيّارة عند الساعة السابعة وانطلقت بهما إلى بيروت، لكنّ السيّدتين لم تريدا أن ترافقاني إلى المنطقة الشرقيّة، فنزلتا قرب المحكمة العسكريّة لانتظاري هناك. أكملت طريقي إلى بيت الرئيس شمعون في الأشرفيّة، ولمّا وصلت إلى مدخل المصعد، وطلبته نزل وفيه الرئيس شمعون وشخص آخر لا أعرفه. فاجأني الرئيس بعد أن حيّيته وطلبت أن أراه على حدة قال عاليًا: «شو الموضوع؟» قلت: «جئت طالبًا مساعدة منكم فخامة الرئيس، في البحث عن شخص من آل قاسم جاء إلى بيروت منذ يومين ولم يعد ولم يُعرفْ عنه شيء، والمدينة في غليان لمعرفة مصيرهما»، وأخبرته بما جرى لنا في الأمس، أن بعض أقاربهما يزعم أنّهما عند شخص ملقّب بالحَنَش. نظر الرئيس إلى من كان نازلًا معه في المصعد، وانتهره قائلًا له: «بيت قاسم أهلنا وأصحابنا، لا يجوز أن يعاملوا هكذا، إذهب وابحث عنهما وخلّي الأبونا في المركز عندك إلى أن تعود بهما إليه...»

فأجاب المرافق وهو الملقّب بالحنش: «سيدي، أنا لا أعرف شيئًا عنهما.» عندها قال الرئيس: «فتّش عليهما وأعط حضرة الأب الجواب.» وذهب الحنش بي إلى المكتب في دار القنصليّة البولونيّة التي كان الحزب قد اتّخذها مركزًا له في عين الرمّانة قرب كنيسة مار أنطونيوس، وانتظرت حتّى الساعة الثالثة بعد الظهر، من دون أن أعرف شيئًا. ثمّ أخذتُ السيّارة وعدت إلى صيدا مارًا أمام المحكمة العسكريّة لأنقل معي السيّدتين اللتين جاءتا معي صباحًا، فلم أجدهما، وكمّلت طريقي إلى صيدا، ولم أعد أعرف شيئًا عن المفقودين إن كانا قد عادا إلى عائلتيهما أم لا. لكنّني عملت جهدي بحثًا عنهما، كما كنت أعمل في مثل تلك الحال، وقلّ من عاد يشكر على خدمة من ذاك النوع، ما كنت أتأخّر عن القيام بها عملًا بالقول المأثور: «إعمل منيح وارم في البحر... فالبحر يستوعب كلّ شيء والله وحده يراك ويجازيك.»

أعمال المطرانيّة ونشاط رابطة كاريتاس

لمّا كنت مسؤولًا عن إقليم كاريتاس في صيدا والزهراني والشوف، ومركزه في إحدى البنايات الّتي تملكها المطرانيّة على شارع رياض الصلح في صيدا، فقد رافقت مشاكل المهجّرين منذ اليوم الأوّل للحرب الّتي بدأت في الجيّة على أيدي الفلسطينيّين، تبعها إحراق البيوت بعد نهبها، والّتي رافقها الهجوم على قصر الرئيس شمعون في السعديّات وهروب المسلّحين والمقاومين فيه بحرًا إلى بيروت، بعد اشتداد الضغط عليهم برًّا من كلّ جهة. كانت المطرانيّة كما كانت كاريتاس دومًا في الخدمة بقدر ما تمكّنها الظروف الماديّة والأمنيّة، لكي تصل بالّذين هجّروا من بيوتهم إلى الشوف الأعلى والأوسط، أو إلى مناطق صيدا وجزّين، الّتي كانت لا تزال تنعم بأمن مقبول، وهدوء يساعد على التنقّل من قرية إلى قرية، لمساعدة المهجّرين بالطعام والغطاء والكساء والدواء. عندما تهجّرت الجيّة والدامور توزّع قسمٌ من أهاليها إلى المناطق الّتي سمّيتها، فمنهم من أقام في تجمّعات سكنيّة كالأديار والبيوت ومنهم من غادر إلى الجهة الشرقيّة من بيروت. ولكن عندما تدخّل الأستاذ فايز القزّي المنتمي إلى حزب البعث العراقي واتّفق على عودة أهالي الجيّة إلى بيوتهم وكانوا يعودون بحراسة معيّنة، وراحوا يرمّمون بعض الشيء بيوتهم، كانت لي فكرة وهي أن أقدّم لكلّ بيت يعود صاحبه فرْشًا من الإسفنج مع أدوات أوّليّة للمطبخ، تساعده

على تدبير أموره بطريقة أوّليّة إذا لم أقل بدائيّة، على أن تتضمّن أدوات المطبخ لائحة مؤلّفة من: بابور كاز، ونصف دزّينة صحون من كلّ نوع مع ملاعق وشوك وطناجر وجوط وما يلزم للغسيل والجلي، لأنّ القادم إلى بيت محروق ومرمّم بطريقة مقبولة، يجده فارغًا مكنوسًا، يستصعب الدخول إليه والإقامة فيه، على أمل أن يمكّنه الله أو الخيّرون من تدبير أموره بطريقة فضلى... وعلى سبيل المثال، فإنّ ما وزّعته المطرانيّة بمساعدة كاريتاس في الجيّة دون سواها مائة وسبعين مطبخًا مجهّزًا، ولم يكن الحصول على تلك الأدوات اللازمة سهلًا. فبعد أن استنفدنا كلّ ما في سوق صيدا، انتقلنا إلى أسواق النبطيّة، وإذ نفد كلّ ما فيها من ذلك النوع، كلّفت شابًا من جزّين يدعى نادر نادر، انتقل إلى سوق الشام لشراء ما كان يلزمنا لسدّ تلك الحاجات الضروريّة، لأنّ الذهاب إلى بيروت كان صعبًا وخطرًا، إن لم يكن مستحيلًا. أمّا الأسعار فقد فرضت علينا فرضًا، بحيث إنّنا كنّا ندفع ثمن تلك الأدوات في بداية الأمر ستّين ليرة لبنانيّة آنذاك، فراحت تتصاعد شيئًا فشيئًا حتّى مائة وستّين ليرة لبنانيّة. ورُبّ قائل يتساءل اليوم عن تلك المساعدة الزهيدة، وأهمّيّة الحديث عنها في هذا الكتاب؛ صحيحٌ أنّ كلّ من عاش الأحداث في لبنان واكتوى بنيرانها إمّا قتلًا أو تهجيرًا أو جوعًا وبردًا وعريًا يقول إذا كان صادقًا، إنّ تلك المساعدة كانت أشبه بكأس ماء بارد يقدّم إلى كلّ مصاب في رزقه وأهله وصحّته ولا تعوّض عن خسارة مُنيَ بها في الأرواح والممتلكات، ولكنّها تعني حضورًا ومشاركة للإنسان المعذّب المهجّر في آلامه... حتّى بات الكثيرون من العائدين يطالبون بها، وإن لم يكونوا بحاجة إليها.

واستقبلت كرسي المطرانيّة في بيت الدّين عددًا من مهجّري الدامور في الأيّام الأولى من كانون الثاني ١٩٧٦ حتّى السابع عشر من آذار ١٩٧٧ يوم اغتيل المرحوم كمال جنبلاط، إذ غادروها إلى أمكنة أخرى خوفًا من الشرّ الّذي راح يوقع الضحايا البريئة في صفوف المسيحيّين، المقيمين حتّى ذلك التاريخ في بيوتهم وقراهم، كما جرى في مزرعة الشوف، وبطمة، والباروك، ومعاصر الشوف، وسواها من القرى المختلطة حيث ذهبت ضحايا مسيحيّة بريئة.

وفي اليوم التالي لاغتيال الزعيم الدرزي والمجزرة الرهيبة الّتي تبعته، صعد المطران إبراهيم من صيدا يتفقّد الرعايا الّتي جرت فيها المذابح ومن بينها مزرعة الشوف، الذي وقع

فيها على ما أظنّ سبعة وخمسون شهيدًا من كلا الجنسين، ومختلف الأعمار. كما التقى في إحدى القرى وليد جنبلاط ابن الشهيد كمال حيث كان يتفقّد القرى شديد التأثّر بما جرى من مجازر بشرية. وعاد مسودّ الوجه، حزينًا كئيبًا لما رأى وسمع من شهود عيان نقلوا إليه ما رأوا وشاهدوا بأمّ العين. وإذ علم أنّ بعض الجرحى قد أرسلوا إلى مستشفى أوتيل ديو في بيروت، ذهبنا معًا لتفقّدهم، وما كان أشدّ حزننا عندما كنّا نسمع أولادًا نجوا من الموت، بعد أن جُرحوا، ينقلون إلينا ما سمعوا وشاهدوا في تلك الحملة الجهنّميّة التي نجوا منها بأعجوبة.

نجا من تلك المذبحة خوري رعيّة مزرعة الشوف الخوري موريس زيادة الّذي كان يقيم في الأنطش، فما إن سمع الرصاص يلعلع حتّى اختبأ في البيت مع عائلته، فنجا بأعجوبة، وكأنّ العناية قد نجّته من موتٍ محتّم، غير أنّ أحد الآباء المخلّصيّين العائد في سيّارة عموميّة من زحلة إلى دير المخلّص، مرورًا في مزرعة الشوف استوقفوه في الساحة وقتلوه وسائق السيّارة. وظلّ الخوري موريس مختبئًا حتّى صباح اليوم التالي، إذ جاء من يجمع الجثث من البيوت والطرقات وعمّ حزن شديد بين أبناء الأبرشيّة وفي البلاد بأسرها. وبدأ النّاس يرون في تدبير تلك المجزرة أيادي سوريّة ضالعة في مؤامرة، بدأت باغتيال الزعيم الدرزي مثيرة حفيظة الدروز ضدّ المسيحيّين الأبرياء، وجيشهم يرابض في الشوف ولا يبدي حراكًا، بل كان متفرّجًا على ما يجري. ويقال إنّ سيادة المطران باسيليوس خوري مطران صيدا ودير القمر للروم الكاثوليك كان يرأس صلاة جنّاز أحد أبناء الرعيّة في معاصر الشوف، ناشد الجنود السوريّين على الطرقات لكي يتدخّلوا فلم يلقَ أدنى تجاوب. ومرّ في دير القمر على أحد الضبّاط السوريّين الكبار، طالبًا منه التدخّل فلم يلقَ تجاوبًا سريعًا. ويقال، على ذمّة الراوي، إنّ الجيش السوري بدأ ينتشر في اليوم التالي لوقوع المجزرة أي بعد اكتمال فصولها المأسوية...

لا بدّ هنا من الإشارة بألمٍ وأسف إلى أنّ الجيش السوري المعروف بقوات الردع العربيّة، الّذي كان دخل البلاد بموجب اتّفاق بين الدول العربيّة والسلطات اللبنانيّة آنذاك بغية إيقاف الحرب بين اللبنانيّين، بات يعتبر بعد اغتيال كمال جنبلاط مشاركًا في تأجيج الاضطرابات، ومسؤولًا عن اغتياله. وبعد تلك المجزرة، بدأ المسيحيّون يغادرون بيوتهم

وأرزاقهم في الشّوف وينتقلون إلى بيروت والمناطق الشرقيّة وكثيرون منهم آثروا الهجرة إلى الخارج، وبخاصّة إلى كندا وأستراليا، لتبور أرزاقهم وبساتينهم، وتفرغ الرعايا من أبنائها.

حادثٌ غريب

إنّ ما جرى لم يمنع مطران الأبرشيّة المطران إبراهيم الحلو من القيام بزيارة الرعايا والكنائس الّتي هجرها المؤمنون. وفي أحد الأيّام، وقبل أن يغادر الكرسي الأسقفي في بيت الدّين، أحبّ أن يقوم بزيارة إلى مزرعة الشوف، الّتي خلت كلّيًا من المسيحيّين، وإذ دخل البلدة وانتقل إلى الكنيسة، كنيسة مار جرجس يتفقّدها وهي خالية، يبدو أنّ من التقاهم صدفة نظروا إليه بكثير من التعجّب والاستهجان، ولكنّه تابع سيره وخرج بالسيّارة من البلدة، وانتقل إلى كرسيه في صيدا، وانضمّ إلينا. وبعد أن تناولنا طعام العشاء معًا صعد إلى مكتبه في الطّابق الأوّل، وما إن دخل المكتب وأضاءه حتّى أُطلق عليه من الخارج، من أسفل إلى فوق، طلقٌ ناري اخترقت الرصاصة الشبّاك واستقرّت في الجدار الشرقي الداخلي من المكتب، فوق باب غرفة النوم. وللحال أطفأ الغرفة وعاد مسرعًا إلينا، نحن الّذين كنّا لا نزال في الطابق الأرضي، وقد سمعنا الطلق النّاري دون أن نعرف مطلقه، والمكان الّذي صوّب إليه. خرجنا إلى الساحة الخارجيّة، وكان ظلام فلم نرَ أحدًا. لكنّ الّذي جرى بقي فاعله مجهولًا، والغاية منه مجهولة وبخاصّة لأنّ الشارع الصيداوي آنذاك، كان عاديًّا، وما كان يدعو إلى القلق، ولا إلى الحذر. إنّما ظنّ بعضنا أنّ تلك الرصاصة الموجّهة إلى مكتب المطران دون سواه، بعد الزيارة الخاطفة الّتي قام بها إلى مزرعة الشوف قد تعني أنّه مراقب، وتحت مرمى رصاصنا إنّى كان وحيثما يتوجّه، فعليه أن يكون حذرًا جدًّا. ذاك هو التفسير الّذي أعطيه لما جرى وقد يتكرّر. وسارت الأيّام والبلاد تنتقل من سيّءٍ إلى أسوأ.

زيارة بكركي ومفاجآتها مع غبطة البطريرك خريش

في أحد الأيّام من شتاء ١٩٧٧ لا أذكره بالضبط إنّما أذكر ما جرى لي فيه. أعلنه على الملأ ليكون تحت مجهر القارىء والسامع، لا فرق عندي. بعد أن تناولت طعام الغداء على مائدة غبطته، دعاني إلى مكتبه الخاص وقدّم إليّ سيغارًا كما كان يفعل معنا في صيدا، يوم كان مطرانًا عليها. وفي حديثه إليّ طلب منّي بإلحاح أن أتسلّم المدرسة الإكليريكيّة

في غزير الّتي كانت تشكو على ما يبدو من فوضى. رفضت التجاوب مع طلبه؛ وإن يكن ملحًّا ومصرًّا عليه. وأنا بقيت على موقفي الرافض، وهو يلحّ ويلجّ، وأنا أيضًا مصرّ على الرفض، حتّى أنهى الحديث بقوله أنا لا أعتبرك رافضًا بالرغم ممّا أجبتني به، سأترك لك الوقت للصلاة والتأمّل كما أطلب منك رسالة تشرح لي فيها أسباب رفضك لطلبي ذاك إذا بقيت مصرًّا؛ وآمل أن يكون الجواب إيجابيًّا. ودّعته وقفلت عائدًا إلى صيدا والرفض لا يبرح فكري؛ ولاسيّما لأنّي قد عشت، عن بعد مشاكل المدرسة الإكليريكيّة المذكورة، واعتصام طلّابها طوال أسبوع على باب بكركي، ونتائج التحقيقات الّتي أجريت مع الهيئة التعليميّة، وكان لي فيها حضورٌ فاعل لن أنساه، وقد يكون ذلك الحضور باعث أمل في ذهن غبطة السيّد البطريرك الّذي كان رئيسًا للجنة التحقيق. وقد اتّخذني له فيها أمين سرّ وأظنّ أن ما كنت قد أبديته من نجاح على ذلك الصعيد قد حمله على أن يعهد إليّ بإدارة الإكليريكية.

عدت إلى صيدا وصلّيت وتأمّلت وحررت رسالة إلى غبطته أعلنت فيها عن تجاوبي مع رغبته على أن تكون علاقة رئيس الإكليريكيّة على اتّصال مباشر مع البطريرك دون أيّ وسيط أيًّا تكن رتبته لأن الماضي يعطي المستقبل درسًا يجب على الإنسان أن يفيد منه، والنقطة الثانية الّتي ضمّنتها ذلك الكتاب هي أن تكون لي الحرّيّة في اختيار أربعة كهنة أرى فيهم إمكانيّة التعاون المثمر معهم إنهاضًا للمدرسة الإكليريكيّة وتحسينًا لمستواها.

وإذ استلم غبطته الكتاب دعا السادة الأساقفة إلى اجتماع في البطريركيّة واتّصل بي هاتفيًّا لكي أحضر إلى بكركي فلبّيت الطلب للحال؛ وبينما كان السادة الأساقفة مجتمعين مع غبطته في الصالون الطويل الكائن بين قاعة الاستقبال الكبرى ومكتب غبطته الخاص، دعاني فدخلت ووجدته جالسًا على كرسي من خيزران في المقدّمة، والسادة الأساقفة على كراسيهم جالسون، قال لي: «أطلعت السادة الأساقفة على رسالتك وقرأتها على مسامعهم فرفضوا القبول بما تضع من شروط، ولكنّي أريد منك الآن أن تقول السبب الّذي من أجله ترفض أن يكون بينك وبين «البطريرك مندوبٌ». فأجبت باقتضاب: «غبطتك تعرف السبب.» ولم أنتظر أن يطلب منّي لا غبطته ولا أحد من السادة الأساقفة إيضاحًا لأنّهم جميعهم ملمّون بالمشاكل الّتي جرت يوم اعتصم الإكليريكيّون على مدى أسبوع على باب البطريركيّة في عهد المثلّث الرحمة البطريرك بولس المعوشي والحلول الّتي قضت

بفكّ ذاك الاعتصام. وبما أنّ الحاضرين اكتفوا بذاك الجواب المقتضب، تابع غبطته موجّهًا إليّ السؤال حول الشرط الثاني الّذي ضمّنته كتابي فقال: «ومن هم الكهنة الّذين تطلب أن تتعاون معهم للسير في الإكليريكيّة؟» غريب، عجيب، هو هذا السؤال طالما أنّ الأوّل مرفوض؛ وبالتالي أصبح التعاون معي غير ممكن. ومع ذلك أعطيت أسماء الكهنة الأربعة بدءًا بالخوري يوسف بشارة، مرورًا بالخوري مارون مطر والخوري يوسف ضرغام وصولًا إلى الخوري بولس مطر. وما إن تلّفظت بإسم الخوري بولس مطر حتّى انتفض سيادة المطران زيادة رافضًا لكونه مشغولًا في المطرانيّة والأبرشيّة ومدرسة الحكمة ولن يقبل بذلك. إذّاك نظرت إلى سيادة المطران زيادة قائلًا والبسمة على شفتيّ دون أيّ انزعاج أو ارتباك فيّ: «سيّدنا أتراني واقفًا في الساحة العموميّة أو على الرصيف منتظرًا ولا عمل لديّ ولا شغل؟» إذّاك شكرني غبطته فخرجت مرتاحًا مطمئنًّا، محتفظًا في قلبي وفي ضميري بصورة واضحة وصريحة عن الطريقة الّتي تساس بها أمور الكنيسة. وبعد وقت قصير جدًّا استدعي الخوري يوسف بشارة وسلّمته الكنيسة المارونيّة إدارة إكليريكيّة مار مارون البطريركيّة في غزير. ولقد تقرّر بعد ذلك اللقاء الصريح، إعلان حرب ضدّي كلّما كان يقدّم اسمي مرشّحًا على المطرانيّة. ولم يُخفِ عنّي أكثرُ من مطران التقيته بعد سنوات ولا أزال ألتقي أحدهم وقد كان حاضرًا ذلك الاجتماع القصير: «لقد كنتَ قاسيًا جدًّا معنا وإلّا لكنتَ صرتَ مطرانًا منذ زمن طويل.» فأجبت: «أنا لست نادمًا على ما قلت ولست متحسّرًا على ما فاتني بسبب ما قلت...»

وانتقلت الأمور في البلاد من سيّء إلى أسوأ: التقاتل مستمرّ والهجرة على قدم وساق ومسيحيّو الأطراف يهاجرون، والرعايا تقفر حتّى أنّ الكهنة لسبب أو لآخر راحوا ينتقلون إلى مناطق أكثر أمنًا وإذا ما سألنا المطران عن تساهله مع البعض منهم، يكون جوابه: «لا أريد أن أفرض عليهم ما لا يستطيعون تحمّله أو قبوله من تضحيات». وعلى سبيل المثال لا الحصر جاء أحدهم وادّعى أمام المطران بأنّ عناصر أمل تلاحقه وتريد خطفه، وأنّه يريد الذهاب إلى بيروت لحاقًا بأهله، تاركًا ثلاث رعايا بلا راعٍ، فكان لا بدّ لي من إقامة القدّاس يوم الأحد لكلّ منها، فتجنّدت لهذه الغاية، حتّى صرتُ أستأجر سيّارةً صباح كلّ أحد، لأقوم بثلاثة قدّاسات الأوّل في خزيز الساعة السابعة والنصف، والثاني في عزّة

التاسعة والثالث في صربا (الجنوب) الحادية عشرة لأعود ظهرًا إلى المطرانيّة في صيدا، إلى ما هنالك من واجبات روحيّة وحاجات يجب تأمينها في كلّ من تلك الرعايا. وما يقال هنا يقال أيضًا في رعايا أخرى، التزم بخدمتها كهنة ضحّوا ولا يزالون يضحّون بفرح في كرم الرب لا طمعًا بفلس، بل حبًّا بخراف المسيح، لئلّا تضيع وتصبح لقمة سائغة للذئاب الّتي تتربّص بها شرًّا. وتبادلت هذه الخدمات الطارئة أكثر من سنة مع بعض الكهنة الغيارى والعاملين بصمت ومحبّة.

الأسبوع الاجتماعي في دير سيّدة اللويزة

في الأيّام الأولى من شهر تشرين الأوّل ١٩٧٦ أقيم أسبوع اجتماعي في دير سيّدة اللويزة، شارك فيه ممثّل عن كلّ أبرشيّة وممثّل عن كلّ رهبانيّة نسائيّة أو رجاليّة، وضمّ دكاترة في علم الاجتماع ورجال قانون ورؤساء محاكم، كما شارك من قبل البطريركيّة المارونيّة سيادة المطران نصر الله صفير، البطريك الحالي، ودام هذا العمل طوال أسبوع كامل شاركتُ فيه ممثّلًا لأبرشيّة صيدا المارونيّة، فكنت أحضر الجلسات نهارًا وأعود لأقضي الليل في دير يسوع الملك. في اليوم الأوّل كنّا تسعة وخمسين مشاركًا: تُوزَّعُ علينا ملفّات باللغة الفرنسيّة لكي نناقشها، أمّا مضمونها فلم يعجبني، وقضينا النهار بعد تناول الغداء حتّى الساعة الخامسة على ما أظنّ، بعدها رجعت إلى دير يسوع الملك على أن أعود صباحًا إلى دير سيّدة اللويزة. ولمّا كان العدد كبيرًا فقد جرى انقسامنا إلى فئتين تعمل قبل الظهر، كلّ فئة منهما على انفراد ثمّ تنضمّان بعد الظهر إلى مناقشة عامّة للانتهاء بخلاصة ما قد ناقشت كلّ منهما...

في اليوم الثاني، طلبت الكلام عند الساعة التاسعة والربع صباحًا وطرحت ما يلي على المجتمعين: إنّي أمثّل أبرشيّة تضمّ في الرقعة الّتي تقوم عليها من الوطن موارنة وكاثوليك وأرثوذكس وبروتستانت كما تضمّ دروزًا وسنّة وشيعة ويهودًا وإن كانوا قلّة في صيدا، كما تضمّ مجموعة من اللاّجئين الفلسطينيّين في المخيّمات لا يستهان بها. وبعد حضوري قسمًا من الاجتماعات أرى أن العمل على تعزيز الحضور المسيحي على صخور كسروان دون رعاية أولئك الّذين يعيشون في المناطق الأخرى ولاسيّما في أطراف لبنان لا يجوز،

ولست مستعدًّا إلى الانضمام إلى كنيسة تريد التقوقع على صخور كسروان. وما كدت أنهي كلامي حتّى وقف عن كرسيه من كان على شمالي وهو الرئيس عبد الله فرحات، وأمسك بيدي اليسرى رافعًا لها قائلًا باللغة الفرنسيّة: «أنا من رأي المونسنيور حلو مائة بالمئة»، فتوقّف الاجتماع لتناول القهوة. خلال ذلك الوقت الحرّ تقدّم إليّ الأباتي شربل قسّيس رئيس عام الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة آنذاك، قائلًا لي باللغة الفرنسيّة ما معناه: «لماذا أنت ضدّي؟» أجبت: «لست ضدّك ولم أذكر اسمك فكيف أكون ضدّك؟» وأردف قائلًا: «إنّ مداخلتك موجّهة ضدّي، ضدّ ما يعرض على المؤتمرين الّذي هو من صنعي أنا.» إنتهى وقت الراحة وعدنا للعمل، فإذا به ينتقل من مكانه ويجلس بقربي حتّى إذا ما كنت مستعدًّا لأن أبدي رأيًا وملاحظة كنّا نتداوله بصوت منخفض ويقوم هو شخصيًّا للتحدّث به علنًا. مع بعض التغييرات في الموقف دون أي اعتراض علني مني تجنبًا للمشاكل.

قضينا الأسبوع معًا وعدت إلى صيدا أطلع سيادة المطران حلو على ما جرت مناقشته ودراسته في ذلك الاجتماع فقال لي بالحرف الواحد بشأن الأباتي قسّيس: «لقد كنّا مجتمعين في أحد الأيّام في بكركي مطارنة ورؤساء عامّين وكنّا نتحدّث عن أمور الناس وعن الحرب وويلاتها، فقلت في حديثي: «عليكم جميعًا أن تفكّروا بأوضاع المسيحيّين الّذين يعيشون في أطراف لبنان والّذين يذوقون الأمرّين من تصرّفات جيرانهم وإخوانهم العدائيّة، انتقامًا لما يلحق بذويهم في هذه المناطق الشرقيّة.» فأجابني قدس الأباتي: «لقّوها يا سيّدنا والحقونا ولا تبقوا هناك»، فأجبته أنا: «هناك وُلدنا وهناك نعيش وسنبقى هناك مهما كلّفنا الأمر».

ليسمح لي القارىء العزيز بأن أنقله من السبعينات إلى التسعينات وقد عاد الهدوء إلى لبنان، وذلك يوم كنت وسيادة المطران إبراهيم الحلو في المصيلح في دارة الرئيس نبيه برّي للاشتراك في مهرجان زراعي، دعا إليه الكثيرين تعزيزًا لشتلة الدخان، على ما قيل بحضور وزير الزراعة. وكانت الجماهير تملأ القاعة والدّار تغصّ بالمشاركين، ونحن في مقدّمة الحضور، فإذا بالأباتي قسّيس يدخل فيسلّم ويجلس إلى جانبي، فنظرت إليه مرحّبًا مبتسمًا وقائلًا: «وما الّذي حدا بك للمجيء إلى هذه المنطقة العزيزة؟» فأجاب دون تردّد: «لقد غيّرنا كثيرًا»، «لقد غيّرت يا كريم اللحية بعد خراب البصرة»، ذاك كان ردّي عليه.

كان لا بدّ من الجمع بين موقفين متناقضين للشخص عينه وإن كان الزمن قد باعد بينهما، فالذاكرة حيّة والحمد لله، وكان لا بدّ من التذكير بهما، حبًّا بالقارىء العزيز، وإحياءً للتاريخ الّذي يسجّل كلّ شيء، تأكيدًا على القول المأثور اللاتيني «historia magistra vitae» التاريخ معلّم الحياة، ألا ليت اللبنانيّين يدرسون التاريخ، تاريخ بلادهم ليتعلّموا من عبر الماضي على ما فيه من أخطاء ارتكبوها وحسنات صنعوها لتظلّ ماثلة أمام عيونهم، حيّة في قلوبهم، ليقوموا بالرسالة المنوطة بهم في هذا الوطن الحبيب.

إتّصالات واجتماعات للتهدئة

مع أنّ المجازر في الشوف لم تلقَ من قبل السلطات المدنيّة والعسكريّة أيّ اهتمام يذكر وبالرغم من تتابع اللقاءات بين الزعماء المسيحيّين والدروز، فإنّ الوجود المسيحي راح يخفّ تدريجًا خوفًا من أن يذهب المسيحيّون كبش محرقة مرّة ثانية وثالثة على مذبح الانتقام في ساعة التخلّي الّتي قد يضحّى فيها ثانية بزعيم درزي، ليكونوا هم وقودًا لنار الانتقام والحقد.

مذبحةٌ رهيبة في كنيسة بريح

نتيجة لذاك التشنّج القائم، فقد وقعت في كنيسة بريح عدّة ضحايا أثناء القدّاس الإلهي، ساعة هاجم قسم من الدروز المسيحيّين الموجودين في الكنيسة، فوقع عدّة ضحايا من الرجال والنساء، ونجا خوري الرعيّة بأعجوبة. وحتّى كتابة هذه الأسطر، وبالرغم من اللقاءات والاجتماعات المختلفة وعلى كلّ صعيد لا يزال مسيحيّو بريح خارج بلدتهم ولم تتمّ المصالحة المطلوبة بين الفريقين.

نتائج الأحداث الدمويّة على الصعيد المعيشي

إنّ انعدام الثقة بين المواطنين وسيطرة الجيش السوري على بعض المناطق، وتفكّك الجيش اللبناني، وظهور ما يسمّى بالجيش العربي تحت إمرة الملازم أوّل محمّد الخطيب، الّذي استولى بمساعدة الميليشيات، والمنظّمات الفلسطينيّة على ثكنات الجيش في الجنوب حتّى صيدا، وتحالفه أقلّه ظاهريًّا مع منظّمات إسلاميّة، كـ«المرابطون» والحزب

التقدّمي الاشتراكي، جعل التنقّل بين منطقة وأخرى صعبًا جدًّا، وخطرًا على المسيحيّين المنتشرين في الجنوب، من مرجعيون مرورًا بجزّين حتّى صيدا والشوف، كما إنّ طريق بيروت صيدا كانت خطرة على المسيحيّين المضطرّين أن يجتازوها. وأصبح التموين بالطحين والرز والسكّر صعب جدًّا، وبخاصّة لأنّ الحكومة اللبنانيّة كانت تؤمّن الطحين بسعر لا يتجاوز سعر الكلغ الواحد على ما أظنّ ٣٨ غرشًا لبنانيًّا، وإذ حوصرت بعض المناطق كجزّين وبعض القرى المجاورة لها، فقد تدبّرت المطرانيّة أمرها، وصارت تموّنها من الطحين بالسعر المدعوم، وترسلها إليها في كميونات من صيدا عن طريق النبطيّة العيشيّة، كفرحونة، لأنّ الطريق العاديّة مرورًا بلبعا، روم كانت مقطوعة بعد روم لوجود الميليشيات الفلسطينيّة وجيش لبنان العربي عليها، الّذي كان على خلاف مع الجيش السوري الموجود في جزّين، ويمنع التواصل بين الجهتين. وهكذا فقد أمّنت المطرانيّة عن طريق العيشيّة كفرحونة، مائة وطنّين من الطحين إلى جزّين وعين مجدلين وعاراي ووادي جزّين وبكاسين وصبّاح ومشموشة وبتدّين اللقش، إضافة إلى ما يلزم من السكّر والمحروقات الّتي كانت أسعارها دون أسعار المحروقات، الّتي تصل عن يد التجّار إلى جزّين دون أيّة رقابة رسميّة.

بقيت رعايا زحلتي وسنيّا وصيدون وريمات وقطّين وبصليّا مقطوعة عن جزّين وصيدا، فأمّنتُ لها الطحين مباشرة بواسطة شاب من آل صفاوي، شيعي من جباع، كان يأخذ المواد من صيدا ويحمّلها إلى تلك الرعايا، فتدفع له السعر بالكلفة لا زيادة ولا نقصان، ليسلّمني إيّاه بعد حين عودته بكلّ أمانة، مشكورًا. وبعد أقل من ٢٨ سنة جاء بالأمس القريب، وقبل أن أدوّن هذه الكلمات التاريخيّة، يطلب منّي كتابًا بخصوص ابنه الموجود في الولايات المتّحدة الأميركيّة، بقصد التخصّص، والتوسّط لدى إحدى الرعايا المسيحيّة هناك للسماح له بمتابعة دروس التعليم المسيحي. عرفته منذ أن مثل أمامي بعد انقطاع تلك المدّة الطويلة ولبّيت طلبه وأعطيته كتابًا لمن يهمّه الأمر تعريفًا به.

وفيما كان اجتماع فلسطيني لبناني مشترك في صالون المطرانيّة في صيدا، قال أحد الحاضرين وهو من عزّة: «إنّنا بحاجة إلى طحين، ولكنّنا لا نجده بسهولة أيًّا يكن الثمن.» فقال المدعو «أبو موسى» رئيس جبهة التحرير الفلسطينيّة في لبنان:» أنا حاضر لأنّ أقدّم لكم يا صاحب السيادة خمسين طن من الطحين بالمجان»، فرفض المطران

إبراهيم الحلو التقدمة المجانيّة وقال إنّه مستعدّ بأن تدفع المطرانيّة الثمن وصار جدال بين سيادته والسيّد «أبو موسى» حول الموضوع. وفي اليوم التالي، اتّصل أبو موسى بالمطرانيّة هاتفيًّا وقال: «إنّ كميّة الطحين المطلوبة موجودة في منطقة عين الحلوة قرب ثانويّة الصبيان الرسميّة، وعليكم أن تأخذوها في أسرع وقت قبل نفادها.» دبّرت كميونين يحمل كلّ واحد ٢٥ طنًّا، وذهبت إلى المكان المومى إليه وتدبّرت عتّالين حملوا الكميّة في السيّارتين إحداها أفرغت حمولتها في زاوية من الكاتدرائيّة والثانية ذهبت بها إلى الشوف بدءًا بالرميلة: أنا جالس إلى جانب السائق والحمّالان في السيّارة ورحت أسلّم كلّ رعيّة كميّة من الطحين، كنت اتّفقت والمطران عليها. ولمّا وصلت إلى جدرا على الطريق العام أنزلت طنًّا من الطحين، فرفض الموجودون استلام الكميّة لأنّها قليلة ولا تكفي، إذّاك تقدّم منّي الحمّالان وقالا لي: «لو كان هؤلاء بحاجة إلى الطحين لكانوا قبلوا بما قدّمت لهم، لذلك نحن سنعيد ما وضعناه أرضًا إلى الكميون.» ومن هناك إلى الجيّة فأنزلنا كميّة في الدير قرب الكنيسة، بقصد توزيعها على المحتاجين، وبقينا متابعين سيرنا إلى ضهر المغارة فالدبيّة فالبرجين حيث تقدّم منّي المسيحيّون قائلين: «هل بالإمكان زيادة الكميّة لكي نعطي أيضًا المحتاجين من إخواننا المسلمين»، فلبّيت الطلب وزدت كميّة عمّا كان مقرّرًا، وتابعت حتّى عين الحور وصولًا إلى مزرعة الضهر حيث أفرغت كميّة عهدت بها إلى لجنة الوقف، لكي تعطي حصّة منها إلى الجليليّة والمطلّة، لأنّ الوقت أصبح متأخرًا ويجب عليّ الرجوع إلى صيدا. وبينما كنّا في مزرعة الضهر، تطلّع أحد الحمّالين جهة البحر، فقال إنّ السوريّين يلقون قذائفهم على التابلين والمصفاة، وها هي النّار مشتعلة، فقرّرت العودة عن طريق دير المخلّص جون، لكي أتابع التوزيع، لكنّ الحمّالين والسائق رفضوا التوجّه على تلك الطريق، لأنّهم يخافون الحواجز السوريّة المنتشرة. إذّاك اضطررنا إلى العودة مع بعض الحمولة على الطريق ذاتها الّتي اتخذناها صعودًا، ولكن عندما وصلنا قبيل بلدة الرميلة على الطريق الساحليّة المقفرة تمامًا من السيّارات، التقينا واحدة قادمة من صيدا فحذّرنا سائقها من متابعة السير، لأنّ المدفعيّة السوريّة تقصف الطريق الساحليّة، فنظر إليّ السائق وقال: «إنّنا مضطرون إلى العودة ولهذا سوف أطفيء أنوار السيّارة وأسيّرها على مهل، لأنّني أعرف منعرجات الطريق.» ولمّا وصلنا إلى صيدا، كانت شوارعها مقفرة ومعتمة كليًّا، فتابعنا السير

إلى المطرانيّة حيث كان المطران واقفًا على الباب يتطلّع إلى الخارج وبيده مسبحة العذراء خائفًا مضطربًا. توقّف الكميون في الساحة، ووضعنا الأكياس الباقية من الطحين داخل الكنيسة، حتّى يتأمّن وقت آخر نتمكّن فيه من إيصال الحصص إلى الرعايا الباقية.

واتّصل سيادته في اليوم التالي بالسيّد أبو موسى فجاء إلى دار المطرانيّة ودفع ثمن الطحين المذكور خمسة وعشرين ألف ليرة لبنانيّة، بموجب شك على البنك اللبناني للتجارة. ولمّا تساءل المطران إبراهيم عن الاسم الّذي يجب أن يفوّضه بقبض المبلغ المذكور قلت له: «بإسم منظّمة التحرير الفلسطينيّة» أما أبو موسى، فأعطاه اسمه الحقيقي.عندما وقع خلاف بين أبو موسى وجماعته واستلم قيادة الحركة الحاج اسماعيل، جاءنا من يسأل عن اسم الّذي كتب الشك باسمه فراجعنا أصل الدفتر، فوجدنا أنّه بإسم الحقيقي لأبو موسى.

الحياة الروحيّة في الأبرشيّة

بقيت الحياة الروحيّة في رعايا الأبرشيّة قائمة كالمعتاد، ما من كنيسة إلّا وكان القدّاس الإلهي يقام فيها كلّ أحد وعيد، سواء أكان الكاهن مقيمًا فيها أم لا، وفيها تتأمّن الصلوات والرياضة الروحيّة خلال الصوم المبارك، أو في الأيّام القليلة السابقة لعيد شفيع الرعيّة صيفًا أم شتاءً. ورأينا إقامة مخيّم صيفي للأولاد ترويحًا عنهم وتعزيزًا للتعارف فيما بينهم وبخاصّة لمن كانوا يعيشون في المدن حياة صعبة لا يتأمّن لهم في المدارس النشاط الروحي المطلوب. وكان النجاح مضمونًا في تلك المخيّمات الصيفيّة، الّتي كانت ترعاها فئة من الكهنة الشبّان والطلبة الإكليريكيّين إلى جانب الراهبات. ومن بين الأولاد الّذين عاشوا في المخيّمات الصيفيّة كانت دعوات إكليريكيّة ورهبانيّة يقرّ أصحابها بأنّ الدعوة بدأوا يشعرون بها، في المخيّمات حيث كانوا يتعرّفون على الله سبحانه وتعالى ويعيشون تعاليم السيّد المسيح في جوّ من الإخوّة والمحبّة.

بالرغم من الأحوال الأمنيّة المضطربة الّتي كانت تعيشها المنطقة والأبرشيّة كان الاتّصال بالكهنة في رعاياهم مستمرًّا، وكانت تؤمّن لهم الاجتماعات الشهريّة كما في أيّام السلم في صيدا أو جزّين، حسب الظروف الطارئة. ولم تخل سنة من رياضة روحيّة للكهنة في مشموشة أو في دير قطّين، لأنّ الانتقال إلى تعنايل صعب إن لم يكن مستحيلاً والذهاب إلى كرسي بيت الدين ممنوع.

كان للأخويّات المريميّة المنتشرة في الرعايا كما الحركات الرسوليّة للشبيبة دورها في إنعاش الحياة الروحيّة، وصرف الشبيبة قدر الإمكان عن أمور الحرب الّتي كانت تحصد بنيرانها عن معرفة أو عن جهل وطيش يودي بمن يقعون ضحيّتها شرّ المهالك. وكم كنّا نتمنّى لو أنّ الحكّام المدنيّين يرجعون إلى ذواتهم ويحكّمون ضمائرهم للعمل على إيقاف نيران الحرب، الّتي تأكل الأخضر واليابس والألوف من النّاس الّذين عن حقّ أو بطل، عن جهل أو عن معرفة كانوا وقودًا لها.

إنّ من يعود بالذاكرة إلى تلك السنوات الصعبة الّتي عاشها أبناء الأبرشيّة لا بدّ وأن يقرّ بأنّ أبناءها تعذّبوا كثيرًا وأنّ رعايتها كانت صعبة جدًّا، لأنّ امتدادها على مناطق مختلفة، فرض على راعيها أن يقف موقف الحكم الواعي لئلّا يتّهم من قبل هذه الفئة الّتي تعادي تلك الفئة بالانحياز، ولم يخل أحيانًا من ذلك الاتّهام الباطل. ومن الضروري إيضاح الأوضاع الّتي كانت تعيشها المطرانيّة في إدارة الأبرشيّة وتدبير شؤونها الروحيّة وسواها وهي موزّعة كما يلي:

مرجعيون وحاصبيّا قضاءان في الأبرشيّة تسيطر عليهما قوى على صلة حسنة بإسرائيل، جزّين وبعض قراها المجاورة في عهدة الجيش السوري الموجود فيها منذ السنة ١٩٧٦، صيدا وجوارها في رعاية جيش لبنان العربي الّذي يعيش تحت قبضة الفلسطينيّين وحلفائهم الناصريّين، الشوف بساحله وجبله مقسّم عسكريًّا إلى عدّة جيوش. وحسب القارىء لهذا السطور أن يكوّن لذاته فكرة صحيحة عن المواقف الّتي يجب أن يواجه بها المسؤول في الأبرشيّة المشاكل الرعويّة والإنسانيّة الّتي تتطلّب حلولًا قضاءً لمصالح النّاس الضروريّة.

حريق الكاتدرائية والمطرانيّة

في التاسع عشر من نيسان ١٩٨١ عيد الفصح المجيد، جاء المؤمنون كعادتهم للمشاركة في الذبيحة الإلهيّة الّتي احتفل بها راعي الأبرشيّة المطران إبراهيم الحلو، دخلوا بعد القدّاس لتقديم التهاني بالفصح المجيد، وهي عادة قديمة ومحبّبة يشارك فيها مواطنون من المدينة والجوار، مسلمون ومسيحيّون، وظلّت التهاني حتّى الساعة الواحدة تقريبًا بعد الظهر، انتقل بعدها سيادته مع الكهنة يوحنّا الحلو وطانيوس الخوري ويوحنّا خشّان

وجبرائيل الفغالي إلى المائدة لتناول الطعام. وبينما كنّا على المائدة سمعنا انفجارًا قويًّا جدًّا وقريبًا منّا قد وقع على باب مكتبة لبيع التسجيلات الموسيقية الأسطوانات Discothèque يعجّ بالناس، فوقع خمسة قتلى داخل المحلّ بينهم شاب ماروني من آل عبيد مقيم في صيدا مع والديه وهو ابن جندي في الجيش اللبناني من حلبا، وعمر الشاب ثمانية عشر عامًا. وما إن حدث الانفجار حتّى امتلأ الشارع على غير عادة بالمسلّحين يطلقون النار في الهواء، وتقدّموا في الشارع من الكاتدرائيّة والمطرانيّة يوجّهون رصاصهم علينا كما أطلقوا قذيفة أر.ب.ج على قبّة الكنيسة. للحال لم يبقَ لدينا أحد من العمّال في المطرانيّة: العشّي ومساعده مع سائق السيّارة التابعة للمطران اختاروا طريق الهرب، ولمّا كانت الساحة والشارع مركزًا للمسلّحين المتوجّهين إلى المطرانيّة فقد اختار أولئك الثلاثة الهروب من الجهة الشرقيّة قفزًا إلى بستان من الليمون وصولًا إلى الشارع الآخر شرقي المطرانية، ومنه كلّ واحد إلى بيته: هذا في درب السّيم وذاك في القريّة والآخر في الرميلة.

أمّا المطران، ونحن الكهنة، فقد تركنا غرفة الطعام وذهبنا إلى الصالون وفي أقل من دقيقتين خلع المهاجمون باب المطرانيّة، وكانوا قد أطلقوا عليه وابلًا من الرصاص ولم يقع فخلعوه ودخلوا، وبينما كان كلّ واحد منا يختار طريق النجاة الّذي يرى فيه الخلاص: دخلت مكتبي وأغلقت الباب عندما رأيت أحدهم يتّجه صوبي وبيده سلاحه، فخلع الباب برفستين وسقط، وانكشف كلّ شيء أمام المسلّح، الّذي بادرني بالسؤال: «أين مفاتيح سيّارة الإسعاف الخاصّة بكاريتاس المتوقّفة إلى الجانب الشرقي من المطرانيّة؟» فلم أتردّد عن تلبية طلبه ظنًّا منّي أن أحدًا ممّن في المطرانيّة قد أصيب ويجب نقله إلى المستشفى. ولمّا دخلت المكتب حيث المفاتيح وجدت المكتب بكلّ ما فيه مقلوبًا على الأرض وأدراجه مفتوحة، وقد بدأت النّار تلعب بأطراف السجّادة، ولشدّة ما استولى عليَّ من خوف، لم أستطع أن أتبيّن مفتاح سيّارة الإسعاف من سواه، ولم أستطع إلّا أن أقول له: «فتّش عليه قد يكون بين المفاتيح المبعثرة على الأرض.» فبادرني بالقول: «أُخرج معي»، خرجنا من المكتب، وإذ صرت أمام باب قاعة الاستقبال وقد أخذت النيران تشتعل فيها وتلتهم السجّاد، رأيت على الباب شابًا يرتدي ثيابًا مرقّطة ومدجّجًا بالسلاح، صرخت به مؤنّبًا، فارتدّ إليّ وبيده سلاح أكبر حجمًا من المسدّس، وأصغر من الكلاشينكوف، وأراد

أن يصوّبه إليّ فانتهره من كان قد طلب إليّ أن أخرج، وطلب من بعض المسلّحين أن يردوه قتيلًا إذا حاول أن يطلق النّار عليّ، وراح فغمرني الشاب الّذي طلب منّي المفاتيح، بكلتا يديه. أمّا أنا فبقيت أنظر إلى من هاجمني من تحت إبط الشاب الّذي يدافع عنّي دون أن أنجو من ضربة قاسية بقفا السلاح الّذي بيده، صوّبها إلى عيني اليسرى ذلك الشاب المشرف على حريق قاعة الاستقبال بكلّ ما فيها. وقد أتت النّار حقًّا على كلّ ما فيها من سجّاد ومقاعد ومنجور، وطالت أيضًا برواز الشبابيك الحجري الّذي ما زال باديًا على بعض الحجارة. وكان في القاعة سجّادة عجميّة ٥٢ م٢ قديمة اشترتها المطرانيّة من بيروت من إحدى العائلات البيروتيّة العريقة الّتي اضطرت خلال الأحداث إلى مغادرة الحيّ والمسكن الّذي كانت تقيم فيه، وانتقلت إلى دار أخرى لم تعُدْ تتسع لتلك السجّادة فعرضتها للبيع، وكانت من نصيب المطرانيّة والنّار.

وإذ كان الصيداويون يظنّون أن مصدر القذيفة الّتي سقطت على محلّ في الشارع يبيع ويسجّل شرائط معروفة، قد انطلقت من الجنوب حيث يسيطر جيش سعد حدّاد، كانت انطلاقة جهنّميّة للهجوم على كاتدرائيّتنا وعلى دار المطرانيّة، فأحرقت السكرستيّا بكلّ ما فيها، ودنّست المذبح، وانتهكت حرمته وعاثت في الكنيسة خرابًا كما أحرقت دار المطرانيّة، وتعدّت على ساكنيها ضربًا وتهجيرًا. كما هاجمت مطرانيّة الروم الكاثوليك في شارع المطران دون أن تشعل فيها النيران، وقد يكون ذلك لا تعفّفًا بل خوفًا من أن تمتدّ النيران إلى المحلّات الّتي يستأجرها الصيداويّون أنفسهم. فالحقيقة يجب أن تنجلي ولو بعد حين.

بعد خمس وعشرين سنة، أضع بين يديّ الباحث، والمدقّق والعسكري الّذي رفض أن يقول إنّ القذيفة الّتي أشعلت نيران الحقد والانتقام آتية من مواقع سعد الحدّاد، الضابط في الجيش اللبناني المتعاون مع الجيش الإسرائيلي... كيف للقذيفة أن تختار باب ذلك المحلّ الّذي كان يضع بالصوت العالي أكثر من مرّة، على مسمع المارّة في الشارع، إسطوانة «زحلة يا دار السلام فيك مربى الأسود...» حين كانت المعارك دائرة وحامية الوطيس في زحلة المدينة التي قاومت، الجيش السوري على مدى شهور؟ وأنا قد سمعت تلك الأغنية تتصاعد على مدى يومين من ذاك المحلّ خلال أسبوع الآلام السابق

لعيد الفصح، بينما كانت المعارك حامية الوطيس في زحلة... وكأني بالسوريين وعملائهم في صيدا أو المأجورين لهم أو لسواهم يريدون بالاقتصاص ممّا قيل، وإشعال نار الفتنة بين المسيحيين والمسلمين في صيدا، فراحوا على ما أظنّ يديرون تلك المكيدة الجهنمية للإيقاع بين المسيحيين والمسلمين ودبّروا ذلك الانفجار الذي أودى بحياة الخمسة.

موقف الصيداويّين والمسؤولين

عندما أخرجونا من دار المطرانيّة أصعدونا في سيّارة جيب بعكس السير، لا نحمل شيئًا بأيدينا، غير كرامة مهانة، وأنا أحمل جرحًا في العين يزيدها احمرارًا وورمًا. دخلنا مركز التنظيم الناصري الّذي يبعد عشرات الأمتار عن المطرانيّة، حيث كان إثنان أو ثلاثة من الحرس حاول أحدهم أن يخفّف من فظاعة العمل باتّهام جماعة جيش سعد حدّاد في إسقاط خمسة قتلى أبرياء، وهو الّذي أثار نقمة الصيداويّين علينا.

بقينا أكثر من عشرين دقيقة ننتظر وإذا بالمطران نقولا الحاج المسؤول البطريركي عن مطرانيّة صيدا للروم الكاثوليك، يدخل وبيده حقيبة ووراءه الأبوان المساعدان له في المطرانيّة ميشال حبيب وجورج قطّان، والشمّاس طانوس، يحمل كلّ منهم حقيبة بيده، قد تحتوي على أغلى ما لديه. وهذا ما لم يتح لنا أن نحمله لدى خروجنا من المطرانيّة، وقد أخذت النيران تشتعل فيها ولم يمهلونا دقائق معدودة.

إجتمعنا معًا وكلّ منّا ينظر إلى الآخر منتظرين النتيجة. وأخذت رجالات صيدا تتوافد إلى المركز، منها الروحيّة الممثلّة بسماحة المفتي والعسكريّة الممثلّة بقائد الدرك في الجنوب، والإداريّة والميليشياويّة، والفلسطينيّة الممثّلة بالحاج اسماعيل، وانضمّ إليهم كثيرون حتّى امتلأ المركز فطلبوا منّا الانتقال إلى قاعة الاجتماعات الكبرى، وهناك جلسنا إلى طاولة مستطيلة، وفق ما صدف لكلّ منّا أن يتّخذ مكانًا. وبدأ الاعتذار عمّا جرى واللوم يوجّه إلى جيش سعد حدّاد الّذي أوقعت قذيفته العشوائيّة خمسة قتلى، أثارت الرعب وهيّجت الصيداويّين، فقاموا بالانتقام ممّن رأوهم ممثّلين عن حقّ أو عن باطل لتلك الفئة الرابضة في مرجعيون وجوارها. ووجّه المطران إبراهيم سؤالًا إلى الحاضرين: كيف يستطيع أن ينقل هذا الخبر المأساوي إلى رؤسائه، إلى غبطة السيّد البطريرك وإلى روما؟ أيّ جرم

أتاه حتّى فعلوا به هكذا؟ وطبعًا كان جواب الحاضرين جوابًا باهتًا رماديًّا، كردّة فعل على ما أوقعته القذيفة اللعينة من ضحايا بريئة...

ولمّا كنت أنا الوحيد المصاب جسديًا بين جميع الحاضرين، وإذ لم أكن مرتاحًا إلى ما قاله المطران إبراهيم، وإلى الصمت المدقع الّذي التزمه المطران نقولا الحاج وإلى الاعتذارات الرماديّة الباهتة الّتي تقدّم بها الحاضرون أخذت الكلام، بعد أن استأذنت صاحبَي السيادة قائلًا: «نحن لسنا مسؤولين عمّا يوجّه من قذائف إلى هذه المدينة. وهي قذائف لا تفرّق بين مسلم ومسيحي. منذ مدّة وقعت قذيفة ذهب ضحيّتها شابان مسيحيّان ولمدّة وجيزة وقعت قذيفة قتلت فتاة مسيحيّة من تبنين كانت على شرفة منزلها قرب مستشفى حمّود. إذًا فالقذيفة ليست مسيحيّة وليست إسلاميّة إنّما هي لزرع بذور الفتنة والتفرقة بين أبناء هذه المدينة، وإذا بكم تتجاوبون مع نيّة قاذفيها ومرسليها. في أوّل يوم من هذا الصوم المسيحي، وضع مجهول متفجّرة الساعة السابعة مساءً على التصوينة، وعلى زاوية المطرانيّة الشماليّة الغربيّة، وأحدثت أضرارًا ماديّة ولم نسمع اعتذارًا أو انتقادًا من قبلكم، ولا استقبلنا زائرًا واحدًا يظهر عاطفة، ما زلنا بحاجة إليها. كما وأنّه في الأسبوع ذاته ألقيت متفجّرة على دار مطرانيّة الروم الكاثوليك في صيدا ولم نرَ ولم نسمع أي احتجاج أو اعتذار لا شخصيًّا ولا على صفحات الجرائد. وما مضى يومان حتّى جرى تعدٍّ على كنيسة الإخوان البروتستانت، قرب نادي ضبّاط الجيش. ومضت الحادثة كأنّه لم يكن شيء. علمًا بأنّ وجودنا في هذه المدينة، ليس طارئًا، ولا تعدّيًا على حقوق، إنّما وجود ثابت وقديم شارك أهلها أفراحها وأحزانها منذ مئات السنين، وهو ثابت ومصرّ على البقاء مهما كانت الظروف. ولن يثنيه عن متابعة هذا الدور أيّ شيء. ولهذا فإنّي أعتبر أنّ ما تقدّمونه من أسباب تخفيفيّة لما جرى اليوم، غير مقبول وفي الأمر تقصير من جميع الفئات. لا بدّ من تسجيله والاعتراف به علنًا.»

وبعد هذا الكلام الّذي صدر عنّي بهذا الوضوح الصريح القاسي لم أسمع ردًّا من أحد الحاضرين، رسميّين ومدنيّين، إنّما دعونا إلى الانتقال معًا سيرًا على الأقدام للقيام بزيارة الأماكن المنكوبة، استنكارًا لما حصل، وتدليلًا على التشبّث بالعيش المشترك، الّذي لا بديل عنه للمقيمين في هذه المدينة.

معًا سيرًا في الشارع فكانت الزيارة الأولى للمطرانيّة المارونيّة، ولكنيستها الّتي كان رجال الإطفاء لا يزالون يعملون على إخماد النيران فيها. ومن بعدها تابعوا سيرهم إلى مطرانيّة الروم الكاثوليك وحدهم لأنّي ما عدت أؤمن بتلك المظاهر. وبقي معي نتفقّد ما بقي تحت ألسنة النيران الخوري حنّا خشّان رحمه الله الّذي أسرّ في أذني قائلًا: «تقبرني لو كنت عارف شو بدّك تقول لكنت سجّلته معي...» شكرًا لله على أنّ واحدًا من الحاضرين شكرني على ما قلت، بينما هنالك بين الكثيرين من تمنّوا عليّ أن أسكت، لأنّي كنت كمن يوبّخهم على سكوتهم وسوء تصرّفاتهم. وقد جاء بعضهم يقول إلى الأستاذ كلود عازوري: «توسّط لدى الخوري لكي يخفّف من تصريحاته القاسية.» ثمّ انتقلنا إلى بناية المطرانيّة الموضوعة تحت تصرّف كاريتاس لبنان لنقيم فيها بانتظار أعمال الترميم في المطرانية.

لمّا كانت النّار قد فعلت فعلها بدار المطرانيّة الّتي كنّا حتّى ذلك اليوم نقيم فيها ليلًا نهارًا، فقد جاء الدكتور نزيه البزري ورئيس البلديّة الأستاذ محمّد كلش، يعرضان على سيادة المطران إبراهيم بناية للإقامة فيها، بانتظار ترميم دار المطرانيّة، فرفض سيادته العرض شاكرًا قائلًا إنّه سينتقل إلى البناية المجاورة، دون أن يُشلّ عمل كاريتاس فيها. وهكذا صار وانتقلنا مساءً إلى تلك البناية، وإذ لم تكن مجهّزة لاستقبال الجميع، فقد اتّخذ المطران إحدى الغرف، ونمت أنا تلك الليلة على طاولة فورمايكا ووضعت معطفي كمخدّة تحت رأسي، وتغطّيت بحرام توفّر لي من بقايا ما حصلنا عليه من المطرانيّة. وأحد الكهنة نزل ضيفًا عند الخوري لويس عطيّة الّذي كان يقيم في الطبقة العليا من البناية مع عائلته. والثالث نزل ضيفًا على مستوصف كاريتاس.

أذكر أنّه عند منتصف الليل اتّصل بنا المطران جورج اسكندر هاتفيًّا فأجبته وأخبرته بما جرى لنا والمكان الّذي أوينا له فقال: «وأنا أيضًا أكلّمكم من الملجأ في البناية هربًا من الرصاص والقذائف في زحلة». هكذا بدأنا مرحلة المئة ميل، خارج المطرانيّة بانتظار المباشرة بالإصلاح والترميم، الّذي كان سيادته قد صمّم عليه منذ اللحظة الأولى لحدوث النكبة، الّتي ما شلّت عزيمته ولا أرغمته على الهروب من صيدا واللجوء إلى مكان آخر أكثر أمنًا كما كان يشتهي، أو يتوقّع البعض من النّاس. لكنّ الصمود في صيدا بالرغم ممّا حلّ بنا، أعطى للمسيحيّين ثقة بقدرة رؤسائهم الروحيّين على تجاوز المحنة والانتصار بعزم

على التجارب، وإن تكن قاسية، كما فهم الآخرون بأنّنا لسنا لقمة سائغة يسهل ابتلاعها، أو ريشة في مهبّ الرّيح يمكن التلاعب بمصيرها ساعة يشاؤون.

أخذ النّاس من كلّ الطوائف يزوروننا للتفقّد وشجب وإدانة ما ارتكب بحقّنا، ثمّ عاد الدكتور نزيه البزري واتّصل هاتفيًّا بالمطرانيّة يريد التحدّث إلى المطران الّذي كان غائبًا، فاكتفى بأن يقول لي ما قرّرته مدينة صيدا وهو ترميم بناء المطرانيّة على نفقتها، وإذ كنت على علم بالقرار الّذي اتّخذه سيادة المطران إبراهيم، هو عدم قبول أيّ تقدمة لترميم المطرانيّة كما كانت سابقًا، أجبت على التلفون الدكتور شاكرًا وقائلًا: «إنّ من بنى بعون الله يستطيع أن يرمّم يا معالي الوزير». وأردف قائلًا: «أريد أن يعلم غبطة السيّد البطريرك بما تنوي القيام به بلديّة صيدا». فوعدته شاكرًا بنقل الخبر إلى غبطته وجوابنا عليه.

عند انتشار خبر الهجوم على المطرانية وانتهاك حرمة الكنائس جاء من يفتقدنا وفي مقدّمهم الخوري خليل أبي نادر رئيس مدرسة الحكمة، وأفراد من الأبرشية وبالطبع من أهلنا في وادي جزّين. ومن بين الزائرين بالرغم من مرضه النائب السابق الأستاذ جان عزيز الذي لم يستطع صعود الدرج فنزلنا واستقبلناه في الساحة الخارجية لمبنى كاريتاس.

زيارة النائب البطريركي إلى المطرانية

بعد ثمانية أيّام أرسل غبطة البطريرك خريش سيادة المطران رولان أبو جودة لتفقّد المطران وكهنته والخراب الّذي لحق بنا، وكم كنّا نتمنّى أن تحصل هذه اللفتة في اليوم التالي لحصول الهجوم على كنيسة المطرانيّة الّتي عاش فيها غبطته مطرانًا ثماني عشرة سنة. ولا بدّ من التوقف عند زيارة سيادة السفير البابوي في لبنان لوليد جنبلاط في اليوم التالي لانفجار المطرانية. وقد كان بإمكانه أن يعرّج علينا في صيدا حيث كنّا نتوق إلى من يشاركنا آلامنا في تلك المحنة القاسية التي جرى فيها التعدي على رجال الدين المسيحيين وعلى مركزين دينيين في المدينة.

في أسبوع المحنة حصل اتّصال من مكتب رئيس منظّمة التحرير الفلسطينيّة السيّد ياسر عرفات في بيروت مطمئنًّا وشاجبًا ما تعرّضنا له وواعدًا بأن يرسل من قبله مساعده الملقّب «أبو الهول»، ليقوم بزيارة تفقّديّة، وهكذا تحقّقت الزيارة الّتي قام بها موفد السيّد

عرفات ومعه مرافقوه، فاستقبلناهم في المركز الموقت. وبدأ حديثه مستنكرًا بشدّة ما جرى وكاشفًا عن غضبه مما لحق بنا من خراب وإهانات. وقال بالحرف الواحد أمام الجميع: «سنعمل على الاقتصاص من أولئك الخونة السافلين لنجعل منهم عبرة لمن اعتبر، وسيتمّ شنقهم على ساحة النجمة مهما كلّف الأمر». وإذ لم يجبه أحد من الحاضرين وساد الصمت، أجبته: «نحن يا سيّد عفونا عمّا صدر لأنّ الهجوم علينا جرى يوم عيد الفصح المجيد، عيد الصفح والغفران ولا نريد الاقتصاص منهم»، فازداد أبو الهول شدّة، مردّدًا كلام التهديد والوعيد الّذي تلفّظ به سابقًا وأنا بقيت على موقفي الغافر، وأخذ سيادته الكلام وردّد ما قد سبقت وقلت. وانتهى الحديث وقام أبو الهول ورفاقه واستأذنوا مودّعين، أمّا أنا فحفاظًا على أصول الضيافة فقد رافقت أبو الهول حتّى الباب الخارجي، وقبل أن نصل إلى الخارج مررنا بممشى ضيّق صفًّا واحدًا كلانا ولا يتسع لثالث معنا، فنظر إليّ وقال بصوت منخفض لا يتجاوز سمعي: «ومن ذا الّذي يستطيع أن يصل إلى أولئك المجرمين؟» إكتفيت بذاك القول وتلك النظرة الحزينة والمعبّرة عمّا يعيشه اللبنانيّون وبخاصّة المسيحيّون منهم، وقد أصبحوا ألعوبة بين أيدي المتكالبين والمتآمرين على الوطن ومصيره...

ولا بدّ من الاشارة إلى أن المطرانيّة المارونيّة رفضت كلّ مساعدة خارجيّة أيًّا يكن مصدرها لأجل الترميم الّذي استلزم الكثير من المال لكون العمل تجاوز إصلاح ما كان قائمًا من بناء إلى حفر ملجأ بمساحة مائة وخمسة وعشرين مترًا مربّعًا إضافة إلى الأثاث الذي احترق ووجب استبداله.

زيارةٌ مفاجئة لأحد الضبّاط اللبنانيّين إلى مركز المطرانيّة

خلال الأسبوع الّذي تلا الهجوم على المطرانيّة وصل عند الساعة السابعة والنصف مساءً ضابط في الجيش اللبناني يدعى سمير البستاني، وقد خدم في جزّين وصيدا وأظنّ أنّه كان آنذاك برتبة ملازم أوّل. دخل إلى المركز وكنت لوحدي بعد أن دخل سيادته إلى غرفته ليأخذ شيئًا من الراحة الّتي كان بحاجة إليها.

جلست والضابط المذكور إلى طاولة صغيرة ورحنا نتحدّث عمّا جرى بكثير من الألم. وبعد قليل أخرج من حقيبة بيده رسالة غير معنونة وقدّمها إليّ وقبل أن أفضّها قال

إنّها مرسلة من قبل أحد الضبّاط السوريّين المدعو رستم غزالة، وفيها أسماء الأشخاص الّذين هاجموا المطرانيّة يوم الأحد الفائت عيد الفصح. إذّاك رفضت استلامها وتركتها على الطاولة، وألحّ عليّ لكي أستلمها، فزدت رفضًا لها، حتّى قلت له عن حقّ أو عن باطل:

– استرجعها حفاظًا على كرامتي وكرامتك، وإلّا مزّقتها أمامك، قبل أن أطّلع على محتواها.

– هل ترفض رسالة من رئيس جهاز أمن المطار في بيروت الضابط رستم غزالة؟

– نعم اعذرني، اعذرني واشكره...

– وهل من شيء يمنعك؟

– نعم لا أريد، اعذرني.

– وهل تريد أن تأخذ أسماءهم؟

– كلّا.

– وهل تأخذ عددهم؟

– لا مانع.

– لقد كانوا سبعة عشر.

– وجنسياتهم؟

– لا مانع من أن أعرفها.

– ثلاثة عشر صيداويًا، وأربعة فلسطينيّين.

ذاك كان لقائي بالضابط اللبناني النقيب سمير البستاني رحمه الله الّذي توفي إثر مرض عضال منذ أشهر. أنقل إلى القارئ الكريم الّذي يتصفّح هذا الكتاب ما جرى لي بدقّة، تاركًا له استخلاص العبر آملًا أن يعرف كم يجب عليه أن يتعاطى بحذر مع النّاس وأن يتفحّص الأمور بدقّة، قبل أن يقبل بها أو يصدر أحكامه عليها. وكم كنّا نحن معشر اللبنانيّين على خطأ يوم رحنا نستعين بزيدٍ وعمرٍ من الجيران لمقاتلة بعضنا بعضًا تدميرًا لوطننا. وإنّي لأرجو أن نكون قد تعلّمنا شيئًا من التاريخ المليء بالدروس والعبر.

هل كان للمسيحيّين الجرأة للوقوف بوجه الظلم؟

بعد الّذي جرى من إهانات وتدنيس للمقدّسات المسيحيّة في صيدا منع مسلّحو التنظيم الناصري المصوّرين ورجال الإعلام اللبنانيّين والأجانب من تصوير لما جرى في الكنيسة والمطرانيّة، حتّى أنّ ممثّلي احدى شركات التلفزة الفرنسيّة جاءوا وأخذوا بعض اللقطات وطرحوا عليّ بعض الأسئلة الّتي أجبت عليها بجرأة ووضوح، وحاول مسلّحو التنظيم الناصري انتزاع الفيلم بالقوّة، فاستمهلهم بعض الوقت وأعطاهم فيلمًا آخر، وذهب بالفيلم الّذي كان قد صوّره.

لا بدّ من إلقاء بعض الضوء على موقف المسيحيّين من التعديات الّتي صارت على الأماكن المقدّسة المذكورة، إنّهم والحقّ يقال، قد لزموا الصمت في المناطق المختلطة، ولم تخل دار المطرانيّة من بعض الزوّار الّذين جاؤوا يتفقّدون وفوجئت بواحد يخرج من الكنيسة مطرقًا برأسه إلى الأرض يقول بصوت منخفض: «منيح اللّي طلعت فيك يا مار الياس مش فينا».

بالطبع إنّ ما جرى أثّر سوءًا على الوضع المسيحي العام في المنطقة، وصار البعض يتوق إلى الخروج منها، كما وأنّ الميليشيات المسيحيّة في المناطق الشرقيّة، أخذت تغذّي النفوس بالحقد والضغينة ضدّ المسلمين. أمّا وسائل الإعلام الأجنبيّة، فقد تحدّثت عمّا جرى، ولكن بأشكال مختلفة، وبعضها مغاير للواقع والحقيقة. مثلًا: كان «الأوسرفاتوري رومانو»، لسان حال الفاتيكان، قد أورد الحدث كما يلي: «إنّها ردّة فعل على قذيفة محرقة مرسلة من المنطقة الّتي يسيطر عليها جيش سعد حدّاد حليف إسرائيل، وانتهت القصّة بذاك الشكل.» أمّا الحقيقة الّتي لا يعرفها إلّا القليلون، والّذين دبّروها ونفّذوها، فلم تكن مفاجئة ولا كانت ردّة فعل اعتباطيّة وقد ظهر ذلك من بقايا إطارات الدواليب الّتي جاءوا بها وأحرقوها في صالون المطرانيّة، وهو دليل على ما أظنّ، أنّ المؤامرة مدبرة للتنفيذ ومدروسة وليست بنت ساعتها.

إنّ السلطات المدنيّة المحليّة في المدينة، كانت في عطلةٍ يوم العيد، وظلّت في عطلتها مع كلّ ما جرى، وكأنّ ما جرى في المدينة سهل، لا يستدعي القلق، ولا يتطلّب

حضورًا سريعًا إلى المكان، حتّى إنّ صديق المطرانية المحافظ الشيخ حليم فيّاض، ابن الطائفة الدرزيّة الكريمة، جاء يتفقّدنا يوم الثلاثاء ٢١ نيسان ١٩٨١ الساعة السابعة مساءً يرافقه العقيد علي عاشور، قائد قوى الأمن في الجنوب والمقدّم محمّد مطر من الأمن العام، وكأنّي بهم يأتون تحت جنح الظلام خوفًا من أن تراهم العيون، فتوجّه إليهم اللوم والعتاب. لكنّني لم أتمكّن من إخفاء عتبي ولومي أمام الجميع، وبحضرة المطران الّذي وقف موقفًا شريفًا، رافضًا كلّ مساعدة أيًا يكن مصدرها، لترميم المطرانيّة والكنيسة، لا أجنبيّة ولا محليّة.

فبعد أن رفض العروض الّتي تقدّم بها الدكتور نزيه البزري وبلديّة صيدا بشخص المهندس أحمد كلش، قام سيادته بزيارة خاصّة إلى الفاتيكان، حظي فيها بمقابلة قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني وقد حمل معه بعض الصور ليطلع عليها قداسته فوجد مجموعة منها لدى قداسته قد سبقته إلى الفاتيكان. وكان قد دخل معه قدس الأباتي لويس البستاني الرئيس العام الأسبق للرهبان المريميّين، وبعد حديثٍ دار حول ما جرى، سأله قداسته: «كيف أستطيع أن أساعدك لإصلاح ما خُرّب لديكم؟» فأجابه المطران: «يكفيني من قداستكم صلاتكم ودعاكم»، وإذ ألحّ قداسته ثنّى المطران قائلًا: «بركتكم». وقام مزوّدًا بتلك البركة أمام امتعاض خفي من قبل الأباتي رفيقه الّذي قال للمطران لدى خروجهما من مكتب البابا: «للمرّة الأولى يدخل مطران إلى مكتب البابا ويعرض عليه قداسته مساعدة فيرفضها، مكتفيًا بالبركة والرضى.»

العمل على ترميم دار المطرانيّة

تسلّم المهندس سعد الله جحا شؤون الترميم في الغرف والمكاتب وبخاصّة قاعة الاستقبال الّتي نالت القسم الأكبر من الحريق ولم يسلم منها شيء، وبما أنّه كان من الضروري تغيير البلاط والمنجور، فقد تقرّر حفر أرض قاعة الاستقبال، وبناء ملجأ داخلي على اتّساعها يصلح للسكن إن لزم الأمر، إذا اشتدت ساعات الحرب، تخصّص فيه أمكنة للمونة ولتخزين بعض الأشياء الضروريّة الّتي لا يتّسع لها المكان في الطبقات العليا من

البناء. وهذا ما سوف نعرف ضرورته في الاجتياح الإسرائيلي للبنان في حزيران من السنة ١٩٨٢، وقد لجأنا إليه مع عدد من العائلات في صيدا عندما اشتدّ القصف على المدينة. وهكذا فقد توالت أعمال الترميم وظلّت حتّى الميلاد إذّاك انتقلت الدوائر إليها والسكن فيها.

الفصل الخامس

الهجوم الإسرائيلي على لبنان

في الأيّام الأولى من شهر حزيران ١٩٨٢ قامت القوّات الإسرائيليّة باجتياح الأراضي اللبنانيّة، ولم تكتفِ كما فعلت سنة ١٩٧٨ بالمناطق المحاذية لحدودها، بل وصلت إلى العاصمة بيروت متذرّعة بوجود فلسطينيّين في لبنان يتّخذون منه مركزًا لشنّ هجمات على إسرائيل. وأعطت اسمًا لهذا الهجوم المركّز «حرب في سبيل سلام الجليل». وخلال أربعة أيّام سيطرت جيوشها على أراضي لبنان الجنوبي كافّة، بهجومٍ صاعق من البحر والجوّ والبرّ. وراحت تشنّ على صيدا غارات جوّية أوقعت الذعر والخوف في قلوب المدنيّين الّذين تركوا بيوتهم ولجأوا إلى قرى في جوار صيدا وشرقيها، بحثًا عن الأمن والسلام، فاستقبلهم المسيحيّون على مدى أيّام في بيوتهم. غير أنّنا نحن كهنة المطرانيّة بقينا فيها بفضل الملجأ المستحدث في العام السابق، علمًا بأنّه لا يحمي من قذائف الطيران، إنّما اتّقينا شرّ الرصاص والقذائف الّتي كانت توجّهها مدفعيّة العدو بكلّ اتّجاه. وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ راعي الأبرشية لم يكن في صيدا ولسبب رعائي، وهو أنّه صعد صباح الأحد إلى بيت الدّين لكي يحتفل بالقدّاس الإلهي ويعطي في خلاله المناولة الأولى لمجموعة من الصغار. ولمّا كانت صيدا تتعرّض للقصف والطريق إليها غير آمنة، آثر البقاء في الكرسي الأسقفي في بيت الدّين، الّذي لم يسلم من شرّ الإسرائيليّين، وقد قصفت طائراتهم كنيسته، سيّدة الخلاص، فأصابوا قبّة الجرس وهدموا قسمًا منها.

إقتصر الحضور في دار المطرانيّة في صيدا على ثلاثة كهنة هم الخوري طانيوس الخوري، والخوري جبرائيل الفغالي والخوري يوحنّا الحلو كاتب هذه الأسطر. يوم الإثنين صباحًا جاءنا الحاج توفيق عثمان فلسطيني يعمل في بستان المطرانيّة منذ العام ١٩٥٠، وطلب منّا أن نسمح له بالمجيء من مخيّم عين الحلوه هو وعائلته، والإقامة موقّتًا في غرفة زراعيّة غربي الكاتدرائيّة وداخل التصوينة الفاصلة بين الكاتدرائيّة والشارع العام، فأقام فيها ساعة من الزمن، وإذا بأحد أنسبائه شقيق زوجته يحلّ ضيفًا مع عائلته على غير علم منّا، فيبلغ عدد اللّاجئين إلى تلك الغرفة خمسة عشر شخصًا، جميعهم فلسطينيّون. ولكن بعد

حوالي الساعتين، جاء يطلب الانتقال إلى الكاراج الملاصق للكنيسة من الجهة الخلفيّة، والقريب جدًّا من دار المطرانيّة، فسمحنا له بما طلب، ولكن وقبل أن يرخي الليل سدوله جاء يطلب الانتقال إلى المدرسة، مدرسة مار الياس، الكائنة وراء الكاتدرائيّة فسمحت لهم بذلك، وما كنت أدري السبب لذلك التنقّل إلّا بعد أن ألقى الطيران الإسرائيلي قذيفة على الكاراج وكانوا قد خرجوا منه ونجوا بأعجوبة، إنّما تعطّلت كثيرًا سيّارة البويك التابعة للمطرانيّة المتوقّفة هناك. وفي الليل قصف الطيران مجدّدًا مبنى المدرسة فأصيب بأضرار جسيمة الجزء الجنوبي الشرقي منها، ولم يصب أحدٌ من الفلسطينيّين اللّاجئين إليها. إذّاك جاءنا المدعو توفيق عثمان وطلب منّا أن نسمح لهم بالنزول إلى الملجأ حيث كنّا نقيم.

وإذ لم يكن بد من تلبية طلبهم، جمعوا ما لديهم من أغراض وحلّوا ضيوفًا في ملجأ لا ماء فيه ولا كهرباء، ولا طعام نكتفي بالتنقّل بما توفّر لدينا من مصابيح كهربائيّة. كما وإنّ الخوري لويس عطيّة وعائلته قد نزلوا أيضًا ضيوفًا علينا في ذلك الملجأ، حتّى بلغ عدد المقيمين فيه اللّاجئين إليه إثنين وأربعين شخصًا. لا أكل ولا ماء، لا في المطبخ ولا مع النزلاء الكرام. صعدت إلى المطبخ فوجدت صندوق من الليمون الحامض، إستعنت بإثنين حملاه إلى الملجأ، عسى أن يجد المقيمون فيه بعض الشيء لسدّ ما بهم من عطش، إذ لم يكن الأكل موفورًا، كما وضعت تحت تصرّفهم إناءً كبيرًا من السكّر وجدته في المطبخ وراح كلّ من يريد يبل ريقه بقطعة من الليمون الحامض الملتوت بالسكر.

وإذ كان القصف يشتدّ شيئًا فشيئًا والنوم غير متوفّر لأحد من الحاضرين. وعند الساعة السابعة مساءً ألقى على المطرانيّة الطيران الإسرائيلي صاروخًا أصاب الزاوية الشرقيّة الجنوبيّة من البناء ولم ينفجر، فوقعت كبسولته وهي بحجم قنّينة البيبسي كولا الكبيرة، في الممرّ بين الكاتدرائيّة وبناية المطرانيّة وراح الدخان يتصاعد منه على مدى ساعة كاملة، وهو مسطّح في الجنينة الخاصّة بالدكتور شهاب الملاصقة لبناء المطرانيّة. إذّاك دبّ الذعر في النفوس ولم تعد عيوننا تعرف النوم. وعند الساعة الواحدة بعد نصف الليل، صرخت إحدى النساء القريبة من درج الملجأ الّذي يصله بالطابق الأوّل، الماء ينزل إلينا بغزارة على الدرج. ولكن من أين لنا الماء؟ فصرخت بمن حولي قائلًا: «هذا مازوت ينزل عن السطح وقد أصابه القصف الإسرائيلي، فأسرعنا وتركنا الملجأ وفتحنا الباب الخارجي لدار المطرانيّة،

ورحت أكسّر ما توفّر لدينا من أواني فخّاريّة فيها تراب وشتل زهور، لكي أسدّ بها مدخل الدرج نزولًا إلى الملجأ، بعد أن جعلنا من الباب الكبير مخرجًا للمازوت النازل كشلّال عن السطح، حتّى وصل المازوت إلى الشارع الرئيسي. وفي تلك الأثناء وبعد قيامي بتلك العمليّة على مدى عشر دقائق، ومنعت نزول المازوت إلى الملجأ، أردت أن أقوم بخطوة نزولًا على الدرج، فإذا بي وقد امتصّ حذائي المازوت، أنزلق من أعلى الدرج إلى الأسفل، إلى أن تصطدم رجلاي بالحائط فتهشّم معصماي وانكسرت الساعة الّتي بيدي، وقمت بصعوبة بسبب ما حصل لي، ولاسيّما بعد ما شعرت به من ألم في أسفل ظهري. ولم أكن وحيدًا مصابًا فإنّ أحد الشبّان، وهو فلسطيني ابن توفيق عثمان يصاب أيضًا برصاصة في رجله، حين صعد إلى السطح مع الخوري طانيوس ليرى ويكشف على خزّان المازوت. إنّها والحقّ يقال لمغامرة لن أنسى تفاصيلها وما أصابني منها طوال حياتي. وقضينا تلك الليلة ساهرين في رعب وخوف وحرمان تام من الماء والقوت.

عند الصباح سمعنا الجيش الإسرائيلي وقد دخل الشارع واحتلّ الفسحة أمام المطرانيّة ينادي بأعلى صوته قائلًا: «يا أهالي صيدا اخرجوا من منازلكم وتوجّهوا إلى البحر»، ويشدّد على هذا النداء محذّرًا من البقاء في الملاجىء أو في البيوت، لئلّا يتعرّض الباقون في بيوتهم إلى الخطر، خطر الموت قصفًا بالطيران أو بنيران المدافع.

ما كان أحوجنا في تلك الأثناء إلى الماء لنروي به غليلنا أو إلى كسرة خبز نسدّ بها جوعنا لأنّنا منذ صباح الإثنين حتّى اليوم صباح الأربعاء لم نذق شيئًا. ولما كان أحد الآباء قد تقدّم من إحدى السيّارات الإسرائيليّة طلبًا للماء، حاملًا قناني من بلاستيك، أرادوا أن يلبّوا طلبه من خزّان لديهم لم ندر كيف أو من أين ملأوه، ومع ذلك فقد ملأ القناني وجاء بها إلى المطرانيّة، ولم يجرؤ أحد منّا على أن يشرب منها، خوفًا من أن يكون ذلك الخزّان معبّأً من النهر لقضاء حاجات الجنود الّذين تمركزوا في الساحة الخاصّة ببلديّة المدينة الفاصلة بين شارع رياض الصلح وبين المدافن الإسلاميّة.

لزمنا دار المطرانيّة ولم نعد إلى الملجأ ورحنا نستعيد شيئًا فشيئًا حياتنا العاديّة، وعاد إلينا الهدوء النسبي، إنّما لا كهرباء ولا ماء ولا شارع مفتوح بوجه المارّة، لأنّ أهل المدينة إمّا مجمّعون على شاطىء البحر وإمّا قد خرجوا إلى القرى والأماكن البعيدة عن صيدا، هروبًا

من الخطر الّذي نتج عن الاجتياح الإسرائيلي الّذي لم يوفّر لا بشرًا ولا حجرًا ولا شجرًا.

في اليوم التالي لخروجنا من الملجأ، دخل علينا ضابطان إسرائيليّان يتكلّمان اللغة العربيّة، ولمّا أريناهما الصاروخ الّذي وقع على المطرانيّة دون أن ينفجر، قالا: «اشكروا الله لأنّه لو انفجر لما أبقى على حجر ولا على بشر، ولكان حفر في الأرض حفرة أخرج منها المياه...» وما كان منّا إلّا أن نشكره على تلك الهديّة الجهنّميّة الّتي بعث بها إلينا الجيش الإسرائيلي ونجّانا الله سبحانه وتعالى من شرّها.

خبرٌ مفاجىء فيه الكثير من العبر

بينما كنت في السابع عشر من حزيران ١٩٨٢ أي بعد دخول إسرائيل إلى صيدا بأيّام قليلة أصلّي في الصالون حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر دخل عليّ أربعة أشخاص، عرفت منهم إيلي عبّود أحد أبناء الرعيّة من حيّ القناية في صيدا، والرائد الفلسطيني صلاح التعمري وسيّدة لم تعرّفني عن حالها ورابع هو كما ظهر من خلال الحديث مدير الأونروا في صيدا، وهو من التبعيّة الفلسطينيّة. دخلوا إلى قاعة الاستقبال وراحوا يهدّئون من روع التعمري وهو في حالة اضطراب شديد وقد بدا جليًّا عليه من خلال الإكثار من التدخين بحيث كان يأخذ مجّة من سيغارته ثمّ يطفئها ويولّع ثانية بلا وعي أو بوعي لست أدري. والحديث كان يوجّه إليه من الحاضرين، وأنا أستمع لا أبدي أيّة حركة. والكلمة الأولى الّتي وجّهها إليّ قال فيها: «أبونا حلو، أنا قادم لأنام عندك الليلة، لأنّي ملاحق من الجيش الإسرائيلي منذ دخوله صيدا، ولقد اضطررت إلى أن أختبىء على مدى ليلتين في مجاري المياه تحت الأرض». أجبته: «إنّ هذه الدار ليست ملكًا لي، وليست هي بيتي إنّما هي للكنيسة وأنا لا أستطيع أن أتحمّل فيها مسؤوليّتك أمام الجيش الإسرائيلي. إذًا إبحث عن طريقة أخرى أستطيع أن أؤدّي لك خدمة فيها». للحال قال: «أنا أريد أن أسلّم نفسي للجيش الإسرائيلي عن يدك». إستهجنت هذا الطلب وقلت: «ما لي ولك وما لي ولهم، إذا كنت قد قرّرت القيام بذاك العمل فما عليك إلّا أن تذهب بنفسك وتسلّم أمرك إليهم». فلم يقبل وزاد اضطرابًا وتململًا، إذّاك حاول القادمون الثلاثة تهدئته ثمّ غادرونا معًا من الصالون، وبقينا وحدنا أنا وهو. أمّا الخوري طانيوس فكان في غرفته بعيدًا عمّا يجري. رحت وجئت مرارًا وتكرارًا في أرض القاعة، مضطربًا أفكّر بما يجب عليّ أن أعمل، وليس

لديّ من أستشيره في حلّ هذه المشكلة الطارئة، الّتي ترك حلّها عليّ منفردًا. إذّاك قلت له: «أنا ذاهب لأرى المسؤول في أقرب مركز للجيش الإسرائيلي. إنتظرني حتّى أعود إليك».

رحت سيرًا على الأقدام في شارع يخلو من المارّة إلّا من بعض سيّارات للجيش الإسرائيلي والمركز الأقرب الّذي قصدته هو نادي موظّفي التابلاين على الشارع العام، وعلى بعد مائة وخمسين مترًا تقريبًا عن المطرانيّة. وكان سبت وللسبت حرمته عند اليهود وجدت البوّابة الحديديّة الخارجيّة مغلقة والجنود خارج الدار وداخلها. طلبت أن يفتحوا الباب، فرفضوا لأنّ اليوم سبت، ألححت قائلًا: «إنّي أريد أن أجتمع إلى الرئيس المسؤول لأمر خطير». إذّاك فتحوا البوّابة، وأدخلوني إلى الفسحة الداخليّة من المركز وتطلّعت شمالًا ويمينًا وكان الجنود والضبّاط نائمين على المقاعد. طلبت الاجتماع إلى المسؤول وكان على ما أظنّ يسمّى الميجور مائير. ويبدو أنّه كان في قيلولة كسائر الجنود فاتّصلوا به وفي أقلّ من دقيقتين جاءني، فأطلعته على الغاية من مجيئي، نظر إليّ متعجّبًا متسائلًا هل يحمل سلاحًا، وأين هو الآن وكيف يكون تسليمه؟ أجبت إنّني لم أرَ سلاحًا بيده وأنّه موجود في قاعة الاستقبالات في دار المطرانيّة، وإنّي مستعدّ أن آتي به إليكم لا أن تذهبوا أنتم وتستلموه من دار المطرانيّة. أجاب: «طيّب أنا بانتظارك هنا» فقلت له: «أعط أوامرك للجنود لكي يفتحوا لنا البوّابة الخارجيّة بسهولة».

عدت مشيًا على الأقدام، وصلت إلى المطرانيّة فالتقيت الخوري طانيوس خارجًا بسيّارته إلى مغدوشة، لمشترى موتور كهرباء يؤمّن النّور في هذه الأيّام الصعبة. إستوقفته وقلت له انتظرني. دعوت الرائد صلاح من الصالون ورحنا في السيّارة يقودها الخوري طانيوس، دون أن أفصح له عن العمليّة الّتي أنا بصددها. توقّفنا أمام المركز المقصود، وقلت للخوري طانيوس انتظرني قليلًا إن أردت. صعدت درج النادي بأقدام ثابتة والرائد صلاح يتقدّمني سلّمت على قائد الموقع محدّدًا الميجور مائير، ودعاني إلى مكتب فيه ثلاثة مقاعد جلس الرائد صلاح على واحدة منها، ودعاني الميجر إلى الجلوس فاعتذرت قائلًا له: «لي طلب إليك أرجو أن تحقّقه لي»، فقال: «وما هو؟» قلت: «الرائد صلاح يسلّم ذاته إليكم عن يدي أرجو أن تحسنوا التصرّف معه حفاظًا على كرامته الإنسانيّة وكرامتكم»،

فأجابني بالإنكليزيّة «good». ولمّا حاولت الخروج طلب منّي الرائد صلاح أن أجلب له من بيته في صيدا، من عند شقيقته كتاب «كفاحي» لهتلر، لأنّه يريد أن يتسلّى، فأجبته: «إنّني لا أعرف البيت ولست مستعدًّا لأن أقوم بهذه المهمّة. أطلب منّي كتابًا آخر»، فقال: «الكتاب المقدّسThe Bible»، فأجابه الضابط اليهودي: «أنا أعطيكه طمّن بالك». حديث لم يدم أكثر من عشر دقائق وعمليّة تسلّم وتسليم تحمل في طيّاتها أسرارًا وأسرارًا. خرجت بعده إلى سيّارة الخوري طانيوس وطلبت منه الرجوع إلى المطرانيّة لأطلعه على حقيقة ما جرى.

زيارة مفاجئة

كان ليل وكان صباح وبينما كنت جالسًا إلى مكتبي في المطرانيّة، دخل عليّ إثنان بعد ثلاثة أيّام عرفت منهما الرائد صلاح والآخر ضابط إسرائيلي كبير، عرّفني بنفسه قائلًا: «إسأل صاحبك صلاح إذا كان مبسوطًا ومرتاحًا عندنا أم لا؟» فقلت: «الظاهر أنّه مرتاح، ما دام برفقتك» واستأذنني صلاح وطلب شقيقته على التلفون من المطرانيّة وقال لها أن تعدّ له ثيابه وتستودعها المطرانيّة قبل المساء، وفي عودته يمرّ فيأخذها، وإذا كان بإمكانها أن تنتظره لتراه بعد عودته فحسنًا تصنع، وهكذا كان، وحقّقت شقيقته مطلبه كاملًا والتقيا بعد الظهر. أمّا عندما خرج صلاح والضابط من مكتبي رافقتهما بحسب اللياقة وأدب الضيافة حتّى الباب الخارجي، إذّاك سأل الضابطُ الرائدَ صلاح» «أين تريد أن تقعد؟» فأجاب صلاح: «على المقعد الأمامي»، واتّخذ الضابط الإسرائيلي محلّه على المقعد الخلفي، وصلاح على المقعد الأمامي، وانتقلت بهما السيّارة شمالًا.

هكذا كان ولم أكن أدري، ولا أحد أظنّ أنه كان يدري، ما كنت أرى وأعيشه من أحداث ما كانت بالحسبان، حتّى إنّ الناظر إليها بعد سنوات عجاف مرّت على لبنان فأفقدته عافيته وباعدت بين المواطنين، وشرّدت الكثيرين منهم، يتساءل عن حقّ وبمرارة: «أين نحن من لعبة الدول؟ أين نحن من لعبة الكبار؟» يبدو أنّنا لا نزال قاصرين وغيرنا هو الّذي يحكمنا ويسيّرنا خدمة لمصالحه، وإن تظاهر الكثيرون بالحبّ لنا والعطف علينا،

تظلّ مصالحهم في الدرجة الأولى، وبقدر ما تكون مصالحهم مخدومة وقائمة، بقدر ذلك نفيد القسط البسيط من الخيرات الّتي يدّخرونها على حسابنا.

زيارة أخرى مفاجئة

ظنّ الجيش الإسرائيلي من خلال ما جرى وروايته على القرّاء الأعزّاء أنّني صديق لهم ومؤيّد لما قاموا به. ذات يوم وحوالي الساعة التاسعة صباحًا، دخل عليّ في المكتب ضابطان إسرائيليّان أحدهما برتبة جنرال والثاني برتبة كومندان. ولدى دخولهما باب المكتب قال الأول: «الجنرال طُف Tov يريد أن يشرب فنجان قهوة عندك»، فأجبته: «أهلًا وسهلًا». وكان إلى جانبي في المكتب لدى دخولهما محامٍ صديق، يدعى ميشال عبدو، قمت ودعوت الجميع إلى قاعة الاستقبال بمن فيهم المحامي ميشال الّذي لم ينبس ببنت شفة. وإذ دخلنا القاعة قال لي الضابط الأكبر معرّفًا بالأصغر بقوله أنّه لا يعرف لا الفرنسيّة ولا العربيّة، فأجبته بأنّ المشكلة تلك هي مشكلتكم، وهنّا سرّ قضيّته. ولمّا جلس وأخذنا بتناول القهوة، قلت له: «حتّى ما تظلّون مثابرين على هذا القصف والتخريب في البلاد؟» أجاب: «لبنان بيت يحتوي على أولاد صغار يلعبون بالنّار؛ يأخذون كبريت يشعلونه ويشعلون بذات الوقت البيت، اضطرّ جارهم إلى التدخّل لئلّا تصل النّار إلى بيته»، فأجبته: «لبنان شبيه ببيت فيه أولاد صغار يلعبون بالكبريت ويحرقون بيتهم، ولكن من هو الّذي يعطيهم الكبريت؟» إذّاك وضع الضابط يديه على ركبتيه ووقف قائلًا ومودّعًا: «لسنا نحن من يمدّهم بالكبريت». وخرج مسرعًا والغضب بادٍ على وجهه، فاضطرب ضيفنا وصديقنا المحامي ميشال عبدو وقال: «ليتني ما دخلت ولا سمعت ما سمعت». قلت له مشجّعًا: «لا تخف، هؤلاء جماعة تخاف من قول الحقيقة فلا تخف منهم».

تلك حادثة جرت معي ومن بعدها لم أعد أرى جنديًا أو ضابطًا إسرائيليًّا يدخل المطرانيّة. وإن كان لا بدّ من حقيقة تقال لتبقى للتاريخ، فإنّي مذ دخولهم إلى لبنان، حذّرت الصديق والعدو، الكبير والصغير، من اللبنانيّين من الدخول معهم في الحديث واستضافتهم، وزيارتهم، حتّى إنّ البعض ممّن سمعوني أقول ذلك، تقيّدوا بما كنت قد قلته لهم، وشكروني في ساعة التجربة والامتحان الّذي عاشه اللبنانيّون معهم، كما ذكّروني

بما كنت قد حذّرتهم منه. وما دمت أتحدّث في هذا المجال فلا بدّ من أن أنقل لقرّائي الكرام، ما جرى لي ذات يوم وأنا قادم مع سيادة المطران إبراهيم الحلو من زيارة الإقليم في الشوف. وفي اجتيازنا لحاجز نهر الأوّلي باتّجاه صيدا، أوقفنا الحاجز الإسرائيلي المعهود كما كان يفعل بكلّ سيّارة تجتاز المعبر، وكان ضابطًا فتيًّا شابًا دون الخامسة والعشرين من سنّه وسأل عن هويّتنا وكنّا ثلاثة مع السائق ريمون الزقليط: المطران إبراهيم والخوري حنّا خشّان رحمهما الله، وأنا. وإذ وجّه الكلام إليّ لكوني أقرب النّاس إليه من جهة اليسار. رحت أعطيه بالإنكليزيّة أسماء الأشخاص المذكورين ومهمّاتهم، إذّاك أردف قائلًا: «إلى أين أنتم ذاهبون» أجبته: «إلى صيدا، إلى مركز المطرانيّة شارع رياض الصلح». «ولم أنتم بصيدا إصعدوا إلى جزّين»؟ فقلت له: «مركز المطرانيّة في صيدا وليس في جزّين» فقال: «الأفضل أن تصعدوا إلى جزّين». وإذا ما تأمّلنا بالّذي جرى بعد شهور وأسابيع قليلة، فهل كان الضابط الإسرائيلي مشفقًا علينا لا يريدنا أن نتذوّق ما يدبّرون لصيدا، وما سوف تتعرّض له على أيديهم، وأيدي حلفائهم. اللّهم رحمة ورضاك...

لقاءٌ من نوع آخر

وفي يومٍ من آحاد الشهر كان قدّاس في علمان. وقد دعيت إليه مع سيادة المطران إبراهيم الّذي لم يستطع الحضور والمشاركة، فذهبت شخصيًّا وحضرت القدّاس، وقلت كلمة في موضوع الدعوة، وخرجت لكي أعود إلى صيدا؛ تقدّم إليّ الأب بولس الحلو الراهب اللبناني المقيم في دير البراميّة والمسؤول عن خدمة رعيّة علمان، وسألني عمّا إذا كنت أستطيع أن أنقله في السيّارة معي إلى البرامية، قلت: «أهلًا وسهلًا». ولمّا صعدنا إلى السيّارة أخذ يخبرني عمّا جرى له على حاجز نهر الأوّلي وهو آتٍ صباحًا. إذ تقدّم منه الضابط الإسرائيلي المدعو «ألبير» وحاول منعه من متابعة السير ظنًّا منه أنّه المطران إبراهيم وبقي الأب بولس يحاول تصحيح معلومات الضابط الإسرائيلي وأنّه ليس هو المطران إبراهيم الحلو، بل هو الأب بولس الحلو، وبعد جهد جهيد سمح له بمتابعة سفره إلى علمان، قيامًا بواجبه الدينيّ تجاه الرعيّة يوم الأحد، ذاك ما أخبرني به الأب بولس وأراد مرافقتي في العودة إلى ديره في البراميّة كي لا يتعرّض لمثل ما تعرّض له صباحًا في طريقه إلى علمان. ولمّا وصلنا إلى الطريق الرئيسيّة بيروت صيدا، وأردنا الاتّجاه إلى صيدا، منعنا حاجز

من القوّات اللبنانيّة كان متمركزًا قرب محطّة بنزين «نجم» في أوّل الرميلة، لأنّ الجيش الإسرائيلي كان مانعًا الدخول إلى صيدا في تلك الساعة دون أن نعرف السبب. إنتظرنا بضع دقائق ولمّا كنّا لا نستطيع البقاء حيث نحن على الطريق، قلت للسائق: «سر على مهلك حتّى إذا صوّبوا بنادقهم إلى دواليبك وقوّصوا فأنا مستعدّ لأن أدفع لك ثمنها. سرْ بعون الله ولا تخف. وهكذا صار؛ وصلنا إلى جسر الأوّلي الفاصل بين الجنوب وجبل لبنان، فوجدنا الضابط الإسرائيلي ألبير على الجسر، وبكتفه بندقيّة حربيّة، توقّفنا عن السير فمرّ بقربنا أوّلًا وثانيًا وثالثًا، ولم يقل كلمة. إذّاك قلت للسائق: «سر على مهلك»، فانطلقنا خائفين من أن يطلق علينا الضابط نيران بندقيّته ولكنّنا خلّصنا. ووصل كلّ منّا إلى مركز عمله. وكان الله يحبّ المحسنين فيتدبّر أمورهم.

حوار مع شباب القوات اللبنانية

في اليوم السابع من شهر أيلول سنة ١٩٨٢ وبينما كنت على الغداء مع الخوري حنا خشّان دق جرس باب المدخل فذهب شاب ليرى من الطارق وإذا به يعود مسرعًا ليقول لي: «مطران زحلة وبعض الشباب يطلبون أن يجتمعوا إليك ولهذا أدخلتهم إلى القاعة.» للحال قمت عن المائدة وكنا قد أنهينا غداءنا ودعوت الخوري خشّان إلى مرافقتي لاستقبال الزائرين فاعتذر ودخل إلى غرفته ولما وصلت إلى الصالون فوجئت بسيادة المطران جورج اسكندر، راعي أبرشية زحلة المارونية، وحوله مجموعة من القوّات اللبنانية بلباسهم الرسمي وقد اتخذوا مكانًا لهم في الزاوية الغربية من الصالون وكانوا على ما أظنّ إثني عشر عنصرًا. سلّمت على سيادته فقدّم إلي السيّد جو إدّه المسؤول عن القوّات وكان واقفًا إلى يمين صاحب السيادة وأكملت السلام على جميع الباقين وعرضت على سيادته وعلى مرافقيه تناول بعض الفاكهة لأن الوقت وقت غداء فاعتذر سيادته عن قبول دعوتي قائلًا: «ما هي توجيهاتك للشباب؟» فاعتذرت عن قبول هذه المهمّة قائلًا: «أرجوك، سيّدنا، ما داموا حائزين على رضاك ورضى صاحب السيادة المطران إغناطيوس رعد متروبوليت صيدا للروم الكاثوليك فما لي ولهم؟» سكت سيادته وتناول الحديث السيّد جو إدّه الذي كان قد عرّفني به صاحب السيادة قائلًا لي بالحرف الواحد: «ما هي ملاحظاتك للشباب؟» أما

أنا فكان جوابي التالي: «مشكلتي يا أستاذ إنني رجل صريح لا أداهن ولا أراوغ وهذا الأمر كلّفني كثيرًا. أعذرني.» فأردف قائلًا: «عرفناك بتلك الصفات ولهذا جئناك طالبين رأيك بموقف القوّات وسلوكهم في المدينة والمنطقة.»

وإذ أفسح لي في المجال للكلام قلت له على مسمع من صاحب السيادة ومرافقيه المسلّحين: «يا أستاذ أنت جئت اليوم إلى هذه المطرانية بعد مجيئكم إلى صيدا بثلاثة أشهر وأكثر. في بداية الأمر، ولدى دخولكم بعد الاجتياح الإسرائيلي، ازدانت واجهات المحلّات التجارية في صيدا بصور زعماء الكتائب والقوّات، من الشيخ بيار إلى الشيخ بشير إلى آخر اللائحة. وهل بقيت على حالها اليوم أم أتلفت وأزيل معظمها؟» كان جوابه صريحًا وسريعًا: «لقد أتلف معظمها.» «ولماذا؟ بسبب سلوك أفراد القوّات السيء في هذه المدينة.» ثم أكملت الحديث بالصراحة عينها والنبرة ذاتها قائلًا: «لماذا لا تأتون إلينا إلى هذه المطرانية، طالبين النصح والإرشاد منذ دخولكم المدينة؟ أنتم باشرتم بتجنيد الشباب المسيحي بدءًا من الزعرورية في الشوف والأبرشية وصولًا إلى قرية الكفور قرب مدينة النبطية دون أن تستشيرونا أو تطلبوا رأينا. فما الذي حدا بكم اليوم إلى أن تأخذوا رأينا في موضوع نقف منه رافضين رفضًا قاطعًا وشاجبًا كلّ ما قمتم به حتى الآن...

«أنتم تجنّدون الشباب المسيحي، ولماذا؟ إن كان ذلك لمحاربة المسلمين فنحن نرفض ذلك، وإن كان لمحاربة اليهود فجنّدوا معكم المسلمين أيضًا. أما إن كانت الغاية منه محاربة الفلسطينيين في مخيّماتهم فالإسرائيليون قد قضوا عليهم على ما أظنّ ولن تقوم لهم قيامة.» وما إن أنهيت كلامي، وقبل أن يدلي السيّد إدّه برأيه، إذا بالشاب الجالس على الكرسي إلى شمالي وهو طويل القامة ممتلئ الجسم أسمر اللون يقول موجهًا كلامه إلى السيّد إده قائلًا: «chef! chef! أتسمح لي بأن أعطي الجواب؟» فأجابه: «تفضّل وقل رأيك.» تطلع إليّ محدّقًا وهو أقرب الناس إلي وقال: «أتريد أن أقول لك لماذا نطالب بتدريب المسيحيين وتجنيدهم دون سواهم وأقول لك من أنا؟» أجبت للحال وبشيء من الحدة: «يا أخي أنت دخلت ولم تعرّفني بحالك فلا أريد الآن أن أعرف من أنت.» ومع أن جوابي له كان رافضًا، أفصح ببعض كلمات عن الغاية من تجنيد المسيحيين دون سواهم، فما فهمت شيئًا مما قال. ثم حمل أمتعته وخرج دون أن يشرب القهوة التي كانت أمامه.

وبقي الحديث محصورًا بيني وبين السيّد جو إدّه المسؤول فما عاد المطران قال كلمة ولا تلفّظ الحاضرون، وكان عددهم عشرة أشخاص، بكلمة واحدة.

حاولت في حديثي الذي اتّسم بالهدوء مع السيّد جو أن أعلن له بصراحة ومسؤولية استنادًا إلى خبرتي بأبناء المحيط مسيحيين ومسلمين أن وجودهم في المنطقة بالأسلوب الذي جاؤوا فيه والتعاطي الذي يمارسونه مع أبنائها أيًّا يكن انتماؤهم الديني أو السياسي غير مقبول، وبخاصة بعد أن أفضى إليّ الكثيرون من المسيحيين بأن السياسة التي تنتهجها القوّات بعد الاحتلال الإسرائيلي للجنوب والشوف تنقصها الحكمة والاعتدال. ولا يزال حاضرًا أمام ناظريّ المشهد المؤثّر لمأتم شابٍ مسيحي في الثامنة عشرة من عمره ترأست جنازته قبل أربع وعشرين ساعة في جون وكان وحيدًا لوالديه وقد قتل في بلدة الزعرورية على أيدي القوّات أثناء قيامهم بالتدريب على السلاح والقتال. ومع أني لم أوفّر حجّة أسند بها موقفي من تصرّفاتهم التي كانت تزيد من خوفي على أبناء هذه المنطقة المسيحيين، بقي السيّد إدّه متشبثًا بموقفه وبالسياسة التي جاء يطبّقها في منطقتنا. كما زدت رفضًا لتلك السياسة وأنهيت حديثي معه أمام جميع الحاضرين بمن فيهم المطران جورج اسكندر بهذه الكلمات: «إني أخشى يا سيّدي من أنه ساعة تندلع الشرارة الأولى في هذه المنطقة تكونون أنتم من أوائل الهاربين وتدور الدائرة على الأبرياء المساكين الذين يذهبون ضحية سياستكم الخرقاء.» بهذه الكلمة أنهيت حديثي معه على مرأى ومسمع من الجميع ولما جاء يصافحني مودّعًا سألته عمن يكون ذلك الشاب المتهور الذي قام يدافع عن تجنيد المسيحيين دون سواهم أجاب إدّه قائلًا بصوت منخفض: «إنه شاب شيعي من آل عواضه من ناحية النبطية، انخرط في قوّاتنا.» وما رأيك أيها القارئ العزيز أيًّا تكن وأنّى كنت بموقف ذلك الشاب الشيعي الذي يطالب ويدافع عن تجنيد الشباب المسيحي دون سواه في تلك الحرب القذرة؟

أخبار وحقائق لا بدّ من ذكرها

صباح أحد أيّام صيف ١٩٨٢، وبينما كنت جالسًا في مكتبي في المطرانيّة في صيدا، دخلت عليّ سيّدة شيعيّة، عرفّتني عن حالها متزوّجة من رجل سنّيّ في صيدا يعمل

عتّالًا في سوق المدينة، وكانا يسكنان في غرفة قبالة البحر في صيدا القديمة، تهدّمت يوم الاجتياح الإسرائيلي لمدينة صيدا، فاضطرّت هذه المرأة إلى أن تذهب إلى الصرفند حيث هم أهلها، وذووها الّذين دبّروا لها غرفة راحت تسكن فيها مع زوجها الّذي كان يأتي إلى صيدا يوميًا للعمل وتحصيل لقمة العيش له ولزوجته. ويبدو أنّه ذات يوم وهو عائد من عمله، التقى على نهر الأوّلي تحت أشجار الكينا الشهيرة امرأة مخبّأة في كوخٍ خشبي تئنّ وتشكو، تقدّم منها واستكشف عن حالها ففهم أنّها مصابة في رجلها بكسر، لم تشفَ منه ويصعب عليها المشي لحالها. أشفق عليها واصطحبها معه إلى الصرفند وسلّمها إلى زوجته قائلًا لها: «حرام اهتمّي بها وسوف نتقاسم لقمة الخبز معها، الله بدبّر». قبلت الزوجة هديّة الزوج دون أن تعرف من أسرارها شيئًا. أكلت ممّا رزقهما الله وبسطت لها فراشًا يتيسّر لديها وبقربها. وإذ اطمأنّت الضيفة ليلًا راحت تبوح ببعض أسرارها إلى السيّدة الّتي استضافتها، وسلّمتها ما في جيبها من نقود، بلغت خمس عشرة ليرة لبنانيّة قائلة لها: «أنا بدّي موت، خلّي هالمصاري إلك». وعند الصباح أنقدتها بضع قطع ماليّة من معدن بلغت قيمتها سبع ليرات لبنانيّة وفي النهاية قالت لها بكلّ بساطة: «أنا مائتة بين ساعة وأخرى وهذا المال هو حلال لك ولزوجك.» فكّرت تلك المرأة الشيعيّة بما يجب أن تعمل إن ماتت تلك المسيحيّة بين يديها وليس بإمكانها أن تدفنها في مقابر المسلمين. وعندما طلعت الشمس، أوكلت إحدى الجارات بضيفتها وجاءت إلى صيدا تخبرني بكلّ ما جرى لها ولزوجها، وتسألني عمّا يجب عمله عندما تموت تلك المرأة المسكينة. بعد أن سمعت بإصغاء كلّي واهتمام جدّي لما قالته تلك المرأة الشيعيّة، استدعيت الأخت عيدا يزبك المسؤولة الاجتماعية في مركز كاريتاس لبنان في صيدا إلى المطرانيّة وأطلعتها على ما أخبرتني به تلك المرأة. بعدها استقلّت سيارة ومعها السيّدة المذكورة توًّا إلى الصرفند، بعد أن أخذت معها أشياء ضروريّة للأكل والملبس. وبعد أن اطّلعت على أوضاع تلك المسكينة عن كثب وفهمت ما يمكن أن يعمل لها، تحسينًا لأوضاعها الصحيّة المتدهورة، أخذتها على عاتقها بعد أن أبقتها في ضيافة تلك المرأة الطيّبة. واستمرّ الاتّصال بها من قبل كاريتاس، وأخذت المسكينة تتحسّن وتخبر عن ماضي حياتها، وكيف وصلت إلى ذلك الكوخ الخشبي على نهر الأوّلي، وبعض مراحل حياتها البيتيّة الماضية، الّتي كانت ملأى

بالأحداث الّتي اضطرّتها إلى الهروب من بيتها الزوجي إلى حيث كانت تظنّ أنّ الراحة والسلام يتوفّران لها، فلم تجد سوى البؤس والشقاء. وحسبنا أن نتكلّم فقط عن الشهامة الإنسانيّة الّتي تجلّت في نفس ذاك العتّال الصيداوي ونفس زوجته خدمةً ورحمةً وانعطافًا إلى تلك المرأة المسيكنة... وقد حاولنا أن ننقل تلك المرأة المسكينة إلى مأوى الأخت تريزيا دي كلكوتا في سدّ البوشريّة فرفضت مؤثرة البقاء في بيت تلك المضيفة الشيعيّة الكريمة. أمّا ما عرفته منها عن أصلها وفصلها، وإن لم يكن سرّ اعتراف، فيظلّ في الصدر طيّ الكتمان حفاظًا على كرامة من لا كرامة لهم بين النّاس.

كارثةٌ وطنية

بعد ثمانية أيام من ذلك اللقاء، تمّ اغتيال رئيس الجمهورية اللبنانية المنتخب الشيخ بشير الجميّل في أحد مراكز الحزب في الأشرفية مع عددٍ من معاونيه وذلك بتفجير هائل قضى على معظم الذين كانوا في المركز. ومن ثم عمّت الفوضى وأعمال الثأر التي ذهب ضحيتها أبرياء كثيرون. وكان لنا في المطرانية أن نستمع إلى شكاوى كثيرة تأتينا من هنا وهناك.

يبدو أن لقائي بالسيّد جو إدّه في دار المطرانية بصيدا وحديثي إليه الذي يؤذي أحيانًا كثيرة سامعيه قد لقي لديه آذانًا صاغية وقلبًا منفتحًا على قبول الحقيقة، فإذا به بعد شهور يتراجع عن تحمّل المسؤولية التي كانت ملقاة على عاتقه على حدّ قول الراوي قدس الأرشمندريت سليم الغزال الذي كان مدبرًا بطريركيًا لأبرشية صيدا ودير القمر للروم الكاثوليك الذي التقاه في أحد الأديرة في جعيتا الذي كان الرئيس العام للرهبانية المخلّصية قد اتخذه مركزًا له بعد تهجيره من دير الأم دير المخلّص في جون الشوف؛ هناك كان قد التقى الأب سليم وتصافحا وتعانقا بعد جفاء وفراق. وفي خلال الحديث بينهما سأل السيّد إدّه عني وعمّا إذا كنت لا أزال في صيدا فطمأنه الأب سليم إلى أني ما زلت بخير في المطرانية بصيدا دون أن أغادرها إذّاك حمّله السيّد إدّه سلامًا خاصًا قائلًا له، على ذمة الأب سليم، –حتى إذا قيل إن ناقل الكفر ليس بكافر، فكيف بمن ينقل الخير والدعاء؟– «إن أبونا حنّا أذكى رجل دين تعرّفت عليه حتى الآن في حياتي...» لقد كان الأب سليم

أمينًا في نقل الرسالة إليّ وبها وجدت تعزية عمّا تعرضت له حتى ذلك الحين من تهجمّات باطلة راحت ولو بعد حين تتلاشى وتضمحل كفقاقيع الصابون أمام شمس الحقيقة.

ولي في معرض كلامي عن القوّات اللبنانية ما أقوله أيضًا خدمة لتاريخ كنيستي في هذا الوطن الحبيب الذي أريده أن يظلّ منفتحًا على الجميع دون تعصّب ذميم، أمينًا على نقل الحقيقة وإن كلّف نقلها غاليًا، راجيًا ألا ينساق أبناؤنا وراء التيّارات التي تعمل على هدم الوطن والكنيسة على أيدي أغرار أبرياء يتورطون في أعمال ويتخذون مواقف يبقى الدين المسيحي براءً منها وقد يصبح أبناء الكنيسة ضحية لها بين ليلة وضحاها تحت ستار العمل حفاظًا على الدين وعلى الكنيسة...

لقاءٌ آخر مع القوّات اللبنانية

صباح أحد الأيام جاء إلى المطرانية في صيدا عامل مسؤول في البستان الخاص بالمطرانية في علمان يقول للمطران: «دخلت القوّات اللبنانية إلى البستان في الأولي ودخلوا البيت بعد أن خلعوا أبوابه ولم أستطع أن أمنعهم لهذا فإني آت لكي أخبرك بالذي جرى.» تأثر سيادته جدًا وتساءل عن العمل. عرضت عليه أن أذهب شخصيًا إلى البستان، فوافق إذّاك انطلقت عند الساعة الثامنة صباحًا فوجدت أربعة شبان أمام سيارة جيب عسكرية يعملون على إصلاح عطل فيها تحت شجرات الكينا. حييتهم وسألت عن المسؤول بينهم، فأجابوا بأنه لا يزال نائمًا أخرجت كرسيًا من الدار ووضعته في ظل شجرة ورحت أنتظر ما يقارب النصف ساعة. وبعد دخول وخروج أطلّ المسؤول من الداخل وعرّفته بحالي فإذا به من آل حدّاد من البترون ابن شقيق المونسينور إغناطيوس تلميذ المعهد الإكليريكي الشرقي للآباء اليسوعيين في بيروت الذي عرفته في أيام الدراسة. دخلت في الحديث معه بأقصى ما يمكن من اللطف وحاولت أن أبرهن له عن أهمّيّة الدور الحيادي الذي تلعبه المطرانية في هذا المحيط وعن الموقف الذي تتخذه منها القوى الفلسطينية التي دخلت في الماضي إلى البستان دون أن تدخل البيت. ولكن صاحبنا على حدّ قوله الذي جاء ورفاقه للدفاع عن المطرانية وعن المسيحيين لا يمكنه أن يتخلّى عن هذا المركز مهما كلّف الأمر. وجودهم ضروري حفاظًا على المسيحيين... إذّاك نفد صبري ولم أجد بدًا من أن

أقول له: «وجودكم هنا هو الذي سيقضي على المسيحيين في هذه المنطقة.» وانصرفت في حالة من الاضطراب والقلق النفسي الشديد ناقلًا إلى المطران في صيدا نتيجة اللقاء به والحديث معه. ولم يطل الوقت حتى هوجموا حيثما كانوا وتمت عملية النهب والحريق...

الجيش الإسرائيلي يقطع الطريق فجأة بين صيدا والشوف

في يومٍ عرف نوعًا من السلام المنشود، وقد خرج الناس فيه إلى أعمالهم والطلّاب إلى مدارسهم، قطع الجيش الإسرائيلي فجأة الطريق على جسر الأولي بين الجنوب والشوف عند الساعة العاشرة صباحًا من دون سابق إنذار... إذّاك هرع الأهالي من علمان والرميله وبعض مناطق الشوف إلى استرجاع أولادهم من المدارس في صيدا. ودب الذعر في القلوب خوفًا على من لهم من أولاد في المدينة وتخوفًا على الذين جاؤها من الشوف وقد استحالت عليهم العودة والتنقّل بسياراتهم فراحوا يقطعون النهر من الجنوب وإليه حاملين صغارهم على أكتافهم إلى ما كانوا قد جمعوا من أغراض والجيش الإسرائيلي يطلق الرصاص فوق رؤوسهم في الجو... وما كفاهم الخوف من الغرق حتى زادهم إطلاق الرصاص فوق رؤوسهم خوفًا.

حسب القارئ أن يتأمل بذلك المشهد لكي يتحسّس الرعب الشديد الذي عاشه أولئك المساكين إضافة إلى من كانوا ينتظرون على الضفّة الثانية من النهر أو في البيوت من قلق واضطراب.

بعد ساعة اتّصل الوزير نزيه البزري بمن شاء في صيدا ودعاهم إلى التلاقي في دارته بصيدا لتدارس الوضع وشارك في الاجتماع المحافظ حليم فيّاض وشخصيات أخرى عديدة كنت بينهم ممثّلًا للمطرانية. وشجب الجميع بشدّة ذلك القرار المتخذ على غرار قرارات أخرى تعسّفية اتّخذها الإسرائيليون في المدينة. وإذ طلبت من الوزير والمحافظ إبلاغ شجب الفعاليات الصيداوية لتلك التصرّفات الإسرائيلية كان رفض قاطع وحسبهم من ذلك الاكتفاء بالإعلان عنه في وسائل الإعلام المتنوعة.

في اليوم التالي عند الساعة الثانية بعد الظهر تلقّيت مكالمة هاتفيّة من المسؤول العسكري الإسرائيلي المقيم في مركز المحافظة في صيدا، وطلب الكلام مع المطران، وكان

المطران غير حاضر للردّ على المكالمة، فقلت له: «أنا نائبه العام، وماذا تريد لأنقله إليه؟» فأجاب للحال: «أنت الأب حلو مدعو إلى الاجتماع مع الحاكم العسكري الساعة الرابعة في مكتبه في دار المحافظة» وأغلق الخط. بعد أقل من نصف ساعة اتصل بي المهندس أحمد كلش رئيس البلديّة وفي حديثه العادي الّذي ربّما كان ينتظر من خلاله أن يستوضح ما شغل باله دون أن يفصح عنه قال لي: «أي جديد عندكم؟» أجبت: «الجديد هو دعوة الحاكم العسكري إلى الاجتماع به هذا المساء الساعة الرابعة. إذّاك قال متعجّبًا: «حتّى رجال الدّين أيضًا مدعوّون إلى اللقاء به؟»

قبيل الساعة الرابعة قصدت دار المحافظ ودخلت المكتب الّذي كان جالسًا إليه المسؤول العسكري، ولمّا اكتمل عقد المدعوّين، أخذ يسأل ويعاتب كيف أنّنا اجتمعنا واعترضنا على قرار عسكري اتّخذته السلطة الإسرائيليّة لأسباب أمنيّة فلم يجب أحد من الحاضرين، إذّاك أخذت الكلام وبدأت بالردّ على تساؤلاته الاعتراضيّة قائلًا أمام الجميع: «إنّ ما اتّخذتموه من قرار أمس أشاع جوًّا من الذعر والقلق في نفوس المواطنين كبارًا وصغارًا، ومنعتم المرور ذهابًا وإيابًا بين الشوف وصيدا، فخاف النّاس وأرادوا اللجوء إلى بيوتهم، وبعضهم كان في عيادة طبيب أو مستشفى، وبعضهم الآخر جاء يأخذ أولاده من مدرسةٍ في مدارس صيدا، وإذ حرّمتم عليهم المرور على الطرق العامّة وصولًا إلى بيوتهم في علمان والرميلة، راحوا يجتازون النهر حاملين صغارهم على أكتافهم أو على ظهورهم. فرحتم تطلقون النّار فوق رؤوسهم ممّا زادهم خوفًا وهلعًا. ألا يحقّ للمسؤولين الروحيّين والمدنيّين في هذه المدينة أن يعترضوا على ذاك التصرّف اللاإنساني؟» ثمّ قلت: «أمس البارحة كان المطران إبراهيم الحلو، مطران الأبرشيّة يستقبل في جزين وفدًا من المهجّرين الّذين كانوا في دير القمر، وقد سمح لهم بالذهاب إلى المناطق الشرقيّة مرورًا بالمختارة وعمّاطور وباتر وجزّين نزولًا منها إلى صيدا فالقرى الساحليّة فبيروت لمزيد من القهر والإذلال. ولدى انتهائه من ذلك العمل الإنساني الراعوي توجّه إلى صيدا، فأوقفتموه ورتلًا من السيّارات وراءه على مفرق دير سيّدة مشموشة على ضهر الرملة على مدى ربع ساعة، وإذ طلب السماح له بالذهاب إلى دير مشموشة رفض طلبه، وأبقيتموه في تلك الحال طوال خمس عشرة دقيقة،

لم يعرف السبب لذاك التصرّف. أولا يحقّ لنا يا سيادة الحاكم العسكري أن نعترض على تلك التصرّفات المشينة وأمثالها تجاه المواطنين العزّل؟»

بعد أن انتهيت من كلامي سأل الحاكم إن كان أحد من الحاضرين يريد أن يقول شيئًا ما فقال الدكتور الدادا وهو رئيس جمعيّة متخرّجي المقاصد الإسلاميّة: «إنّي أؤيّد كلّ ما قاله وتفضّل به حضرة الأب حلو»، ولزم الباقون نوعًا من الصمت الاعتراضي على موقف الإسرائيليّين، وعلى دعوتهم تلك إلى مكتب الحاكم. وانصرفنا كلّ منّا إلى بيته.

دعوةٌ من وجهاء المدينة المسلمين إلى زيارة الحاكم العسكري الإسرائيلي

لقد كان ذلك اليوم يوم أحد جاءني فيه جارنا المحامي محمّد شهاب يطلب منّي أن أرافق مجموعة معيّنة من وجهاء المدينة في زيارة الحاكم العسكري في المحافظة. فرفضت ذلك قائلًا: «ما لي وله إسمح لي أن أظلّ بعيدًا عن ذلك الجوّ الّذي لا آنس به.» ولكن رفضي لم يقنعه فتركني ومضى. وبعد ساعة من الزمن جاءني موفد من قبل صديقنا الدكتور لبيب أبو ظهر، وهو ابن عمّ له، وراح من جديد يقنعني بضرورة مرافقتهم في تلك الزيارة، الّتي يريدون أن يطالبوا فيها بالإفراج عن المسلمين الموقوفين لديهم بمناسبة عيد الأضحى، لمّا علمت بالغاية من الزيّارة قبلت أن أشارك فيها، إذّاك قال لي: «سنأتي بسيّارتنا لنكون في خدمتك»، فرفضت ورحت في سيّارة ألبير باسيل الّذي كان يعمل في المطرانيّة. وفي الوقت المعيّن، اِلتقينا في دار المحافظة، فاستقبلنا أستاذ في الجامعة العبريّة في القدس يدعى شارون، وكان كما أخبرنا، يعطي محاضرات في الصّين حين دخول الجيش الإسرائيلي إلى لبنان، فدعي إلى الجيش كاحتياطي. وكان يتكلّم اللغة العربيّة إلى جانب الفرنسيّة والإنكليزيّة وعلى غاية من اللطف. كان الاستقبال في مكتب رئيس الدوائر العقاريّة في الجنوب... إمتلأ المكتب وكان بين الوفد الخوري سليم الغزال. ولمّا دخل الجنرال سلّم وأخذ مكانه على المكتب وأعضاء الوفد على كراسيهم، طلب منّي أنا الّذي كنت قريبًا من الباب أن أتقدّم إلى المكتب فشكرت واعتذرت. وللحال بدأ الحاكم العسكري يقول: «أنا لا أعرف اللغة العربيّة فهل تعرفون الإنكليزيّة؟» فأجابوا جميعهم بالإيجاب أما أنا فقلت:

«كلّا». عندها أخذ الدكتور شارون على عاتقه أن يترجم حديث القائد من الإنكليزيّة إلى العربيّة، وقد بدأ يعتذر للإخوان المسلمين عن إخراج عائلة مسلمة من المجمع اليهودي في مدينة صيدا القديمة، الواجب أن يكون في خدمة الجيش الّذي يحتاج إليه لإقامة الفروض الدينيّة فيه. ولكنّ الجيش الذي أخرج العائلة المسلمة، لم يتركها في الشارع بل دبّر لها مسكنًا لائقًا. فقوبل اعتذاره بالشكر من قبل الحاضرين. وراح إثنان أو ثلاثة من المجتمعين يطالبونه بتحرير الموقوفين المسلمين الصيداويّين لقضاء العيد مع عائلاتهم، فقوبل الطلب بالدرس والعمل السريع على إخراج من لم يرتكبوا إجرامًا. وأنا طلبت تطبيق هذا المبدأ على المسلمين الفلسطينيّين أيضًا، فشدّ على يدي أحد الجيران في المكتب خوفًا من ردّة فعل سلبيّة لدى الحاكم، لكنّني بقيت مشدّدًا على ذلك.

تمادى الحاكم العسكري تظاهرًا بالتجرّد قائلًا للحاضرين: «إسرائيل لا تريد للبنان سوى الخير والسلام، فلا تطمع بشبر من أرضه ولا بمائه إنّما تريد أن تكون فيه حكومة قادرة على ضبط الأمور وإقامة السلام، كي لا تنتقل الفوضى إلى جارته إسرائيل. هو يحكي والنّاس إليه مشدودون وما تلفّظ أحد بكلمة، إذّاك أخذت الكلام وقلت بالعربيّة: «ما دامت إسرائيل تريد الخير للبنان وتريد له حكومة قادرة على ضبط أمور البلاد وإشاعة السلام في ربوعه، فلماذا ألغت وجود الدولة اللبنانيّة ورفعت العلم اللبناني عن هذه المؤسّسة الرسميّة الحكوميّة ورفعت محلّه العلم الإسرائيلي حتّى أصبح الداخل إليها يرى نفسه وكأنّه في مؤسّسة إسرائيليّة؟» قال، وقد فهم سؤالي إليه موجّهًا بالعربيّة، للسيّد شارون بجانبه أن يطرح سؤاله هذا على العقيد عاشور قائد الدرك في صيدا، فتدّخلت للحال وقلت: «إن أردت أن تجيب عن سؤالي بسؤال آخر تهرّبًا من الجواب، فأنا سيّد من تعاطى هذا الشأن لكوني تلميذًا للآباء اليسوعيّين المشهورين بذلك»، فضحك الجميع ومن بينهم الحاكم العسكري الّذي فهم السؤال والجواب باللغة العربيّة، الّتي كان يدّعي جهلها كلّيًا. وما فاتني أن أشير إلى ما يخفون في سرائرهم تجاه لبنان.

عندما انتهت الزيارة نزلنا الدرج إلى الساحة العامّة ورافقنا الدكتور شارون، الّذي ظلّ بجانبي إلى أن صعدت في السيّارة، وقبل الانطلاق بها عائدًا إلى المطرانيّة، تقدّم إليّ مودّعًا

المحامي جوهري وقال: «هل عرفت لماذا نريد أن تكون معنا في هذه الزيارة؟ لأنّكم ملح الأرض ونور العالم.»

كان الإسرائيليّون يلحّون على الصيداويّين ويطلبون منهم أن يزوروا أرض إسرائيل، وقد كانوا يحسنون استقبالهم ليحملوهم على الإتجار مع شعبها. ولكنّ العلاقة بين الصيداويّين والإسرائيليّين ظلّت فاترة كلّيًا. وإذا ما كان أناس منهم قد سافروا لقضاء عطلة معيّنة، فهم قلّة ضئيلة جدًّا مع أن الإسرائيليّين دعوهم غير مرّة إلى إرسال سيّاراتهم إلى إسرائيل للتزوّد بما يلزم، وشراء بعض الحاجيّات الّتي كانوا يجدونها في بيروت. وفي أحد الاجتماعات، جرى حديث ودّي من هذا النوع فما لقي تجاوبًا لدى التجّار الصيداويّين، الّذين كانوا دومًا حذرين جدًّا من التعاطي مع التجّار والجنود الإسرائيليّين، وهذا ما حذّرت منه بعض الشبّان في صيدا في أيّام الاجتياح الأولى فأخذوا بما قلته لهم. وذكّروني بما كنت قد قلته لهم بعد نزوح الإسرائيليين عن أرض لبنان وكانوا شاكرين، لأنّ المطامع الإسرائيليّة بلبنان ليست خفيّة على الإنسان الواعي ولما يدبّرون من مكائد للشعب اللبناني. فثمة لبنانيّون انغرّوا بالكلام الطيّب والوعود الخلّابة التّي أغدقوها عليهم، فمنهم من سار في ركابهم عن حاجة إليهم، وتخلّصًا من ظلم واضطهاد كان ينزله بهم إخوان لهم مواطنون لبنانيّون، ومنهم من تبنّى سياستهم عن إعجاب بها، لكنّهم باتوا اليوم إمّا يقيمون في إسرائيل، وإمّا هجروا لبنان وإسرائيل إلى أوروبا وكندا وأوستراليا. وفي كلتا الحالين يظلّ لبنان دومًا الخاسر الأكبر ولاسيّما الكنيسة فيه الّتي فقدت عناصر مهمّة من أبنائها.

اِتّخذ الجيش الإسرائيلي من الكتائب اللبنانيّة حليفًا له فأرسلهم إلى المناطق الّتي احتلّها، وبخاصة تلك الّتي كان محظّرًا على الكتائب أن تدخلها أو أن تعود إليها قبل الاحتلال. فكان وجودهم يثير حفيظة السكّان الّذين جرتْ بينهم وبين الكتائب أو القوّات اللبنانيّة في الماضي معارك دامية خرجت منها مغلوبة على أمرها، فراحت بوجود الجيش الإسرائيلي تستبدّ وتطغى. هكذا صار في كلّ مكان احتلّه الإسرائيليّون، وكانت الحواجز الّتي تقيمها القوّات تشكّل نوعًا من الاستفزاز للسكّان المحليّين الّذين يعدّون العدّة للانقضاض على القوّات والانتقام منها ساعة تسنح لهم الفرصة، وهذا ما صار لدى انسحاب الجيش الإسرائيلي من الجبل وشرقي صيدا وساحل جزّين، حيث جرى تهجير شامل ومذابح وخراب

لم يُبقِ على كنيسة أو بيت أو مدرسة إلّا ولعبت فيها أعمال النهب والحريق والهدم، حتّى إذا سرتَ في بعض القرى صعب عليك أن تتبيّن أمكنة الأبنية الّتي لعبت بها أيدي الحقد، فأزالتها من الوجود، ولم يبقَ لها أثر على الأرض الّتي فرشوها بالزفت لتكون ملعبًا للأولاد.

إنّ احتلال الجيش الإسرائيلي وسّع رقعة الخلاف بين اللبنانيّين، وساعد كثيرًا على إشعال نار الفتنة بين جميع فئات اللبنانيّين ودارت الدائرة على المسيحيّين الّذين كانوا قد رأوا في إسرائيل مخلّصًا، فإذا بهم يرون فيها عدوًّا شرسًا ولئيمًا يظهر لك شيئًا ويبطن شيئًا آخر ولست تدري أيّ شيء يرضيه، سوى مصلحته الخاصّة، حتّى وإن أبدى نعومة في المظهر وطراوة في الحديث، وفهمًا لوضعك تبقى مصلحته معيارًا أساسيًّا لما يقدّم لك من خدمات. ولعبة الحبلين المعروفة لدى الخاصّة والعامّة يتقنها جيّدًا ويتعاطى بها مع المغفّلين.

الفصل السادس

التهجير من الجبل

مطلع أيلول ١٩٨٣ هاجمت القوّات المشتركة تساندها القوّات الإسرائيليّة خفيةً، على ما أظنّ، واحتلّت الشوف من الجبل إلى الساحل ونودي على القوّات اللبنانيّة المنتشرة فيه وعلى سائر سكّانه المسيحيّين باللجوء بالسرعة الكليّة إلى دير القمر التي جعلوا منها الملجأ المسيحي الوحيد في الشوف، تحت رحمة الاشتراكيّين ومراقبتهم. وأمّا من بقي من المسيحيّين في بيته أو في رعيّته أو اختبأ في كنيسة فقد قضي عليه. هكذا تمّ الاتّفاق بمعزل عن إرادة أولئك الأبرياء الّذين ولدوا في تلك القرى وعاشوا في تلك الرعايا واشتغلوا الأرض واستنبتوها لهم رزقًا حلالًا بدمّ قلوبهم وعرق جباههم، فنادوا عليهم بالخروج منها ولو مرغمين، مضطرين، مكسوري الخاطر، لئلّا يقضى عليهم، لأنّ من لم يسمع النداء وبقي قضي عليه بلا شفقة ولا رحمة. أمّا من هرب فقد بقي عليه أن يسيح في أرض الله شرقًا وغربًا حصولًا على سقف يأوي تحته ولقمة خبز يقوت بها عائلته ويمنع بها عنهم خطر الموت جوعًا.

زيارةٌ إلى مرجعيون لتفقّد المهجّرين إليها من البيرة في الشوف

في تلك الليلة، ليلة الأحد الأوّل من أيلول ١٩٨٣، اتصل الخوري منصور الحكيّم خادم رعيّة القليعة والوكيل الأسقفي في المنطقة بالمطران إبراهيم الحلو في المطرانيّة بصيدا وأخبره بأنّ مجموعة من مهجّري الشوف وبالتحديد من بلدة البيرة بلغ عددهم على ما أظنّ حوالي الخمسين شخصًا قد لجأوا إلى مرجعيون وهم بحاجة إلى مساعدة عاجلة. جاءني المطران عارضًا عليّ الخبر وسألني عمّا يجب القيام به بسرعة، فقلت له غدًا صباحًا أنا مستعدّ إلى أن أذهب إلى القليعة لتقديم ما تتمكّن المطرانيّة من مساعدة. فأحضر شكًّا بقيمة عشرة آلاف ليرة لبنانيّة على ما أظنّ. وفي الصباح الباكر اتّصلت بشابين متطوّعين في كاريتاس لبنان هما حبيب نعسان وجوزيف أبو زيد وكلاهما من صيدا، ووضعنا بغض الأغراض في سيّارة ستايشن تابعة لمؤسّسة «Help Lebanon» كانت بتصرّفنا، وانطلقنا بعد القدّاس إلى القليعة فوصلناها قبيل الظهر. سألنا عن الخوري منصور الحكيّم فقيل لنا إنّه

في مرجعيون، فاتجهنا صوبه، وعلى الطريق التقيناه في سيّارته عائدًا إلى القليعة. أشرنا إليه فتوقّف، وإذ فهم الغاية من مجيئنا عاد معنا إلى مرجعيون. وبما أنّ المهجّرين كانوا موزّعين بين مدرسة راهبات القلبين الأقدسين والمستشفى الحكومي، قمنا بزيارة المركزين، وسلّمنا المسؤولين عنهم ما كان لدينا من أغراض. وسلّمنا الشك المذكور إلى الخوري منصور، على أن يضعه في خدمة المهجّرين بالاتّفاق مع اللجنة الّتي أخذت على عاتقها الاهتمام بهم.

ولمّا كانت الطريق المارّة في كفرتبنيت بين النبطية ومرجعيون عاطلة بسبب ما يقام عليها من أشغال، أشاروا علينا بالرجوع عن طريق كوكبا السريرة كفرحونة جزّين، وإن كانت أطول، غير أنّها أحسن، عملنا بما قالوا لنا وتوجّهنا على طريق كوكبا. وكان الوقت قد بلغ تقريبًا الساعة الثانية ظهرًا، وبلغ الجوع بالشباب مبلغًا عظيمًا، وراحا يتوقان إلى شيء يسدّان به رمقهما. ولهذا عندما وصلنا إلى بساتين التفّاح الّتي يملكها الجزّينيّون في منطقة عدّوس أوقفا السيّارة ونزلا إلى البستان ورحا يقطفان التفّاح ويلتهمانه، وأنا أصرخ بهما خوفًا من أن يكون مرشوشًا بالسموم، وخوفًا من أن يراهما مالكوه، وتكون الطامة الكبرى، فأتّهم بمن معي من شباب في سرقة التفّاح. لكنّ اعتراضي عليهما لم ينفع وتابعا هجومهما على البستان. وبعد ربع ساعة عادا وسارا بالسيّارة وصولًا إلى جزّين ومنها إلى البيت في وادي جزّين، رغبة في أن نتناول بعض الطعام ولو كنّا متأخّرين. وصلنا إلى البيت فوجدت بعض المهجّرين من البيرة الّذين حطّت بهم الرحال في المدرسة الرسميّة في وادي جزّين منذ مساء اليوم السابق. وقد دعوا إلى تناول طعام الغداء على طاولة البيت، وبقي بعضهم في الدّار على مقاعد إلى جانب الحائط الخارجي على الفرندا، وبينهم شيخ جليل مهيب يرتدي سروالًا عربيًّا أسود، وبعد أن سلّمت عليه جلست إلى جانبه ولم أجرؤ على أن أسأله عن حاله وأحوال أهل بيته، وحسبنا أن ننظر إليه وإلى سائر النّاس حوله لنعرف فظاعة المأساة الّتي يعيشونها ومرارة التهجير الّذي لم يكن بحسبانهم.

يبادرني ذلك الشيخ بقوله: «يا أبونا الله يسامح وليد جنبلاط، فنحن له ومن حزبه ومن جماعته. إشتراكيّون بالدمّ ولولا ذلك ولولا محبّتنا له وثقتنا به، لكنّا تركنا البيرة وهجرناها كما فعل سوانا من أبنائها. ولم يسألوا عنّا وكنّا ضحيّة.»

ذاك ما سمعنا من كلام الشيخ الجليل، ولم أقل كلمة واحدة للتعليم ولا للتدبير ولا للتحدّي، وقد كان ذلك في البيت الوالدي في وادي جزّين، في الثامن من أيلول ١٩٨٣. فتأثّرت جدًّا لما حصل بتلك الرعيّة ومن سواها من الرعايا التي ذهبت ضحيّة حبّها لجنبلاط وتعلّقها به، وإغفالها تحذير النّاس لهم من الدروز والغدر بهم في ساعة لا يخالونها، وهذا ما صار بكلّ أسف. وبعد ست سنوات قمت بزيارة الأستاذ وليد في المختارة وكان ذلك سنة ١٩٨٩، وكان يرافقني الأستاذ نزيه يمّين، اشتراكي من دير القمر، ونقلت ليه حرفيًّا ما أسرّ به إليّ ذلك الشيخ ابن بلدة البيرة، في إبّان أزمته الخانقة، فلم يتلفّظ وليد جنبلاط بكلمة واحدة إنما بدا على وجهه التأثّر.

شهادة المحبّة للمحبّة

عندما تهجّر إقليم الخرّوب بمعظم ساكنيه بقيت فئة قليلة من السكّان الّذين ظلّوا قابعين في زوايا بيوتهم ومن بينهم إمرأة في السبعين من عمرها تسكن وحدها في غرفة مكشوفة على كلّ الجهات. ولمّا بدأت القذائف تتساقط على الجيّة هربت إلى أقرب مكان تأوي إليه. وفي أثناء غيابها عن بيتها سقطت قذيفة عليه فدمّرته ونجت السيّدة المسكينة المدعوّة حسيبة. وراحت تبحث عن مكان يأويها ولا غرش في يدها موفور. وجاء المسلّحون المقيمون في الجيّة فأخذوها في سيّارتهم وأنزلوها عند جسر الأوّلي مدخل صيدا الشمالي، وقالوا لها: «سيري لعلّك تصلين إلى المطرانيّة فيتدبّر أمرك». سارت المسكينة حسيبة في ذلك الشارع الطويل الّذي لم تجد له نهاية، ولا حصلت فيه على فرج إلى أن استبشرت خيرًا إذ رأت إشارة الصليب الأحمر على الجانب الشرقي من الشارع، وهي تعلم علم اليقين أنّ الصليب الأحمر مؤسّسة خيريّة تساعد قدر ما تستطيع من كان في ضيق أو شدّة، فهمّت في الدخول إلى المركز طالبة المأوى، فأجابها المسؤول: «إنّنا لا نستطيع أن نأوي لدينا أحدًا، عملنا هو المساعدات ونقل مرضى أو جرحى من المستشفى وإليه.»

وإذ رأت الجارة وهي من آل البزري، مسلمة سنيّة من صيدا، متزوّجة من شاب مصري، مسلم هو أيضًا من آل غانم، ما جرى أمام عينيها ومسامعها من حديث موظّف الصليب الأحمر إلى تلك المسكينة، تقدّمت منها وأخذتها بيدها إلى بيتها قائلة، مطمئنة

لخاطرها المضطرب، وأفردت لها غرفة من الغرفتين اللتين لها ولعائلتها، واجتمع أهل البيت في غرفة ووضعوا الضيفة في غرفة لها. ويوم الأحد صباحًا، قالت ربّة البيت للسيّدة حسيبة ضيفتها: «ألا تريدين أن تسمعي القدّاس اليوم؟» «بلى، من كلّ قلبي ولكن أين لي هذا؟» فأمسكتها بيدها وأخرجتها إلى رصيف الشارع وأشارت بإصبعها إلى قبّة جرس كاتدرائية مار الياس من الجهة الجنوبيّة وقالت لها «إذهبي على الرصيف صعودًا ولا تحيدي عنه لا شمالًا ولا يمينًا إلى أن تصلي إلى الكنيسة عند أبونا حنّا، إسألي عنه ثمّ تعودين إلى هنا إلينا إلى بيتك.» سارت حسيبة بما أشارت عليها به السيّدة البزري، فوصلت إلى الكنيسة وسمعت القدّاس وطلبتني وأخبرتني عنّ كلّ ما جرى لها في الجيّة، بدءًا من القصف المدفعي ومجيئها إلى صيدا واستقبال تلك السيّدة لها. طيّبتُ خاطرها قدر الإمكان وإن كان طيّبًا وسألتها عمّا إذا كانت تريد أن تذهب إلى إحدى القرى وبالتحديد قرية عقتانيت، حيث يمكن أن تعيش في غرفة حرّة مستقلّة، فآثرت البقاء في ضيافة تلك السيّدة. وبقيت على هذه الحال أحدًا وأحدين على الأكثر، وجاءتني بعد القدّاس تقول لي: «كنت قد هيأت لي غرفة في إحدى القرى وأنا مستعدّة إلى أن أذهب إليها الآن.» إذّاك هيّأت لها سيّارة وشابين من كاريتاس وبعض الضروري اللازم لها في إقامتها الجديدة دون أن ننقطع عنها، وأرسلتها قائلًا لها: «طال ما أنت مبسوطة ومرتاحة في عقتانيت عيشي بسلام، وسنظلّ على اتصّال بك إلى أن يمنّ الله بالفرج على الجميع. وعندما لا يعجبك البقاء في عقتانيت فإنّي أرسلك إلى مؤسّسة دار الرحمة ساعة تشائين». وذهبت حسيبة إلى عقتانيت مع الشابين اللذين أوصلاها إلى المكان المقصود.

أمّا السيّدة البزري فقد رأت أنّ غياب حسيبة عن البيت قد طال وها هي الساعة الثالثة بعد الظهر ولم تعد، فاضطربت وخافت عليها من سوء قد يصيبها في الشارع، وأتت مسرعة إلى المطرانيّة تستقصي أخبارها. وإذ قلت لها إنّني قد أرسلتها إلى عقتانيت لتقيم هناك، تساقطت دمعتان من مقلتيها وقالت لي: «يا أبونا كانت بمنزلة أمّ لي». أجبتها: «إنّها كانت تستثقل وجودها في البيت على عائلتك». «كلّا يا أبونا كلّا.» وانصرفت بنت البزري إلى بيتها وأقامت حسيبة إلى زمن معيّن في عقتانيت.

لا بدّ من أن يعرف القارىء أن بيني وبين عائلة ذلك المصري المتزوّج من بنت البزري علاقة قديمة، بدأت ساعة قبلت ابنها البكر، الّذي لم يكن يحمل هويّة مصريّة ولا لبنانيّة، ولا كانت مدرسة تقبله. جاءتني به أمّه ذات يوم وهو في سنّه التاسعة فقبلته في مدرسة مار الياس بصيدا، الّتي كنت أديرها، وتحمّلت كلّ مسؤوليّة بشأنه تجاه التفتيش التربوي الّذي كان يدقّق في لوائح الطلّاب وفي هويّاتهم لدفع المساعدات المخصّصة لهم ضمن القوانين المرعيّة، فكنت أقول لهم: «ذاك طالب مصري قبلته عندي بالمجان ولا تحسبوه عليكم بل خلّوه عليّ.» وهكذا كان فكبر الولد وبقي هو وعائلته يقدّرون ما عملته تجاههم، ومنذ أن كبر راح يفتح محلًّا لبيع محافظ الجلد والبلاستيك على باب المدافن الإسلاميّة على شارع المطران وما يزال يجيئني من وقت لآخر يعرض خدمات.

ذات يوم، وبعد أن مضى على وجودها ستة أشهر في عقتانيت، اتصلتْ بي حسيبة قائلة إنّها مستعدّة إلى أن تذهب إلى دار الرحمة، ولكن قبل أن تنتقل إلى عين سعادة، فإنها تريد أن تأتي إلى الجيّة لتعيش بعض الوقت فيها قبل أن تذهب إلى دار الرحمة. وجاءت حسيبة إلى الجيّة لتودّع أرضها الّتي تعبت فيها كثيرًا. ولكن لسوء حظّها انفجر الوضع واجتاحت القوّات المشتركة ما بقي من الشوف وإقليم الخرّوب ومنها الجيّة، فكان نصيب حسيبة المسكينة رصاصة أطلقت عليها فوقعت على الشارع العام مضرجة بدمائها. وكانت أولى الضحايا الّتي جمعها الصليب الأحمر عن الشوارع والطرقات والبيوت، ولم يكن عددها قليلًا لأنّ كلّ إنسان، مسلّحًا كان أم أعزل كانوا يطلقون عليه النار ويردونه قتيلًا. حصاد بشري هائل أمام سلاح القوّات المشتركة. وعلى هذا النحو فإنّ تلك القوّات قضت على كلّ وجود مسيحي من صوفر، وبحمدون، بيت الدّين، إقليم الخرّوب بكامله وصولًا إلى نهر الأوّلي. هذه الكارثة الّتي حلّت بقسم كبير من الأبرشيّة، قضت على الثلث الأكبر من أبنائها، وشرّدتهم تحت كلّ سماء، كما حرمتها من خدّام رعاياها الّذين راحوا كسائر النّاس يواجهون صعوبات جمّة ما كانت بالحسبان. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّ السكّان وبخاصّة الشبّان منهم الّذين حرموا من كلّ شيء، وهاموا عل وجوههم بحثًا عن مأوى وعن مأكل لهم ولعيالهم راحوا يغذّون صفوف الميليشيات المسيحيّة انتقامًا ممّن هجّرهم وكسبًا لقوتهم اليومي لهم ولعيالهم. وازدادت الحرب اشتعالًا وأضحت النّاس لها وقودًا سهلًا.

من الأهمّيّة بمكان الحديث عن الوحشة الّتي عاشها مسيحيّو الأبرشيّة: فالطريق الساحلي الّتي تصل صيدا ببيروت محرّم عليهم سلوكها. وإذا ما غامروا، عليهم إمّا أن يُخطفوا إلى حيث لن يعود أحد يدري بهم وإمّا يقتلون للحال. ولنا مثل في ابنة الخوري جرجس روفايل خادم رعيّة عقتانيت الّتي أوقفت على حاجزٍ اشتراكي في منطقة جدرا ولم يعد يعرف عنها شيء، بالرغم من المراجعات والمداخلات العديدة الّتي جرت بشأنها دون أن تصل إلى نتيجة مرضية حتى أن أحد المسؤولين الدروز في الشوف وقد طلبنا منه البحث عنها أجاب: «صلّوا لأجلها.»

حرب آذار ونيسان ١٩٨٥ بين صيدا وشرقيها

في السادس عشر من شباط ١٩٨٥، انسحبت إسرائيل من صيدا وجوارها. وكان يوم سبت اجتازت فيه قوى الجيش اللبناني جسر الأوّلي ودخلت المدينة فاستقبلها الأهالي بالتصفيق والأهازيج، وتجمّعوا في الشوارع وفي البيوت وعلى السطوح وراحوا يحيّونها. وكان السكّان يعدّون بعشرات الألاف يحيّون الجيش اللبناني الداخل، الّذي كانوا ينتظرونه منذ زمن طويل لأنّهم كانوا ينتظرون منه الفرج والسلام للمدينة والمنطقة الّتي ما دامت تنزف على كلّ صعيد.

في اليوم التالي لدخول الجيش أي يوم الأحد أقبلت الوفود بكثرة إلى دار المطرانيّة تهنّىء المطران إبراهيم الحلو، ومنها من أتى من المنطقة أو من بيروت، وجميعهم كانوا يستبشرون خيرًا بذاك القرار المتّخذ، والجميع يتنفّسون الصعداء بعد ذلك الكبت الطويل الّذي مارسه عليهم الإسرائيليّون وحلفاؤهم. وكانت تلك اللقاءات تتمّ مع القيادات الروحيّة والإداريّة. وفي ذلك اليوم قام رئيس الجمهوريّة الشيخ أمين الجميّل بزيارة خاطفة إلى مركز المحافظة في صيدا يرافقه رئيس الوزراء رشيد كرامي والجنرال ميشال عون القائد الأعلى للجيش وجاءوا في طوافة عسكرية إلى ثكنة محمد زغيب. وقبل أن يصل فخامته اتصل المحافظ حليم فيّاض بالمطران إبراهيم الحلو وطلب إليه الحضور حالًا إلى السراي للمشاركة في حوارٍ يضمّ سائر الروحيّين في صيدا وفي المنطقة، يعقد في السراي. وإذ كان المطران إبراهيم مهتمًّا باستقبال الضيوف القادمة إليه من كلّ حدب وصوب، ومن جميع

الفئات والتيّارات، فقد طلب مني أن أذهب شخصيًّا إلى السراي وأشارك في ذلك اللقاء الذي لم أكن أعرف عنه شيئًا. ولكنّني حين وصلت فهمت بطريقة سرّية، أنّ الدعوة كانت موجّهة إلى الرؤساء الروحيّين من أجل استقبال رئيس الجمهوريّة ورئيس الحكومة، اللّذين أعلنا سرًّا عن وصولهما إلى صيدا جوًّا ولم يعد لديّ مجال لكي أعود وأتّصل بالمطران إبراهيم لكي يشارك في اللقاء. وكان لقاء في القاعة الكبرى، وطُلب إلى سماحة المفتي أن يلقي كلمة، وكان المطران إغناطيوس رعد متروبوليت الروم الكاثوليك في صيدا حاضرًا، ولم يطلب منه أن يقول كلمة، لأنّه متهم بالتعاطي مع الإسرائيليّين ومع الأحزاب اللبنانيّة، وأسهمه في المجتمع الصيداوي منخفضة. ولهذا توجّه إليّ المحافظ مباشرة وطلب منّي أن أوجّه كلمة إلى فخامته ودولته، فقمت بالمهمّة ما أظنّ، وقلت ما كنت أعتقده ضروريًا في تلك المناسبة. وترك الرئيس ومرافقوه المحافظة وتوجّهوا إلى ثكنة محمّد زغيب، حيث كانت تنتظرهم طوّافة الجيش لتنقلهم إلى بعبدا.

كان الأحد الأوّل من الصوم المعروف بأحد المرفع، وكان إلى حدٍّ ما غريبًا من نوعه في صيدا لا من حيث الاحتفالات الدينيّة، بل من ناحية الفرح العارم الّذي عمّ جميع المؤسّسات ولاسيّما دار المطرانيّة المارونيّة، وكأنّها المقاوم الأوّل للاحتلال الإسرائيلي، وأوّل المراجع الواجب تقديم التهاني له بهذه المناسبة الوطنيّة الفريدة. هكذا عشنا ذلك النهار إنّما سنعيش يومًا آخر لن يكون بعيدًا هو اليوم التالي لذلك الأحد، يوم الإثنين، يوم إثنين الرماد، الّذي فيه نبدأ صومنا الخمسيني. ويا له من يوم جاءت فيه جحافل جرّارة من الضاحية الجنوبية وبيروت الغربيّة، من الجماعات الإسلاميّة المتنوّعة، الّتي تعيش التعصّب المقيت ومنه تتغذّى، وفي أجوائه تعيش، ودخلت مدينة صيدا، ناشرة في شوارعها الذعر والخوف، فحطّمت محلّات تجاريّة يحكى أنّها كانت تبيع بعض الكحول كما وصلت إلى مستديرة الراهبات، الّتي أصبحت تسمّى فيما بعد ساحة الشهداء، ويقال إنّها مزّقت أو حرقت الأعلام اللبنانيّة على مرأى من الكثيرين وتعدّت على بعض العسكريّين المسؤولين عن النظام والأمن. ولست أدري إن كانت هذه التظاهرة عفويّة أو مدبّرة من قبل فئات مشبوهة، تريد الشرّ والإيقاع بلبنان، فكانت مناهضة ومعاكسة كليًّا للحركة الشعبيّة الّتي قامت أمس الأحد ابتهاجًا بخروج الإسرائيليّين من صيدا. يلحظ المراقب أنّ المتظاهرين

القادمين من بيروت في سيّارات نقل كبيرة قد أوقفوا سيّاراتهم الكبيرة والصغيرة حوالى الظهر عند المدخل الشمالي لمدينة صيدا وكانوا رجالًا ونساءً وأطفالًا يرفعون أعلام حزب الله والجماعة الإسلاميّة، ودخل الجميع المدينة سيرًا على الأقدام فحاول الجيش أن يوقف مسيرتهم نحو المدينة، دون أن يستطيع، كما حاول التحدّث مع زعمائهم فلم يصل إلى نتيجة، إذّاك هاجموا مركزًا للجيش قريبًا من مدرسة راهبات مار يوسف الظهور، وداسوا العلم اللبناني ومزّقوه على مرأى من عناصر الجيش. هاجموا محلّات في صيدا تتّهم ببيع المشروبات الكحوليّة، فكسّروا وحطّموا. وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ المشاغبين في تلك التظاهرة كانوا ينعمون بحماية المسلّحين الّذين كانوا معهم، وكانوا يجتازون الشوارع كتلة واحدة متراصّة، يطلقون صرخات معروفة، يشتمّ منها تعصّب دينيّ ذميم ضدّ النظام الراهن في البلاد.

أمّا المواطنون، مسيحيّون ومسلمون، فكانوا منذهلين، متعجّبين ممّا يرون، خائفين من المستقبل الرديء والسيّء للبلاد، وقد راحت وفود وجماعات من رجال الصحافة المحليّة والأجنبيّة، تدقّ باب المطرانيّة لتأخذ برأي المطران وآراء أصحاب الشأن والنفوذ في هذه المدينة. وقد تكون إحدى نتائج هذه المظاهرة الغريبة المستهجنة، الّتي تفرض على المدينة فرضًا من خارجها، أنّ مجموعة من رجال الإعلام والتلفزيون تصل بعد ثمانية أيّام من تلك المظاهرة إلى دار المطرانيّة في صيدا، وذلك عند الساعة السادسة مساءً وكانوا ينتمون إلى جنسيّات لبنانيّة وفرنسيّة وألمانيّة، اجتمعوا في الزاوية الجنوبيّة الغربيّة من قاعة الاستقبال في المطرانيّة، وراحت من بينهم إحدى السيّدات تطرح على المطران أسئلة كان يجيب عليها بهدوء ولباقة، وبدا أنّ السؤال الّذي يراود خواطر جميع رجال الإعلام الحاضرين هو التالي:

«كيف يكون مستقبل المسيحيّين في المدينة وجوارها؟» كما أنّ السيّدة المسؤولة عن طرح الإسئلة على سيادته، لم تخلُ من خبث في أحد أسئلتها وبعض التخوّف من المستقبل على المسيحيّين في هذه المنطقة، إنّما كان سيادته يتهرّب من الإجابة مباشرة بشأن الخوف من المستقبل الأسود القاتم الّذي ينتظر المسيحيّين على حدّ قول السيّدة الّتي تطرح الأسئلة. أمام ذاك التشدّد في انتزاع جواب من سيادته على الأسئلة، طرحت

عليها السؤال التالي قائلًا: «في أحد الأسئلة الّتي توجّهينها إلى المطران تعملين على إشاعة جوّ من التشاؤم حول مستقبل المسيحيّين في هذه المنطقة حتّى أنّ كلّ من يستمع إليك يلمس من خلال كلامك تنبؤًا مزعجًا وسيئًا يمكن اختصاره بما يلي: «ها أنا اليوم هنا لأطرح أسئلة في مواضيع وآخذ أجوبتكم عليها على أمل أن أعود بعد أيّام قليلة -لا تتعدّى العشرة لأصوّر أفلامًا عن الخراب والقتلى في هذه المدينة». ولم تتأخّر تلك السيّدة عن أن تجيب دون أن يرفّ لها جفن أو أن تتلعثم في ردّها: «ذاك هو الصحيح»، أمّا أنا وبلهجة عفويّة وبريئة فقلت لها: «كلّا، كلّا يا سيّدتي، إنّك لعلى خطأ» وجوابها القصير الموجز كان: «أرجو ذلك».

بكلّ أسف وحزن، لقد كنت أنا على خطأ وهي على حقّ، ففي الثامن عشر من آذار أي بعد شهر من انسحاب الجيش الإسرائيلي من صيدا وضواحيها، بدأت الحرب في صيدا وجوارها وكان ما كان، غير أنّي أذكر أنّ عناصر من القوّات اللبنانيّة، الّذين كانوا يتعلّمون في مهنيّة صيدا الرسميّة، جرى خطفهم لدى خروجهم من المدرسة، وجرت محاولات فاشلة لاستردادهم دون الوصول إلى نتيجة إيجابيّة. إذّاك لجأ شباب القوّات إلى السلاح فقطعوا الطرقات، ورفعوا السلاح على أنواعه واشتعلت الجبهة الشرقيّة لمدينة صيدا ولم يعد الاتّصال ممكنًا: هنا تلاميذ محجوزون ضمن المدينة وهناك آخرون محجوزون أو منقطعون عن جذورهم وأصولهم في المدينة. واستولت هستيريا على الجميع في هذا الجانب وذاك. حاول الكثيرون أيضًا الدعوة إلى الهدوء والتعقّل وبقي كلّ فريق متمسّكًا بموقفه، محاولًا الوصول إلى حقّه بالطريقة والأسلوب الّذي يراه موافقًا لمصلحته، بينما مصلحة الجميع هي في التلاقي والتوافق. إنفخت الدفّ وتفرّق العشّاق. والجيش اللبناني، الموجود في المدينة بواسطة الفرقة ٩٨ المؤلّفة بكلّيتها من عناصر سنيّة من طرابلس وعكّار، وقف إلى جانب الصيداويّين وانضمّ إليهم في محاربة القوّات اللبنانيّة المرابضة وراء أكياس الرمل في شوارع الهلاليّة وعلى سطوح منازلها، وعلى طرقات البراميّة ومرتفعات درب السيّم والميّة وميّة. ودامت تلك الحال ٣٦ يومًا، لم نرَ فيها يومًا جهة من الجهات المتقاتلة تتقدّم خطوة إلى الأمام، أو تتراجع أخرى إلى الوراء. وبقي القصف المدفعي متبادلًا والخطف الممكن قائمًا. وفي أثناء تلك المعارك وقعت ضحايا كثيرة في معسكرات الطرفين بين المدنيّين الّذين في غالب الأحيان يقعون ضحايا بريئة لنيران الأطراف المعتدية. في المدينة مسيحيّون لوحقوا

وهجّروا، وفي الجهة الثانية من خطوط النار، صيداويّون أيضًا لوحقوا وهجّروا من منازلهم فاضطروا إلى اللجوء إلى مدينة صيدا، حاملين معهم وفي صدورهم الحقد والكراهيّة وحبّ الانتقام من كلّ مسيحي صيداوي، يلتقونه به في البيت أو على الطرقات فاضطرّ هؤلاء إلى النزوح عن صيدا وجوارها.

كان دورنا في المطرانيّة للتهدئة والكشف عن الغائبين وتحرير المخطوفين إلخ عن طريق اتصالنا بالفريقين إلى ما هنالك من أمور التزمنا بها بكلّ راحة ضمير، حقنًا للدماء وإشاعة لجوّ من الهدوء فقدته المنطقة وأصبحت بأمسّ الحاجة إليه. في اليوم التالي من إغلاق الطرق وبداية المعارك وبعد قيامي صباحًا بالذبيحة الإلهيّة لراهبات مار يوسف الظهور، عدت إلى المطرانيّة فوجدت مجموعة من أهالي حارة صيدا الشيعة، يطالبون بجماعة لهم يدّعون أنّ القوّات اللبنانيّة قد خطفتهم بعد اندلا ع المعركة، بينما كانوا يعملون في إحدى البنايات في حيّ الهلاليّة. وبالطبع فقد جمعوا بين المطالبة بجماعتهم بالحسنى وشيء من التهديد بالمعاملة بالمثل. تقدّمت بطلب لا يخلو من الخطر وهو أن أصعد إلى مجدليون، مركز القوّات اللبنانيّة، وأسأل عمّن لم يعودوا إلى بيوتهم من الشيعة وقد قضوا الليلة خارجًا عنها.

أخذت سيّارة الكاريتاس وهي كناية عن فان متوسّط الحجم فيه مقاعد لستّة أشخاص، واتّجهنا بها إلى المنفذ الوحيد المفتوح صوب الميّة وميّة، ومنها صعودًا إلى وادي بعنقودين ثمّ اتّخذنا الطريق نزولًا إلى مجدليون مركز القوّات اللبنانيّة حيث اجتمعت إلى المسؤول وعرضت عليه ما أنا قادم بشأنه، فأجاب بأنّهم لم يوقفوا أحدًا تلك الليلة في حارة صيدا. وتجاوبًا مع رغبتي أرسل عنصرًا من قبله يسأل الجماعة التابعة له المرابطة على الحدود فأجابه بأنّ الأشخاص الّذين لم يعودوا إلى بيوتهم الليلة، لم يحتجزهم أحد، ولكنّهم خافوا وباتوا ليلتهم في البناية حيث كانوا يعملون. إذّاك طلبت أن يرسلهم في السيّارة إلى مجدليون حيث أنا، ولمّا وصلوا صعدت إلى السيّارة، وعدنا إلى صيدا على الطريق الذي سلكناه صعودًا، وقد كان الجيش مستنفرًا يطالب كذلك بهم، فأراد أن يستبقيهم لديه، فرفضت قائلًا بوجوب إيصالهم إلى الحارة وتسليمهم إلى أهاليهم. وإذ وصلت بنا السيّارة إلى ساحة الحسينيّة راح النّاس يطلقون النار فرحًا في الجوّ ولم يوفّروا الـR.P.G.، وإذ أردت متابعة

سيري بالسيّارة الفارغة إلى المطرانيّة، قال لي أحدهم: «انتظر قليلًا لأنّنا نريد أن نسلّمك الجماعة الّتي احتجزناها منذ ليلة أمس.» عجبت لذاك التصرّف اللئيم، وتطلّعت فإذا ببعض شباب قناية صيدا المسيحيّين يتوافدون إليّ من أمكنة مختلفة، هذا بثياب النوم وذاك آتٍ والدمعة في عينيه، ويكاد يشرق بقوله لي: «أهذه هي الحالة الّتي وصلنا إليها يا أبونا؟ ما كنت أعتقد أنّ الجار ينقلب على جاره إلى هذا الحدّ من السوء والشرّ متجاهلًا أصول اللياقة...» بعد أن عادت الجماعة الشيعية إلى بيوتها، أعيد المسيحيون المخطوفون إلى عيالهم في حال ذعر لا يحسدون عليها.

هذا حادث رويته، وهنالك أحداث متشابهة أعفّ عن ذكرها حفظًا لسمعة باتت تعرض في سوق المناقصات الّتي رخصت فيها الكرامات ولم يعد للتقاليد اللبنانيّة أو العربيّة أيّة قيمة. هكذا عشنا في دار المطرانيّة بصيدا نستقبل أناسًا متلهّفين على شخص خرج من بيته ولم يعد، يطالبوننا بالبحث عنه، وكأنّنا مسؤولون عن كلّ ما يجري على أيدي هذه الفئة أو تلك، مسيحيّة كانت أم مسلمة. ولكن وجودنا في المدينة كان مرجعًا للجميع، كما كان يأتيه الكثيرون من كلّ الفئات لتدارس الأوضاع أو البحث عن حلول لم يكن وجودها سهلًا. وهناك لا بد من التنويه بمواقف المرجعيات الصيداوية الروحية التي كانت على استعداد دائم لإطفاء نار الفتنة بما لها من وسائل.

بقيت تلك المعارك أو المشادّات قائمة على مدى شهر ونصف تقريبًا، فالذين كانوا يرابطون شرقي مدينة صيدا ما تقدّموا شبرًا واحدًا ولا الّذين في المدينة صعدوا قيراطًا واحدًا. تلك كانت حال المحاربين الّذين يتنازعون السيطرة على المدينة وعلى جوارها والنّاس إمّا في نزوح وإمّا في الاختباء داخل منازلهم. ولم تخلُ أعمال الميليشيات المتحاربة من تعدّيات بالقتل على أناس أبرياء في بيوتهم، أو في سيّارة يتنقّلون لشراء حاجيّات ضروريّة لمعيشتهم.

ولمّا كان كثيرون من المقيمين شرقي مدينة صيدا تحت سيطرة القوّات اللبنانيّة يريدون الانتقال إلى مكان أكثر أمنًا وهدوءًا في بلدة جزّين وجوارها، ينقلون معهم الأثاث من بيوتهم خوفًا من المستقبل الّذي لا يعرفون شيئًا ممّا يخبّئه لهم من مفاجآت، كانت القوّات المرابطة في كفرفالوس تمنعهم من نقل أثاث بيوتهم، فيضطرّون إلى إرجاعها إلى

بيوتهم الّتي لم يتأخّروا تحت انسحاب القوّات اللبنانيّة عن تركها غنيمة باردة بين أيدي المسلّحين الصاعدين من صيدا. وكأنّ في الأمر نوعًا من التوافق بين الكبار لتقاسم المنطقة على حساب المواطنين المسالمين الّذين كانوا ضحيّة السياسة الخرقاء أو الخبيثة الّتي كانت القوّات اللبنانيّة أداة طيّعة لها، تنفّذ أوامرها وتوجيهاتها حرفيًّا.

بالرغم من كلّ ما حصل ويحصل بقيت المطرانيّة على اتّصال مستمرّ بالقيادات الصيداويّة، الروحيّة والمدنيّة والعسكريّة فيها، تعقد اجتماعات فيها وفي دار الافتاء والجميع يشاركون فيها. وكان لسماحة المفتي الشيخ محمّد سليم جلال الدّين مواقف مشكورة ساعدت على تهدئة الحال، حتّى إذا وقع قتيل من جماعته على أيدي القوّات كان اتّصال من قبله بالمطران حلو ليقوما معًا بزيارة مشتركة لعائلة المغدور، حتّى تخفّف تلك الزيارة من الاحتقان الّذي لا بدّ من أن ينفجر انتقامًا من المسيحيّين القلائل الّذين لا يزالون يعيشون في المدينة.

في أحد الأيّام طلبت سلطات المدينة من المطران إبراهيم الحلو الاتّصال برئيس الجمهوريّة، لكي يعمل على سحب ثلاثة شبّان من القوّات اللبنانيّة من مراكزهم، لأنّهم متّهمون بمقتل بعض الصيداويّين، وبما أنّ الطريق إلى بيروت غير مؤمّنة، والخطوط الهاتفيّة مصابة بشللٍ فقد اتّصل المطران إبراهيم بثكنة الجيش وطلب منهم أن يؤمّنوا له، على طريقتهم الخاصّة، وسيلة للوصول إلى القصر الجمهوري. ذات صباح جرى اتّصال من الثكنة بالمطران وقالوا له إنّ طوّافة تابعة للجيش جاءت بمهمّة من اليرزة، وها هي عائدة، ونحن مستعدون لأنّ ننقلكم على متنها. إعتذر المطران إبراهيم، وسألني عمّا إذا كنت أرغب في القيام بتلك المهمّة، فأجبت لا مانع، وللحال استأجرت سيّارة عموميّة من مكتب الشهرزاد إلى ثكنة محمّد زغيب في صيدا، حيث كانت الطوّافة تنتظر، وفيها القائد والعقيد شارل عيد الّذي صعد معي في الطوّافة الّتي انطلقت بنا غربًا إلى البحر بعيدًا عن الشاطىء اللبناني، ثمّ توجّهت شرقًا وحطّت في مطار للطوّافات في جونية. أمّا أنا فقلت لهم: «أنا آتٍ إلى القصر الجمهوري إنفاذًا للمهمّة المطلوب منّي تحقيقها. للحال أعيد تحريك موتور الطوّافة الّتي أقلّتنا إلى وزارة الدّفاع، حيث اجتمعت إلى العماد ميشال عون قائد الجيش

وإلى جانبه العقيد قسّيس قائد المخابرات. جرى اتّصال من مكتب العميد بمكتب فخامة الرئيس الّذي عيّن موعد مقابلة فخامته الساعة التاسعة صباحًا من نهار الغد.

أثناء وجودي في مكتب قائد الجيش، سألني العماد عون: «كيف رضاكم على عناصر الجيش الّتي تقوم بحراسة المطرانيّة في صيدا؟» فأجبت: «إنّهم عناصر يلتقون للمرّة الأولى كهنة ومطرانًا، لا عهد لهم سابقًا بأمثالهم، فأضطرّ إلى أن أسهر معهم ساعات كلّ ليلة لكي أحسن العلاقات فيما بيننا وبينهم». وإذا بالجنرال يقول: «تعمل إذًا على تدجينهم». تجاه هذا القول أردفت قائلًا: «العناصر طيّبون لكن الخطأ على رؤسائهم». وانتهى الحديث عند هذا الحدّ.

في الغد صباحًا وبعد أن قضيت الليلة في بيت المرحوم شقيقي يوسف في فرن الشبّاك صعدت في سيّارة أحد أنسبائي إلى القصر الجمهوري لمقابلة فخامة الرئيس وفي جيبي قصاصة من الورق، كان قد كتب عليها المطران حلو أسماء الأشخاص غير المرغوب فيهم في صيدا، فما إن سلّمت على الرئيس وجلست في مكتبه، وحاولت أن أخرج الورقة من جيبي عارضًا الغاية من مجيئي، حتّى فاجأني الرئيس قبل أن أقرأ الأسماء، فأعلن هو شخصيًّا عن أسمائهم لأنّه كان على علم مسبق بهم. وعدني خيرًا وبعد قليل ودّعت وعدت أسأل العقيد شارل عيد الّذي رافقني في المجيء إلى بعبدا آملًا في أن يعيدني إلى صيدا بالوسيلة الّتي يراها مناسبة، لأنّ العودة بطرقي الخاصّة غير ممكنة. وعندما اجتمعت إليه في وزارة الدّفاع وقد وجد أنّ العودة إلى صيدا بالطوّافة العسكريّة غير ممكنة، استقلّ سيّارة عسكريّة، أصعدني فيها إلى المقعد الخلفي، وأُغلقَتْ جميع نوافذها الخلفيّة، حتّى عدت وكأنّي أقاد إلى سجن وبقيت على تلك الحال إلى أن وصلنا إلى السعديّات، حينذاك نزل وفتح النوافذ الخلفيّة، وكأنّي أصبحت بأمان. وتابعنا طريقنا إلى صيدا، وانتهت رحلتنا السندباديّة الّتي لم تعط أدنى نتيجة. إنّما ارتاح ضميري إلى السعي الّذي قمت به ولم أندم على القيام بمحاولة لم تأتِ بالنتيجة المرجوّة.

الفصل السابع

الآلام في صيدا ١٩٨٥

في الرابع من نيسان ١٩٨٥ كان خميس الأسرار، وكان حزينًا في تلك السنة. لقد تعوّدت منذ أن بدأت في خدمة الرعيّة في صيدا، أن أستقبل في الكاتدرائيّة صباح خميس الأسرار الباكر، مؤمنين ومؤمنات، عمّالًا وموظّفين ومزارعين يفدون من بيوتهم في المدينة والبساتين بوجوه خاشعة، إتمامًا لوصيّة كنسيّة مقدّسة تدعو المؤمنين إلى الاعتراف أقلّه مرّة في السنة وتناول القربان المقدّس في زمن الفصح... وكان ذلك النهار أفضل يوم، قيامًا بتلك الوصيّة، الّتي يرعونها منذ نعومة أظفارهم، معتبرين الصوم ضروريًّا وملزمًا حتّى عن الماء، غير عابئين بالتسهيلات الّتي تعطيها الكنيسة... أمّا هذه السنة، وفي هذا اليوم، فقد افتقدتُ تلك الوجوه الكريمة في رعيّتي... بعضها غيّبها الموت فانتقلت إلى السماء تشارك في وليمة الحمل الإلهي إلى الأبد، بعد أن اغتذت منه في هذه الحياة... وبعضها حبسه الخوف والرعب ضمن جدران البيت على بعد عشرات الأمتار من الكنيسة، فلم يجرؤ على أن يغامر قيامًا بذاك الواجب المقدّس... والبعض الآخر نزح عن المدينة قسرًا إلى مناطق نائية بحثًا عن الأمن والسلام... وبالطبع سوف يذوق مرارة التهجير والتشرّد، ويفتقد حتمًا كنيسته القديمة، والمذبح الّذي صلّى أمامه راكعًا أمام صورة مار الياس، شفيع الرعيّة، محييًا في النفس الذكريات الطيّبة الّتي عاشها فتىً يافعًا وشابًا يتطلّع إلى المستقبل بثقةٍ أمام أيقونة العذراء، ورجلًا ربّ عائلة يأتي بأولاده إلى الكنيسة في عيد ولحضور حفلة عماد أو زواج أو تائبًا يستغفر ربّه...

وافتقدت في رعيّتي، في ذلك النهار، شبّانًا وشابّات يُحيون جوقة العيد، يضحّون بعطلتهم ووقتهم ويتبارَون في تعلّم الترانيم الدينيّة في سبيل إضفاء جوّ من الخشوع والتقوى على الاحتفالات الروحية... وافتقدت كذلك الأولاد الّذين كانوا يتراكضون من بيوتهم لمساعدتي في إقامة السدّة في صحن الكنيسة، أو على الخورس نضع عليها إثني عشر كرسيًّا في صفّين متساويين لإقامة حفلة الغسل إحياءً لما قام به السيّد المسيح مع تلاميذه في عليّة صهيون... لقد غادر الأولاد الرعيّة مكرهين، وبتنا نبحث عن ولد يحمل مبخرة، فلا نجد وآخر يحمل شمعة للمناولة فلا نحصل عليه لا في الكنيسة ولا في البيت وقد خَلَتْ رعيّتنا من أبنائها وبناتها...

درجت منذ تمرّسي في خدمة الرعيّة، على عادة، وجدت فيها ما ينعش الإيمان في النفوس، إذ كان يستأنس بها أبناء الرعيّة، وسائر المؤمنين والمؤمنات من الطوائف الأخرى

المسيحيّة، وهي إقامة ساعة سجود أمام القربان الأقدس ما بين التاسعة والعاشرة ليلًا... فيها كانوا يصلّون ويتأمّلون وينصت كلّ منهم في السرّ إلى صوت ربّه يهمس في تلك الليلة في ضميره بما لم يكن له عهد به من قبل... أمّا هذه الليلة فقد كانت كنيستنا مقفلة وشوارعنا مقفرة، إلّا من سيّارات المسلّحين والميليشيات الّتي كانت تجوب الشوارع... لقد كان ذلك النهار كما هو الليل شديد الوطأة علينا، فيه كنيستنا مهجورة، وفيه حرمنا ليلًا كما في النهار من إقامة حفلاتنا الدينيّة بعد أن خيّم على المدينة وعلى كلّ من فيها شبح الرعب والموت...

فيا ربّ السلام إنزع من قلوبنا الحقد والضغينة وحبّ الانتقام، وازرع فيها المحبّة لكي تغفر وتسامح بلا حساب، لتعود الطمأنينة إلى النفوس المضطربة، والراحة إلى القلوب المتعبة، فنستعيد سلامًا فقدناه، وقريبًا أبغضناه، ومعبدًا هجرناه، ووطنًا كفرنا به وذبحناه... رحماك يا ربّ السلام.

الجمعة العظيمة ١٩٨٥

ولم يكن يوم الجمعة العظيمة في ٥ نيسان ١٩٨٥ احتفاليًّا وجامعًا كما في السنوات الماضية... بل كان حزينًا جدًّا... صلواتنا مختصرة، وترانيمنا معدومة ردّدناها بصوت مخنوق يكاد لا يتجاوز المترين، لأنّ المصلّين في الكنيسة قليلون جدًّا، قد لا يبلغ عددهم الخمسة عشر مصلّيًا بمن فيهم المطران والكهنة والراهبات. ويتبادر أمام هذا المشهد إلى ذهن الحاضرين أو إلى ذهن قارىء هذه السطور السؤال التالي: «هل قضي على الوجود المسيحي في المدينة والجوار؟ أم هي موجة من العنف الطامي وتنتهي؟» الوجود المسيحي لا يزال قائمًا بإذن الله، وهو متجذّر في الأعماق، إنّما هنالك خوف في النفوس من موتورٍ متعصّب يؤذي ولا يرحم، من قنبلة أو رصاصة لا تشفق ولا ترأف. ومن يدري إذا لم يكن في ذلك المشهد صورة حيّة للعذراء مريم عاشتها منذ ألفي سنة، يوم بقيت وفيّة ليسوع يوم مات على الصليب على أيدي جلّاديه...

لقد اختصرنا الصلوات والترانيم، إنّما أبينا إلّا أن نقوم برتبة دفن المصلوب... إقتطعت من الحديقة الّتي بجانب الكنيسة بضع زهرات صفراء من الحمّيضة وضعتها على شرشف

أبيض، ووضعت الصليب فوقها ثمّ بعد أن تلا المطران صلاة الجنّاز لففت الشرشف بما فيه وأمسكته بزواياه الأربع وبدون زيّاح حملته بكلّ خشوع ووضعته على مذبح العذراء بانتظار أحد القيامة... هذا إذا سمحت لنا ظروف الحرب بإقامة القدّاس ورتبة السلام.

هذا ما عشناه بألم يوم الجمعة العظيمة ولن يمّحى من ذهني مدى العمر...

سألناك يا رب عزاءً لنا منك في الضّيق يشدّد من عزائمنا، وجرأة على مجابهة قوى الشرّ وصبرًا لنا في المكاره ووفاءً لك مدى الحياة في اليسر والعسر، ورجاءً بك قويًّا يتجدّد فينا باستمرار على ما في حياتنا من معاناة...

أحد القيامة

يوم الأحد، أحد القيامة في ٧ نيسان ١٩٨٥ تلونا القدّاس الإلهي أمام الأشخاص الّذين حضروا دفن المصلوب، إنّما وجدت بينهم سيّدة فرنسيّة متزوّجة من رجل صيداوي مسلم وجدتها في الكنيسة للمرّة الأولى تحضر القدّاس. وهل في ذلك الموقف الّذي تتخذه إيمان يتجدّد أم صحوة في النفس؟ لست أدري.

تلك الأيّام السوداء، لا يبرح ذكرها حاضرًا في الذاكرة: آمل أن يبقى الإيمان حيًّا في النفوس مهما جار الزمان وطغى على المسيحيّين، في منطقة تنتظر من كلّ مسيحي أن يشهد لإيمانه، مهما غلا الثمن واشتدّت المحن، لأنّ الصمود الواعي غير المشوب بالعنف والانفتاح على الآخر، والتعاطي معه بهدوء بعيدًا عن الانفعال، يساعد على حلّ الأزمة، ويُرغم الآخر أيًّا يكن على عدم استعمال العنف، وأظنّ أنّه يساعد كثيرًا على لجم العواطف الثائرة على غير حقّ.

أواخر شهر نيسان ١٩٨٥، وبعد ما يقارب الأربعين يومًا من القتال الّذي لم يسمح لأحد من المتقاتلين بأن يتقدّم خطوة إلى الأمام ضدّ عدوّه، إذا برئيس القوّات اللبنانيّة الدكتور سمير جعجع، وبعد عدّة محاولات قام بها الأهالي معه، رجوه فيها أن يضع حدًّا للحرب الجنونيّة الّتي يرفضها الجميع، يعلن عن عزمه على إقامة لقاء هامّ مع الصحافيّين في مركز القوّات اللبنانيّة في بيروت. وأعلن فيه الانسحاب السريع للقوّات اللبنانيّة من

شرقي صيدا، وحمّل مسؤوليّة كلّ ما يمكن أن يحدث من نتائج سلبيّة ودمويّة، على رئيس الجمهوريّة أمين الجميّل، وعلى رئيس مجلس الوزراء رشيد كرامي والقائد للجيش العماد ميشال عون. وما إن أنهى حديثه إلى الصحافيّين حتّى أصدر أوامره إلى القوّات بالانسحاب من شرقي صيدا. وبدأ التنفيذ والانسحاب على مرأى ومسمع من النّاس الّذين دبّ الرعب في نفوسهم دون أن يفهموا لماذا انسحبوا بتلك السرعة، ولماذا أعلنوا الحرب أيضًا والمقاومة بالسرعة عينها.

بعد ثماني ساعات من المؤتمر الصحافي المذكور أخذ النّاس يتركون بيوتهم وأرزاقهم حاملين معهم الغالي القليل والمتيسّر حمله، قاصدين جزّين حيث حطّوا رحالهم للمرّة الأولى. وكانت لهم المرحلة الصعبة من رحلتهم القسريّة، وكانوا في حالة من الرعب لا مثيل لها حتّى أنّ الخوف الّذي كانوا يعيشونه راح ينتقل إلى سكّان جزّين وجوارها، دون أن يجدوا له مسكّنًا ومهدّئًا، إلّا في ما كان يقول لهم الأستاذ جان عزيز الّذي كانت تغصّ دارته بهم ليل نهار قائلًا أمام الكبير والصغير، أمام رجل الدّين والعلماني العادي: «أنا باقٍ هنا ومن أراد أن يبقى أو يرحل فذاك شيء متعلّق به. أمّا أنا فباقٍ».

يبدو أن تطمينات القوّات اللبنانيّة المنسحبة كانت تدعو النّاس إلى عدم سحب أمتعتهم ما عدا الضروري منها لأنّها ساعات أو أيّام قليلة وسيعودون. منهم من اقتنع ومنهم من صمّم على الذهاب إلى البعيد البعيد إلى مرجعيون والقليعة والشريط الحدودي. ولكن الوعود المقطوعة كانت عرقوبيّة كاذبة ومضت سنتان وثلاث وأكثر دون أن يعود أحد إلى مسقط رأسه في صيدا وشرقي صيدا أو ساحل جزّين.

تمّ الانسحاب يوم الثلاثاء أي غداة المؤتمر الصحفي الشهير الّذي أقامه جعجع. فرغت مراكز القوّات اللبنانيّة ولم يجرؤ خصومهم في الجهة المقابلة على أن يحتلّوها إلّا بعد يومين أي يوم الخميس، وهذا يعني، على ما أعتقد، ويظنّ القارئ، أيضًا، أنّ الانسحاب لم يأتِ نتيجة هزيمة معيّنة أمام قوى معادية تغلّبت عليها، بل نتيجة ما مورس عليهم من ضغوط أتتهم من كلّ الجهات أو على أثر خيانة أو ضغط إسرائيلي يعقبه تهديد مبطّن لغاية لا تخلو من تساؤل.

إن بلدة درب السّيم القريبة من مخيّم عين الحلوة الفلسطيني كانت البلدة المسيحيّة الوحيدة الّتي اجتيحت يوم الأربعاء، بعد أن تأكّدت القوّات المجتاحة من أنّ المقاتلين فيها قد غادروها مع سكّانها. وراح المهاجمون ينهبون البيوت ويضرمون فيها النيران حتّى باتت كتلة واحدة تشتعل فيها النيران.

موقف المطرانيّة من الأحداث

بالطبع كانت المطرانيّة رافضة رفضًا كلّيًا الحرب الّتي بدأت في ١٨ آذار ١٩٨٥، وعملت بكلّ طاقاتها لإخماد نيرانها دون أن تنجح، إنّما بقيت حاضرة تتصل بالفريقين للتخفيف من حدّة العداء، أو للعمل على خلاص من استطاعت إلى ذلك سبيلًا من المخطوفين لدى الطرفين. ولكن عندما رأت الدخان يتعالى في سماء درب السّيم أجرت اتّصالات بالجيش اللبناني الّذي يقيم في ثكناته على مقربة منها، وقد كان أحد قادة المنطقة الكبار مع معاون له إلى مائدة المطران ذلك النهار لتناول الغداء، للحدّ من أعمال الحريق والنهب والخراب في درب السّيم، فلم يلقَ النداء تجاوبًا لمرّات عديدة. حينذاك قررت المطرانيّة تسجيل موقف، على ما أظنّ، شريف، نفاخر به وهو أنّها كتبت نداءً وحاولت أن توجّهه إلى اللبنانيّين بواسطة إذاعة لبنان وتلفزيون لبنان، فرفضت هاتان المؤسّستان الرسميّتان قبوله وإذاعته، لأسباب لا تخفى على القارىء اللبيب، ودون أن نطوي ذلك البيان ونضعه بين الأوراق في أدراج مكاتبنا، ليبقى شاهدًا أمينًا على ذلك الموقف، أرسلناه هاتفيًّا إلى أحد الأنسباء في بيروت، أعفُّ عن ذكر اسمه، وطلبنا منه أن يعهد به إلى إذاعة لبنان الحرّ والإذاعات الأخرى الخاصّة... وهكذا كان وراحت تلك الإذاعات ترسله عبر موجات الأثير فكان له صدى طيّب في الأوساط المسيحيّة، حتّى أنّ أحدهم اتّصل بي من بيت الأستاذ جان عزيز في جزّين وسألني عمّا إذا كنّا قد أذعنا ذلك الكتاب، ونحن لا نزال في صيدا أم أنّنا قد تركناها، خائفًا علينا من تأثيره السيّء على فئة معيّنة تضمر لنا السوء في تلك الظروف الصعبة...

صباح اليوم التالي اتصل بي المهندس لويس نصر من بيروت مهنّئًا على تلك البرقيّة وعلى الجرأة الّتي تجلّت فيها وممّا قال لي إنّه سمعها أكثر من مرّة على الإذاعة وكلّ مرّة كان يسمعها كان يزيد بها إعجابًا.

هروب تام

في ذلك النهار المشؤوم خلت المطرانيّة من بعض المقيمين فيها: السائق ريمون الزقليط أخذ السيّارة وذهب صعودًا إلى جزّين فمرجعيون، العشّي سمعان صعد وامرأته إلى جزّين، الخادم لم يعد إلى المطرانيّة، الخوري جبرائيل كان قد غادرنا منذ أسبوع إلى بيته في فغال عن طريق البحر بواسطة مركب في الجيّة، الخوري حنّا خشّان الّذي كان يهتمّ روحيًّا بخدمة رعيّة درب السّيم غادر والراهبات فيها إلى القليعة، الخوري طانيوس الخوري كان قد ذهب سابقًا إلى المستشفى لكي تجرى له عمليّة الديسك ولمّا يَعُدْ. بقيت والمطران إبراهيم وحدنا في زاوية من قاعة الاستقبال وقال لي: «أرى أنّه يجب أن نغلق المطرانيّة والكنيسة ونسلّم مفتاحيهما إلى الدكتور نزيه البزري، لكونه وزيرًا سابقًا ورئيسًا للمجلس السياسي في صيدا، ولأنّه لم يعد لنا أحد في هذه المدينة ثمّ نلتحق بجماعتنا إلى جزّين». إذّاك أجبته دون تردّد: «أنت تريد أن تترك وتلتحق بجماعتنا، الله معك! أنا أريد أن أبقى هنا». أجاب: «وماذا تبقى لتعمل وجماعتنا راحوا كلّن». أجبت: «أنا أريد أن أبقى ضابط ارتباط «un officier de liaison» بين الّذين تركوا وبين الّذين لا يزالون هنا مقيمين»... لم يعد سيادته يزيد كلمة فتركني ومضى إلى مكتبه. إن أردت أن أعود إلى كلامه لدراسته والتمعّن فيه أقول: «هل كان سيادته حقًّا مقتنعًا بما يقول؟ أمّ أنّه طرح ذلك السؤال لكي يسهّل لي طريق الخروج من صيدا، فنخرج منها بسلام معًا؟ لئلّا يظلمني بالبقاء في المدينة».

ذهب سيادته ليقضي الوقت في صيدا في تلك الظروف الصعبة بين الملجأ والطابق الأرضي من البناء، يقضي ليله في الملجأ وأنا أقضيها في غرفتي على أمل الانفراج القريب، الّذي لم يكن قريبًا، بل رحنا ننتقل من أزمة إلى أخرى ومن مفاجأة غير سارّة إلى أخرى لا تخلو من انزعاج. ومع ذلك هكذا عشنا وهكذا حمدنا الله عن كلّ سوء. وبقينا على اتّصال وتواصل مع الّذين صعدوا إلى جزّين أو إلى مرجعيون، وبقيت رابطة كاريتاس تمدّهم بما توفّر لديها من مساعدات وإن تكن ضئيلة. وبعد أيّام قليلة رأينا أنّه من الضروري أن نقوم بزيارة إلى جزّين ومنها إلى جديدة مرجعيون والقليعة، فمررت على البيت الوالدي في وادي جزّين، وذهلت لما رأيت فيه سبعة وعشرين مهجّرًا منتشرين في الدّار الداخليّة والخارجيّة،

كما عجبت من جوّ الخوف المسيطر على أهل البيت وقد جمعوا ما خفّ حمله وغلا ثمنه في حقائب وصناديق، وكأنّهم على استعداد للسفر العاجل، ينتظرون كلمة السرّ الّتي يطلقها زعيم التهجير كما زعيم الحرب.

طمأنتهم بقدر ما استطعت وطلبت منهم أن يفكّوا حزائم حقائبهم، ويطمئنّوا إلى المستقبل، فارتاحوا إلى اللهجة الّتي كنت أكلّمهم بها. وانتقلت عدوى الاطمئنان إلى الجيران وأهل الحيّ الّذين كانوا أيضًا على درجة عالية من القلق، وتوقّفت في جزّين بعض الوقت ثمّ أكملت طريقي إلى القليعة فمرجعيون، حيث تفقّدت المهجّرين إلى تلك المنطقة من إقليم الخرّوب ومن صيدا وساحل جزّين. نمت ليلة في القليعة ثمّ عدت على الطريق ذاتها إلى صيدا. وهنا يجب أن أشير إلى أنّ طريق جزّين العاديّة من صيدا مقطوعة من الجهتين وبقي لنا أن نسلك طريق الحارة، عين الدلب، القريّة، برتي، صيدون، قيتولي، جزّين. ولكن عليك إذا كنت قد اتّخذت تلك الطريق أن تمرّ على قرية بيصور حيث مركز لحركة أمل تستأذنه للمرور صعودًا. تلك كانت حالنا في تلك الأيّام الصعبة، حتّى إذا أردنا أن نتّخذ طريق الشوف جزّين فلا مانع لذلك مرورًا إمّا على باتر، وهذا هو الأسلم والأكثر أمنًا، وإمّا على بسري مرورًا بالحاجز الاشتراكي في دير الراهبات المخلّصيّات الرئيسي في المحتقرة. تلك كانت الطرقات الّتي كان استعمالها ممكنًا وصولًا إلى جزّين أو خروجًا منها. ولكن يبدو أنّ الطريق الأسهل سلوكها إلى بيروت وصيدا، كانت الطريق الّتي تمرّ بالشوف. باتر المختاره بعقلين مزرعة الضهر، علمان، صيدا.

لقطات عابرة

بعد حركة الانكفاء من قبل المسلّحين والأهالي عن شرقي صيدا يبدو أنّ القلائل من السكّان العجزة ظلّوا قابعين في بيوتهم ولم يتحرّكوا صعودًا ولمّا جاء الغزاة الصاعدون من صيدا ووجدوهم كانوا يأخذونهم في سيّاراتهم ويأتون بهم إلى دار المطرانيّة في صيدا، ولكي نتدبّر أمرهم كنّا نتّصل بالصليب الأحمر اللبناني ونطلب إليه أن ينقلهم إلى ذويهم أو إلى أقرباء لهم في ما يسمّى بالمناطق الآمنة، في روم أو جزّين أو مرجعيون أو حتّى بيروت. وبحسب ما نقل إلينا على ألسنتهم كان نصيب الرجال القتل وأمّا النساء فكنّ

ينقلن إلى دار المطرانيّة في صيدا علمًا بأنّ العدد لم يتجاوز العشر نساء العاجزات. جاء إلى المطرانيّة مسلّح ينتمي إلى حركة أمل يخبرني عن شخص معاق كلّيًا موجود في غرفة في عين الدلب، رأوه فحاولوا مساعدته وتقديم ما يلزم لكي يأكل فرفض. أطلعوني على ما صنعوا معه فهنّأتهم وشكرتهم، وطلبت أن يأخذوني إليه فرفضوا خوفًا عليّ من خطر. طلبت منهم أن يسألوه إن كان يرغب في ترك عين الدلب والذهاب إلى دار الرحمة في عين سعادة، مشفوعًا بكتاب توصية منّي. وهكذا صار... حيث انتهت حياته بسلام.

محاولة تبادل خدمات

جاءتني سيّدتان بعد أيّام قليلة من الانسحاب: إحداهما مسيحيّة من شواليق والأخرى مسلمة من صيدا تشكوان أمرهما إليّ. المسيحيّة تهجّرت من بيتها في شواليق كانت استضافت المرأة المسلمة الّتي ترافقها في بيتها خلال الاجتياح الإسرائيلي لصيدا لعدّة أيّام. إستقوت بما كانت قد صنعت تجاه المرأة المسلمة وعائلتها فجاءتها إلى صيدا بعد حلول نكبة التهجير على المنطقة آملة بأن ترافقها إلى شواليق لعلّها تستطيع أن تأخذ من بيتها أغراضًا ضروريّة لها ولعائلتها. إستقبلتها وصعدت معها إلى شواليق، وحاولت إخراج بعض الأغراض الّتي لم تصل إليها أيدي الشباب، فمنعوها ولم يسمعوا لكلام السيّدة المسلمة فعادتا إلى صيدا وراحتا تعرضان المسألة على أحد مشايخ المدينة، الّذي لم يسمع لهما وكان جوابه القاطع: «إنّها لغنائم حربيّة تحقّ للفئة المنتصرة دون سواها.» تلك هي القصة الّتي جاءتا حزينتين تطلعانني عليها أنقلها حرفيًّا كما سمعتها. ورفضتُ الاتّصال بالشيخ المذكور...

موقف الجيش اللبناني

بعد انسحاب الجيش الإسرائيلي من المدينة وجوارها أرسلت قيادة الجيش إلى صيدا فرقة مسمّاة فرقة ٩٨، مؤلّفة في معظمها من المسلمين السنّة تأتمر بأوامر أحد الضبّاط الكبار، واتّخذت مراكز لها على خطوط التماس الفاصلة بين مدينة صيدا، ومراكز القوّات اللبنانيّة. وكأنّي بها كانت على ما يبدو تساند المسلّحين في المدينة. أمّا الجنود الباقون المنتمون إلى اللواء ١٢ وهي تشكيلة من أكثريّة شيعيّة وأقلّيّة مسيحيّة، فقد حافظت في

البداية على موقف حيادي. وكان المطلوب من هذه الفرقة ١٢ أن تأخذ محلّ المتحاربين من الطرفين وتؤمّن نوعًا من السلام بين المتحاربين، ولكنّها لسوء الحظ قد قامت بشاهد الزور. فلدى انسحاب القوّات اللبنانيّة من مراكزها صوب الجبل، قامت دوريّة عسكريّة من الفرقة ١٢ بجولة على مراكز القوّات، وتأكّدت من الانسحاب التام. إذّاك أرسلت القيادة ضابطين كبيرين إلى زعماء صيدا، كما جاءا إلى المطرانيّة وأخبرا الجميع بأنّ الجيش سيقوم باحتلال مراكز القوّات الشاغرة، ولكن لسوء الحظ ما إن علم زعماء المدينة والقوّات الفلسطينيّة بالأمر حتّى هاجموا المراكز الشاغرة واحتلّوها وتوغلوا في القرى صعودًا حتّى لبعا وعين المير وأطراف كفرفالوس وعملوا فيها نهبًا وحريقًا وتهديمًا بينما ظلّ الجيش اللبناني في حالة من الترقّب لا يبدي حراكًا.

بعد أيّام قليلة، اجتمعت إلى الأستاذ جان عزيز في دارته الّتي كانت تغصّ ليلًا ونهارًا بالنّاس، قال لي: «برأيي يجب على الجيش أن يدخل إلى قرى شرقي صيدا، عن طريق جسر الأوّلي القديم دون المرور بالمدينة، وأن يصعد عن طريق البراميّة ويفصل بين المتقاتلين، حفاظًا على كرامة الصيداويّين وعلى أمن وحياة المسيحيّين، إذّاك يستطيع المهجّرون أن يعودوا إلى بيوتهم». فأجبته للحال: «لو كان يريد ذلك لما انسحب وترك الحال على ما هي عليه الآن من فوضى وتراشق بالقنابل والرصاص.»

من الغريب والمستهجن أنّ القوّات اللبنانيّة حين انسحبت، تركت في مركزها الأساسي في مجدليون قيودًا ووثائق، استولى عليها الأخصام وراحوا يلاحقون المسؤولين، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا، ولقد أطلعونا في المطرانيّة عليها. وهكذا فعل الدكتور راشد الخوري عندما غادر مستشفاه في صيدا إلى بيروت، وترك في المستشفى لوائح بمراكز وأسماء الكتائب في القرى التابعة للزهراني، استولى عليها عناصر التنظيم الناصري، وراحوا يلاحقون الأشخاص في بداية الأحداث، استنادًا إلى اللوائح الّتي لديهم، حتّى لم يعد يستطيع أحد من أعضاء الحزب أن يدخل صيدا دون أن يتعرّض للتوقيف والتحقيق، وإلى ما هنالك من أشياء كان بغنى عنها لو تحلّى المسؤولون عنه بما يلزم من الفطنة والدراية.

إنّ النزوح المسيحي عن قرى شرقي صيدا، ساحل جزّين الّذي عقبه احتلال قوّة إسلامية مشتركة لتلك القرى حمل عدواه إلى القرى الأخرى في إقليم التفاح، الّتي عرفت هي

أيضًا نزوحًا كاسحًا، إنّما لم يدم طويلًا، إذ رأينا أنّ طنبوريت وجنجلايا وجرنايا وكفرشلال، وإن شملها النزوح، عادت فرأت بعض أبنائها يعودون إليها، وإن كان ذلك بعدد قليل من المتقدّمين بالسنّ والعجزة. كمّا وأنّ بيوتًا كثيرة من تلك القرى أقامت فيها عائلات شيعيّة، أتتها من مناطق أخرى ستظلّ فيها إلى سنوات، بحيث لن تخرج منها إلّا بعد أن تأخذ تعويضات بالملايين من مجلس الجنوب بينما صاحب البيت يسترجع بيته دون أيّ تعويض أو إذا أخذ شيئًا فيكون زهيدًا. وحدثت تعدّيات على السكّان فمنهم من أوقفوا وخطفوا ومنهم من قتلوا، كما حدثت سرقات وتعدّيات على بيوت العبادة. إنّ السكّان الّذين بقوا في قراهم وبيوتهم كانوا يعيشون حالة من القلق على حياتهم، وحياة أولادهم الّذين لم تعد تتوفّر لهم المدرسة الّتي يمكن للوالدين أن يطمئنّوا إذا أرسلوا أولادهم إليها.

سقوط آخر معاقل المسيحيّين في إقليم الخرّوب

إنّ تراجع القوّات اللبنانيّة وانسحابها المفاجىء من شرقي صيدا، سرّع سقوط آخر معاقل المسيحيّين في إقليم الخرّوب في دقائق معدودة، تحت هجمات القوّات الاشتراكيّة وحلفائها من شيوعيّين وغيرهم. وإذا بالمجازر البشريّة ترتكبها القوّات الغازية فتسقط عدّة ضحايا بريئة على طوال الطريق الساحليّة بين صيدا والجيّة، على شاطىء البحر. ونقل الصليب الأحمر اللبناني نهار ٢٨ نيسان ١٩٨٥ على تلك الطريق الدوليّة الساحليّة ستّين قتيلًا لأشخاصٍ من كلّ الأعمار ومن الجنسين، وبينهم جثّة طفلة عمرها سبع سنوات. ومن الجثث أيضًا ما وجده الصليب الأحمر على الرمل، على شاطىء البحر بين السعديّات وجسر الأوّلي، وكلّها مصابة في أجسادها بالرصاص. ولقد نقلت مجلّة «مغازين magazine» البيروتيّة، أنّ رجلًا من الجيّة وابنه الفتى أخذا مركبًا صغيرًا هربًا من المسلّحين وراحا في البحر وقبل أن يصلا إلى الشاطىء في بيروت تعبا جدًّا واستغاثا بأحد الشبّان البيروتيّين وكان مسلمًا فأسعفهما وأوصلهما إلى الشاطىء ونقلهما إلى بيروت الشرقيّة.

أمّا ذلك القطاع الصغير من إقليم الخرّوب الّذي صمد أو تركوه بعد اجتياح الجبل في أيلول ١٩٨٣ فقد سقط هذه المرّة تاركًا ما يقارب المائة قتيل ممّن لم يحملوا السلاح. أمّا الّذين نجوا بأنفسهم فقد اختاروا طريق الهروب على جسر بسري باتّجاه روم وجزّين، كما

أنّ رهبان دير المخلّص والراهبات المخلّصيّات اتّبعوا الطريق ذاتها الّتي تبعها الأهالي هروبًا نحو جزّين ودير المزيرعة والجنوب الأقصى. أمّا الضيعة الساحليّة الّتي لم يقع فيها خراب يذكر، وإنّ كان أهاليها قد نزحوا عنها كليًّا في بداية الأمر فهي الرميلة لأنّ فيها شخصًا يساريًا يدعى الياس عطا الله، سيطر على ضيعته بالتوافق مع القوّات الأخرى الّتي اجتاحت المنطقة. وأقام فيها مركزًا للحزب الشيوعي، سهر على حماية الضيعة من التهديم، دون أن يتمكّن من حمايتها من النهب والسلب بما فيها كنيسة مار أنطونيوس الكبير في الرميلة. وهكذا فإنّ وجود الياس عطالله وعلاقته بالأستاذ وليد جنبلاط فتح باب العودة أمام عدد من أهالي البلدة ضمن شروط معروفة. وإذ علمتُ بوجود عدّة عيال لا يتجاوز عددها العشر مقيمة في الرميلة، قمت بزيارتها والأخت عيدا يزبك المسؤولة الاجتماعية في كاريتاس لبنان إقليم صيدا.

زيارةٌ مفاجئة إلى الرميلة

كان العائدون مجمّعين في بيتين متلاصقين بقصد حمايتهما، لأنّ أحد أبناء عائلة بولس كان قد اختطف لدى عودته دون أن يُعرف مصيره. ولهذا كان من الحكمة أن يكون العائدون تحت مراقبة معيّنة خوفًا من أن يصابوا بسوء، كما جرى لذلك الشاب. (انفردت الأخت عيدا بالنساء وسألتهنّ عمّا كنّ بحاجة إلى شيء) وبعد الانتهاء من الزيارة جاءني من يسألني عمّا إذا كنت أريد أن أزور مركز الحزب الشيوعي، فقلت لا مانع وقمت بالزيارة، وكانوا قد اتّخذوا مركزًا لهم في بناية يملكها أحد أبناء عائلة الخوري على طريق صيدا بيروت. قمنا بالزيارة المطلوبة فاستقبلنا شخص من المتين من آل عقل. وفي خلال الحديث، طلب منّي أن أشجّع أهالي الرميلة على العودة السريعة، لأنّ بيوتهم قائمة وصالحة للسكن، فأثنيت على ما قال ووعدته بالعمل على تنفيذ رغبته ولكن قلت له لِمَ تلك التفجيرات في القرى المجاورة الّتي تتلاحق، وأنا موجود عندكم؟ فأجاب وقد أطرق برأسه إلى الأرض، وبعد تردّد قليل: «العودة إلى القرية وبيوتها مهدومة أسهل منها والبيوت فيها مأهولة يقيم فيها غرباء.» سمعت جوابه دون أن أقتنع به ولم أعلّق عليه.

إنتهت الزيارة وقفلنا راجعين إلى صيدا إلى المطرانيّة، ولكن قبل أن أستقلّ السيّارة طلب منّي المدعو جميل عطا الله إذا كنت أسمح له بمرافقتي إلى صيدا. قلت: «أهلًا

وسهلًا بك». إنطلقت بنا السيّارة باتّجاه مدينة صيدا، ولكن ولدى وصولنا إلى جسر الأوّلي، اعتذر ونزل من السيّارة وودّعني شاكرًا، داعيًا لنا بالتوفيق والسلامة. بعد أشهر من ذلك وعندما أخذت بيوت الرميلة تستقبل أهاليها، التقيت ذلك المواطن الكريم جميل عطالله فقال لي: «لقد عجبت من زيارتك إلى الرميلة في تلك الظروف الصعبة وخفت عليك من الأشرار، لهذا طلبت أن تنقلني بسيّارتك إلى صيدا، لكي أوصلك خارج حدود الرميلة فآمن وصولك إلى صيدا سالمًا من كلّ شرّ. وبالطبع فقد كنت له من الشاكرين لفضله. وهنا لا بدّ من أن أذكر أنّه ساعدني لكي أنظّف كنيسة مار انطونيوس الرعائيّة في الرميلة وأقيم فيها قدّاسًا على عيد مار أنطونيوس الكبير شفيع الرعيّة. ومنذ ذلك الحين فتحت الكنيسة أبوابها أمام المؤمنين الّذين راحوا يقومون بواجباتهم الدينيّة فيها على يد كاهن رعيّتهم الخوري الياس إيليّا الّذي عاد إليها قبل إصلاح الأنطش وترميمه، وأقام في ضيافة أحد أبناء الرعيّة من آل طنّوس.

بين كلّ رعايا الشوف التابعة لأبرشيّتنا صيدا، كانت الرميلة الرعيّة الثانية الّتي أخذ المؤمنون يعودون إليها. الأولى الّتي بقيت صامدة وقد يكون ذلك باتّفاق المتحاربين أو بإيعازٍ من علٍ، من سلطة نافذة كانت دير القمر، الّتي لم تخلُ من السكّان، وإن كان قد قلّ عددهم وبقيت كنائسها مفتوحة. أمّا الضيعة الثانية فهي الرميلة الّتي أخذت الحياة تعود إليها شيئًا فشيئًا بفضل أحد أبنائها الّذي ذكرناه سابقًا والّذي حماها نوعًا ما من التهجير الكلّي وعمل على إعادتهم إليها بما له من علاقات وطيدة مع زعماء الحرب. ويا ليت سائر الرعايا الّتي هوجمت وهجّرت كان لها من وقف بجانبها ووفّر عليها أن تذوق مرارة التهجير...

بعد انقضاء سنتين على الهدوء في إقليم الخرّوب كان عدد العائلات الّتي عادت إلى بيوتها في الرميلة سبعين. أمّا مدرسة الإخوة المريميّين القائمة على تلّة من تلال الرميلة فقد بقيت بين أيدي الحزب الشيوعي الّذي أطلق منها إذاعة خاصّة به. كما أنّ المدرسة التابعة لراهبات المحبّة، كانت لا تزال أيضًا بين أيدي الحزب الشيوعي. ومدرسة مار شربل في الجيّة التابعة للرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة أصبحت منهوبة، لم يبقَ فيها سوى سقوف وجدران عارية أو شبه عارية حتّى أنّ قرميدها قد نزع عنها. ومدرسة الآباء المخلّصيّين في إطار دير المخلّص ضربتها أيضًا أيدي القوّات المشتركة ولم يكن حظّها أفضل من حظوظ المدارس الّتي سبق الكلام عنها.

هنا لا بدّ من الإشارة إلى أن تلك المدارس كانت تستقبل في رحابها وعلى مقاعدها مسلمين ومسيحيّين دون تفرقة ولا تمييز أصبح تعطيلها وبالًا على الجميع.

خسرت المطرانيّة المارونيّة في الرميلة بستان الحمضيّات والموز الشهير الممتدّ من جسر الأوّلي القديم، حتى أوائل ضيعة علمان فالتلال المشرفة على عليها وعلى الرميلة، استولى عليه الحزب الاشتراكي، كما استولى سابقًا عل الكرسي الأسقفي في بيت الدّين وعلى الأرزاق المحيطة بها. وراحت تستقبل على هواه ومن يشاء في الكرسي الأسقفي، وتستغلّ بساتين التفّاح وحرج الصنوبر، كما وضع يده على قناة المير بشير الممتدّة من نبع الصفا، حتّى الكرسي الأسقفي، وتروي الأرزاق الممتدّة من نبع الصفا حتّى أواخر دير القمر المعروفة «بالحيارة». وكان الحزب التقدّمي الاشتراكي يستلم الأرزاق ويستغلّها لمصلحته عن طريق الإدارة المدنيّة.

صمود الراهبات في المدينة

بقيت راهبات القلبين الأقدسين في صيدا وكنّ نهارًا في خدمتنا بالمطرانيّة وليلًا يذهبن إلى بيتهنّ في صيدا، بناية الآباء المخلّصيّين. لم تعد الكنيسة تستقبل أحدًا من أبنائها الّذين تعوّدوا المجيء إليها، إنّما حافظنا على إقامة الصلوات والقدّاسات فيها تأكيدًا على الوجود المسيحي، وإن لم يكن فاعلًا أو ما كان أحدٌ مستعدًّا للمجيء إلى الكنيسة، بخاصّة بعد مقتل طانيوس مخّول وزوجته، من بكفيا، ومقيمان في صيدا في بيتهما الكائن على ساحة النجمة في المدينة. الآباء المخلّصيّون سليم الغزال، جورج كويتر، وميشال حبيب غابوا عن المدينة أيّامًا قليلة، ثمّ عادوا إليها ليقيموا بضعة أيّام في مستشفى الدكتور اسكندر الحاج، على مقربة من راهبات مار يوسف الظهور. وكانوا يأتون صباحًا يشاركوني في الذبيحة الإلهيّة الّتي كنت أقيمها في كابلّا الراهبات اللواتي لم يغادرن المدينة، وبقيت مدرستهنّ مفتوحة كالعادة بوجه جميع طالباتها من المسلمات والمسيحيات عملًا بقول أحد الآباء القديسين: صلِّ واعمل...

الحضور المسيحي في صيدا خفّ كثيرًا، ومجيء المسيحيّين إلى المدينة من الخارج انعدم تقريبًا، لأنّه وقعت تعدّيات بالقتل على مسيحيّين قدموا لسبب أو لآخر إلى صيدا ولم

يسلموا، إنّما بقيت اللقاءات مستمرّة بين الرؤساء القادة السياسيّين والروحيّين، حيث كنّا نشكو ممّا يتعرّض له المسيحيّون من ظلامات تصل إلى الخطف والتحقيق معهم، دون أذيّتهم الجسديّة. وازدهرت أعمال السمسرة لبيع أراضي المسيحيّين وممتلكاتهم خوفًا منهم على ضياعها، كما جرى للفلسطينيّين لدى خروجهم من فلسطين. ولقد كان للمسيحيّين المتشدّدين المنادين بالتقسيم دورهم الفعّال في هذا المجال، حتّى راحوا يقنعون المهجّرين إليهم من صيدا والجنوب، ومن الشوف، ببيع أملاكهم لأنّ العودة أصبحت من سابع المستحيلات. وانجرّ الكثيرون وراءهم في تلك السياسة الخرقاء. وبقيت المطرانيّة بمن فيها تشنّ حربًا عوانًا ضدّ تلك السياسة في الداخل والخارج، وتعمل على تضميد الجراح، وبثّ روح الأمل والرجاء في النفوس بانتظار طلوع الفجر.

للمطران إبراهيم في هذا المجال، تعبير شهير كان يردّده ويذكره الكثيرون وهو: «لا بدّ للفجر من أن يطلع». ولا بدّ هنا من التذكير بأنّ سياسة المطرانيّة المارونيّة كانت حكيمة جدًّا في هذا المضمار، ولم تغلق أبوابها بوجه إنسان أيًّا يكن دينه ومذهبه: كانت تستقبل وتودّع وتشجّع وتساعد بما تقدر عليه. وكان المسلمون في المدينة والجوار ينظرون إليها كمركز وطني يدعو إلى التهدئة، وإلى السلام والمحبّة بين المواطنين أيًّا يكن... وتلك السياسة الّتي اتبعتها المطرانيّة قد أيّدها الفاتيكان. كما أنّ الإكليروس الفرنسي أو بالأحرى مجمع الأساقفة الفرنسي أرسل إلى سيادة المطران إبراهيم الحلو برقية تهنئة على المواقف السياسيّة المنفتحة على الجميع الّتي اتّخذها في تلك الظروف الصعبة. فما كان من سيادته إلّا أن ترجمها إلى اللغة العربيّة وبعث بالترجمة الحرفيّة إلى الدكتور نزيه البزري بصفته رئيسًا للمجلس السياسي في المدينة. وآسف لكوني لم أحتفظ بنسخة عنها لإدراجها في هذا الكتاب.

الفصل الثامن

بعثة بابوية لتفقّد القطيع الصغير

كلّ من عاش الحروب الداخليّة الّتي عصفت بلبنان متنقّلة فيه من منطقة إلى منطقة زارعةً الرعب والقتل والدمار لا يزال يذكرها بكثيرٍ من المرارة والأسى كما لا يزال يذكر كلّ يدٍ امتدّت لتضمّد جراحًا وكلّ قلبٍ رقّ وهفّ لنجدة منكوب في ماله ورزقه وصحّته وحياته، وكلّ عين ذرفت دمعًا سخينًا على شباب يسقطون تحت القنابل والرصاص، وكلّ من عمل في الصمت والخفاء من بعيد أو قريب لإطفاء نار الفتنة والحرب الطاحنة، دون أن يستطيع إلى ذلك سبيلًا. أجل، لقد عشت تلك السنوات وأبيت على نفسي أن أكون شاهد زور على تلك الأحداث، فلا أكتب صفحات وإن قليلة عمّا رأيت وشاهدت بأمّ العين وعشت من مآسي وفظائع من السنة ١٩٧٥ حتّى السنة ١٩٩٢ في صيدا والشوف وجزّين. وهو لعمري قرار اتخذته مؤخّرًا ونويت أن أكتب ما عشت في تلك الأثناء من أحداث هامّة سطّرت في تاريخ لبنان الحديث صفحات سوداء يتخلّلها بعض البياض الناصع، فيها القبيح الكريه وفيها الخيّر الممدوح. فيها التنكّر للحقيقة وفيها الدفاع عنها حتّى الموت، فيها الهروب من المسؤوليّة، وفيها الالتزام بها حتّى الموت. ولقد فتكت الحرب بنوع خاص بأبرشيّة صيدا، الّتي كانت تضمّ ساعة اندلعت شرارتها الأولى، البقاع الغربي بأكمله الّذي فصل عنها ليدخل في تكوين أبرشيّة البقاع الجديدة ومركزها زحلة، لكونها تمتد، أي أبرشيّة صيدا، على البقاع الغربي وعلى الجنوب من حاصبيّا وجديدة مرجعيون إلى قسم من قضاء النبطيّة فقضاء جزّين والزهراني والقسم الأكبر من قضاء الشوف دون أن ننسى رعية عين قينة بايفان في الجولان التي أصبحت ضمن أراضي اسرائيل بعد حرب ١٩٦٧.

حسب الباحث في هذه الأمور أن يتأمّل في المجموعات البشريّة المتعدّدة الطوائف والمذاهب المقيمة في تلك المناطق فضلًا عن المخيّمات الفلسطينيّة القائمة عليها منذ العام ١٩٤٨، إلى ما جمعت في حناياها من بؤس بشري وحقد وضغينة لا بدّ من أن يتفجّر في داخلها ومحيطها، فيصيب أبرياء كثيرين لم يكن لهم في الحرب لا ناقة ولا جمل، على حدّ القول المأثور، ولكنّهم لم ينجوا من نيران الحرب الملتهبة لا في أرواحهم ولا في ممتلكاتهم.

زاد في تأجيج نيران الحرب واستمرارها ما كان يمدّ به دول عديدة قريبة وبعيدة اللبنانيّين من الشرق والغرب والجنوب والشمال من سلاحٍ متطوّر يصبّ عليهم كزخّات البرد دون حساب ولا توقّف وكأنّي بأصحاب تلك المصادر الجهنّميّة من الأسلحة على اختلافها وتنوّعها، يُهدون السلاح كُرمى عيون اللبنانيّين المجانين ليزيدوهم جنونًا وتقاتلًا وهم عليهم يتفرّجون وما من أحد يتدخّل لإطفاء نيران تلك الحرب الجنونيّة.

هنالك صوت قد علا مندّدًا في روما والفاتيكان، صوت البابا يوحنّا بولس الثاني الّذي سمع الكثير عن مآسي الحرب اللبنانيّة، الّتي أخذت تفتك باللبنانيّين دون تفرقة ولا تمييز، فراح يرسل النداء تلو النداء داعيًا المتقاتلين إلى الكفّ عن ذاك الجنون والعودة إلى الحوار الواعي البنّاء بين مختلف أبناء الوطن الواحد. فما ترك فرصة تسنح إلّا ودعا زوّاره إلى التدخّل بما لديهم من تأثيرٍ محلّي ودولي لإطفاء نيران تلك الحرب العبثيّة الّتي راحت تأكل الأخضر واليابس، البشر والحجر، والعالم الخارجي يتفرّج. هذا إن لم يكن يمدّ المتقاتلين بالسلاح والذخيرة الّتي ما كانت لتنفد أو تتوقّف. وكأنّنا أمام أتون لا يشبع ممّا يقدّم له فيبقى طامعًا بالأكثر والمزيد من الضحايا البشريّة والخسائر الماديّة. ولهذا فقد رأى قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني أن يرسل بعثة برئاسة الكردينال روجيه إتشيغاراي إلى بلدة جزّين، الّتي تجمّع في جوارها وفيها عدد كبير من المهجّرين.

إنّ مواقف المطران إبراهيم الحلو من الحرب اللبنانيّة، ومن نتائجها الوخيمة على الشعب المسيحي، ومن صموده الجبّار بوجه تلك التيّارات الجارفة، في صيدا لقي استحسانًا كبيرًا وتشجيعًا في الأوساط الفاتيكانيّة. وتدليلًا على ذلك، فقد أرسل قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني بعثة يرئسها الكاردينال إتشيغاراي إلى بلدة جزّين، ليؤكّد على سياسة الكنيسة الداعية إلى الحفاظ على العيش المشترك في لبنان كما إلى تشجيع الشعب المسيحي المهجّر على إحياء الأمل والرجاء في النفوس وعدم الاستسلام إلى اليأس والقنوط، بالرغم من الظروف المعيشيّة والأمنيّة الّتي يعيشها. وإنّي أعتقد أنّ تلك الزيارة الّتي رتّبتُ تنقّل الوفد فيها ضمن منطقة جزّين، مع حضرة الخوري ريمون عيد كاهن رعيّة جزّين آنذاك، تركت أثرًا طيّبًا في النفوس، وأبقت على بصيصٍ من الأمل في قلوب سكّانها الأصليّين

والمهجّرين إليها، ودفعًا قويًا إلى الاعتقاد بأنّهم ليسوا في المنطقة وحدهم، ولن يتركوا في مهبّ العاصفة الهوجاء.

الكاردينال روجيه إتشيغاراي الموفد الشخصي للبابا إلى جزّين

يوم السبت الواقع فيه السادس من تمّوز ١٩٨٥ وفي تمّام الساعة التاسعة والنصف صباحًا حطّت في محلّة الزهراني جنوبي مدينة صيدا وفي حرم شركة التابلاين طوّافة عسكريّة لبنانيّة، نزل منها متجلببًا بالأحمر الأرجواني، نيافة الكاردينال روجيه إتشيغاراي يرافقه السفير البابوي في لبنان المنسينيور لوتشيانو أنجلوني والمطران يوسف الخوري رئيس أساقفة صور والأراضي المقدّسة على الموارنة والمنسينيور لويجي غاتّي، والأب ده نويّه والأب بولس نجم رئيس عام جمعيّة المرسلين اللبنانيّين، والأب ميخائيل معوّض مندوب المركز الكاثوليكي للإعلام في لبنان، فاستقبلهم لدى نزولهم من الطوّافة، سيادة المطران إبراهيم الحلو رئيس أساقفة أبرشيّة صيدا، يحيط به كاتب هذه السطور النائب العام للأبرشيّة، والأرشمندريت سليم الغزال المدبّر البطريركي لأبرشيّة صيدا ودير القمر للروم الكاثوليك، والأرشمندريت سابا داغر مترئسًا وفدًا من أبناء رعيّة مغدوشة، كما انضمّ إلى المستقبلين ضبّاط من الجيش والدرك كبيرهم برتبة رائد. ولمّا توقّف الكاردينال قليلًا، ألقى الأرشمندريت سابا داغر كلمة بالفرنسيّة عرض له الحال في مغدوشة، ورجاه أن ينعم عليهم بزيارة مغدوشة فاعتذر نيافته.

سار الموكب باتّجاه صيدا مرورًا بشارع معروف سعد، فرياض الصلح، فمثلّث الراهبات إلى حارة صيدا مرورًا أمام سراي المحافظة، وثكنة محمّد زغيب سالكًا طريق الحارة صعودًا إلى جزّين. وفي عين الدلب أولى الرعايا الّتي استقبلته على الطريق العام، بمن كان قد عاد إليها من الأطفال والنساء والشيوخ دون الشبّان الّذين كانوا قد تهجّروا منها منذ ثلاثة أشهر. العدد قليل والمشهد مؤثّر. الزهور تنثر مع الأرز على الموكب، والأمّهات القليلات يقدّمن أطفالهنّ للتبرّك من نيافته الّذي كان يصافح الجميع ويبتسم لهم، ويوزّع عليهم صورًا لقداسة البابا. ولا بدّ ونحن نتكلّم عن عين الدلب من أن أعلن ما جرى بيني وبين مجموعة من الأهالي. وهي أنه لمّا علم الأهالي العائدون إلى بلدتهم عين الدلب بتلك الزيارة، حرّروا رسالة بالفرنسيّة موجّهة إلى قداسة البابا، يطلبون منه فيها العمل على تدبير

مكان لهم خارج لبنان، في كندا أو أميركا الجنوبيّة، ونقلهم إليها لأنّ الحياة بنظرهم لم تعد تطاق حيث هم. ولمّا تسلّمت الرسالة وقرأتها، مزّقتها على مرأى منهم قائلًا لهم: «نحن من هذه الأرض وسنبقى عليها ولن نريد عنها بديلًا».

أكمل الوفد طريقه مرورًا بالقريّة، فالمحاربيّة فوادي الليمون إلى برتي الّتي خرجت بكبارها وصغارها إلى الاستقبال في الساحة العامّة يرتّلون بالفرنسيّة، وكان الصغار يحملون يافطات من الورق المقوّى كُتبت عليها عبارات الترحيب وطلبات الاستغاثة، وأطلقوا الحمام الأبيض وكان كاهن الرعيّة في مقدّمهم.

تحدّث الكاردينال متأثّرًا ممّا سمع ورأى واعدًا بأن ينقل إلى قداسة البابا صورة عن ذلك المشهد المؤثّر. في برتي تغيّر موكب الحرس المرافق الّذي عاد إلى صيدا واستعيض عنه بموكب آخر قادم من جزّين يقوده الملازم أوّل روجيه سالم والملازم لحّود التنّوري إلى بعض عناصر من قوى الأمن العام.

في صيدون خرج أبناء الرعيّة كبارًا وصغارًا إلى استقبال الضيف الكبير وفي مقدّمهم الصغار وأعضاء الأخويّة يحملون أغصان النخل والزيتون ويرتّلون «سلام سلام لك يا مريم» الّتي راح نيافته يشارك فيها والجرس يقرع كما أطلق رفًّا من الحمام الأبيض. ودخل الجميع إلى الكنيسة، قيد البناء، وكانت القاعة تستعمل ككنيسة، وألقى نيافته كلمة نوّه فيها بتقوى ونشاط أبناء الرعيّة، وقد راحوا يبنون كنيسة في هذه الأيّام الصعبة، متّكلين على العذراء مريم صاحبة المقام، وعلى القدّيسين مار مارون ومار شربل، آملين بشفاعتهم أن يصلوا إلى ما يبتغون.

تابع الموكب طريقه فاستقبله بعض أهالي حيداب أمام باب الكنيسة الّتي تشيّد على اسم القدّيس شربل، وكان بين المستقبلين القلائل، طفل أخذه بين يديه، وسأله عن اسمه فقال الطفل: اسمي «شربل»، إذاك قال الكاردينال: «لم لا يصبح قدّيسًا هذا الطفل كالقدّيس شربل؟» ومنح البركة للحاضرين، ثمّ تابع سيره إلى دير مار بطرس وبولس للرهبانيّة الأنطونيّة في قطّين، حيث استقبله جمهور كبير من المؤمنين مع بعض الرهبان على قرع الجرس، والأناشيد الدينيّة على مدخل الكنيسة. وألقى كلمة هنّأ فيها المؤمنين بالدير

الّذي يقوم رهبانه بخدمتهم الروحيّة، وأشار إلى الرسالة الّتي أناطها به قداسة الحبر الأعظم ودعا جميع من معه من الأساقفة والكهنة إلى مشاركته في إعطاء البركة لجميع المؤمنين الحاضرين.

في المكنونيّة، كان عدد المستقبلين قليلًا جدًّا، ومع ذلك بقي جرس الكنيسة يقرع، وقد تشبّث بحبل الجرس أحد الشبّان المدعو إيلي على اسم شفيع الرعيّة بحبل الجرس، فتوقّف أمامه الكاردينال وسأله عن اسمه ودخل الكنيسة الّتي لم يكن فيها سوى بضعة أشخاص دعاهم إلى الثبات على إيمانهم، وهكذا يخلّصون لبنان.

في قيتولي جرى استقبالٌ حافل أمام كنيسة القدّيس ميخائيل للروم الكاثوليك، شارك فيه أهل البلدة والمهجّرون إليها وهم كثيرون، دخل الجميع إلى الكنيسة، على أنغام الأناشيد البيزنطيّة. فألقى أحد المهجّرين كلمة عرض فيها ما وصل إليه المسيحيّون في المنطقة، من البؤس والتشريد، وكيف هدمت كنائسهم، وتدنّست مقابرهم، وطلب من قداسته المساعدة لإرجاعهم إلى قراهم ومدنهم الّتي هجّروا منها، وهم يكفلون إعادة بنائها شرط أن يكون الأمن مضمونًا. وردّ نيافته داعيًا الجميع إلى أن يحافظوا على الرجاء في قلوبهم وعلى الإيمان بالله وعلى التشبّث بالأرض، لأنّ خلاص لبنان يقوم على هذه الثلاثة. وقبل أن يخرج من الكنيسة وقفت أمامه طفلة مهجّرة من درب السّيم، من آل عزيز تقيم مع أهلها في قيتولي، وألقت كلمة باللغة الفرنسيّة قالت فيها ما ترجمته: «نحن شعب مهجّر وقد خسرنا كلّ شيء، ولم يبقَ لنا إلّا أن نصلّي...»، فتأثّر نيافته بكلمتها ورفعها بين يديه وقبّلها، ومن ثمّ بقيت كلمتها مطبوعة في ذاكرته، يردّدها في غير مناسبة أمام جماهير النّاس متأثّرًا، الذين يلتقيهم في زياراته إلى المنطقة.

وصول الموكب إلى جزّين

عند الساعة الثانية عشرة والنصف ظهرًا، وصل موكب نيافته إلى جزّين وقصد توًّا كنيسة مار مارون الرعائيّة الّتي احتشد في ساحتها المؤمنون على امتدادها من النبع حتّى باب الكنيسة الجنوبي كما كانوا على الطرقات المشرفة على الكنيسة لئلّا يخسروا فرصة مشاهدة الضيف الكبير الآتي إليهم في محنتهم مؤاسيًا ومشجّعًا باسم قداسة الحبر الأعظم.

واكتظّت الكنيسة بالجماهير الّتي وفدت من كلّ حدبٍ وصوب للمشاركة في استقبال نيافته. إستقبله على الباب الملوكي للكنيسة نوّاب جزّين والمنطقة: الدكتور فريد سرحال، والمحامي إدمون رزق والمهندس نديم سالم. وعلى الباب ارتدى الثياب الحبريّة بكاملها ولبس التاج وأخذ العصا الرعائيّة، ودخل الكنيسة وسط عاصفة من التصفيق لم تنقطع على مدى دقائق طغت على أصوات المرتّلين وعلى الموسيقى. وإذ وصل أمام المذبح الكبير صلّى صلاة قصيرة، راح بعدها إلى العرش وجلس. ثم اعتلى مطران الأبرشيّة المطران إبراهيم الحلو المذبح وألقى كلمة بالفرنسيّة، رحّب فيها بالزائر الكبير، شاكرًا لقداسة البابا يوحنّا بولس الثاني لفتته الأبويّة واهتمامه الجدّي المتواصل بالأزمة اللبنانيّة الخانقة، كما شكر لنيافته هذه الزيارة الأبويّة داعيًا له بالتوفيق في الرسالة الّتي يقوم بها لهذه المنطقة العزيزة، عارضًا باختصار ووضوح موقف أبناء هذه المنطقة، مقيمين فيها ومهجّرين إليها من الأزمة الخانقة الّتي يعيشونها. وبما أنّ كلمة سيادته كانت بالفرنسيّة فقد نقلها حالًا بالعربيّة لتكون في متناول جميع الحاضرين. بعد أن انتهى سيادته من إلقاء كلمته صعد نيافته إلى المذبح وألقى على الحاضرين كلمة بليغة ومؤثّرة كنت أترجمها للحال إلى العربيّة، أختصر أهمّ ما جاء فيها بالآتي:

إنّي أشكر بادىء ذي بدء مطرانكم الشجاع، الّذي يستقبل بهذه الحماسة ممثّل قداسة الحبر الأعظم، وأشكركم جميعًا على هذا الاستقبال الحماسي. لقد سمعت الكثير عنكم. في العائلة ينتظر الأولاد والديهم، يترقّبون حضورهم الشخصي، لا كلامهم. ففي هذا اللقاء الأوّل أقول إنّي آتيكم باسم الحبر الأعظم، لأراكم وأتفقّدكم، وأستمع إليكم، وها إنّي أقضي معكم النصف الأكبر من إقامتي في المنطقة، أقضيه معكم وأنا أريد هذا، أريد أن أكون معكم.

أقول، ويا للأسف، إنّ جزّين بدأت تُعرف ويُحكى عنها في العالم كلّه، لأنّها تعيش مشكلة، وأنا أريد أن أحمل مشكلتها، ليس فقط إلى المجتمع المسيحي، بل إلى المجتمع العالمي والإنساني بوجه عام. سمعت من الكلمة الّتي قالها مطرانكم أنّكم جماعة طيّبة، ولكنّكم قلقون ومضطربون. أن تكونوا

طيّبين فهذا ما أقرأه وأراه على وجوهكم. أمّا أن تكونوا قلقين على نفوسكم وعلى مستقبلكم فهذا ما لا أراه على وجوهكم لأنّكم مطبوعون على كثير من الكرامة، فلا تظهرونه على وجوهكم.

لست أقول لكم ما قاله السيّد لتلاميذه بأنّ له كلامًا كثيرًا لم يقله لهم لأنّهم لا يطيقون سماعه، بل لي كلام كثير لا أستطيع أنا أن أقوله لكم: إنّما إلى المهجّرين بينكم أقول لا تخافوا لأنّكم سوف تعودون إلى بيوتكم وقراكم وإلى كنائسكم، وسوف تستردون مدافن موتاكم وقبورها، وإن تكن مهدومة، تعيدون بناءها على أحسن ممّا كانت. لا تخافوا، ثقوا بالله وحافظوا على إيمانكم ورجائكم واعلموا أنّكم بهذه الطريقة تستطيعون أن تحافظوا على لبنان العيش المشترك، وتحافظوا عليه موحّدًا. كانت كلمة نيافته مترجمة إلى العربيّة تقابل بالتصفيق الشديد الحاد والهتاف من داخل الكنيسة وخارجها.

بعد أن أنهى نيافته كلمته، صعد النائب الدكتور فريد سرحال إلى الخورس وحيّاه، شاكرًا له بحرارة لفتته الكريمة وألقى كلمة بالفرنسيّة، مرحّبًا به، عارضًا أمامه بإيجاز موقف أبناء جزّين ومنطقتها من الأحداث الجارية مشدّدًا على رغبتهم في السلام مع جيرانهم جريًا على تقاليدهم سواء أكانوا في الشرق أم في الغرب، في الجنوب أم في الشمال وطالب بعودة الشرعيّة إلى جزّين معزّزة بغطاء سياسي قوي من الداخل كما من الخارج. وبعد أن انتهى الدكتور فريد خرج نيافته من الكنيسة وسط عاصفة مدويّة من التصفيق مع مرافقيه قاصدًا أوتيل وهبه حيث يقضي إقامته مع أعضاء الوفد في ضيافة سيادة المطران إبراهيم الحلو راعي الأبرشيّة. وبعد تناول الغداء وفترة قصيرة من الاستراحة أي عند الساعة الرابعة شرع نيافته يستقبل النّاس مبتدئًا بالنوّاب الثلاثة السابق ذكرهم، الّذين التقوه على انفراد وعرضوا له رأيهم في حلّ الأزمة اللبنانيّة القائمة.

وفي اليوم الثاني أي يوم الأحد الموافق للسابع من شهر تمّوز، احتفل بالقدّاس الإلهي في كنيسة مار مارون في جزّين الساعة التاسعة صباحًا وشاركه سيادة السفير البابوي

والمونسينيور غاتي والأب ده نويه De Noyer والأب بولس نجم، وخدمته جوقة الرعيّة، كما تخلّل الترانيم المارونيّة الليتورجيّة ترانيم أخرى باللغة الفرنسيّة بحسب الطقس اللاتيني. وبعد تلاوة الإنجيل المقدّس ألقى عظة مكتوبة استهلّها بشكر سيادة راعي الأبرشيّة مشيدًا بالتعايش الإسلامي المسيحي الّذي لا تزال جزّين محافظة عليه، كما أشار إلى أنّها سوف تكون مثالًا يحتذى لسائر المناطق اللبنانيّة في هذا المجال الّذي هو ضروري جدًّا، لكي يستعيد لبنان وحدته وسلامه.

قال إنّه يأتي اليوم إلى جزّين موفدًا من قبل قداسته رسول سلام وداعية خير. وقد انعطف الحبر الأعظم اليوم تجاوبًا مع نداءات مسيحيّة وإسلاميّة كثيرة من لبنان وغير لبنان، طلبت إليه أن يشمل برعايته جزّين ومنطقتها، وشدّد في كلمة قالها من على ساحة مار بطرس في روما، على ضرورة تجنيب هذه البلدة وتلك المنطقة المآسي الّتي عاشتها مناطق عدّة في لبنان، ودفعت فيها ثمنًا غاليًا من الضحايا والخراب بسبب انتمائها إلى هذه الطائفة الدينيّة أو تلك. وصلّى بحرارة لكي يوفّر الله عليها سلسلة جديدة من العنف والثأر والانتقام. وأضاف:

البابا يشعر أنّه قريب منكم جدًّا يشارككم آلامكم ورجاءكم بالعدل والسلام، ولهذا فقد أرسلني إليكم. يجب أن تبقى جزّين لكي يبقى لبنان، ولكي يستعيد أمله بالعيش في سلام. ولا يسعني هنا إلّا أن أستثير مسؤوليّتكم الإنجيليّة القائمة على متابعة العيش المشترك مع سائر الطوائف المسيحيّة والإسلاميّة والدرزيّة في قواسم مشتركة، وهكذا فإنّكم تعطون المثل للّذين فقدوا هذا الخط في العيش، وتعيدون إلى لبنان كلّ لبنان الأمل باستعادة هويّته الأصيلة. تلك هي مسؤوليّتكم وها إنّي أسرع إلى القول لكم إنّي أحمل لكم تضامن قداسة الحبر الأعظم معكم، وأشهد كذلك لما تقدّمه كاريتاس في هذه المحنة في لبنان، لتجعل من الجميع فيه قلبًا واحدًا.

بكلّ تأكيد إنّي أقرأ سؤالًا على شفاهكم... ماذا يكون الغد بالنسبة إلينا؟ إنّنا نصلّي فوق الخراب طالبين السلام... البابا ليس لديه حلول سياسيّة

ولا عسكريّة ولا تقنيّة للمشاكل الّتي تواجهكم، إنّما له بصفته خليفة القدّيس بطرس يحمل مفاتيح الملكوت وله الحقّ بأن يعطيكم العربون لذاك الملكوت إذا تعمّقتم في فهم البشارة المسيحيّة وعشتموها في محيطكم. على كلّ منّا أن يفحص ضميره وأن يتخلّى عن كلّ شيء في سبيل قيم مثاليّة. وباختصار ليس هنالك ست وثلاثون طريقة للحل. لقد حان الوقت لكي نتوب توبة حقيقيّة إلى الإنجيل. وكم أثّرت فيّ أمس البارحة وأنا قادم من صيدا إلى جزّين كلمة طفلة قالتها لدى خروجي من الكنيسة: «نحن شعب لم يعد لنا شيء سوى الصلاة بعد أن خسرنا كلّ شيء». ولذا فإنّنا نتوجّه جميعًا في ختام هذه الكلمة إلى السيّدة العذراء إلى سيّدة المعبور، إلى سيّدة الرعاة وإلى سيّدة الغلال الناضجة، إلى سيّدة لبنان، لنقول لها إحفظي بنيك، نحن بنيك... يا سيّدة لبنان، نحن شعبك إحفظينا لمجد إله إبراهيم وإسحق ويعقوب، إحفظينا لأجل سلام البشريّة جمعاء، وسلام لبنان آمين.

ملاحظة: إنّ هذه العظة الّتي قالها نيافته باللغة الفرنسيّة من على مذبح مار مارون في جزّين، كانت مكتوبة فقرأها وأنا كانت بيدي نسخة أخرى أترجمها حالًا إلى العربيّة بعد أن يقرأها، وقد تسجّلت في القدّاس بالصوت الحيّ. وكان ذلك بناءً لأمين سرّه المونسينيور لويجي غاتي الّذي أبى عليه أن يرتجل العظة ارتجالًا، لئلّا يعد الجماهير وعودًا غير قابلة للتحقيق.

بعد الانتهاء من القدّاس الإلهي انتقل إلى مركز إقامته في أوتيل وهبه يستقبل وفود المهجّرين القادمين من الشريط الحدودي مع إسرائيل من مرجعيون والقليعة وجوارها، كما جاءت إليه وفود من عين إبل ورميش فألقى بعضهم خطبًا وكلمات عرضوا فيها أحوال المهجّرين إلى تلك البلدات، والمطالب الممكن تحقيقها لهم وجميعها تصبّ في خانة العودة واستعادة البيوت والأرزاق، وإن كانت مهدومة ومحروقة. وبعد أن انتهى من استقبال وفود المهجّرين اجتمع إلى مجموعةٍ من شباب جزّين تحدّثوا إليه بكلّ بساطة فاستمع إليهم وأصغى بكلّ انتباه إلى ما كانوا يعرضونه عليه من مشاكل وصعوبات، وكان يجيب على أسئلتهم بكلّ محبّة وتفهّم لمطالبهم.

بعد الظهر وفي تمام الساعة الرابعة قام والوفد المرافق له بزيارة مجمّعات المهجّرين في المدرسة المهنيّة وفي المدرسة الرسميّة الثانويّة. وكان يأخذ الأطفال بين يديه ويقبّلهم كما يستمع بكلّ انتباه إلى مطاليبهم محاولًا إحياء الرجاء في قلوبهم. وهكذا قضى أكثر من ساعتين في تلك الدورة الرعائيّة والأبويّة، الّتي لا شكّ في أنها أثّرت في النفوس وساعدت على تضميد جراح خلّفها التهجير والحاجة. ولمّا عاد إلى مركز إقامته كان أيضًا أناس ينتظرونه فاستقبلهم واستمع إليهم بكلّ بساطة وتفهّم، لما يعرضونه عليه.

صباح الإثنين أقام الذبيحة الإلهيّة الثامنة إلّا ربعًا مع مرافقيه في كنيسة الرعيّة وألقى كلمة في المؤمنين الحاضرين، من ثمّ انتقل إلى زيارة الرعايا في المنطقة وفق البرنامج المحدّد لها.

قبل الظهر:

وادي جزّين

بدأ الكاردينال زيارته التفقديّة في وادي جزّين، ضيعة المطران إبراهيم الحلو راعي الأبرشيّة، فأقيم له استقبال حافل شارك فيه أبناء الرعيّة المقيمون والمهجّرون إليها، البالغ عددهم سبع وعشرون عائلة موزعة على بيوت الرعيّة. تقدّم الصليب والفرسان والأخويّة وحاملات البخور وخادم الرعيّة. وحين ترجّل من السيّارة دوّى التصفيق، وعلى قرع جرس الكنيسة والنّاس يرتّلون: «سلام سلام لك يا مريم». إرتدى الغفّارة وسار في الموكب يبتسم ويبارك النّاس. وفي الكنيسة ألقيتُ كلمة الترحيب بالضيف الكبير باللغة الفرنسيّة، شاكرًا له هذه الزيارة الّتي تشرّفت بها وتباركت رعيّة وادي جزّين، الّتي تفخر بأن تكون قد أعطت الكنيسة دعوات كهنوتيّة ورهبانيّة خدمت الكنيسة والنفوس في عدّة مجالات، وسيكون لها الفخر بأن تخبر عن هذه الزيارة جيلًا بعد جيل. واعتلى نيافته المذبح وألقى كلمة قال فيها:

لهذه الزيارة ميزة خاصّة فيّ ذكّرتني ببلدتي مسقط رأسي، لأنّي من بلدة في الجبل من فرنسا، كما أشكر لسيادة المطران حلو اهتمامه ورعايته النشيطة للأبرشيّة، وأهنّىء هذه الرعيّة على الدعوات الّتي أعطتها وفي مقدّمها المطران

الشجاع راعي الأبرشيّة المعروف بتواضعه، والّذي أبى أن يقول الكلمة الترحيبيّة وعهد بها إلى نائبه العام، كما وأنّه لم يرد أن يميّز ضيعته الأصليّة عن سواها من رعايا الأبرشيّة هو المعروف بتواضعه. وكم كنت أتمنّى لو زرته في بيته الوالدي، لأنّ المعرفة الحقيقيّة للإنسان تكتمل بالتعرّف على البيت الّذي ولد فيه، ونشأ وعاش صغيرًا وتربّى. وفي نهاية كلامي إليكم أدعوكم إلى المحافظة على إيمانكم والتمسّك بالأرض الّتي نشأتم عليها، وها أنا مستعدّ لأن أصافحكم واحدًا واحدًا وفردًا فردًا بعدئذٍ في الساحة لدى خروجي من الكنيسة.

وهكذا صار فتقدّم منه جميع الحاضرين وصافحوه مقبّلين يده آخذين بركته وهو يبتسم لكلّ واحد منهم. وإذ رأى وهو على المذبح الأبوين الشقيقين فرنسيس ومخايل الحلو وهما خالاي دعاهما إليه وأوقفهما إلى جانبه على المذبح.

في العيشيّة

بعد أن انتهى من زيارة وادي جزّين انتقل الموكب جنوبًا إلى العيشيّة وهي الرعيّة التابعة لأبرشيّة صور، والّتي وقع فيها على ما أظنّ شهداء كثر، بلغ عددهم سبعة وستّين شهيدًا في تشرين الأوّل ١٩٧٦. جرى له استقبال شعبي مؤثّر على مدخل الكنيسة لجهة الطريق العام، وعلى رأس المستقبلين المطران يوسف الخوري راعي الأبرشيّة يحيط به وجهاء البلدة وأبناء الرعيّة المقيمون فيها، والمهجّرون إليها. وعلى قرع جرس الكنيسة صعد نيافته الدرج الممتد من الطريق العام حتّى الكنيسة بين صفّين من الأولاد الّذين كانوا يحملون صورًا لشهداء الرعيّة، الّذين سقطوا في معركة ١٩٧٦. ثمّ دخلوا حاملين الصور بأيديهم وصنعوا نصف دائرة حول المذبح الكبير. وبعد صلاةٍ وجيزة ألقى المطران خوري كلمة ترحيبيّة بصاحب النيافة ومرافقيه، متحدّثًا عمّا تعرّضت له رعيّة العيشيّة خلال سنوات الحرب من تعدّيات وخراب وكم خسرت من ضحايا بشريّة، وأصابها من خراب في بيوتها وأرزاقها. وها هي تعود اليوم لتستقبل المهجّرين إليها. وتنزلهم في بيوتها وبين عيالها على الرحب والسعة، وهمّها الوحيد العيش بأمان وسلام مع جيرانها، ضمن إطارٍ من الحريّة والكرامة والاحترام المتبادل. وأشار سيادته إلى الصليب الكبير الّذي يعلو المذبح، وقد عبثت به

أيدي المهاجمين فحطّمته، ولم يبق منه سوى الرأس والجسم بدون اليدين، مبقيةً له وعلى رجل واحدة...

تكلّم أحد أبناء الرعيّة باللغة العربيّة وكان المطران خوري يترجم أهمّ ما جاء في كلمته. وفي فترة من السكوت التام، ألقى نيافة الكاردينال كلمة مؤثّرة جدًّا حيّا فيها إيمان أبناء العيشيّة ودعاهم إلى الصمود في الأرض، والتشبّث فيها بانتظار انبثاق فجر جديد من الأمن والسلام في لبنان، مشيرًا إلى الامتياز الخاص الّذي عرف به أبناء العيشيّة قائلًا: «يسمع الإنسان من بعيد أن أرض لبنان هي أرض الشهداء، ولكن أن يزور أرض الشهداء فهذا أمر عظيم، وأعظم من هذا كلّه أن يكون له في عائلته شهداء، فهذا إنعام خاص يتمتّع به القليلون من النّاس...»، ثمّ دعاهم إلى الغفران والمسامحة طبقًا لما علّمنا السيّد المسيح في صلاة الأبانا، وأمرنا أن نعمل بموجبها، فقال إنّ علينا أن نغفر كما غفر هو وإلّا نعود إلى الوراء... نحن نغفر ونسامح دون أن ننسى. أمّا السيّد المسيح فإنّه يغفر ويسامح وينسى الماضي... درب الصليب لا تنتهي بالفشل والقنوط بل بالأمل والرجاء... وهكذا نحن أيضًا نرجو أن تنتهي آلامنا في قيامة لبنان. وأخيرًا كانت وصيّته إليهم دعوة إلى الصمود والمحافظة على إيمانهم بالله وبلبنان.

في كفرحونة

قفل نيافته والوفد المرافق راجعًا إلى كفرحونة فاستقبله الأهالي بالتصفيق والزغاريد وقرع الجرس. واجتمع السكّان بمن فيهم الشيعة المقيمون في البلدة، ولم يخف ذلك على نيافته، وبعد أن دخل الكنيسة رحّب به أحد الكهنة بحضور المدبّر البطريركي الأرشمندريت سليم الغزال، وألقيت كلمة أيضًا باسم المهجّرين إلى البلدة. ثمّ اعتلى نيافته المذبح وشكر المطران حلو لمرافقته له إلى كنيسة الروم الكاثوليك، ممّا يدلّ على الوحدة القائمة بين الكاثوليك على اختلاف طوائفهم. ونوّه بالجوّ التوافقي الّذي يهيمن على البلدة، الّتي تضمّ مسلمين ومسيحيّين، قائلًا: «هذه هي الصورة الحقيقيّة عن لبنان وعلى اللبنانيّين أن يحافظوا على هذه الصيغة، لينمّوها حيث هي قائمة، ويعودوا إليها حيثما تخلّوا عنها. وذكر أنّ المسلمين في مرسيليا يزورون سيّدة المنطرة تقديرًا واحترامًا للسيّدة العذراء». فكان كلام

نيافته يقاطع بالتصفيق كلّما كان يذكّر بالعيش المشترك بين اللبنانيّين، كأنّه نموذج فريد للعالم. وبعد الخروج من الكنيسة صافح نيافته النّاس الّذين كانوا في الساحة وقد ضاقت بهم الكنيسة.

في دير المزيرعة

قام نيافته بزيارة دير المزيرعة، الوحيد الباقي في المنطقة للرهبانيّة المخلّصيّة، بعد نزوح الرهبان اضطراريًا عن دير المخلّص، الأمّ، في جون. كان في الدير الرئيس العام الأرشمندريت سمعان نصر ولفيف من الآباء. دخلوا الكنيسة وهم ينشدون الأناشيد البيزنطيّة الفخمة. في الكنيسة ألقى قدس الأب العام كلمةً شرح فيها بإيجاز ما حلّ بالرهبانيّة خلال أحداث آذار نيسان ١٩٨٥، ثمّ تلاه نيافته منوّهًا بدور الرهبانيّة الفاعل في الكنيسة ولا سيّما في هذه المنطقة. من الكنيسة انتقلوا إلى صالون الدير، حيث قدّمت المرطّبات، ثمّ تسلّم الكاردينال ومرافقوه مذكّرة باللغة الفرنسيّة تحكي عن تاريخ دير المخلّص، وبخاصّة عمّا تعرّض له من مآسي وكوارث على مدى سنوات.

في عين مجدلين

تجمّع أبناء البلدة كبارًا وصغارًا لاستقبال الضيف الكبير عند مدخل البلدة أمام الكنيسة الجديدة، وكان يتقدّم المستقبلين الخوري جورج خوند خادم الرعيّة وراهبات البيزنسون اللواتي يؤمّن التعليم المسيحي للأولاد في المدرسة، ويرعين في البلدة مستوصفًا خاصًا. الكلّ واقف في ساحة الكنيسة والأولاد منتشرون على الطرقات وفي الأماكن المرتفعة للإشراف والمشاركة في الاحتفال. وأعلن الكاردينال عن سروره بناء هذه الكنيسة في أيّام صعبة وظروف عصيبة، وأشار بفرح وإلحاح وأمل إلى عنصر الشباب المتوفّر في الرعيّة وبين المستقبلين، ممّا يدلّ على نموّ البلدة وتحدّيها للصعاب المعيشيّة. ودعا الجميع إلى التمسّك بالإيمان والأرض، والحفاظ عليهما إذ بهما يمكن المحافظة على لبنان وعلى الوجود المسيحي فيه. وبعد أن أكمل الكاردينال زيارته إلى عين مجدلين عاد إلى جزّين لتناول طعام الغداء ومتابعة زياراته الساعة الرابعة بعد الظهر. ولقد تركت زيارة عين مجدلين واستقبال الأهالي له بذاك العدد الكبير من الأولاد المتهافتين على مشاهدة

الزائر الآتي إليهم من بعيد، أثرًا طيّبًا في نفس الكاردينال، حتّى أنّه كلّما كان يلتقي المطران إبراهيم في الفاتيكان يستعيد ذكريات هذه الزيارة الّتي قام بها لجزّين ومنطقتها، ويسأله بنوع خاص عن عين مجدلين الّتي بقيت صورتها حيّة في ذاكرته.

زيارات بعد الظهر:

بكاسين

كانت بكاسين المحطّة الأولى لزياراته بعد الظهر. خرج موكبه من الفندق متّجهًا إليها، ولكن لدى وصوله إلى المعبور مدخل جزين الغربي توقّف دقيقتين، صعد خلالهما الكاردينال سلّم التمثال حيث صلّى الأبانا والسلام، فأخذت له الصور، ثمّ عادوا جميعًا إلى سيّاراتهم متابعين السير إلى بكاسين، الّتي وصلوها في تمام الساعة الرابعة والربع سالكين طريق ضهر الرملة، مشموشة، فاستقبله أبناء الرعيّة في ساحة الكنيسة وفي مقدّمهم سيادة المطران يوسف الخوري وخادم الرعيّة الخوري جورج ناصيف، مرحّبين به بقرع الأجراس وعاصفة من التصفيق، ثمّ دخل الكنيسة على أنغام الأناشيد الّتي كانت تنشدها جوقة الرعيّة. وبعد صلاةٍ قصيرة وقف سيادة المطران يوسف الخوري وألقى كلمة ترحيبيّة بالضيف الكبير ذاكرًا الشرف الّذي كان له يومذاك لترحيبه مرّتين بنيافة الكاردينال، مرّة في العيشيّة والآن في كنيسة مار تقلا في بكاسين مسقط رأسه. وفي هذه الكنيسة الجميلة الّتي شيّدها أبناء الرعيّة من أموالهم وتبرّعاتهم الخاصّة فضلًا عن تكريمهم الخاصّ للسيّدة العذراء في كنيسة قديمة في وسط البلدة. وأعطى سيادته لمحة مقتضبة عن تاريخ بكاسين وعن الوجود المتقادم العهد للمسيحيّة فيها، وعن علاقة الصليبيّين بها، وكيف أنّهم اتّخذوا من زيتها الشهير إلى كنائس القدس.

ثمّ قام نيافته وشكر لأبناء الرعيّة هذا الاستقبال الحار لرسول البابا، رسول السلام والمحبّة إلى لبنان، كما وجّه كلمة شكر إلى صاحبَي السيادة مطران صور ومطران صيدا اللذين يرافقانه، وحثّ المؤمنين في كلمته على التمسّك بإيمانهم والمحافظة على العيش المشترك، رمز وحدة لبنان وخلاصه. ودعا عنصر الشباب إلى أخذ المبادرة والتشجيع على هذا النموذج الفريد من الحياة في هذه المنطقة، الّتي يجب أن تكون مثالًا حيًّا لسواها من

المناطق اللبنانيّة، الّتي فقدت هذا النوع من العيش... بعد تبادل الكلمات في الكنيسة، انتقل الكاردينال ومرافقوه والمطارنة إلى قاعة كبيرة، حيث جرت مصافحة الجميع، وقدّمت المرطّبات وصواني الملبّس والشوكولا. بعد دقائق قليلة غادر الموكب إلى بلدة بنواتي.

بنواتي

بلدةٌ سنيّة وحيدة في القضاء، قصدها الكاردينال خصّيصًا ليبرهن عن أهمّيّة المحافظة على العيش المشترك الإسلامي-المسيحي، الّذي طالما شدّد عليه وركّز في كلامه إلى المواطنين. كان الاستقبال في الساحة المسمّاة ساحة العين حيث اجتمع الأهالي، ثمّ دعوه إلى بيت المختار فؤاد حمّود، حيث كان أيضًا رئيس البلديّة منير ربيع. فألقى بإسم الأهالي كلمة باللغة الفرنسيّة أحد الأساتذة المسلمين في مدرسة البلدة الرسميّة، شكر للكاردينال وللوفد هذه الزيارة الكريمة الّتي خصّ بها البلدة الإسلاميّة في هذا المحيط المسيحي، ورجاه أن يبارك سكّانها المسلمين كما بارك المسيحيّين. وللحال قام نيافته وألقى كلمة في البيت حيًّا فيها مستقبليه ودعاهم إلى التمسّك بالعيش المشترك الّذي هو رمز لقيامة لبنان من محنته وبقائه. وقدّمت المرطّبات ثم طلب راعي الأبرشيّة المطران إبراهيم الحلو من نيافته أن يخرج إلى الساحة الملأى بالمستقبلين، ويوجّه كلمته إلى المجتمعين فيها، فأعاد نيافته ما كان قد قاله داخل البيت، مشدّدًا على روح الأخوّة والتعاون بين المسلمين والمسيحيّين، إنقاذًا للبنان ولشعب لبنان، عن طريق التفاهم الأخوي بين سائر طوائفه، الّذي يعتبره نيافته السبيل الوحيد المضمون من أجل قيامة لبنان وخلاصه ممّا يتخبّط فيه.

دير سيّدة مشموشة

وصل الموكب إلى ساحة الدير، حيث كان باستقباله جماهير غفيرة من المؤمنين القادمين من مختلف الرعايا الّتي يقوم بخدمتها آباء الدير. وكانت أجراس الكنيسة تقرع: لبس نيافته الغفّارة والتاج ودخل الكنيسة شاقًّا صفوف المؤمنين، مباركًا ومبتسمًا للجميع، وكانت الكنيسة تكتظّ بالمؤمنين فارتفعت أصوات المرتّلين مشفوعة بأنغام الأرغن ترنيمة: «سلام سلام لك يا مريم...» ألقى في الكنيسة الأب باسيل ناصيف رئيس الدير كلمة شكر وترحيب، عارضًا مطالب أبناء المنطقة الأمنيّة، ردّ نيافته بكلمة مشيرًا إلى الدور

الراعوي والتعليمي المزدوج الّذي يقوم به آباء الدير والمدرسة في خدمة الرعايا الموكول أمرها إليهم، والجهد الدؤوب والشاق الّذي يبدونه في تعليم النشء وتهذيبه. وفي هذا المجال ميّز بين أهمّيّة التربية في البيت أو العائلة، ومتابعتها في المدرسة مذكّرًا ببعض ما جاء في رسائل البابا يوحنّا بولس الثاني بشأن التربية الصحيحة وأصولها، وحيّا الشبيبة، أمل المستقبل، في الكنيسة والوطن... وبعد الكنيسة انتقل الجميع إلى قاعة الاستقبال في الدير حيث قدّمت المرطّبات لدقائق وجيزة انتقل بعدها إلى الساحة مستقلًا السيّارة وسط عاصفة من التصفيق الحار.

عازور

لم تكن زيارة الكاردينال لعازور على البرنامج المقرّر سابقًا، إنّما فوجىء الموكب بتجمّع كبير من الأهالي يسدّ الطريق العام على مفترق طريق البلدة الداخليّة فاضطرّ الموكب إلى التوقّف والترجّل من السيّارة حيث استمع إلى إحدى الفتيات تلقي كلمة بالفرنسيّة عرضت فيها شجون الأهالي وهمومهم وتخوّفاتهم من المستقبل، شاكرة للأب الأقدس اهتمامه بالمسيحيّين في لبنان عامة وفي جزّين بنوعٍ خاص، كما في منطقتها. ورأت في زيارته نوعًا من الأمل يبعثه في قلوب أبناء المنطقة، وبعد أن انتهت قال أحد الحاضرين كلمة مكتوبة بالعربيّة، فشكر للحاضرين هذا الاستقبال الحار الّذي فوجىء به معلنًا أنّ زيارته للمنطقة وللبنان هي زيارة سلام وتشجيع للمسيحيّين لكي يصمدوا في أرضهم ويتشبّثوا بها ويحافظوا على إيمانهم.

روم

وصل الموكب إلى روم حوالي الساعة السادسة مساءً وظلّ متابعًا سيره حتّى المنعطف الشرقي الجنوبي قبيل كنيسة مار جرجس للروم الكاثوليك، ترجّل من السيّارة أمام الجماهير الغفيرة المحتشدة يتقدّمها الصليب والأولاد حاملو الزهور واليافطات الّتي كتب عليها كلمات متنوّعة أمثال: «خلصونا... نريد العودة إلى بيوتنا... إلى عملنا... وتابع الموكب سيره إلى كنيسة مار جرجس المكتظّة بالنّاس، مسيحيّين وشيعة، ولدى وصوله إلى الباب الرئيسي دوّت عاصفة من التصفيق لم تهدأ إلّا بعد أن وصل إلى المذبح،... صلاة قصيرة...

وقف بعدها الأرشمندريت سليم الغزال وألقى خطابًا بالفرنسيّة عرض فيه مطوّلًا الأحداث المؤلمة الّتي اجتاحت منطقة شرقي صيدا، وإقليم الخرّوب. كما تكلّم عن دير المخلّص وتاريخه الطويل، وما حلّ به من ويلات ومآسي، وأعلن التصميم بالرغم من كلّ ما حدث، على متابعة العيش المشترك في هذه المنطقة، وشكر للأب الأقدس اهتمامه ورعايته الأبويّة، ولنيافته زيارته إلى المنطقة الّتي تنتظر بعدها طلوع فجر جديد من الرجاء والسلام. كما ألقى خطابًا بالعربيّة السيّد جرجي الحدّاد رئيس بلديّة روم، كانت قد أعطيت نسخة عنه بالفرنسيّة إلى نيافة الكاردينال، الّذي أعلن مجدّدًا عن الغاية من مجيئه إلى لبنان، وهي تهدف إلى إعادة السلام إلى القلوب، والوئام ما بين أبنائه، وتشجيع اللبنانيّين على المحافظة على نموذج العيش المشترك، الّذي هو رمز لوحدة لبنان وانبعاثه، كما أبدى ارتياحه إلى هذا العيش القائم بين مختلف الأديان والطوائف في روم، و«البابا الّذي أوفدني إليكم يعيش همومكم وآلامكم ويدعوكم بإلحاح، إلى المحافظة على إيمانكم وأرضكم، وعلى الأمل الوطيد بعودة الأمن والسلام إلى ربوعكم.» ومن جملة ما قاله بالحرف الواحد: «حافظتم على روح العيش المشترك في هذه الظروف الصعبة، وستبقون مثالًا يحتذى لسائر المناطق اللبنانيّة الّتي فقدت روحانيّة هذا التعايش، الّذي بدونه لن ينهض لبنان من محنته...»

صفاريه

كان عليه أن يقوم بزيارة إلى صفاريه، وهي البلدة القائمة على خطوط التماس، تقريبًا ما بين جزّين وصيدا. طلبت القوّة العسكريّة المواكبة تخفيف العناصر. وصل الموكب صفاريه عند مغيب الشمس. إستقبله الأهالي مع خادم رعيّتهم على باب الكنيسة أمام قرع جرس الكنيسة والأناشيد الدينيّة. رحّب بنيافته سيادة راعي الأبرشيّة المطران إبراهيم الحلو بكلمةٍ موجزة جدًّا لأنّ الوقت قصير وحرج، وردّ نيافته بكلام قصير أيضًا قائلًا إنّه سيذكر دومًا هذه الزيارة الّتي يقوم بها عند غياب الشمس، وهنّأ الأهالي على الصمود في أرضهم، وطلب منهم التمسّك بإيمانهم وإحياء الرجاء في نفوسهم الّذي يجب أن ينمو باستمرار، وحيّا الصغار الموجودين في مؤسّسة S.O.S. القائمة على أرض الرعيّة لرعاية الأيتام. وكان الأستاذ نبيه نمّور أستاذ الفلسفة في ثانويّة الدولة الرسميّة قد هيّأ كلمة بالفرنسيّة يريد إلقاءها، لكنّه أخذها منه باليد لضيق الوقت، وإلحاح من قبل رجال الأمن بالإسراع في

العودة. وأنهى زيارته إلى صفاريه بتفقّد مؤسّسة S.O.S. الّتي استقبله الأولاد فيها بأغنية أنشدوها بالفرنسيّة، وهكذا أنهى النهار بالزيارة الّتي قام بها إلى صفاريه، حيث كان الوقت قصيرًا والجوّ لا يخلو من القلق وعدنا إلى جزّين بسلام، تداركًا للخطر الذي قد يفاجئنا من الجهة الساحلية الغربية.

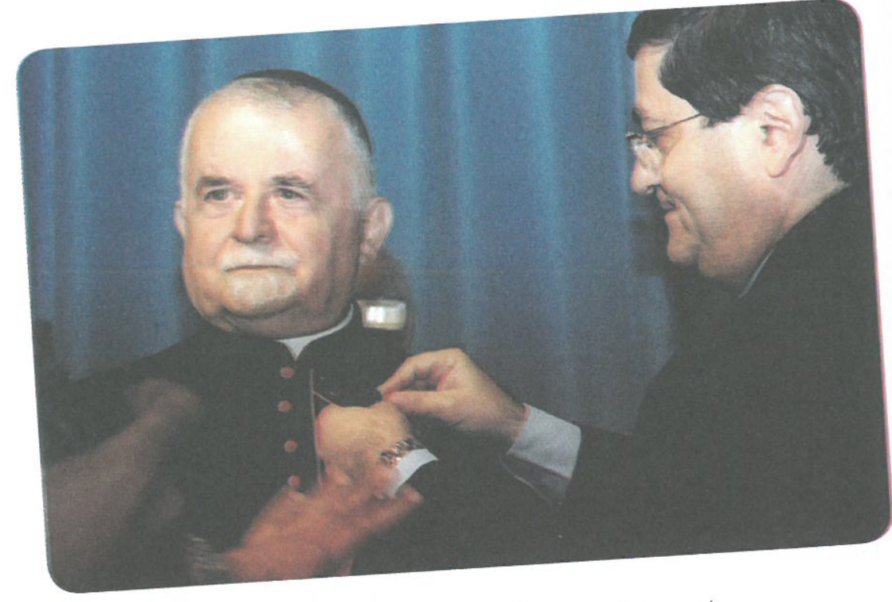
الثلاثاء ٩ تمّوز ١٩٨٥

من الفندق انتقل الكردينال وصحبه عند الساعة الثامنة إلّا ربعًا إلى كنيسة مار مارون حيث أقام الذبيحة الإلهيّة أمام عدد كبير من الرهبان والراهبات، تجمّعوا من أنحاء المنطقة كافّة لهذه الغاية، كما حضرها عدد من أبناء الرعيّة يتقدّمهم النائبان إدمون رزق ونديم سالم، وشاركه في الذبيحة الإلهيّة السفير البابوي والمطران يوسف الخوري، والمونسينيور لويجي غاتّي والأب ده نويه والأب بولس نجم، وألقى نيافته كلمة بعد تلاوة الإنجيل المقدّس، حيّا فيها الحاضرين والغائبين بحكم أشغالهم ودعاهم مجدّدًا إلى المحافظة على الإيمان والرجاء، والعيش بمحبّة بانتظار طلوع فجر جديد لا بدّ منه، وطلب منهم أن يشهدوا للمسيح في محيطهم. وهذه الدعوة كان يحثّهم عليها في كلّ مناسبة خلال القدّاس الإلهي، مثلًا، قبيل تلاوة الصلاة الربيّة وقبيل المناولة وعندما منحهم البركة في نهاية القدّاس الإلهي. وأخذت له بعد القدّاس عدّة صور مع الكهنة والراهبات، ومع شبيبة كاريتاس خارج الكنيسة.

ثمّ استقلّ الوفد السيّارات آخذًا طريق العودة، معرّجًا على رعيّة حيطورا حيث اصطفّ أبناؤها لاستقباله يرتّلون حاملين صحون البخور، فدخل الكنيسة على تلك الأنغام وقرع الجرس، وفي الكنيسة ألقى أحد أساتذة المدرسة الرسميّة خطابًا بالعربيّة، فشكره وطالب الحاضرين بالصمود والتحلّي بالشجاعة على غرار راعي الأبرشيّة، على أمل انبثاق فجر جديد يعيد الطمأنينة إلى النفوس القلقة. وبعد حيطورا أكمل الوفد الطريق إلى صيدا ولم يتوقّف إلّا في برتي حيث جرى تبديل عناصر المواكبة، وتابع الوفد على الطريق ذاتها الّتي اتّخذها صعودًا إلى جزّين، ووصل إلى الزهراني، المحطّة المرتجلة للطوّافة الّتي لم تكن بعد قد وصلت، فانتظرها عشر دقائق إلى أن وصلت فاستقلّها الوفد، كما صعد معهم فيها المطران إبراهيم الحلو، باتجاه الصرح البطريركي في بكركي.



وسام الأرز الوطني برتبة فارس من رئيس الجمهورية إميل لحود



الوزير ميشال موسى يقلّد المونسنيور يوحنا الحلو الوسام



من اليسار السيد محمد الأمين، المونسنيور يوحنا الحلو، النائب بهية الحريري، المطران طانيوس الخوري و المطران مارون صادر



من اليسار الوزير إدمون رزق، الوزير ميشال موسى، السيد محمد الأمين، المونسنيور يوحنا الحلو، النائب بهية الحريري، المطران طانيوس الخوري والمطران مارون صادر



الوزير وليد جنبلاط مستقبلًا في المختارة المونسنيور والخوري موريس زيادة



الشاعر سعيد عقل يمنحه جائزته في نقابة الصحافة في بيروت



جولة تفقدية على قرى ساحل جزين بعد دخول الجيش اللبناني عليها ويبدو في الصورة المطران إبراهيم الحلو والمونسنيور برفقة كهنة وعلمانيين ويبدو خلفهم بيت الوقف في بلدة كفرجرا



نخب المونسنيور في ثانوية راهبات مار يوسف الظهور في صيدا



ركام كنيسة مار أنطونيوس الكبير في الفوارة



السنديانة الكبيرة أمام كنيسة الكنَيِّسة المهدومة



حيث كانت كنيسة البرجين



مدخل كنيسة بعدَران

صور متفرقة للمونسنيور يوحنا الحلو



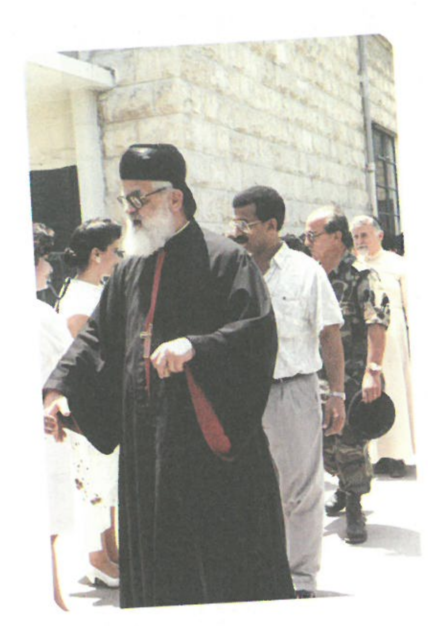
في محلة العاصي قرب مغارة تلاميذ مار مارون



بعد منحه رتبة الخورأسقفية



يتفقّد ترميم إحدى الكنائس



برفقة المطران إبراهيم الحلو والنائب أسامة سعد



في إحدى المناسبات مع المطران طانيوس الخوري والنائب مصطفى سعد



حفل تخريج دفعة من طلاب ثانوية راهبات مار يوسف الظهور في صيدا

توخّيت في نقل وقائع زيارة الكاردينال إتشيغاراي إلى جزّين الدقّة والموضوعيّة كما عشتها، لأني رافقته فيها، وكنت لكلماته المرتجلة مترجمًا ولعظته المكتوبة الّتي ألقاها يوم الأحد في جزّين أيضًا مترجمًا. كما كان لي رأي أساسي في تعيين الرعايا الّتي قام بزيارتها، والّتي على ما أظنّ وأعتقد تركت أثرًا حسنًا في نفوس المواطنين مقيمين ومهجّرين، مسلمين ومسيحيّين في القرى الّتي زارها ولو بشكلٍ سريع. فكان من الضروري تسجيل ما جرى، لتبقى للأجيال الطالعة معروفة ومشيدةً بالدور الّذي قام به البابا يوحنّا بولس الثاني خلال الحرب القذرة، وهو دور فعّال في التأكيد على ضرورة العودة إلى ما يسمّى العيش المشترك والحفاظ عليه بشدّة. وتبع هذه اللفتة الأبويّة الكريمة من قداسته لفتة أخرى شمل بها جزّين، فتجسّدت في إرسال مندوب خاص إليها هو الأب سلستان بوهيغاس من جمعية سلستيفو الآباء اللعازريّين، وقد اتّخذ مركزًا له في جزّين، بقي فيه سنوات حتّى وفاته فجأة في زيارة قام بها لعائلته في إسبانيا، كما أن التحضير الّذي سبق الإرشاد الرسولي، والّذي استمرّ العمل له على مدى سنوات كان أيضًا بوحي وتدبير ودعوة من الكرسي الرسولي، الّذي ما غاب لبنان وشعب لبنان عن قلبه وفكره لحظة، في أحرج المراحل الّتي عاشها ومرّ بها في السنوات الّتي تلت الحرب الداخليّة.

وإذا كنتُ أدوّن ما عشته في تلك السنوات فقد يفوتني الحديث عن أمور أخرى كثيرة أغفلت ذكرها، إما لأنّي ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، أو لأنّي قد نسيتها أو أغفلت ذكر البعض الّذي ما اعتبرته ضروريًّا إحياءً للتاريخ الذي يبقى مرجعًا للناس الّذين يأتون بعدنا، ويُطلعهم على مراحل الحياة الّتي عاشها من سبقوهم من أبناء هذه المنطقة أو تلك من البلاد الّتي تحتضنهم في هذه الأيّام...

نتائج الزيّارة

تركت زيارة الموفد البابوي إلى جزّين، الكاردينال إتشيغاراي أثرًا طيّبًا في نفوس أبناء المنطقة والمهجّرين إليها، وإن لم تكن قد رفعت عنهم الضغط والخوف: الضغط من قبل القوى المسلّحة الّتي كانت تسدّ عليهم أبواب رزقهم، وتمطرهم بالقذائف المدفعيّة من وقت إلى آخر، ليترك في النفوس خوفًا من هجمات مسلّحة من هنا وهناك تقذف بهم إلى أماكن جديدة يهيمون فيها أفرادًا وجماعات على وجوههم، لا يستقرّون على شيء.

أمّا في صيدا مثلًا، ولدى الفعاليّات الإسلاميّة في المدينة على اختلاف ميولها، فقد كان عتب أهاليها ولومهم كبيرًا على الكاردينال ومرافقيه، لكونه مرّ في المدينة من دون أن يزور أحدًا من سلطاتها المدنيّة والروحيّة، لا في صعوده إلى جزّين، ولا في نزوله منها. وهذا الإغفال لفاعليّات المدينة أثار حفيظتهم. وظلّوا هكذا إلى يوم أرسل البابا إلى جزّين موفدًا يقيم فيها هو الأب سلستان بوهيغاز، الّذي كان عليه أيضًا أن يسلك الطريق الّذي سلكه الكاردينال، أي أن يستقلّ الطائرة من بكركي لتحطّ به في حرم التابلاين جنوبي مدينة صيدا. أجرى المطران إبراهيم الحلو اتصالًا بي من بكركي، حيث كان عليه أن يرافق الموفد المذكور، وطلب منّي أن أهيّئ السيّارة الخاصّة بالمطرانيّة ونأتي بها إلى المركز المعين لتحط فيه الطائرة. وخلال الحديث الّذي جرى مع المطران حلو على التلفون سألته عمّا إذا كانت الأمور كلّها مدبّرة مع الجيش والدرك والحكومة، فأجاب بالإيجاب. وسألته كذلك عمّا إذا كان سيمرّ على المطرانيّة، فأجاب لربّما إن كان لدينا بعض الوقت. دبّرت سيّارتين وانتقلت إلى حرم التابلاين حيث كان ضابط من الجيش اللبناني برتبة رائد، على ما أظنّ، ومعه بعض الجنود. ومن خلال حديثي معه فهمت أنّه في حالة من الغضب والاشمئزاز، لأنّ القوى الموجودة في جزّين قد قصفت ليلًا ثكنة محمّد زغيب للجيش في صيدا، وجرح عسكري، وكان ينتقد الجميع من دون تمييز، ولاسيّما تلك القوى المسلّحة المتواجدة في جزّين والمنطقة، وأدركت أنّ غضبه سوف يتجسّد عملًا لن يكون في مصلحتنا.

حطّت الطوّافة العسكريّة ونزل منها من كنّا ننتظرهم أي المطران إبراهيم الحلو والأب بوهيغاز وشخص ثالث على ما أظنّ. تصافحنا ودعي الجميع إلى تناول فنجان قهوة في استراحة قرب المدرج، وفي أثناء ذلك قال لي المطران إبراهيم: «إنّنا سنمرّ على المطرانيّة لنتغدّى فيها. أمّا أنا فاستنادًا إلى الجوّ المتأزّم الّذي يعيشه الجنود مع الضابط الشيعي، المسؤول في حرم التابلاين، فقد أجبت المطران بأنّه من الأفضل متابعة السير إلى جزّين على الطريق الّتي اتّبعها الوفد المرافق للكاردينال، فأحبّ أن يعرف السبب من ممانعتي له بالمرور إلى المطرانيّة، وإذ قبل بما عرضت عليه دون أن أعطي إيضاحات للرأي الّذي أبديته، قرّروا الانصراف وفي مقدّمهم سيّارة جيب للجيش اللبناني، ولكن حين وصولنا إلى جسر سينيق مدخل صيدا الجنوبي، وقفتْ بوجه السيّارة الّتي تقلّ المطران والوفد البابوي

سيّارة تحمل مدفعًا رشاشًا، وفيها مسلّحون تابعون للتنظيم الناصري، فمنعوا السيّارة من متابعة السير إلى صيدا. نزل الضابط اللبناني والمعاون أوّل أحمد أبو ظهر الّذي كان رئيس الحرس في المطرانيّة، وسألا عن السبب، فأجيبا بأنّ الأمر صادر عن الأستاذ مصطفى سعد بمنع الموفد البابوي ومرافقيه من دخول المدينة.

نزلت من السيّارة ورحت إلى المسؤول وكنت أعرفه، كما سألت عن السبب فأجابني أنّ الأمر صادر عن رئيس التنظيم الناصري، فعجبت لهذا الأمر، وطلبت منه أن يعطيني رقم إقامته لكي أحدّثه شخصيًّا، فرفض، وإذ كان موقف الجنود معطّلًا أو متواطئًا مع ما يجري، طلبت أنا الدخول إلى صيدا ففتح لي الطريق قائلًا: «أنت أهلًا وسهلًا بمكتبه، استيضاحًا لهذا القرار المانع، الّذي يتّخذه. وصلت إلى بيت الأستاذ مصطفى فلم أجده، إنّما رأيت شقيقه الدكتور أسامه والمقدّم محمّد الحاج، ضابط في قوى الأمن الداخلي في صيدا، سألت عن الأستاذ فقيل لي إنّه يقوم بدورة على عناصره في مراكزهم. سألت هل يمكن معرفة السبب لإقفال الطريق بوجه الموفد والمطران، فأُجبت بأنّ السبب يعود إلى إهمال مدينة صيدا وفاعليتها يوم مرّ الموفد البابوي فيها سابقًا صعودًا ونزولًا من دون أن يمرّ بزيارة تفقّديّة للمسؤولين فيها روحيّين ومدنيّين. فقلت لهم: «إسمحوا لي أن أتّصل به»، فأجابوا: «هذا من غير الممكن»، ففهمت إذّاك أن لا رجوع عن القرار المتّخذ، وعدت القهقرى إلى حيث تركت الوفد على جسر سينيق فلم أجده، فقيل لي بلسان التنظيم الناصري الّذي لا يزال مرابطًا على الجسر، بأنّه عاد إلى حرم التابلاين مع القوّة المرافقة له من الجيش اللبناني وقوى الأمن الداخلي. وهنا أترك للقارىء الكريم تقويم الأوضاع الأمنيّة السائدة في المدينة، في ذلك الزمن الرديء، الّذي عشناه والّذي شربنا فيه كؤوس الذلّ مترعة. ولا بدّ من السؤال عمّن أوصل الخبر إلى السيّد مصطفى سعد، بأنّ موفدًا بابويًا جديدًا يأتي إلى جزّين حتّى يمنعه من الدخول إلى صيدا، والعارفون بمجيئه هم: أنا والسلطة العسكريّة، والجيش وقوى الأمن. وأنا لم أخبر أحدًا في المدينة، بقي أنّ الجيش وقوى الأمن أطلعوا مصطفى على مرور الموفد البابوي حتّى اتخذ ذلك الموقف المانع لمروره في صيدا. وهذا يعني التواطؤ علنًا.

تابعت سيري إلى حرم المطار، فوجدت المطران والموفد البابوي ينتظران الطوّافة العسكريّة لتعيدهما إلى الكرسي البطريركي، وبعد زمنٍ قصير، عادت الطوّافة ونقلتهما إلى بكركي، كما عدت أنا إلى دار المطرانيّة في صيدا، أفكّر في ما يجب عمله لإصلاح ذات البين، لئلّا يستمرّ وتتفاعل نتائجه وتهرُب من المنطقة الساحليّة ومن مدينة صيدا القبضة الباقية من المسيحيّين المتمسّكين بمنازلهم وأرضهم. وفي اليوم التالي قمت بزيارة سماحة المفتي الشيخ محمّد سليم جلال الدّين، ومحافظ المدينة الشيخ حليم فيّاض، والسيّد مصطفى سعد ورئيس البلديّة المهندس أحمد كلش، والوزير الدكتور نزيه البزري رئيس المجلس السياسي في المدينة، فأطلعوني على أسباب زعلهم الّذي دفعهم إلى اتّخاذ ذلك الموقف الأخير، الّذي أرادوا منه الإعلان عن لومهم الشديد على الموقف السلبي من صيدا الّتي عانت هي أيضًا من الحرب، كما عانى سواها، وكانت تنتظر من زيارة الموفد البابوي بلسمة لجراحها. وكما يقول المثل اللبناني: «العتب على قدر المحبّة». أمّا وقد عبّرت المدينة عن عتاب، فلا مانع من الاتّصال بالمطران والموفد في بكركي، وإطلاعهما على الأسباب الرافضة لمروره آنذاك في صيدا. وكنت أجيب كلّ من أزوره، بأنّ ذلك لم يكن مقصودًا، وأنّ الموفد الأب سلستينو سيقوم بزيارة الفاعليّات الصيداويّة الّتي تشاؤونها لدى مروره في صيدا. أطلعت المطران هاتفيًا على نتيجة لقاءاتي بالفاعليّات الصيداويّة، وجرى تعيين موعد جديد للمجيء إلى جزّين، يبدأ في صيدا بزيارة لبعض فاعليّاتها الأساسيّة على أن يجتمعوا على غداء في دار المطرانيّة يضمّ عددًا منهم للتعارف وتبادل الآراء في الأوضاع الراهنة. وهكذا صار وحُلّت عقد كثيرة في ذلك التلاقي... وبعد أن اتّخذ الأب سلستان بوهيغاز مركزه في جزّين قام بزيارة إلى صيدا، شملت أكثر من مؤسّسة مسيحيّة وإسلاميّة.
بعد التهجير الّذي تمّ في ٢٨ نيسان ١٩٨٥ أصبح عدد المقيمين في منطقة صيدا الزهراني من المسيحيّين لا يتعدّى العشرة آلاف مسيحي موزّعين على قرى منتشرة في الإقليم من العدّوسيّة صعودًا إلى جرجوع وصربا حتّى مغدوشة.

الفصل التاسع

المطران إبراهيم الحلو مدبّر رسوليّ على الكنيسة المارونية

بينما كان الكاردينال مار انطونيوس بطرس خريش البطريرك الماروني في روما دعي المطران إبراهيم الحلو إلى روما في ساعة مفاجئة وفيها تبلّغ من قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني تعيينه مدبرًا رسوليًّا على الكنيسة المارونيّة على أن يظلّ البطريرك خريش في كرسيه «**Sede plena**» وكان ذلك في شهر تشرين الثاني ١٩٨٥، وعاد المطران حلو من روما مباشرة إلى بكركي. كان له استقبال رسمي على المطار ومنه توجّه إلى بكركي في سيّارة رئيس المجلس النيابي السيّد حسين الحسيني، بعد أن قدّمت له على أرض المطار المراسيم الرسميّة. وفي بكركي استقبله المطارنة على أبواب المقرّ البطريركي ودخل الكنيسة متّشحًا بالثياب الحبريّة، وبعد صلاة قصيرة ألقى كلمة شكر فيها قداسة الحبر الأعظم على الثقة الّتي محضه إيّاها، وتعهّد أمام جميع الحاضرين القيام بجميع مسؤوليّاته الجديدة بحسب تقاليد الكنيسة المارونيّة وتوجيهات الكرسي الرسولي.

إنّ هذا التعيين غير المنتظر قد أثار حفيظة أساقفة عديدين من الطائفة، ولم يكن تعاونهم معه كما يُطلب ويُنتظر لحسن سير الأمور الّتي يتوقّعها الكبار. وعلى خلاف ذلك فإنّ الشعب الماروني الّذي كان يئنّ تحت قصف المدافع، والحروب الداخليّة الّتي مزّقته، أمل خيرًا من هذا التعيين الجديد، لأنّه قد سمع الكثير عن تصرّفات المطران حلو في أبرشيّته صيدا وتفانيه المستمرّ في خدمة أبناء الأبرشيّة والانفتاح المستمرّ على سائر أبناء الطوائف الأخرى مسيحيّة وإسلاميّة. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى المديح الّذي كان يكيله له الموفد البابوي إلى جزّين نيافة الكاردينال إتشيغاراي، واصفًا إيّاه في غير مناسبة بالمطران الشجاع، كلّما كان له أن يقول كلمة في راعي الأبرشيّة.

لقد سمعت شخصيًّا في حديث خاص ثناء على المطران حلو ساعة انفرد بي المونسينيور لويجي غاتي، وطرح عليّ أسئلة عن غبطة البطريرك خريش فأجبته بكلّ وضوح وصراحة كل ما عرفته عنه خلال رعايته لأبرشيّة صيدا منذ السنة ١٩٥١ حتّى السنة ١٩٧٥ تاريخ تبوّئه السدّة البطريركيّة الّتي كان بمقدوره أن يحسن رعايتها وإدارتها، لو توفّر له

معاونون يستطيع التفاهم معهم بسهولة. وبعد إحدى وعشرين سنة، ومنذ ثلاثة أشهر في ١٧ تشرين الأول ٢٠٠٥ جاءني إلى المطرانيّة في صيدا سيادة السفير البابوي المونسنيور لويجي غاتي الّذي كان أمين سرّ الكاردينال إتشيغاراي في مهمّته إلى جزّين في تمّوز ١٩٨٥، وكانت مهمّته إلى صيدا رسميّة أيضًا، أغفل الإعلان عن مضمونها. وتذكّرنا الأيّام السالفة والحديث الخاص بيني وبينه وسؤاله عن البطريرك خريش آنذاك، قلت له ولماذا طرحت عليّ آنذاك السؤال المحرج بشأن البطريرك خريش، فقال مبتسمًا: «تمنّينا عليه بإلحاح آنذاك أن يرافق الكاردينال إتشيغاراي إلى جزّين في الزيارة التفقّديّة الشهيرة، فأبى قبول الدعوة ولم يصغِ إلى ما تمنينا به عليه.»

المطران إبراهيم في بكركي

لنعد إلى دخول المطران إبراهيم إلى الدار البطريركيّة في بكركي في عودته من روما متسلّحًا بالمرسوم البابوي بتعيينه مدبرًا رسوليًا للكنيسة المارونيّة الّذي كان وقعُهُ سيّئًا على أساقفة الكنيسة المارونيّة. أنا شخصيًّا لم أستطع أن أذهب لتهنئته لأسباب أمنيّة، ولكنّني بقيت على اتصالٍ مستمرّ بسيادته حفاظًا ورعايةً لمصالح الأبرشيّة الروحيّة والزمنيّة. وليلة وصوله إلى بكركي وصعوده من الكنيسة إلى قاعة الاستقبال الكبرى محاطًا بالمطارنة وجمهور غفير من المستقبلين، إكليروسًا وعلمانيّين، كنّا نستمع إلى الأخبار من على شاشة التلفزيون، وإذ وصل إلى الصالون واتّخذ مقعدًا له على كرسي البطريرك، امتعضتُ كثيرًا وأظهرت استياءً لاحظه عليّ الحاضرون من كهنة وراهبات، وسألوني عن السبب فأجبتُهم بوضوح، وبكلّ مسؤوليّة تحمّلت نتائجها أمامهم: «ما كان من الضروري أن يجلس على الكرسي الخاص بالبطريرك، لأنّ البطريرك لا يزال بطريركًا على كرسيه، وليس الكرسي شاغرًا، لأنّ مرسوم تعيينه واضح وصريح. لقد أصبح مدبرًا رسوليًا مع بقاء الكرسي لصاحبه وهو ما يسمّى باللغة اللاتينيّة «**Sede plena**». وبدءًا من تلك اللحظة، أخذ الأساقفة يعيّبون عليه التصرّف، ويراقبونه في كلّ شاردة وواردة، وما كان أقسى أسهم اللوم والعتاب الموجّهة إليه بلا شفقة ولا رحمة ممّن أغاظهم ذلك التعيين، وأخذ يقطع عليهم بالأمل المنشود بالوصول إلى الكرسي البطريركي وتبوّئه، وما كان أكثرهم وأشدّ الرغبة لديهم في الوصول إليه.

أقمتُ في صيدا في الكرسي الأسقفي مدبرًا شؤون الأبرشيّة على ما فيها من مخاطر وصعوبات، متّكلًا على الله في رواحي ومجيئي وكنت وحيدًا، لا كاهن يقيم معي ليلًا، وفي النهار كان يزورني بعض الكهنة المقيمين في الجوار الّذين يضطرون إلى النزول إلى صيدا قضاءً لحاجة لا بدّ منها ولا مجال لأن يعهد بها إلى علماني مؤمن من أبناء الرعيّة. وما كنت أذهب إلى بيروت إلّا عند الضرورة القصوى، وكان يتمّ ذلك السفر تحت رعاية ضابط كبير من قوى الأمن الداخلي، وأكثر الأحيان برفقة العقيد مقداد، الّذي ما كان يبخل عليّ بخدمة من هذا النوع، وهو الّذي أخذني من صيدا في سيّارته العسكريّة يوم جئت في العاشر من شباط ١٩٨٦ إلى بيروت، فبكركي، حيث زرت للمرّة الأولى المطران إبراهيم ، وقضيت لديه في الكرسي البطريركي ليلة، أفضى إليّ فيها المدبّر الرسولي بالكثير الكثير من هواجسه الداخليّة، وبالأخصّ تلك الّتي تسبّبت له بها الحروب الداخليّة بين أجنحة القوّات اللبنانيّة، والّتي ذهبت ضحيّتها من الفريقين المتناحرين مئات الضحايا البريئة، الّتي اضطرت المدبّر الرسولي إلى إرسال ذلك الكتاب الشهير الموجّه إلى المتقاتلين بعنوان «حرام يا شباب». وكان بتدخّله المباشر لوقف القتال قد طلب من الجيش اللبناني النزول إلى المجلس الحربي في الكرنتينا للعمل على فك الحصار، والخروج بالمحاصرين إلى زحلة والبقاع على ما أظنّ، وتلك الجماعة هي جماعة الياس حبيقة...

بينما كنت تلك الليلة في المقرّ البطريركي أستمع في القسم الأوّل منها إلى معاناة سيادته على كلّ صعيد في الداخل والخارج، تذكّرت معاناة بولس الرسول، الّتي راح يذكرها في إحدى رسائله... وتمنّيت عليه أن يظلّ حكمًا في مواجهة الأمور الوطنيّة والكنسيّة الّتي تعرض لها، كما وإنّي نصحته بعدم قطع علاقته حتّى مع من يعتبرهم مقاتلين، خوفًا من أن يرتدّوا عليه أو أملًا بأن يردّهم إلى الصواب، إلى الطريق المستقيم. ولن ينسى أو يغيب عن بال القارئ اللبيب الّذي يقرأني اليوم بعد مرور عشرين سنة على تلك الأحداث، أنّ الأحوال قد تطوّرت بشكل رئيسي وسريع، وبتنا ننظر إليها بمنظار يختلف كليًّا عن ذلك الّذي كان ينظر به إليها آنذاك.

قضيت ما بقي من تلك الليلة في بكركي وفي الصباح عند الساعة السابعة شاركت سيادته في القدّاس الإلهي، وتناولت طعام الفطور معه، وطلب منّي أن أمرّ على دير المسيح الملك لزيارة الخوري أنطون فرج، الّذي يعاني من شيخوخة متقدّمة مثقلة بالمرض الّذي

حمله معه من خدمة الرعايا، في ما يسمّى الوادايا، أي دير دوريت ووادي بنحليه وسرجبال، تلك الرعايا الّتي قضى حياته الكهنوتيّة في خدمتها إلى أن أقعده المرض، وسلخه التهجير المرّ عنها سلخًا.

عندما وقفت أودّع سيادته في مكتبه الخاص، دخل علينا شاب راح يرجو بإلحاح سيادة المطران إبراهيم الحلو لكي يستقبل الدكتور سمير جعجع، ولو لمدّة قصيرة، لكنّ سيادته كان يرفض بالرغم من إلحاح الشاب الّذي يقوم بزيارته. وخرج الشاب مزوّدًا برفض كلّي، وبعد أن خلا المكتب لنا نحن الإثنين سألت سيادته عن اسم الشاب الزائر، فعرّفني به، وعن الشاب الراغب في القيام بزيارة لسيادته دون أن يلقى تجاوبًا من قبل سيادته فعلمت أنّه هو الدكتور سمير جعجع الّذي تسبّب بمجزرة بشريّة رهيبة، ذهب فيها مئات الشبان ضحايا بريئة من العائلات المسيحيّة الّتي كانت مؤيّدة لخصمه الحالي، وحليفه السابق الياس حبيقة. وعلى سبيل الإيضاح عن فظاعة الجرائم المرتكبة، قال لي سيادته، جاءتني أمس البارحة بعد المجزرة البشريّة الّتي وقعت بين الفريقين أمّ مسيحيّة مارونيّة تبكي وتنوح وتولول على باب البطريركيّة، تطلب النجدة والمعونة والانتقام لأنّ ولديها الشابين أرديا برصاص قوّات السيّد جعجع المذكور، على حائط في إحدى ساحات المنطقة الشرقيّة في مدينة بيروت. وهذا مثال من عدّة أمثلة بالعشرات والمئات، الّتي وقعت ضحيّة الغدر والأنانيّة، وحبّ الاستئثار بالقرار في وطن سادت فيه شريعة الغاب بلا حسيب ولا رقيب.

بعد دقائق وصلت سيّارة العقيد عبد الكريم المقداد لتقلّني إلى صيدا فودّعت الدار البطريركيّة، وبعض من فيها إلى دير المسيح الملك، لرؤية الخوري أنطون فرج الذي يتقلّب على سرير الوجع الجسدي، الّذي زوّدته به شيخوخة مهيبة، وحياة كهنوتيّة مليئة بجليل الأعمال والخدمات الصامتة، في تلك الرعايا. لقد حفظت له «الوادايا» أجمل الذكريات، وضمنت له على ما أظنّ بثقة وطمأنينة جزاء الكهنة الأبرار الصالحين لدى الربّ المسيح الملك، الّذي كان يرى وجهه على وجوه الصغار والكبار في تلك «الوادايا»، الّتي يذكره ساكنوها بالخير والمحبّة والصلاح. وبعد أن تزودت بدعائه، ودّعته عائدًا إلى صيدا وفي قلبي وعقلي هموم ومخاوف حول المستقبل الّذي ينذر بالأخطار.

عدت إلى صيدا كما كنت قد غادرتها في سيّارة العقيد المقداد وبرفقته لأنّ الطريق بين بيروت وصيدا لم تكن سالكة وآمنة بالنسبة إلى المسيحيّين. فالحواجز في المنطقة

الغربيّة كانت ترصد مرور المسيحيّين، كما أنّ حواجز القوّات الاشتراكيّة كانت توقف الرّكاب المسيحيّين، فتخطفهم كما فعلت بالكثيرين وبابنة الخوري جرجس روفايل كاهن رعيّة عقتنانيت، أو تمنعهم من متابعة سفرهم إلى بيروت أو منها، وعلى سبيل المثال لا الحصر جاءتني يومًا إلى المطرانيّة امرأة من صربا في الستّين من عمرها شاكية باكية، لأنّ الحاجز الاشتراكي في جدرا قد منعها من متابعة سفرها إلى بيروت لرؤية أولادها، فوصلت إلى المطرانيّة تخبر عمّا قالوا لها، إذ خيّروها بين العودة إلى بيتها وحجزها لديهم. وبالطبع آثرت العودة. ولما أخبرتني قلت لها الحمد لله على سلامتك عودي إلى بيتك في صربا وكان الله مع المحسنين. وهنالك أمثلة كثيرة من هذا النوع من التصرّف مع المسيحيّين القادمين من بيروت إلى الجنوب أو بالعكس دون التمييز بين كبير وصغير أو بين رجل وإمرأة.

بعد يومين من رجوعي من بكركي اتّصل بي حضرة الخوري جبرائيل الفغالي الّذي كان قد غادر مركزه في المطرانيّة خلال حرب شرقي صيدا، وسألني عمّا إذا كنت مستعدًّا إلى أن أستقبله في صيدا فأجبته: البيت بيتك وما لي في المطرانيّة أكثر ممّا لك. وفي اليوم التالي، وصل إلى المطرانيّة في صيدا هو والخوري طانيوس الخوري، الّذي كان قد غادرها أيضًا في تلك الحرب، قاصدًا مستشفى الجعيتاوي في بيروت لإجراء عمليّة ديسك. وإذ وصلا إلى المطرانيّة في صيدا وأخذا بعض الراحة جاء الخوري طانيوس يقول لي: «أنا أريد أن أصعد إلى جزّين لمساعدة الخوري ريمون عيد، خوري الرعيّة، الّذي يكثر عليه الشغل وهو وحده، فلم أرفض له هذا الطلب. وتابع طريقه إلى جزّين ولم يبت ليلته في صيدا.

أمّا الخوري جبرائيل الفغالي الّذي بقي معي في صيدا، فقد صعب عليه التكيّف مع ذاك الجوّ القلق المضطرب، وراح يقضي نهاره بين غرفته والكنيسة، والتمشّي ذهابًا وإيابًا في الممشى بين المطرانيّة والكنيسة. فلاحظت ذلك عليه وحاولت أن أخفّف عنه من ذاك الاضطراب فأخرجت من المستودع طاولة زهر قديمة، وسألته إذا كان يعرف أن يلعب، فأجاب بالإيجاب. فرحت أقضي بعض الوقت الحرّ لديّ، ألعب معه في طاولة الزهر وكان دومًا يخرج منتصرًا، لأنّه كان يتقن تلك اللعبة بخلاف ما كنت عليه.

تلك التسلية كنّا نعود إليها في أوقات فراغي ليلًا أو نهارًا، وكنت أخرج منها مهزومًا، لأنّني كنت طريّ العود، غير خبير بتلك اللعبة الّتي ما قصدت فيها الربح بل إحراج الخوري

حمله معه من خدمة الرعايا، في ما يسمّى الودايا، أي دير دوريت ووادي بنحليه وسرجبال، تلك الرعايا الّتي قضى حياته الكهنوتيّة في خدمتها إلى أن أقعده المرض، وسلخه التهجير المرّ عنها سلخًا.

عندما وقفت أودّع سيادته في مكتبه الخاص، دخل علينا شاب راح يرجو بإلحاح سيادة المطران إبراهيم الحلو لكي يستقبل الدكتور سمير جعجع، ولو لمدّة قصيرة، لكنّ سيادته كان يرفض بالرغم من إلحاح الشاب الّذي يقوم بزيارته. وخرج الشاب مزوّدًا برفض كلّي، وبعد أن خلا المكتب لنا نحن الإثنين سألت سيادته عن اسم الشاب الزائر، فعرّفني به، وعن الشاب الراغب في القيام بزيارة لسيادته دون أن يلقى تجاوبًا من قبل سيادته فعلمت أنّه هو الدكتور سمير جعجع الّذي تسبّب بمجزرة بشريّة رهيبة، ذهب فيها مئات الشبان ضحايا بريئة من العائلات المسيحيّة الّتي كانت مؤيّدة لخصمه الحالي، وحليفه السابق الياس حبيقة. وعلى سبيل الإيضاح عن فظاعة الجرائم المرتكبة، قال لي سيادته، جاءتني أمس البارحة بعد المجزرة البشريّة الّتي وقعت بين الفريقين أمّ مسيحيّة مارونيّة تبكي وتنوح وتولول على باب البطريركيّة، تطلب النجدة والمعونة والانتقام لأنّ ولديها الشابين أرديا برصاص قوّات السيّد جعجع المذكور، على حائط في إحدى ساحات المنطقة الشرقيّة في مدينة بيروت. وهذا مثال من عدّة أمثلة بالعشرات والمئات، الّتي وقعت ضحيّة الغدر والأنانيّة، وحبّ الاستئثار بالقرار في وطن سادت فيه شريعة الغاب بلا حسيب ولا رقيب.

بعد دقائق وصلت سيّارة العقيد عبد الكريم المقداد لتقلّني إلى صيدا فودّعت الدار البطريركيّة، وبعض من فيها إلى دير المسيح الملك، لرؤية الخوري أنطون فرج الذي يتقلّب على سرير الوجع الجسدي، الّذي زوّدته به شيخوخة مهيبة، وحياة كهنوتيّة مليئة بجليل الأعمال والخدمات الصامتة، في تلك الرعايا. لقد حفظت له «الودايا» أجمل الذكريات، وضمنت له على ما أظنّ بثقة وطمأنينة جزاء الكهنة الأبرار الصالحين لدى الربّ المسيح الملك، الّذي كان يرى وجهه على وجوه الصغار والكبار في تلك «الودايا»، الّتي يذكره ساكنوها بالخير والمحبّة والصلاح. وبعد أن تزودت بدعائه، ودّعته عائدًا إلى صيدا وفي قلبي وعقلي هموم ومخاوف حول المستقبل الّذي ينذر بالأخطار.

عدت إلى صيدا كما كنت قد غادرتها في سيّارة العقيد المقداد وبرفقته لأنّ الطريق بين بيروت وصيدا لم تكن سالكة وآمنة بالنسبة إلى المسيحيّين. فالحواجز في المنطقة

الغربيّة كانت ترصد مرور المسيحيّين، كما أنّ حواجز القوّات الاشتراكيّة كانت توقف الركّاب المسيحيّين، فتخطفهم كما فعلت بالكثيرين وبابنة الخوري جرجس روفايل كاهن رعيّة عقتنانيت، أو تمنعهم من متابعة سفرهم إلى بيروت أو منها، وعلى سبيل المثال لا الحصر جاءتني يومًا إلى المطرانيّة امرأة من صربا في الستّين من عمرها شاكية باكية، لأنّ الحاجز الاشتراكي في جدرا قد منعها من متابعة سفرها إلى بيروت لرؤية أولادها، فوصلت إلى المطرانيّة تخبر عمّا قالوا لها، إذ خيّروها بين العودة إلى بيتها وحجزها لديهم. وبالطبع آثرت العودة. ولما أخبرتني قلت لها الحمد لله على سلامتك عودي إلى بيتك في صربا وكان الله مع المحسنين. وهنالك أمثلة كثيرة من هذا النوع من التصرّف مع المسيحيّين القادمين من بيروت إلى الجنوب أو بالعكس دون التمييز بين كبير وصغير أو بين رجل وإمرأة.

بعد يومين من رجوعي من بكركي اتّصل بي حضرة الخوري جبرائيل الفغالي الّذي كان قد غادر مركزه في المطرانيّة خلال حرب شرقي صيدا، وسألني عمّا إذا كنت مستعدًّا إلى أن أستقبله في صيدا فأجبته: البيت بيتك وما لي في المطرانيّة أكثر ممّا لك. وفي اليوم التالي، وصل إلى المطرانيّة في صيدا هو والخوري طانيوس الخوري، الّذي كان قد غادرها أيضًا في تلك الحرب، قاصدًا مستشفى الجعيتاوي في بيروت لإجراء عمليّة ديسك. وإذ وصلا إلى المطرانيّة في صيدا وأخذا بعض الراحة جاء الخوري طانيوس يقول لي: «أنا أريد أن أصعد إلى جزّين لمساعدة الخوري ريمون عيد، خوري الرعيّة، الّذي يكثر عليه الشغل وهو وحده، فلم أرفض له هذا الطلب. وتابع طريقه إلى جزّين ولم يبت ليلته في صيدا.

أمّا الخوري جبرائيل الفغالي الّذي بقي معي في صيدا، فقد صعب عليه التكيّف مع ذاك الجوّ القلق المضطرب، وراح يقضي نهاره بين غرفته والكنيسة، والتمشّي ذهابًا وإيابًا في الممشى بين المطرانيّة والكنيسة. فلاحظت ذلك عليه وحاولت أن أخفّف عنه من ذاك الاضطراب فأخرجت من المستودع طاولة زهر قديمة، وسالته إذا كان يعرف أن يلعب، فأجاب بالإيجاب. فرحت أقضي بعض الوقت الحرّ لديّ، ألعب معه في طاولة الزهر وكان دومًا يخرج منتصرًا، لأنّه كان يتقن تلك اللعبة بخلاف ما كنت عليه.

تلك التسلية كنّا نعود إليها في أوقات فراغي ليلًا أو نهارًا، وكنت أخرج منها مهزومًا، لأنّني كنت طريّ العود، غير خبير بتلك اللعبة الّتي ما قصدت فيها الربح بل إخراج الخوري

جبرائيل من القلق والاضطراب الّذي كان يعيش فيه. وما كانت الأخبار الّتي كانت ترد من هنا وهناك إلّا لتزيد من قلقنا وهمومنا اليوميّة، الّتي كانت خبزنا الّذي ما زادنا إلّا تمسّكًا بالصمود، شهادة مقبولة أمام الربّ على ما أرجو للرسالة الّتي ائتمنّا عليها وحاولنا أن نقوم بها في كلّ الظروف والمخاطر الّتي عشناها. وكانت للخوري جبرايل جولة من لعب طاولة الزهر مع سعادة الشيخ حليم فيّاض محافظ الجنوب، الّذي كان في زيارة إلى المطرانيّة تعوّدنا فيها على لطفه وعلى دماثة خلقه، وإذ علم أنّ الخوري جبرايل المذكور، يجد في لعبة الطاولة تسلية مرموقة، ويرغب دومًا في مبارزة اللاعبين الكبار، جئتهم بالطاولة بعد الغداء، وبدأا اللعب ونحن حولهم. وإذ اشتدّ الضغط على الخوري جبرايل أحبّ أن يتجاوز أصول اللعب بسرعة، لكنّ خصمه كان له بالمرصاد. ولم تخف عليه محاولة للتخلّص فاشلة قال وهو ينظر إليه مبتسمًا بلطفه المعهود: «الأبونا حاول أن يغلط، بسيطة»، وعاد خصم الشيخ حليم عن غلطه وتابعا اللعب بسلام وارتسمت بسمة على شفاهنا نحن الّذين كنّا نتفرّج على اللعب ونسمع ما يقال، دون أن يصدر عن الحاضرين أيّ تعليق.

ولي كلمة عن الأب الحبيب جبرايل الفغالي، ابن بلدة فغال البار وابن أبرشيّة السيّد البطريرك، فمنذ أن ارتسم كاهنًا، أرسله غبطة السيّد البطريرك أنطون عريضة سنة ١٩٤٣ إلى العمل في جديدة مرجعيون، وسائر الرعايا المارونيّة، كحاصبيّا وراشيّا الفخّار ودير ميماس، وحيثما وُجِد ماروني، كان ينتقل إليه يتفقّده، إمّا سيرًا على قدميه، أو ممتطيًا ظهر جواد، متحمّلًا حرّ الصيف وقرّ الشتاء، شاهدًا للمسيح، تاركًا حيث مرّ وخدم ذكرًا طيّبًا. وبقي هكذا إلى أن أصيب بوعكة صحيّة، أبلّ منها والحمد لله، إنّما تركت في جسمه أثرًا، اضطرته إلى أن يجيء إلى المطرانيّة يقيم فيها، متعاونًا مع الجميع في تأدية الخدمات الروحيّة في ظروف الحرب الصعبة. ولكن غبطة أبينا السيّد البطريرك نصر الله صفير وقد أصبحت رعية الخوري جبرايل فغال الأساسيّة، مسقط رأسه بحاجة إلى كاهن يخدمها، فقد طلب منه أن يترك أبرشيّة صيدا وينتقل إلى خدمتها، فلبّى الخوري جبرايل الطلب ليخدم في مسقط رأسه بين أهله وذويه، تاركًا في مصفّنا الكهنوتي الصيداوي أطيب الذكريات وأحبّها إلى قلوب عارفيه من الكهنة والعلمانيّين. أمدّ الله بعمره وجزاه خيرًا عن كلّ عملٍ خير بذله خدمة للنفوس في هذه الأبرشيّة الّتي وقف معظم سنوات كهنوته في خدمتها.

الفصل العاشر

استئناف مسلسل المآسي

في شهر حزيران من السنة ١٩٨٥ جاءني إلى المطرانيّة في صيدا الخوري طانيوس أبو صالح خادم رعيّة صربا في الجنوب قضاء النبطيّة وأطلعني خطيًّا على تصرّفات المهجّرين الشيعة القادمين إلى صربا من منطقة جبل الريحان ومن الجنوب الأقصى ومن بيروت العاصمة فقال:

عندما وصلوا إلى ضيعتنا استقبلناهم على الرحب والسعة، وفتحنا لهم أبواب البيوت الّتي غادرها أصحابها إلى بيروت والمناطق الشرقيّة منها. ويا للأسف لم يحسنوا التصرّف بل ناصبونا كلّ عداءٍ، فراحوا ينهبون ويسرقون كلّ ما تصل إليه أيديهم من البيوت والحقول حتّى راحوا يسرقون الدجاج والغنم والماعز، الّتي كان في دور المالكين يربطونها في دورهم، وهاجموا المنازل المأهولة ليلًا بحجّة التفتيش عن الأسلحة، حتّى كانوا يضعون الأهالي خارج بيوتهم ويسرقون كلّ ما يقع تحت أيديهم من مأكول ومشروب ومال وحلى، قد خبّأها أصحابها في الخزانات، وطلبوا منّي أن أعطيهم مفتاح الكنيسة بحجّة التفتيش عن الأسلحة. وعندما رفضت حاولوا خلع الباب، حينذاك سلّمتهم المفتاح وبالطبع لم يجدوا ما كانوا يبحثون عنه، لأنّنا ما جعلنا قطّ الكنيسة مخبأً للسلاح. دنّسوا المقابر وخلعوا أبوابها، وأخرجوا منها التوابيت وعظام الموتى، وعرضوها على الطريق العام، وإذا مرّ موكب جنائزي سخروا منه، وأرسلوا بفتيان من جماعتهم يضحكون ويهزأون. إعترضنا أمام المسؤولين منهم فلم يلقَ اعتراضنا نفعًا، وكانوا يردّدون أمامنا بكلّ وقاحة: «أشكروا ربّكم واحمدوه لأنّنا لم نهدم بيوتكم، وكنائسكم، ولم نطردكم من بلدتكم كما فعل الآخرون بأمثالكم، في قرى شرقي صيدا وفي مناطق الشوف».

ومع أنّ للجيش اللبناني مركزًا في صربا، ولمّا كنّا نذهب إلى المسؤول ونشكو أمرنا إليه كان يجيب: «لا نستطيع أن نعمل شيئًا. حرّمت علينا السلطة التدخّل لوضع حدّ لتلك التصرّفات الّتي تشكو منها».

شكا أبونا طانيوس كذلك من بعض العناصر الّذين منعوه من الانتقال إلى رعيّة عزّة لكي يقوم فيها بالقدّاس الإلهي يوم الأحد، وأنّ ما يجري في صربا كان أمرًا عاديًا لباقي القرى الّتي سيطرت عليها حركة أمل ولم تحترم فيها ممتلكات أهاليها الّتي جمعوها على مدى سنوات. وبذلوا في سبيل جمعها وصيانتها دم القلب وعرق الجبين.

خطف الخوري فادي سركيس

ومن التصرّف اللاأخلاقي الّذي قام به مسؤولو حركة أمل في بلدة المعمريّة، أنّ عناصر من الحركة أقدمت على اختطاف كاهن الرعيّة الخوري فادي سركيس، ووضعته في صندوق السيّارة، وأشبعته ذلًا وهوانًا، فقام الأهالي واتّصلوا بالمطران إبراهيم راعي الأبرشيّة، كما جرت اتصالات بالمسؤولين الكبار عن الحركة، أدّت في النهاية إلى تحرير الأب فادي من قبضتهم وإعادته إلى الرعيّة بعد أن أشبعته إهانات. أمّا أنا فقد كنت في دير القمر أقوم مقام خادم الرعيّة الراهب المريمي الأب الياس ضو الّذي لم يعد مرغوبًا في بقائه في دير القمر بعد أن وجّه انتقادًا لاذعًا إلى الحزب الاشتراكي بسبب تصرّفاته مع الأهالي. وإذ عدت لساعات معيّنة إلى المطرانيّة وعلمت بما جرى للأب فادي، صعدت إلى المعمريّة، وكان لي لقاء مع مسؤول الحركة الذي لم أوفّره فيه من انتقاداتي القاسية لتصرّفه العاطل مع الأب فادي، بحضور إثنين أو ثلاثة من أبناء الرعيّة المذكورة. وهكذا فإنّ تلك التصرّفات غير المقبولة تعدّت المؤمنين العلمانيّين الساكنين في بيوتهم إلى خادم الرعيّة الذي أبى أن يتركها ويلجأ إلى المطرانية أو يستأذن المطران ويروح إلى حيث الأمان موفور والسلام مؤمّن.

لقاء مع مسؤولي الحركة في الزهراني

حاولت الحركة الاجتماع بالأرشمندريت سليم الغزال والمحامي الأستاذ جورج فرنسيس في بلدة «إركيْ» في الزهراني، وأرادت أن أكون معهم. إجتمعنا في أحد البيوت وضمّ الاجتماع إلينا نحن الثلاثة نائب رئيس المجلس الشيعي الأعلى الشيخ عبد الأمير قبلان، والسيّد محمود فقيه الرئيس الإقليمي للحركة وأعضاء آخرين للحركة، ودام الاجتماع أكثر من ساعتين، أفضى كلّ منّا بما في قلبه، وعلى لسانه دون زيادة ولا نقصان، دون أن نوفّر أحدًا، لأنّنا كنّا قد استوعبنا الكثير من الشكاوى الّتي وصلتنا من أبناء رعايانا،

وكنّا نتمنّى لو عرضناه على المسؤولين على أمل الحصول على بعض التطمينات أو العمل على الحدّ من تلك التصرّفات الشاذّة بحقّ المسيحيّين. وهنا يجب الاعتراف بأنّهم كانوا على رحابة صدرهم واستعدادهم لسماع شكاوينا، يشجّعوننا على الإدلاء بصراحة وجرأة بكلّ ما لدينا في هذا المجال. وممّا قاله الشيخ المذكور بشأن عودة المهجّرين إلى قراهم والإقامة فيها إن بلدة المجيدل قضاء جزّين لم تستعد كلّ سكّانها، وأهاليها حتّى إذا ظلّوا ممتنعين عن الرجوع إليها فنحن على استعداد لأن نعمل من كنيستها الجميلة حسينيّة يستعملها أبناؤنا الشيعة. إذّاك وما كان منّي إلّا أن أجبته للحال بلهجة ضاحكة «طويلة كتير فضيلة الشيخ»، واستقبل الجميع جوابي ضاحكين. وكان الجواب على قساوته مقبولًا بالضحك. وبعد أن أفرغ كلّ منّا ما كان في جعبته دعينا إلى تناول الغداء معهم في البيت المذكور فلبّينا الطلب شاكرين. وهكذا انصرفنا بعد الغداء في السيّارة الّتي يقودها المحامي جورج فرنسيس، ورحنا نتساءل كيف أنّنا في حديثنا معهم قلنا بصراحة كليّة ما يشكو منه المسيحيّون في مناطقهم. وبعد هذه الصراحة وعدنا المجتمعون خيرًا كما طمأنونا إلى إرسال تنبيهات مشدّدة وحازمة إلى جماعتهم باحترام حقوق المسيحيّين، ومقدّساتهم، وعدم التعرّض لها وإلّا عرّضوا أنفسهم لعقاب شديد.

صدام الفلسطينيين وحركة أمل

ليل الحادي والثلاثين من تشرين الأوّل من سنة ١٩٨٦، تجدّدت المعارك بين المخيّمات الفلسطينيّة والقوّات الأخرى، وفي تلك الليلة المشؤومة خرج الفلسطينيّون المسلّحون من مخيّماتهم في الميّة وميّة وعين الحلوة فانكفأ مسلّحو أمل في ثلاث قرى مسيحيّة: عين الدلب، والقريّة، ومغدوشة، حيث كانوا متواجدين منذ ما يقارب التسعة عشر شهرًا. وجرت معارك بينهم وبين الفلسطينيّين دامت تسعة عشر يومًا. ثم ساد هدوء نسبي، وراح المتقاتلون يعملون جهدًا كبيرًا ويقدّمون وعودًا خلّابة لاكتساب ثقة المواطنين المقيمين وعطفهم. وأخذ بعض الصحف ينشر الأخبار عن أنّ الفلسطينيّين بدأوا يستميلون الأقليّة المسيحيّة إليهم، فكان لهذه الأخبار الملفّقة وقع سيّء على الأوساط الشيعيّة، الّتي راحت تنظر بكثير من الحذر إلى المسيحيّين الّذين ما زالوا مقيمين في قراهم بعدد قليل تحت رحمة المسلّحين ما دامت الدولة غائبة أو عاجزة عن حمايتهم.

لقاءٌ مثير في القريّة

أذكر أنّني يوم كنت في بلدة القريّة أقدّم التعازي بوالدة خوري الرعيّة الخوري بطرس شلهوب، وأشارك في مأتمها، وكان بين الحضور جماعة فلسطينيّة، قال لي رئيسها أمام الحاضرين: «أبونا حلو نحن هنا على علاقة طيّبة بالإخوان المسيحيّين وهم في أمان ونحن في الخدمة». أمام هذا الكلام لم أتمالك من أن أجيب على ذلك العرض المبطّن الخبيث: «دعهم في بيوتهم وأرزاقهم واتركهم لأنّهم ليسوا بحاجة إليكم...» حينذاك وقف خوري الرعيّة وقال: «أبونا صار وقت الصلاة تفضّل...» ولم يسكت الفلسطيني فأردف قائلًا: «أبونا نريد أن نكمل الحديث معك»، فأجبت: «الآن صار وقت الصلاة على الفقيدة، فإذا أردت متابعة الحديث فأهلًا وسهلًا بك في دار المطرانيّة في صيدا بدءًا من يوم غد...» فلم أعد أرى لذلك الفلسطيني وجهًا، إنّما زارني في اليوم التالي أبونا بطرس شلهوب خادم رعيّة القريّة قائلًا لي: «نحن نخاف من أن ينتقموا منّا.» فأجبته: «ضع مسافة بينك وبينه، ولا تتكل على أحد من الطرفين، لأنّك بذلك تستعدي الطرف الآخر.»

نجت مغدوشة من معركة أذار نيسان ١٩٨٥، لكنّها وقعت ضحيّة معركة أخرى نشبت بين الفلسطينيّين وحركة أمل الشيعية، ولم يجد المتحاربون أرضًا أكثر خصبًا وأقل كلفة للطرفين المتحاربين من بلدة مغدوشة. أهاليها وسكّانها مسيحيّون أكثريّتهم من طائفة الروم الكاثوليك، وبينهم أقليّة من الموارنة يبلغ عدد عائلاتهم المائة عائلة تقريبًا، كما أنّ بعض العائلات الشيعيّة الّتي هربت من جحيم الحرب اللبنانيّة في ضواحي مدينة بيروت وجدت لها إقامة طيّبة في مغدوشة.

في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٨٦، اندلعت شرارة الحرب فيها. إذ كانت قد تمركزت في مغدوشة حركة أمل منذ أن انسحبت إسرائيل من المنطقة، فقبل السكّان المسيحيّون بذلك الحضور الشيعي المسلّح الّذي لم يخلُ حضوره من بعض ممارسات ومداهمات ليل نهار للبيوت المسيحيّة بحثًا عن سلاح أو عن مواطن متّهم بالتعاطي مع إسرائيل. أمام هذا التصرّف غير المقبول، ترك بعض المسيحيّين بيوتهم إلى بيروت ولربّما إلى خارج لبنان. وهنا وجبت الإشارة أنّ مغدوشة ليست تلّة استراتيجيّة وموقعًا مشرفًا على الساحل والجبل كما

يدّعي المتحاربون فوق أرضها، بل هي مركز مسيحي له أهمّيّته، وفيها مغارة سيّدة المنطرة، والتمثال الّذي يعلو إلى جانب المغارة، وإليها يحجّ المسيحيّون والمسلمون تبرّكًا بالمكان الّذي أقامت فيه العذراء تنتظر السيّد المسيح لدى زيارته لمدينة صيدا.

معركة مغدوشة بين الفلسطينيّين وحركة أمل عرفت كلّ أنواع الأسلحة، ثقيلة وخفيفة، وسقطت ضحايا بريئة بين السكّان، وظلّت جثث المواطنين أيّامًا وليالي على الطرقات وفي البيوت دون أن يتمكّن أحد من دفنها. في إحدى الليالي اتّصل بي الموفد البابوي إلى جزّين الأب بوهيغاز، يسألني عمّا إذا كنت أعرف شيئًا عن الخوري سابا داغر خادم رعيّة مغدوشة، الّذي قيل له بأنّه قد استشهد في البلدة وأراد أن يتحقّق الخبر. وبما أنّي فوجئت بذاك السؤال، اتّصلت للحال بالسيّد محمّد فقيه أحد المسؤولين المحليّين في حركة أمل للتأكّد من الخبر، فأجابني بعد دقائق بأنّه لا يزال حيًّا، وهو قد أخذ على مسؤوليّته نقله إلى العدّوسيّة، إلى حيث نزح قسم من أبناء مغدوشة، فشكرته وهكذا أبلغت الخبر إلى الأب بوهيغاز في جزّين. أمّا الأب داغر فقد قضى وقتًا قصيرًا في العدّوسيّة يومًا وليلة، ومنها انتقل إلى مطرانيّة الروم الكاثوليك في صور، ثم جاء إلى دار العناية في الصالحيّة حيث زرته بعد أيّام، وتحدّث بإسهاب عن معاناة أهالي مغدوشة.

ماذا كان موقفنا من حرب مغدوشة؟

لم يكن لنا في تلك الحرب العبثيّة إلّا أن نحاول الحدّ من ضراوتها من خلال الاتّصالات الّتي أجريناها على كلّ صعيد، آملين في أن نصل إلى التخفيف ممّا يعانيه المواطنون. لقد حاولت كاريتاس جاهدة أن تقدّم موادًا غذائيّة إلى المحاصرين بواسطة متطوّعين تتقدّمهم الأخت عيدا يزبك المساعدة الاجتماعيّة في الإقليم، متّخذة طريقها إلى بلدة الغازيّة ومنها إلى أعالي مغدوشة، فحي المطيريّة حيث كانت تصل إلى أطراف مغدوشة الشرقيّة، وتمدّهم بالمساعدة، وما كانت مغامرتها لتخلو من الخطر، وأحيانًا كثيرة كانت حواجز أمل تحاول منعها من الوصول إلى الأطراف دون أن تحدّ من عزيمتها، فتقضي وقتًا طويلًا لإقناع المسلّحين على الحاجز بالسماح لها بإدخال المساعدات الغذائيّة إلى البقيّة الباقية.

أمّا نحن فقد قرّرنا أن ننقل صورة عن ذاك الوضع المأسوي إلى السلطات الدينيّة العليا وعلى هذا الأساس قمت أنا والأرشمندريت سليم الغزال والدكتور ميشال موسى والدكتور اسكندر الحاج بزيارة البطريركيّة المارونيّة في بكركي والمطران إبراهيم الحلو في دير المسيح الملك والسفارة البابويّة في حريصا، وبطريركيّة الروم الكاثوليك في الربوة وأطلعنا الجميع على حقيقة الوضع في مغدوشة والمنطقة. وعدنا مساءً إلى صيدا مزوّدين بالبركات والتوجيهات، وشكًا ماليًا تسلّمه الأب غزال من الأب بوهيغاز في السفارة البابوية بحريصا.

طوال المحنة القاسية الّتي عاشتها مغدوشة، لم يبقَ من أبنائها سوى سبعة وعشرين شخصًا ومن بينهم المختار وزوجته وهو رجل متقدّم في السنّ، وكانت كاريتاس تحمل إليهم في أوقات معيّنة ما يلزم من قوت وكسوة ودواء. وغالبًا ما كان حاجز حركة أمل يحاول منع الدخول إلى البلدة، ولم يكن هذا المنع يفتّ من عزم الراهبة ومن يرافقها. فأخبرتنا أنّها في إحدى المرّات وقفت على الحاجز ساعة بعدما منعوها من الدخول إلى مغدوشة، فلم تتراجع ولم تيأس إلى أن سُمح لها بالدخول.

بعد أن توقّفت المعركة جرى نزوح عارم عن مغدوشة حتّى أنّ النازحين كانوا ينقلون أمتعتهم في شاحنات صغيرة، وينزلونها في دار المطرانيّة المارونيّة في صيدا، أو في ساحة مدرسة راهبات مار يوسف الظهور، لكي ينقلوها في شاحنات كبيرة إلى بيروت الشرقيّة، مرورًا على طريق المتحف، حيث كان الترحيب بهم من قبل القوّات اللبنانيّة يشجّعهم على سلوك تلك الطريق، وعلى شحن ما كانوا يملكون من مقتنيات منقولة، لأنهم يئسوا من العودة إلى مغدوشة بعدما عاشوا فيها من مآسٍ.

يروى أنّ الشيخ ماهر حمّود من صيدا لمّا دخلت جماعته ظافرة إلى مغدوشة أقام صلاته أمام كنيسة الرعيّة، ولكن الأخت عيدا يزبك الّتي بقيت مواظبة على زيارة البقيّة الباقية من الأهالي في البلدة. وأرادت صباح يوم الأحد أن تدعو النّاس إلى الكنيسة، لحضور القدّاس الّذي قام به الأب جوزف نصّار اليسوعي، لبّاها الحاضرون في البلدة، وبعد الانتهاء من القدّاس وخروج النّاس من الكنيسة، وصعدت إلى سيّارتها، جاءتها جماعة مسلّحة تنتمي إلى المهيمنين على مغدوشة تطالبها ببعض ما استودعت تلك الجماعة من داخل الكنيسة، من مثل آلات تسجيل، وميكرفون وما شابه ذلك. فأجابتها الأخت بأنّ ما كان

في الكنيسة هو ملك للكنيسة، ولا شأن لأحد أيًّا يكن به. فما كان من أحد المسلّحين إلّا أن أطلق النّار على إطارات السيّارة الأربعة، والأخت في داخلها فلم تتحرّك من مكانها، وبقيت داخلها بالرغم من كلّ ما وجّهوا إليها من تهديد ووعيد. وأبت الأخت النزول قبل أن تصلّح عجلات السيّارة. وصار أخذ وردّ ونزول وصعود من صيدا، والأخت متشبّثة بتلك السيّارة، لا تتزحزح منها قيد شعرة.

في المساء حوالي الساعة السابعة، عدت من دير القمر من جنّاز الرئيس كميل شمعون، فلقيني على الباب الخارجي العشّي المدعو سمعان، وكان قلقًا مضطربًا، وأخبرني بما جرى في ذلك النهار، فرحت إلى المكتب وطلبت هاتفيًّا الشيخ ماهر حمّود وسألته بإلحاح أن يرسل من جماعته أفرادًا، ويعتذرون من الأخت عيدا ويقدّمون لها سيّارة تجيء بها إلى صيدا، ثمّ يقومون بإصلاح إطاراتها في اليوم التالي، وهكذا صار. وانتهت المشكلة الّتي دامت ساعات النهار وانتهت بسقوط الليل على المدينة وأهاليها.

قبل أن أنهي الحديث عن مغدوشة ومأساتها، أرى أنّه من الضروري نقل حادثتين: الأولى، جاءني في يوم من الأيّام، والمعارك على أشدّها في مغدوشة، مجموعة من الإعلاميّين الأجانب يتكلّمون الفرنسيّة ومعهم ما يلزمهم لنقل حديث تلفزيوني منّي. رفضت تسجيل الحديث، وفرضت عليهم تسكير ما لديهم من آلات فانصاعوا للطلب، إذّاك طرحت عليّ إحدى الموجودات السؤال التالي: «في مغدوشة فئتان تتصارعان على أرضٍ مسيحيّة، وأنت لأيّة فئة تميل؟» جوابي كان: «أرفض كلّيًّا ما يدور من معارك على أرض مغدوشة البلدة المسيحيّة المسالمة. أمّا لمن أريد أن تكون الغلبة فللفريق اللبناني أريدها. ويا ليتك أيّتها السيّدة الكريمة لم تطرحي ذلك السؤال عليّ، لكنت حافظت على شيءٍ من الكرامة الّتي أضنّ بها عليك في هذه الظروف الصعبة هل للمذهبية حصة في المعارك؟»

الحادثة الثانية، كنّا نتعاون في إرسال الأغراض إلى مغدوشة إبّان المعركة وبعدها مع «أبو طلال» وهو سائق بيك آب متقدّم في السنّ وكان مطواعًا جدًّا يلبّي طلباتنا بسرعة دون تردّد، بينما كان يرفض سواه الذهاب إلى مغدوشة من صيدا. وبينما أخذت أشكره قلت له: «أنت ما رفضت لنا طلب بينما سواك ما كان يلبّي طلباتنا»، فأجاب: «أنا شيعي مقيم في صيدا، أمّا السائق السنّي الصيداوي فإنّه يخشى ذلك...» وبعد سنة لبّى أبو طلال نداء ربّه وهو على سريره في البيت. رحمه الله وجزاه عنّا خيرًا.

ظلّت المعركة الدائرة في مغدوشة تشغل بالنا كثيرًا وليس لنا من سبيل إلى إيقافها. وإبّان المعركة في مغدوشة أرسلت نداء استغاثة في الصحف على الوجه التالي:

أيّها المتقاتلون في بلدة مغدوشة، من حيٍّ إلى حيّ، ومن بيت إلى بيت، وعلى قدمي سيّدة المنطرة، ألا تخافون الله؟ أيّ سوء فعلت لكم مغدوشة حتّى جعلتموها ساحة حرب وقتال، وحوّلتم بيوتها إلى ركام وأثاثها إلى رماد؟ أيّ سلاح شهرت بوجهكم سوى سلاح المحبّة والضيافة، حتّى بادرتموها بقصف مدافعكم وراجمات صواريخكم؟

بإسم العجوز، ابن التسعين، الملقى وحيدًا في زاوية من قبو بيّته، جائعًا عطشانًا، فريسة الهموم والأحزان، والبرد القارس، أقول لكم: ألا تخافون الله؟

بإسم الأمّ الّتي تتحرّق، خوفًا وهلعًا، على أطفالها الجياع، الصارخين بوجهها، ليل نهار، الهاربين إلى صدرها من لهيب النّار وأزيز الرصاص ودويّ المدافع، أقول لكم: أليس لكم أولاد؟ أليس لكم إخوة صغار؟ ألا تخافون الله؟

بإسم الجريح الّذي سقط برصاصة في بيته، أو بشظيّة من قنبلة أو تحت سقف تهدّم على رأسه، ولا من يغيثه بنقطة ماء أو بضمّادة يوقف بها نزف جرحه أو من ينقله إلى المستشفى... أقول لكم: ألا تخافون الله؟

بإسم الجريح الّذي لا يزال في ذمّتكم، والشهيد الّذي صار في ذمّة الله، أستصرخ ضمائركم أيّها المتقاتلون، أليس للموت حرمة عندكم؟ وللجريح بقيّة من رحمة في قلوبكم؟ بإسم الإنسانيّة الّتي عليها يلتقي كلّ إنسان، عدوًّا كان أم صديقًا، أسألكم: هل يجوز أن نبقي جثّة عجوز ملقاة أمام بيتها المحروق، أيّامًا وأيّامًا يتناوب على حراستها هررة البلدة وكلابها ولا يتمكّن المتطوّعون من دفنها؟ ألا تخافون الله؟

ألا أفسحوا مجالًا أيّها المتقاتلون، أمام الصليب الأحمر والدفاع المدني والمؤسّسات الإنسانيّة الّتي لم تتمكّن حتّى الساعة من دخول البلدة، لإغاثة الأحياء وإسعافهم، ودفن الموتى قبل فوات الأوان.

بإسم أهالي مغدوشة، المشرّدين في الحقول والبراري، حفاة، عراة، الهائمين على وجوههم، تحت جنح الظلام هربًا من جحيم المعركة، طلبًا لمأوى، ولا ذنب عليهم سوى أنّهم مسالمون، مضيافون، محبّون... ألا تخافون الله؟

إتّقوا الله أيّها المتحاربون، وعودوا إلى ضمائركم، وارفعوا سلاحكم عن مغدوشة البلدة الآمنة، الوادعة، ليعود أهلها وسكّانها إليها، ويجتمع شمل عيالهم في كنف سيّدة المنطرة الّتي، وإن تطاولت عليها الأيدي الملّطخة بدماء الأبرياء، لا تزال فاتحة ذراعيها للصفح والغفران.

٣٠ تشرين الثاني ١٩٨٦

بداية العودة إلى مغدوشة

ما دام في البلدة أناس لم يهجروها وإن كانوا قلّة، وما دامت الكنيسة حاضرة في كلّ مكان من المنطقة، فقد عملت رابطة كاريتاس قبل سواها، على إعادة المهجّرين، عملًا بما يلي: إذا أراد المهجّر أن يستفيد من تقدمات كاريتاس، عليه أن يعود فتؤمّن له كاريتاس ما يلزم من الضروري لترميم غرفة، وإثنتين مع حمّام، وقبل أن تعطى المساعدة عليه أن ينقل وظيفته إذا كان موظّفًا، مثلًا: أستاذ مدرسة أو موظّف في بنك أو شركة، أو عامل في محلّ، كان يُطلبُ تأكيد رسمي بأنّه التحق بوظيفته في المنطقة الّتي كان فيها سابقًا. وفي لقاءٍ ضمّ مندوبين عن خمس مؤسّسات أجنبيّة في مدرسة الفنون الأميركيّة في صيدا، وكان مندوب كاريتاس لبنان حاضرًا أيضًا، جرت مناقشة أسلوب إعطاء المساعدات للعائدين، وصار الاتّفاق بين الجميع على ألّا يعطى القسط الأوّل للعائد قبل المباشرة بإصلاح ما يلزم في البيت، لئلّا يذهب القسط الأوّل هدرًا ويستعمل لهدف آخر دون هدف العودة... وعلى هذا الأساس راحت المؤسّسات الإنسانيّة تتعاون بجديّة على إعادة تعمير وتأهيل البيوت في مغدوشة، حتّى أصبح عدد البيوت الّتي أعيد تأهيلها خلال صيف ١٩٨٧ مائة وعشرين منزلًا، تقيم في كلّ منزل عائلة بكاملها، أو قسم من العائلة الّتي اضطرّت سابقًا إلى التهجّر والتشرّد تحت كلّ سماء. وهنا بدأ أيضًا مجلس الجنوب، الّذي يرعاه الأستاذ نبيه برّي يوزّع مساعدات على الجنوبيّين المهجّرين لإعادة بناء البيوت أو ترميمها لقاء مبلغ معيّن

من المال، دون تخصيص مبلغ للكنائس الّتي تهدّمت كلّيًا أو جزئيًا، بعكس ما كان يجري في الشوف والجبل، حيث خصّت وزارة المهجّرين بيوت العبادة بقسط من المال ساهم في إعادة البناء والترميم. ولمّا أثرت في اجتماع عقد في وزارة المهجّرين قضيّة الكنائس في الجنوب وللأبرشيّة فيه أكثر من كنيسة، تهدّمت أو تعطّلت، ووجب بناؤها أو ترميمها من جديد، كان الجواب أنّ هذا الموضوع متعلّق بمجلس الجنوب، الّذي أعطي ميزانيّة خاصّة. وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى أنّ المساعدات الّتي أعطيت في الجنوب لبيوت العبادة المسيحيّة كانت عينيّة، دون سواها، كالترابة مثلًا، الّتي كانت تغدق بها سوريا على مجلس الجنوب، بشخص رئيس حركة أمل دولة الرئيس نبيه برّي الذي ما كان يقدّم تلقائيًا تلك المساعدات العينية إلّا بعد العودة إليه مباشرة... وفي ما يختصّ بالكنائس المارونية في الجنوب التابعة لأبرشية صيدا فلم تنل منها شيئًا واحدًا وكانت المساعدة تقتصر على بعض المواد العينية الزهيدة.

عندما يتكلّم المؤرّخون عن حرب مغدوشة تجدر الإشارة إلى العدد الضئيل من الأهالي الّذي بقي فيها، بالرغم من كلّ ما جرى، كان الخميرة الطيّبة الّتي ساعدت على عودة الآخرين الّذين رعتهم كاريتاس. وكانت بالمسؤولين من قبلها في صيدا الحصن الحصين في الدفاع عنها، وتقديم ما يلزم لترميم بيوتهم، بفضل التصرّفات الحكيمة الّتي رعت بها شؤونهم والوقوف بجانبهم، وإعادة فتح كنيسة الرعيّة لإقامة الواجبات الدينيّة فيها.

الحرب بين أمل وحزب الله

بعد أن انتهت الحرب بين أمل والفلسطينيين في مغدوشة، برزت حربٌ أخرى بين أمل وحزب الله في إقليم التفّاح الذي يضمّ سكّان يقارب عددهم الثلاثمئة ألف نسمة بينهم ستون ألف مسيحي موارنة وروم كاثوليك والباقون من الشيعة. ولا يعجب المتأمّل في تلك الحرب القائمة بين أفراد الطائفة عينها التي كما سمّاها أحد مخاتير الشيعة بأنها حرب المتاولة والشيعة. وقد تعوّدنا في لبنان خلال سنوات الحرب القذرة أن نرى حربًا بين أفراد العائلة الواحدة حتى أن الحزب الواحد ينقسم على ذاته حزبين وثلاثة ويتقاتلون.

الحرب هنا في إقليم التفّاح تهدّد الشيعة والمسيحيين ولن يفيد منها سوى الفلسطينيين المجموعين في المخيّمات الذين كانوا يخرجون منها ويساندون حزب الله الذي كانت تأتيه

الإمدادات من البقاع وتنزل تحت رقابة الإسرائيليين المسيطرين على تلال جزّين وجبل طورا. وهنا حقيقة تأكّد منها أفراد الجيش المعروف بجيش لبنان الجنوبي تحت قيادة الجنرال أنطوان لحد والجيش اللبناني الذي كان مرتبطًا باليرزة ومقيمًا في جزّين وجوارها بقيادة المقدّم مزهر. وتبيانًا لحقيقة ما أقول جاءني يومًا في جزّين عنصر من الجيش اللبناني مركزه في جبل طورا فقال جاءه يومًا ضابط في الجيش الإسرائيلي قائلًا عليك أن تترك مركزك لنا حتى يوم الثلاثاء القادم ظهرًا. وتعود إليه في الوقت المعيَّن. أخذ الجندي اللبناني أمتعته وذهب إلى بيته ليستريح ولما انتهى الوقت المحدّد له عاد واستلم موقعه للحراسة.

بعد ساعتين شاهد رجلين يسيران ببطء مدجّجين بالسلاح يسيران باتجاه إقليم التفّاح، انتهرهما فلم يقفا فإذّاك أطلق عليهما الرصاص فأصابهما وللحال أتاه مسؤول في الجيش الإسرائيلي ووبّخه على ما فعل وأمر بحبسه ثلاثة أيام. وكان المسلّحان من حزب الله يسيران من جهة البقاع إلى إقليم التفّاح تحت رعاية الجيش الإسرائيلي. هذه حادثة من بين حوادث كثيرة نقلها إلي بحذر جندي في الجيش اللبناني أعرفه جيدًا إنما أتحفّظ عن ذكر اسمه.

يبدو جليًا للعيان أن تهجير المسيحيين بالشكل الذي صار بناءً على سحب القوّات اللبنانية الذين أعلنوا الحرب من شرقي صيدا على صيدا ومن فيها بين ساعة وأخرى دون أن يتقدّم خصمهم في المعركة عليهم مترًا واحدًا على الجبهة ولا هم تقدّموا مترًا على خصومهم في صيدا، بناءً لأمر صادر من رئيسهم في بيروت بعد مؤتمر صحفي محمّلًا مسؤولية التهجير للجيش اللبناني وللحكومة، يعني للإنسان الذي يراقب أن مخطّطًا جهنميًا رُسِمَ في الخفاء بين الكبار وطلب تنفيذه على الأرض بأيدي الصغار، بأمر من اللاعب الأكبر بمصير المنطقة وأبنائها. هذا يدعو إلى التساؤل والتفكير عمّا يدبّر لأبناء هذه المنطقة من المسيحيين الذين يعتبر الكبار وجودهم في تلك المنطقة خطرًا عليهم من تنفيذ الخطط وكأني بهم حتى الساعة التي أكتب فيها هذه الكلمات لا يزالون يتمنّون عليهم الخروج منها واللجوء إلى الغيتو المسيحي حفاظًا على وجودهم. وهذا ما كانوا يعملون على تحقيقه وتنفيذه عسكريًا في بداية الأحداث وكان لي موقف من تلك السياسة الحمقاء التي لا تستند إلى الروح المسيحية والرسولية بشيء لأنها تجاهل كلّي لها ولمضمونها.

وازدادت حرب حركة أمل وحزب الله ضراوة يوم لم يتوصّل موفد إيران السيّد بشاراتي إلى إيقاف الحرب بين المقاتلين فراح يذيع خبرًا مفاده أن حركة التحرير الفلسطينية التي أخرجت بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان سوف تعود إلى لبنان بموافقة المجموعة الدولية. وقد رافق تلك الأخبار دخول الفلسطينيين إلى القرى المسيحية بدءًا من القريّة إلى المحاربية، الحسّانية فبرتي وصولًا إلى مرتفعات بصليّا التي طردوا منها تسعين مسلّحًا من حزب الله كانوا يحتلونها. كما وأن الفصائل الفلسطينية تقدّمت من مغدوشة التي كان الجيش اللبناني قد تلقّى الأوامر من رؤسائه بمنع الفلسطينيين من التقدّم إليها. وبينما كانت المعارك دائرة في تلك المنطقة، أُخبِرنا عن سائق مسيحي من المجيدل يدعى قزحيا المندلق استنجد به مسلّحون من حركة أمل لكي ينقل في سيارته جرحى من الحركة إلى المستشفى. وإذ حملهم في السيارة وانطلق بهم وقعت بالقرب من سيارته التي كانت منطلقة بسرعة البرق قذيفة أصابته فتوفي قبل أن يصل إلى المستشفى في صيدا. وإلى كفرشلّال، وهي قرية مسيحية، لجأت عائلة شيعية من هول القذائف التي كانت تنصب على ضيعتها، فإذا بالزوجة تصاب أمام بيت مسيحي في كفرشلّال بقذيفة تسقط أمامها وعلى يديها طفل له من العمر سنتان فماتا للحال. وأُصيب كذلك إثنان من أهل البيت إذّاك بعد أن تأكّد زوج المرأة الشيعية من موت زوجته وابنه حمل في سيارته المصابَين من البيت إلى مستشفى علاء الدين في الصرفند. وهذا الخبر نقله إليّ بحرفيته أحدهما، وقد نَجَوَا من الموت بعد أن أخذهما ذلك الشيعي إلى المستشفى المذكور.

بعد إثني عشر يومًا من الحرب الضروس التي أوقعت عشرات القتلى من الطرفين تدخّل المقاتلون الفلسطينيون وفصلوا بين المقاتلين الشيعة دون أن يتوصّلوا إلى إيقاف القتال. بينما الجيش اللبناني بقي واقفًا متفرّجًا على ما يجري في حين أن جيش لبنان الجنوبي المتمركز في الأعالي ضرب بمدفعيته القرى التي كان يتمركز فيها حزب الله. وفي تلك المعارك ما استطاعت كاريتاس لبنان -فرع صيدا الزهراني- أن تقدّم أية مساعدة إلّا بعد حين، أي بعد أن خفّ وطيس المعركة وأصبح بإمكانها التنقّل دون التعرّض لخطر الموت. فقامت بزيارة إلى كفرشلال وجرنايا وكان المهجّرون الشيعة إليها يحتلّون البيوت ويسرقون ما تقع عليه أيديهم من متاع وغذاء. وهنا أشدّد على القول إن الدولة لم تبدِ حراكًا

كأن المعارك كانت تجري خارج الأراضي اللبنانية. وما كان أحدٌ من الطرفين المتقاتلين ليسمع صوت العقل.

في تلك الأثناء نشرت إحدى الجرائد الفرنسية الصادرة في باريس المسماة «Le Canard enchaîné» خبرًا مصرفيًا سرّيًّا وقع كالصاعقة على المجتمع اللبناني يقول: «يبدو أن الجنرال عون رئيس الحكومة اللبنانية الذي لم يعترف بشرعية الانتخابات الرئاسية في لبنان من مجلس نيابي كان قد أصدر مرسومًا بحلّه، يملك حسابًا في باريس قيمته خمسة عشر مليون دولار أميركي. ولما سئل الجنرال شخصيًا في مؤتمر صحافي لم ينفِ الخبر قائلًا إن هذا المبلغ لا يعود إلى حساب الدولة، بل هو مجموع ما قدّم الشعب إليَّ من مال مساعدة في حرب التحرير التي بدأتها في آذار ١٩٨٩ لشراء الأسلحة ومساعدة عائلات الشهداء.» غير أن الناس لم يكتفوا بهذا الشرح المقدّم بل راحوا يعملون على انتقاده، حتى أن السفير البابوي الجديد راح يقدّم أوراق اعتماده إلى الرئيس سليم الحصّ بصفته وزيرًا للخارجية ممّا أثار حفيظة المواطنين المسيحيين الذين خرجوا بمظاهرة احتجاج من بعبدا حتى حريصا، دار السفارة البابوية، السبت ٦ كانون الثاني ١٩٩٠.

زيارات متتالية إلى القرى التي جرت فيها المعارك تمّت في التاسع من كانون الثاني برعاية الأخت عيدا يزبك المسؤولة الاجتماعية في مركز كاريتاس صيدا حيث تعرّضت في تنقّلها بين القرى إلى رصاص القنّاصين ونجت سالمة. فزارت كفرشلّال حيث التقت الخوري طانيوس عسّاف وبعض الشيوخ من النساء والرجال وانتقلت كذلك إلى جرنايا وبعد ذلك، إلى جرجوع حيث لقيت مع مجموعة السكّان الشيعة ثلاث عشرة عائلة مسيحية فقدّمت ما كانت تحمل من مساعدات إلى جميع من كانوا بحاجة ماسة إليها من شيعة ومسيحيين. كما أنها قامت بزيارة إلى صربا حيث كان لا يزال واحد وسبعون شخصًا يحرسون واحدًا وسبعين بيتًا. وإذ رأوها تأثّروا جدًا بما حملت إليهم من مساعدات غذائية فشكروها وأرسلوا كتاب شكر إلى سيادة المطران إبراهيم الحلو الذي لا يزال يغمرهم بعطفه ومحبّته. وفي اليوم التالي وبينما كنت أنا والمطران غائبَين عن الكرسي الأسقفي في صيدا، جاءَ من يطلب من جرنايا صندوقًا لدفن إنسان من البلدة مات فاشترت له الأخت عيدا صندوقًا وراحت تشاركه في جنّازه.

ولما كانت المعارك مستمرّة، يبدو أن سوريا وبطريقة خفية أوعزت إلى بعض الميليشيات المتحالفة معها من القوّات اللبنانية الخاضعة إلى إيلي حبيقة والحزب القومي التابع للمحايري والحزب الشيوعي بالدخول إلى المنطقة لمساندة حركة أمل. فتوجّس المسيحيون شرًا من وجود القوّات اللبنانية خوفًا من أن يتّهموا بالتعاطي معها أو الانتساب إليها بعد انسحابها من المنطقة فقاطعوها وتجنبوها كليًا.

الحرب بين المسيحيين

إن ما رأيناه بأمّ العين من حربٍ بين الإخوة في الطائفة الشيعية في منطقة إقليم التفّاح التي سمّاها المختار اسماعيل اسماعيل الشيعي «حرب الشيعة والمتاولة» رأينا وسمعنا بمثلها بين الإخوة المسيحيين في بيروت وجوارها. وهي حرب ضروس لم تكن أقل ضراوة من حرب بين عدوين تقليديين يريد أحدهما القضاء على الآخر مهما كلّفه الأمر. شن الجيش اللبناني الذي يقوده الجنرال ميشال عون حربًا ضارية على القوّات اللبنانية التي يرأسها الدكتور سمير جعجع بقصد الإلغاء. وكانت تدور من حي إلى حي ومن بيتٍ إلى بيت وذهب ضحيتها الكثيرون من المتحاربين ومن المواطنين الأبرياء وبالرغم من النداءات الكثيرة التي أرسلها قداسة الحبر العظم البابا يوحنّا بولس الثاني والبطريرك الماروني والسفير البابوي في لبنان المونسنيور بابلو بوانته فقد بقيت المعارك محتدمة والقتلى بالمئات والجرحى بالألوف والناس في بؤس وشقاء، لا ماء ولا كهرباء ولا غذاء حتى أن الهروب من منطقة المعارك كان صعبًا إن لم يكن مستحيلًا. ويقال إن لبنان لم يشهد مثيلًا لها منذ السنة ١٩٧٥. ولسوء الحظ ما كان أحد من المتحاربين ليسمع النداءات والاستغاثات التي كانت توجّه إليهم حتى أن البعض وصفوها بحرب بين حيوانات مفترسة حتى إذا ما خلص أحد المواطنين من جحيم النار المتأججة كان يصفها بحروب البرابرة. وهذه شهادة أسجّلها لابن شقيقتي موريس حلو ولهارب من جحيم المعركة من عين الرمّانه وقد وصل إلي في المطرانية بصيدا هو وزوجته وطفلتهما البالغة من العمر عشرة أشهر. وكان هو وزوجته شاحبي اللون إنما سعيدان لخلاصهما من هول المعركة التي عاشا في جوها ثمانية أيام دون أن يتمكّنا من التطلّع إلى الخارج من خلال نافذة. وقد تقاسما ربطة الخبز طوال الأيام الثمانية الأولى من المعركة ولكنهما كانا سعيدين لأن الحليب كان متوافرًا عندهما

من أجل الطفلة، وعندما كان يكلّمني عن المدة التي قضوها في الطابق الأرضي لا ماء ولا هواء كان يتنفّس الصعداء. قذيفة وقعة على سطح بناية مجاورة قضت على زجاج نوافذ بيتهما. وأخرى سقطت أمام عربتهما المتوقفة تحت شبّاك المنزل لم تنفجر. ولكي يستطيع الثلاثة الهروب من البيت الذي لم يعد صالحًا للسكن في الشتاء خرج الثلاثة منه واتبعوا طريقًا جديدًا بالنسبة إليهم سيرًا على الأقدام. وأشار السابقون بالسير في القافلة دون الحياد عنها خوفًا من وجود قنابل وألغام مزروعة تنفجر تحت أقدام المارة. وهكذا كانوا يسيرون خطًا واحدًا وصولًا إلى الفرعية، ومنها وصل ابن شقيقتي وزوجته وطفلاهما الى المطرانية في حال يرثى لها.

بلغ الحقد بين المتقاتلين أشدّه وسارت شائعات كثيرة أزعجتني كثيرًا عن أعمال تصفية مقيتة متبادلة بين الطرفين. وتلك الحرب التي لم توفّر أحدًا تذكّرني بقول السيّد المسيح في إنجيله المقدّس الذي يدّعي الكثيرون الإيمان به وتعليقه في أعناقهم: «صلُّوا لئلّا يكون هربكم في شتاء» بيد أن هرب أولئك التعساء والمساكين كان في شتاء. ويحكى أنه في يوم الخميس الموافق ١٥ شباط ١٩٩٠ جرت معارك طاحنة في عين الرمّانة وفرن الشبّاك بين الجيش اللبناني التابع للجنرال عون والقوّات اللبنانية وقع خلالها عشرات الضحايا كما نشبت عدّة حرائق في المخازن والمنازل. وها هو غبطته يوجّه نداءَه الحادي عشر ولا يتجاوب معه أحد حتى أن لجنة التهدئة المؤلّفة من المطران خليل أبي نادر، مطران بيروت والأباتي بولس نعمان والمحامي شاكر أبو سليمان، وقد يئست بعد فشل كلّ محاولاتها، تعلن عن التوقّف عن عملها التوفيقي لأن لا أحد يسمع لها.

الجمعة ١٦ شباط قام صاحب الغبطة البطريرك مار نصر الله بطرس صفير بزيارة الجنرال عون في بعبدا حيث قضى ساعتين وخرج دون أن يدلي بأي تصريح للصحافيين الذي كانوا ينتظرونه. كلّ فريقٍ تمسّك بموقفه وراح يعزّز مواقعه. أما الشعب المسكين فراح يهيم على وجهه. ولقد وصلت إلى المطرانية في صيدا أعداد كبيرة في حالة يرثى لها في ثياب النوم، بعضهم حفاة بعضهم يحملون أولادهم ويجرّون الباقين بأيديهم ولا مال في جيوبهم. قام المتطوعون الشباب في كاريتاس لنجدتهم وكيف؟ منهم من ترك بيته في بداية الأحداث في سنة ١٩٧٥، وأقام اليوم فيه آخر، ومنهم من تركه سنة ١٩٨٥ وإما خرب

ولم يعد صالحًا للسكن، أو أقام فيه آخر... الأحوال مزرية ومعالجتها صعبة إنما ترطيب الأجواء وتضميد الجراح يخفّف من ألم التهجير القاسي الذي لعب بهم ذهابًا وإيابًا. وما كان منا إلّا أن نضع في خدمة هؤلاء المساكين ما تيسَّر لدينا من مساعدات. ما تأخّرت عائلة مقيمة عن مديد العون إلى عائلة تبحث عن ملجأ أو بيت تأوي تحت سقفه. هنالك عائلات استقبلت عائلات أخرى في منزلها وراحت تشتري لها بعض الحاجات الضرورية أو راحت تستقرض ما يمكّنها من إيواء الطارقين الهاربين من جحيم النار. وزاد في الطين بلّة أن بعض المصارف توقّف عن دفع ما يطلبه المودعون لديها، وبخاصة لأن مصرف لبنان لم يعد يمدّ بالمال المصارف القائمة في المنطقة الشرقية من بيروت.

الفصل الحادي عشر

نتائج الحرب على الأبرشيّة وعِبرُها

كانت نتائج الحرب وخيمة على أبرشية صيدا المترامية الأطراف والمتنوعة النسيج.

أوّلًا –في الشوف:

لم تبقَ في الشوف بأسره كنيسة واحدة قائمة وصالحة للعبادة سوى كنائس دير القمر الّتي نجت من التدمير والتدنيس. كما لم يعد لأيٍّ من أهله سواء أكان قد هجّر أم مات حقّ الإفادة من رزقه لا هو ولا أحد من ورثته الشرعيّين، بل أصبحت جميع ممتلكات المسيحيّين تحت تصرّف السلطة الحاكمة الّتي سلّمتها إلى الإدارة المدنيّة، تستثمرها لمصلحة الحزب التقدّمي الاشتراكي، الّذي يرأسه الأستاذ وليد جنبلاط، دون أيّ منازع من الداخل أو الخارج. حتّى أنّ المسيحيّين القلائل الّذين عادوا إلى بلدة الرميلة الشوفيّة، الّتي جرى الكلام عنها، كما وأن بساتين الحمضيّات القائمة في علمان والرميلة العائدة ملكيّتها إلى مطرانيّة صيدا المارونيّة، استولت على استثمارها واستغلالها الإدارة المدنيّة المذكورة.

ثانيًا –في الجنوب:

قضاء صيدا: أصبح بمعظمه خاليًا من الوجود المسيحي الفاعل. بعض قراه المسيحيّة قضى عليها التهجير، بأكملها مثل بقسطا وكرخا وكفريًا والبراميّة وعبرا ومجدليون والصالحيّة والميّة وميّة ودرب السّيم. وهناك أيضًا قرى بقي فيها قسم من الأهالي مثل عين الدلب والقريّة وكفرشلّال وطنبوريت ومغدوشة وعقتانيت والمعمريّة وخزيز وجنجلايا.

قضاء جزّين: تهجّرت فيه كلّيًّا رعايا لبعا وشواليق وكفرجرّة ووادي بعنقودين وبيصور، وتهجّرت جزئيًّا رعايا جرنايا والمجيدل والحرمق والعيشيّة.

قضاء النبطيّة: تهجّرت كلّيًّا رعيّتا جرجوع وجباع وتهجّرت جزئيًّا رعيّتا صربا وعزّة.

قضاء مرجعيون: حدث تجمّع كبير في جديدة مرجعيون والقليعة وبرج الملوك وكوكبا وهذا التجمّع أتى من مناطق الشوف وشرقي صيدا، وحتّى من مناطق بيروت، حيث انضمّ

بعض الشبّان إلى جيش لبنان الجنوبي الّذي كان بقيادة اللواء أنطوان لحد المفصول من الجيش اللبناني لقيادة هذا الفصيل الّذي راح يعمل بتدبير خاص في تلك المنطقة الحدوديّة متحالفًا مع الجيش الإسرائيلي، والّذي بقي سرًّا مكتومًا على الشعب الّذي ضحّى في صفوفه عددًا كبيرًا من أبنائه. ويروى أنّ منطقة جزّين لوحدها قد خسرت في صفوف الجيش الجنوبي أكثر من مائتي شاب، وقعوا في معارك أو ضحايا متفجّرات وألغام نصبتها لهم القوى المشتركة المتحالفة ضدّ إسرائيل من حزب الله وحركة أمل والحزب الشيوعي والحزب التقدمي، وسواها من الفصائل الّتي حاربت ضدّ إسرائيل والمتعاونين معها.

من مساوىء هذه الحرب وويلاتها على الأبرشيّة أنّ قسمًا كبيرًا من كهنتها قد اضطر إلى الهجرة أيضًا لحاقًا بالشعب الّذي كان يخدمه ولاسيما أولئك الّذين كانوا يخدمون في الرعايا الشوفيّة، دون أن تخلو بعض الرعايا في الجنوب من تأثير الحرب عليهم، فآثروا الانتقال إلى مكان ظنّوه أكثر أمنًا وسلامًا. واتّخذ المطران إبراهيم راعي الأبرشيّة مواقف متساهلة مع الكهنة الجدد حتّى رحت أقول له بشيء من الانتقاد الأخوي، راح يتندّر به الكهنة المقيمون: «يا سيّدنا أرسم كهنة وأرسلهم إلى برّ الأناضول».

بعد أن تقلّص الوجود المسيحي في صيدا والجوار يحقّ لي أن أتساءل بكلّ تجرّد ومحبّة: من هو المسؤول عن ذلك؟ هل هي الدولة بجميع مؤسّساتها الإداريّة والسياسيّة والعسكريّة؟ هل هم بعض مسؤولين في الكنيسة الّتي كانت تمارس سياسة مغلوطة تحدّثت عنها سابقًا في ما جرى لي مع من كانوا يتولّون شؤون الأسبوع الاجتماعي في دير سيّدة اللويزة سنة ١٩٧٦؟ هل كان هناك اتفاق عفوي وغير مقصود بين من كان يعمل من أجل تقسيم البلاد إلى كنتونات طائفيّة مسيحيّة وإسلاميّة ودرزيّة؟

لقد كانت الجبهة اللبنانيّة تعمل تحقيقًا لذلك المشروع في بداية الحرب، ولكنّها جرّت البلاد إلى حرب طويلة لا نزال نعاني منها الأمرّين. لقد اعترف الدكتور سمير جعجع مؤخّرًا، وبعد خروجه من السجن، وتحالفه مع الأستاذ وليد جنبلاط والسيّد سعد الدّين الحريري، بأنّه كان في بداية الحرب يدعو إلى كانتون يمتدّ من كفرشيما إلى جسر المدفون، أمّا اليوم فهو يدعو إلى لبنان الممتدّ من القليعة ومرجعيون جنوبًا حتّى القبيّات شمالًا. ولقد صرّح بذلك على التلفزيون وسمعه النّاس، ولو أرادوا أن يحاسبوه على دماء الشهداء الّذين

وقعوا تحقيقًا لسياسته السابقة، لكانوا رذلوه كليًّا، ولكن حكّامنا كما الشعب لدينا ينسى الماضي ويأبى أن يتعلّم من دروسه في حين أنّ التاريخ هو أكبر معلّم للأجيال، والويل كلّ الويل لمن يجهل التاريخ، وما يقدّم له من دروس وعبر. إذّاك لا بدّ له من أن يدفع ثمن جهله له أو تجاهله. يدفع ثمنًا غاليًا عنه وعن جميع الّذين قادهم إلى الهلاك، بسبب الجهل الّذي كان يسيّره. ومن الجهل القول إنّني لم أدرِ ولم أعرف، لأنّ من يكون حاكمًا ومسؤولًا، ويرتكب خطأً يكبّد الآخرين خسائر فادحة في الأرواح والممتلكات، لا بدّ له من أن يتحمّل مسؤوليّة كبرى أمام الله والنّاس.

ليس للعامّة من النّاس أن يعرفوا ويستدركوا الأخطار الّتي تعقب سوء تصرّف الحكّام والمسؤولين عنهم، وبخاصّة أولئك الّذين يزجّون بهم في متاهات ودهاليز لا تحمد عقباها.

بعض النّاس يصف التصرّف، الّذي اتّخذه مسؤولون، بالأرعن، وبعضهم يصفه بالتخاذل أمام الصعوبات الكبيرة المصيريّة، وآخرون يصفونه بالتعاون الواعي تنفيذًا لمخطط تقسيم البلاد وصولًا إلى اتهامهم بالخيانة. ولا بدّ من أن يكتب المؤرّخون تاريخ لبنان المعاصر ولو بعد زمن ويتّخذوا الموقف الحرّ الجريء من الأحداث الأليمة الّتي عاشها اللبنانيّون، استنادًا إلى ما سمعوا وقرأوا عن هذا الماضي الأسود، الّذي يترك في النفوس حرقة كاوية على دماء بريئة سفكت، وتباغض حاد بين جيرانٍ وإخوان فرّقت بينهم الأحداث وشرّدتهم تحت كلّ سماء. وكم من مسيحي باع بيته والدمعة في عينيه أو حانوته وعيناه مسمّرتان على ما جنته يداه على مدى سنوات أو ورثه عن آبائه وأجداده أو ذاك الّذي هاجر إلى بلاد الله الواسعة، ليروح يشتري بأثمان باهظة بيتًا يأوي إليه مع عائلته، أو محلًّا يستغلّه ليعيش من مدخوله مع عائلته.

إنّها لمآسي شاركْنا المواطنين مرارتها. إنّ الرؤساء الروحيّين المسيحيّين شعروا بخطورة الأوضاع فشاطرتهم همومهم الدوائر الفاتيكانيّة الّتي حاولت من خلال منع بيع أراضي المسيحيّين الّتي تعتبر أوقافًا إلّا بإذن خاص من روما. وكلّ ذلك كان مرتبطًا بالتمسّك بصيغة العيش المشترك. إنّما تجدر الإشارة هنا وبكلّ جرأة إلى أنّ بعض الرؤساء الروحيّين في الأماكن ذات الأغلبيّة الساحقة المسيحيّة كانوا غير متحمّسين للتمسّك بمبدأ العيش المشترك، خوفًا على المسيحيّين من أن يقعوا مرّة أخرى ضحيّة الحروب الإسلاميّة كما جرى لهم سنة ١٨٦٠، وما تلاها من سنوات الشؤم والثورات المسيحيّة الإسلاميّة، حيث

قُضي على جماعات مسيحيّة بأكملها، فأقفرت مناطق من الوجود المسيحي نتيجة الحروب والمذابح الّتي جرت فوق أرضها كبعض المناطق الشوفية. وحسبنا أن ننظر إلى الماضي للتأمل والاتعاظ.

عودة إلى الذات وصحوة لا بدَّ منها

قلنا الكثير عن الحرب وأهوالها وتكلّمنا بما فيه الكفاية عمّا هو لنا من حقوق وما علينا من واجبات تجاه أنفسنا وتجاه وطننا وقريبنا إنما العودة إلى الذات ضرورية لأن فيها محاسبة والمحاسبة لا تكون نافعة ومفيدة إلّا إذا بنيّت على أسس واضحة وتمّت بجرأة وتبنَّت الحقيقة والواقع، وبخاصة في الحرب التي عشناها وتقريبًا في جميع مراحلها وفيها ما يدمي القلوب ويثير الشجون، وفيها أيضًا ما يبلسم الجراح ويعزي القلوب. ومن نِعم الله علينا في لبنان أن التلاقي بين أبنائه، وإن تحاربوا وتخاصموا، فإلى زمن أمرٌ محتوم وهذا ما يظهر لنا من خلال ما سوف أنقله إلى القراء ممّا عشته وخبرته. ومن بعض ما نقلته الصحف عن وفاة المرحوم جان عزيز النائب والوزير السابق الذي ما أحبَّ أن يترك جزّين ساعة تجمّع فيها وعلى طرقاتها عشرات الألوف من المهجّرين الهاربين إليها عدا عن سكّانها الأصليين، وساعة غصَّت بهم الطرقات وتجمهروا في دارته وبقي صامدًا يقاوم المرض الذي راح يفتك به بلا شفقة لينعش في القلوب أملًا بات يخبو كالسراج في مهبّ الرياح. ويوم كان محاصرًا في بيته ظلَّ على اتصال دائم بالخارج فكانت كلمته مسموعة بالرغم من قصف الراجمات ولعلعة الرصاص ويوم مات بكاه الجميع وبرهانًا على ذلك اجتمع في كاتدرائية مار الياس المارونية في صيدا إحياءً لذكراه الطيّبة الكثيرون من مختلف الطوائف والأديان والأحزاب السياسية على اختلافها وإليكم ما نقلته جريدة الأنوار في عددها الصادر يوم السبت ٢٢ آذار ١٩٨٦:

تحوّل أمس القدّاس الاحتفالي الذي أقيم عن روح النائب والوزير السابق جان عزيز في كاتدرائية الطائفة المارونية في صيدا إلى مهرجانٍ حقيقي للتعايش بين أبناء الوطن بعيدًا عن التفرقة والتعصّب الطائفي.

[...] وكان في طليعة الحاضرين المطران بولس الخوري راعي أبرشية صيدا

ومرجعيون وصور وراشيا للروم الأرثوذكس ووفد من كهنة الطائفة الكاثوليكية ضمَّ الأرشمندريت ميشال حبيب، الأب جورج كويتر، الأب سليمان الحجّار، رئيس المجلس السياسي لمدينة صيدا النائب الدكتور نزيه البزري والمهندس مصطفى معروف سعد على رأس وفد من المجلس السياسي والتنظيم الشعبي الناصري، وفد من القضاة ضمّ السادة بشير المجذوب، حسن عثمان، محمد مهنّا، وليد العاكوم نقيب المحامين السابق محمد شهاب على رأس وفد من المحامين. قائد المنطقة العسكرية في الجنوب العقيد عدنان الخطيب، النقيب محمد عبّاس الملازم أوّل يوسف نعماني، وفد من الصليب الأحمر اللبناني، وفد من بلدية صيدا برئاسة فاروق الزعتري وسلمى أبو ظهر مرجان ورئيس غرفة التجارة محمد زعتري ونائب رئيس الاتحاد العمّالي العام حسيب عبد الجواد ووفد جبهة الإنقاذ الوطني الفلسطيني المؤلّف من أبو نزار، أبو غالب والحاج نقولا ومختار صيدا يوسف الطوق ووفد من بلدة جزّين تتقدمه عائلة الفقيد والقاضي مارون عزيز، المحامي أنطوان عزيز، السيّدة ثريا عزيز نصر وسيمون كرم وجان كرم والمهندس بولس نصر ووفود من المناطق الجنوبية المجاورة. ورئس المونسنيور يوحنّا الحلو القدّاس وألقى كلمة جاءَ فيها: «صاحب السيادة، أيها الإخوة الأحبّاء،

لسواي أن يتحدّث عن المغفور له جان عزيز، القاضي والنائب والوزير والأديب والشاعر. أمّا أنا وفي هذا اللقاء المقدّس الذي يجمعنا حول مذبح الرب إحياءً لذكراه فليسمح لي بأن أتناول من حياته ما ساهم في تكوين شخصيته الفذّة التي أجمع الناس على احترامها وتقديرها، حيًا وميتًا، عنيت بذلك إيمانه بربه وبأخيه الإنسان. فإيمانه بربه فتح قلبه وعقله على احترام الجميع وخدمة الجميع دون تفرقة ولا تمييز وجميعهم خلق الله ولم يميّز بين مسيحي ومسلم في علاقاته بهما. فما ردَّ طالب حاجة لجأ إليه رفعًا للظلم عنه. وما تراجع عن إعلان موقف رآه محقًّا في مجلس فيدعم رأيًا ويزيل خوفًا وكان يرتاح إلى مجالسته كلّ من قصده وكشف له عن همومه طالبًا رفع ظلامة عنه...

ولقد فهم إيمانه بالإنسان برًّا بوالدة حنون والبر بالوالدين من أقدس الواجبات كما فهمه عطفًا على معوز وحدبًا على يتيم وعاجز ومنكوب واهتمامًا بمهجّر قذفت به الأقدار خارجًا عن بيته وبعيدًا عن جماعته...

ثم انتقل الجميع إلى قاعة المطرانية حيث تقبّلوا التعازي من قبل الوفود الغفيرة التي أمّت المطرانية فألقى النائب البزري كلمة قال فيها: «المرحوم جان عزيز ولد في جزين ولكن حياته كانت في صيدا ونرجو أن يعتبر الجميع إننا ما زلنا على العلاقة ذاتها مع أبناء جزّين وباقي أبناء المنطقة فيحملون ما كانوا يحملونه لجان عزيز ونحن أولى بذلك من الجميع. وخلص مقدّمًا التعازي ليس لأهله فقط بل لكلّ لبنان.»

وتلاه المطران بولس الخوري بكلمةٍ جاءَ فيها: «علاقتي بالكبير جان عزيز كانت علاقة مميَّزة نظرًا لكون المثلّث الرحمة خاله البطريرك بولس المعوشي كان يخصُّني بعاطفة مميَّزة ويوم ترشّحت للنيابة أصدر مرسومًا للطائفة المارونية أن تنتخب لائحة بولس الخوري. ونحن نقدّم باسم مسيحيي الجنوب إلى الصديق المهندس مصطفى سعيد والتنظيم الشعبي الناصري التعازي الذي لا زال ممسكًا بزمام الأمور في صيدا ومحافظًا على وجهها المشرق الذي يتجلّى في العيش المشترك بين المسلمين والمسيحيين. واسمحوا لي أن أوجه إلى إخواني المسلمين ليس في الجنوب فقط بل في لبنان وسائر المشرق بأن كياننا وبقاءَنا في هذا الشرق متوقف على تفاهمنا مع إخواننا المسلمين»، محمّلًا الغرب مسؤولية الحرب في لبنان.

أما المهندس مصطفى سعد فقال في كلمته: «في هذا اليوم ماذا نقول نعزّي أنفسنا بفقيدنا الغالي جان عزيز. وإننا نعتبر وفاته خسارة لا تعوض. فخسارتنا للفقيد خسارة كبيرة جدًا. المهمّ أننا سنستمر على طريق جان عزيز ومعروف سعد وكمال جنبلاط. سنستمر في المحافظة وسنعمل بشكل دؤوب من أجل العيش المشترك لأننا نعلم جيّدًا أنه لا يمكن بناء هذا الوطن من دون مشاركة الجميع ومن دون العيش الوطني المشترك.» وخلص سعد قائلًا:

«خسارتنا كما قلنا لا تعوَّض ولكن يجب الاستفادة من تاريخ ونهج الفقيد الراحل بالتعاطي مع القضايا، قضايا الوطن المصيرية. وخصوصًا في الظروف المصيرية التي نمرّ بها اليوم...»

إحياء ذكرى المرحوم جان عزيز في صيدا بينما الحرب مشتعلة والقتال قائم في غير مكان من لبنان واشتراك الطوائف فيها وبخاصة الطائفة الإسلامية يعني الكثير ويدعو إلى التأمل والتفكير وإعادة النظر في سلوكنا الاجتماعي وتعاطينا كمسيحيين مع بعضنا بعضًا ومع الآخرين من اللبنانيين أيًّا يكن دينهم ومذهبهم. إن الإقبال على المشاركة من قبل شخصيات صيدا الإسلامية بهذا العدد والتنوع في إحياء ذكرى المغفور له جان عزيز يدعونا إلى تغيير الكثير من سياستنا. لقد كان جان عزيز أقل المسيحيين تعصّبًا وأشدّهم تمسّكًا بكرامة الإنسان المسيحي وحفاظًا عليه! وإن لم يكن وحيدًا بين زعماء المسيحيين المنفتحين على المسلمين، الضنينين بالحفاظ على العيش المشترك الكريم بمعناه الحقيقي فلقد كان يأبى ويثور ضد كلّ امتهان وتعدٍّ واجحاف بحقّ المسيحي ولو كان خصمًا له سياسيًا... وعلى سبيل المثال أنقل للقارئ ما حصل بيني وبينه في بداية الأحداث اللبنانية تنويرًا للأذهان بعيدًا عن كلّ إثارة واعترافًا بما كان يتّصف به ذلك الإنسان الكبير.

جاءنا ذات يوم إلى دار المطرانية في صيدا ثلاثة نساء من جزّين خطف أزواجهن على الطريق في الشوف بينما كانوا ذاهبين لقبض معاشاتهم العسكرية من أحد الضباط الدروز في عماطور بعد انفراط عقد الجيش واستلام الخطيب قيادته وكان أولئك الثلاثة قد لزموا بيوتهم. وكن قد سمعن أن حياتهم أصبحت في خطر وأصبح حكم الإعدام بهم وشيكًا لأن درزيًا من الشوف كان قد وجد مقتولًا في تومات نيحا وأصابع الاتهام موجّهة إلى مسيحيي جزّين. وكان المطران قد راجع سابقًا بشأن المخطوفين فلم يلق جوابًا... قصدت جزين لأن الاتّصالات التلفونية بين صيدا وجزّين مقطوعة ولا سبيل للمراجعة بشأنٍ ما إلّا بالذهاب شخصيًا وإذا كانت الطريق صيدا جزّين مقطوعة أيضًا بعد ضهر الرملة اتجهت إلى بكاسين ومنها إلى وادي جزّين ومن أحد البيوت اتّصلت بالأستاذ جان عزيز هاتفيًا وأخبرته بما جئته بشأنه. وللحال استدعى خصمه السياسي المرحوم الدكتور فريد سرحال وحمّله رسالة إلى المرحوم كمال جنبلاط الذي ما إن استلم الكتاب المذكور حتى

استدعى المخطوفين الثلاثة من أيدي خاطفيهم وسلّمهم إلى الدكتور فريد سرحال وجاء بهم إلى جزّين... وهنا لست أدري إن كان من حقّي أن أقول ما ردَّ به علي جان عزيز عندما أطلعته على ما يواجه أولئك الثلاثة الضعفاء المحتجزين منتفضًا للكرامة قائلًا: «صحيح أن كمال بك صديقنا ولكن إذا أرادت جماعته استعمال تلك الوسائل كخطف الأبرياء على الطرقات فبإمكاننا أن نواجههم بالطريقة ذاتها إن كان لا بدَّ منها...» وهذا الجواب الذي سمعته من فم المرحوم جان عزيز بقي في سرّي حتى كتابة هذه السطور...

لست أعلنه إلّا لأؤكّد للجميع أن كرامة الإنسان عند المرحوم جان عزيز من المقدّسات فأحبّه الجميع، وهو لا يقبل مساومة على كرامة بني قومه وإن كانوا مناهضين له سياسيًا. وإذا ما لاحظ على أحدهم تحاملًا أو ظلمًا هب إلى نجدته ورفع الضيم عنه...

يوم الأحد ١٦ شباط ١٩٨٦ تلقى المطران إبراهيم الحلو بصفته مدبرًا رسوليًا للبطريركية المارونية برقية تضامن من الكردينال دوكورتريه وزّع بعض مضمونها المركز الكاثوليكي للإعلام وممّا جاءَ فيها: «أريد أن أكرّر لأصدقائي جميع اللبنانيين الذين يرغبون في العيش معًا على أرضهم أيامًا جديدة بأني لا أنسى وأريد أن أؤكّد لإخوتي المسيحيين أن كنائس فرنسا وأوروبا لن تنساهم. وفي ٢٧ آذار المقبل، يوم نحتفل بثلاثية صلاة إحياءً لآلام المخلّص وقيامته، ستلتقي جماعة كثيرة من المصلّين متوسّلة إلى الله لكي ينتعش لبنان الحقيقي من جديد بعد الآلام التي قاساها، فيعيش في وفاق جميع اللبنانيين معًا، مسيحيين ومسلمين في لبنان، الحرّية والسلام».

يبدو من خلال هذه البرقية التي ترسلها كنيسة فرنسا بشخص مجمع أساقفتها إلى المدبّر الرسولي أنها تحمل هموم اللبنانيين جميعًا. وتطلب من الله أن يحلّ سلامه وأمانه بين صفوف اللبنانيين، مسيحيين ومسلمين ليعيشوا في وفاق ووئام ليكون لبنان، الوطن النهائي، لجميع أبنائه، رسالةً إلى العالم بأسره كما سمّاه قداسة البابا يوحنا بولس الثاني.

قد نكون بحاجة ماسة إلى ما كان يردّده خلال زيارته إلى جزّين ومنطقتها نيافة الكردينال إتشيغاراي الموفد البابوي الخاص وتشديده على المحافظة على العيش المشترك بين المسيحيين والمسلمين، لكي يكون أبناء تلك المنطقة من خلال محافظتهم عليه

معلّمين للمناطق الأخرى في هذا المجال الإنساني والوطني المثالي الذي لا غنى للبنان عنه ولا قيام للبنان إلّا به. وإن تشديد المسؤولين الأجانب في كنيسة المسيح على اللبنانيين دفعًا بهم إلى التعاون مع إخوانهم المسلمين للعيش بوئام ووفاق يدعونا جميعًا نحن معشر اللبنانيين، وبخاصة المسيحيين، إلى وعي ذاك الدور المنوط بنا للقيام به مع ما يتطلّب من بذل وتضحيات تهون كلّها أمام قدسيته وفرادته في عالم اليوم الذي غلبت عليه الأنانية وتقهقرت روح البذل والسخاء والتضحية التي لا قيام للبشرية من دونها أمام المصالح الخاصة.

وإن المناطق اللبنانية التي تجمع في أرجائها مواطنين مختلفي المذاهب والأديان مدعوة بنوع خاص إلى أن تعيش بوفاق ووئام في جو من الاحترام المتبادل يساعد كثيرًا على النهوض بالوطن على كلّ الصعد وعلى تقديمه كمثال يحتذى في عالم اليوم. وإني لأقول هذا وأؤكّده استنادًا إلى خبرة شخصية عرفت فيها السهل والصعب، الحلو والمُرّ وقاومت في مواقفي وحياتي اليومية كلّ تعصب ذميم أيًّا كان مصدره وأظنّ أن من كان يضاد تصرفاتي وسياستي الاجتماعية بمواقف متشنجة تبدّل موقفه وانضمَّ إلى ما كنت أنادي به عن قناعة منذ بداية الحرب اللبنانية حتى آخر طلقة نار تسجّلت فيها.

أوضاع المدارس الخاصّة في الأبرشيّة

إنطلاقًا من مدينة صيدا حيث أقيم يهمّني أن أعطي لمحة عن أوضاع المدارس الخاصّة التّي تخضع بشكل أو بآخر للكنيسة خلال الحرب التّي اجتاحت الأبرشيّة، وأمعنت فيها قتلًا وتخريبًا وتهجيرًا: أبدأ بمدرسة مار الياس الخاصّة بالمطرانيّة، لأقول إنّها بقيت مفتوحة بالرغم من ضرب الطيران الإسرائيلي لها، عندما اجتاح جيشها صيدا وقسمًا كبيرًا من لبنان عام ١٩٨٢. صحيح أنّ بناءها الحجري لم يعدّ صالحًا، إنّما بني لها في الملعب ستّ غرف مصنّعة على نفقة الملك السعودي وتحت إشراف أوجيه لبنان «Oger Liban» وفي تلك الغرف الست، بقي التدريس قائمًا حتّى السنة ١٩٩٥، بقدر ما كانت تستوعب تلك الغرف، إلى أن جرى بناء على اسم المدرسة في رعيّة درب السّيم كما أشرنا سابقًا في غير مكان من هذا الكتاب.

مدرسة الإخوة المريميّين

إن المدرسة المعروفة باسم مدرسة سيّدة فاطمة المبنيّة حديثًا أي في السنة ١٩٥٩/١٩٦٠ على تلّة من تلال الرميلة والتابعة للإخوة المريميّين توقّفت عن التدريس في المحلّة المذكورة بعد الاحتلال الإسرائيلي. وراح المسؤولون يؤمّنون التعليم لأبناء الجنوب المسجّلين عندهم في مدرسة قائمة في الهلاليّة، استأجرتها إدارة الفرير من الأستاذ محمّد البابا التي كان قد بناها وفتح فيها مدرسة خاصة، إلى أن صارت الحرب بين صيدا وشرقيها، فاضطرّوا إلى إغلاقها نهائيًّا، وانتقلوا من هذه الأبرشيّة دون أن يعودوا إليها حتّى الآن. ولقد كتبت في غير محلّ من هذا الكتاب بشأن المحاولات الجديّة الّتي جرت لإعادة تلك الجمعيّة إلى المنطقة دون أن ننجح لا في إعادتهم إلى الأبرشيّة ولا في تسلّم المدرسة منهم ضمن شروط معيّنة، فبقيت خاوية خربة حتّى كتابة هذه السطور.

ثانوية راهبات مار يوسف الظهور في صيدا

في مدينة صيدا مدرسة تابعة لراهبات مار يوسف الظهور، ما توقّفت يومًا عن التدريس إلّا في الأيّام الّتي دخلت فيها إسرائيل بجيوشها إلى لبنان، ثمّ عادت ففتحت أبوابها وأكملت السنة الدراسيّة لطالباتها. وفي أثناء الحرب، وبعد إغلاق مدرسة الإخوة المريميّين، افتتحت صفوفًا ثانويّة أمّنت التعليم بجدارة، وأحرزت فيها طالباتها تفوّقًا ملحوظًا، جعلهنّ يدخلن الجامعات بسهولة. وعندما عاد المسيحيّون إلى المناطق الّتي هجروها لمدّة من الزمن، وجدوا في ثانويّة مار يوسف معهدًا يؤمّن لبناتهم العلم والتربية الّتي ينشدنها. ولا بدّ هنا من الإشارة إلى أنّ وجود المدرسة ساعد على إعادة المهجّرين وتثبيتهم في أرضهم باطمئنان. وتقديرًا للعمل التربوي المستمرّ الّذي قامت به راهبات مار يوسف الظهور في صيدا لبنات صيدا، مسلمات ومسيحيّات كما لبنات المنطقة والجوار، وبمناسبة قيام رئيستهنّ العامّة بزيارة لهنّ في صيدا، احتفلت المدرسة بقدّاس شكر دعي إليه الأهل والهيئة التعليميّة قمت به شخصيًّا في كنيسة المدرسة، وكانت لي الكلمة التالية اعترافًا بما لجمعيّة راهبات مار يوسف الظهور من أياد بيضاء في المدينة والمنطقة منذ السنة ١٨٥٣ حين باشرت عملها دون انقطاع، بالرغم ممّا مرّ على البلاد طوال تلك الحقبة من أحداث وحروب وتطوّرات.

A l'occasion de la visite de la Mère Générale des Soeurs de St. Joseph de sa conseillère générale à Saida le ٢٤ Mars ١٩٩٣

Révérende Mère Générale

Chers soeurs et frères

«Nourries du pain de dures épreuves» à l'exemple de leur fondatrice, Ste Emilie de Vialar et, de confiant pleinement en la Divine Providence, voila que les sœurs de St. Joseph de l'Apparition accomplissent bientôt leur cent quarentième année de présence active, continue et inlassable à Saida dans le labeur et le silence parfait acquis soigneusement a l'école de St. Joseph leur patron.

Peu de gens savent ce qu'elles ont enduré dans notre pays qui a connu des changements radicaux et des guerres atroces. Mais nombreux sont ceux qui apprécient les efforts énormes et louables qu'elles ont déployés au service des jeunes. C'est grâce à l'éducation assurée avec beaucoup de doigée et d'amour qu'elles ont crée une atmosphère de compréhension et de cordialité entre les jeunes des deux communautés chrétienne et musulmane et favorisé la convivialité, l'un des objectifs principaux du Synode pour le Liban.

Je sais que les générations de soeurs qui se sont relayées et dépensées à cette tâche sublime ou celles qui ont travaillé auprès des orphelines au Khan n'attendent pas leur récompense des hommes. Mais nous leur devons beaucoup: notre Eglise, nos familles et nos citoyens quelque soit leur appartenance religieuse leur doivent beaucoup. C'est pourquoi, je vous invite, chers amis, éleves, instituteurs et institutrices, a vous unir a moi dans ce St. Sacrifice de la Messe que j'offre a leurs intentions, a celles de leurs familles respectives et aux vôtres afin que

nos sœurs s'arment toujours du même zèle, du même courage qu'ont eu les premières générations religieuses installées autrefois sur ce rivage oriental de la méditerranée comme des phares toujours lumineux en pleine nuit et que notre Seigneur suscite dans vos familles de nouvelles vocations religieuses car la moisson est grande et peu nombreux sont les ouvriers.

كما وإنّ مدرسة راهبات مار يوسف الظهور المتقادمة العهد في دير القمر، قد بقيت مفتوحة بالرغم من الحصار الشديد الّذي فرض على البلدة، على إثر تهجير جميع القرى المجاورة من سكّانها المسيحيّين، وبالطبع كان لها أن تتحمّل تضحيات ماديّة كثيرة بطيبة خاطر، حفاظًا على عمل رسولي وتربوي مرموق، كان على راعي الأبرشيّة أن يعترف به ويقرّ بالتضحيات الّتي تحمّلتها الإدارة في هذا السبيل. ويرعاها بلفتة أبوية... وعين الراعي الساهر على شؤون رعيّته لا يغمض لها جفن ما دام في الرعيّة من يشكو ألمًا أو جوعًا أو حاجة...

وفي الجيّة حيث الحرب قضت على الحجر والبشر، فقد أغلقت المدرسة التابعة للرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة، وبقيت هكذا مغلقة على مدى سنين طويلة حتّى اليوم الّذي أعلن فيه عن إمكانيّة العودة، وحيث ذكريات في مكان آخر من هذا الكتاب عن مباشرتي الخاصّة بالقيام بزيارات إلى الجيّة، بقصد التشجيع والحثّ على العودة، بالمباشرة بإقامة قدّاس كلّ أحد هنا أو هناك، في باحات البيوت المهدّمة، ثمّ في كابلّا الدير، فتشجّع الأب يوسف القرّي رحمه الله وراح يزور الجيّة وهو أحد أبنائها ويعود إلى المطرانيّة في صيدا، متّخذًا له فيها مقرًّا إلى أن عادت الرهبانيّة الكريمة، وراحت تعمل على ترميم الدير والمدرسة المذكورة، حين أخذت طلائع السلام تلوح في الأفق.

مدرسة راهبات القلبين الأقدسين في جزين

وفي جزّين مدرسة لراهبات القلبين الأقدسين يتأمّن في أرجائها التعليم الابتدائي والتكميلي، بقيت فاتحة أبوابها أمام أبناء البلدة والجوار، كما كان يؤمّها قسم لا يستهان به من أبناء الدروز في الشوف، وكان لهذا التلاقي نصيب كبير في ترطيب الأجواء بين

مسيحيّي جزّين ومنطقتها ودروز الشوف، الّذين حافظوا على العهد، وأمّنوا طريق التواصل بين أبناء منطقة جزّين المسيحيّين وبين مصالحهم وأقاربهم في بيروت. وهكذا أبقيت الطريق عبر الشوف من جزّين إلى بيروت سالكة آمنة في أشدّ أيّام الحرب ضيقًا وهولًا. مرورًا بالباروك، عين زحلتا، ضهر البيدر، حمانا، المونتفردي...

مدرسة سيدة مشموشه

وعرفت مدرسة سيّدة مشموشة للرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة، تطوّرًا سريعًا وإقبالًا عليها كبيرًا من أبناء المنطقة، ومن أبناء المهجّرين إلى المنطقة من المناطق والمدن الساحليّة الّتي هجرها المسيحيّون. ومدرسة سيّدة مشموشة تلك أيضًا حافظت على المستوى التعليمي المحترم الّذي ساعد الناجحين في المدارس الثانويّة إلى دخول الجامعات في بيروت بسهولة بفضل ما كان يؤمّن لهم فيها من حسن التعليم وأصالة التربية والتوجيه.

مدارس جدَيْدة مرجعيون والقليعة

أمّا في مرجعيون حيث تجمّع عدد كبير من المهجّرين فالمدارس الابتدائيّة والثانويّة كانت حاضرة لتأمين التعليم لأبناء المنطقة، وللوافدين إليها بسبب التهجير. ففي مرجعيون مدرسة ثانويّة لراهبات القلبين الأقدسين، وفي القليعة مدرسة لراهبات مار يوسف دي ليون، كما أنّ الرهبانيّة الأنطونيّة المارونيّة قد افتتحت مدرسة ساعدت كأخواتها، سائر المدارس الخاصّة الأخرى على تأمين العلم لطالبيه في ذاك الزمن الرديء الّذي عاشه لبنان.

فضلًا عن الوضع المدرسي الّذي أشرت إليه بإيجاز في الأبرشيّة طوال سني الحرب، وقد ظلّ المجال التعليمي والتربوي فيه قائمًا إلى حدّ ما، على ما به من نقصان، أرى من الأهمّيّة بمكان إلقاء الضوء على مركز جامعة القدّيس يوسف للآباء اليسوعيّين، الّذي كان قائمًا قبل الحرب اللبنانيّة وفيه فروع تعليميّة ثلاثة: إدارة أعمال، واختصاص باللغة الفرنسيّة، didactique du francais، وفرع للتمريض. وكانت جميعها تؤدّي خدمات للطلّاب في المنطقة على اختلاف مذاهبهم وميولهم، وتوفّر عليهم الانتقال إلى بيروت، طلبًا للتخصّص بعد الدروس الثانويّة. كما استأجر الآباء في كفرفالوس من مؤسّسة الحريري عدّة بنايات، افتتحوا فيها بالاتفاق معه فروعًا تابعة لجامعتهم في بيروت، وظلّت مفتوحة أمام طالبي العلم

إلى أن اندلعت نيران الحرب بين صيدا وشرقيها، فقضت عليها كما قضت على المستشفى بقربها، المعروف بمستشفى الحريري. ولعبت به وبفروع الجامعة القائمة بقربه أيدي سبأ ولم تبقَ فيه ومن المحتويات النادرة والغالية الثمن على شيء. وحتّى الآن لا تزال بنايات الجامعة والمستشفى المذكور أطلالًا دارسة تنفيذًا لسياسة غاشمة قد يتحسّر اليوم الداعون إليها ومنفّذوها آنذاك على ما أتته أيديهم. ولكن، لات ساعة مندم. هذا في ما يختصّ بمستشفى الحريري وبفروع الجامعة القائمة بقربه، على منتصف الطريق في كفرفالوس بين صيدا وجزّين. وكم من غريب عن المنطقة أو من أبنائها يمرّ من هناك، ويتطلّع بحسرة وأسف على بنايات لا تنعى فقط من بناها بل وتنعي أيضًا من قضى عليها وجعلها أطلالًا دارسة تنفيذًا لسياسة حمقاء.

فرع جامعة الآباء اليسوعيين في البرامية

لنعد إلى فرع الجامعة في البراميّة الّذي ظلّ قائمًا ولا يزال حتّى أيامنا هذه، يخرّج أفواجًا من الطلّاب مسيحيّين ومسلمين، ويطلقها في المجتمع اللبناني للعمل المثمر البنّاء. وبقاء ذاك الفرع المذكور كلّف الرهبانيّة اليسوعيّة غاليًا جدًّا. وهو أنّ يد الغدر والحقد قد تطاولت على مديره الأب أندره ماس في ٢٤ أيلول ١٩٨٧، واغتالته في مكتبه في الجامعة صباح أحد الأيّام قبل أن يباشر عمله اليومي، إذ دخل عليه مجرم، وأطلق عليه النّار فأرداه قتيلًا أمام عيني أمين سرّ الجامعة، وفرّ هاربًا دون أن يمسك به أحد، ودون أن يُعرف فيحاكم قضائيًا حتّى الساعة. إنّ الأب المذكور، أندره ماس Andre Masse الفرنسي قد جاء إلى الفرع قبل اغتياله بثلاث سنوات، وراح يعمل بجديّة ونشاط على رفع مستواه وتعزيزه بحضور دائم وتوفير أساتذة أكفاء، للتدريس فيه، كما انفتح على الكنيسة المحليّة، واختلط بالمسؤولين فيها وعنها، وأخذ يتعرّف إلى حاجاتها. كما تبنّى مطالبها وراح ينقلها إلى الكنيسة في فرنسا، الّتي لم تكن على إطلاع حقيقي عليها، وكأنّه أصبح واحدًا من أبنائها، همّه كلّ همّه أن يعيش معها وفيها حاملًا معها الصليب الّذي كان على الباقين فيها أن يحملوه ويشهدوا له. وكم كان يردّد أمامي أنّ الكنيسة في فرنسا برؤسائها ومؤمنيها تجهل حقًّا أوضاع الكنيسة في لبنان. وكان له من خلال زياراته إلى فرنسا أن يشهد حقًّا لكنيسة لبنان في وطنه فرنسا، كما شهد لحبّه لها وتعلّقه بها بسفك دمه قيامًا بواجبه في مكتبه ذات صباح من أيّام أيلول المشؤومة.

نقل جثمانه إلى مدرسة الجمهور للآباء اليسوعيين حيث صُلّي عليه ودفن هناك في مدفن الآباء وشارك أفراد الهيئة التعليمية وطلّاب المركز في تشييع الجثمان والصلاة عليه بها وفي الذكرى الثانية لاستشهاده كانت لي الكلمة التالية:

أيها الأب الشهيد،

أحببت شعبنا حتى الموت، يوم كان الموت يحصد بلا شفقة المئات من المواطنين الأبرياء والعالم لا يأبه لما يجري عندنا... لقد جئتنا، حاملًا بيدك يراعًا وقرطاسًا تسطّر بهما نداءات السلام وعلى لسانك كلمة حقّ تدعو الناس إلى التلاقي، وفي صدرك فيض من حبّ يلهب الصدور... وفي عقلك دفق من علم زاخر يكشح غيوم الجهل عن نفوس تلهث وراء المعرفة والحقيقة، ورحت بذاك الذخر الثمين تستميت في عطاء بلا حساب...

واخترت مسرحًا لنشاطك بقعةً من أرض مزّقتها الأحقاد ودمّرتها الأهواء والمصالح الذاتية فعافها أهلها وأخلاها عنوةً السواد الأعظم من مالكيها فكنت الصوت الصارخ في بريّتنا واللبنة الأولى في إعادة البناء والعروة الوثقى في سلسلة متعدّدة الحلقات متباينة النزعات التقى على احترامها الأضداد فتحقّق مناك تواصلًا بين متنافرين وتقاربًا بين متباعدين...

عملت ما عملت بإيمان راسخ وعزم ثابت وتفانٍ كلي وشجاعة نادرة ما وهَنَت قط أمام تألب الهواجس عليك ومخاوف الأصدقاء من كيد المتضررين، وقد سقط لك إخوة في رهبانيتك ومواطنون شرفاء، صرعى الجهل الأعمى والتعصّب المجنون، قبل أن يكملوا الشوط إلى أن جاءَ دورك فهو يقاضي ساحة الشرف، رافع الرأس، ناصع الجبين.

وحوّلت يداك جنةً الرابية الجرداء الكئيبة التي لم تعرف من بنات الأرض سوى الشوك والطيّون والقندول، إلى جنّاتٍ غنّاء ضاحكة، تفتقد رعايتك لها يوم ضربتها يد السموم بموتك؟ ولم تبقِ إلّا على زيتونة فتيّة، ما استطاعت أن تتغلّب عليها لأنها نالت منك النصيب الأوفر... كيف لا؟ وأنت الساقيها من عرق جبينك، الراويها من دم قلبك... وفي كليهما نكهة من رائحة المسيح الطيبة وحياة أقوى من الموت...

أمامها نمرُّ، مدى السنة، مستطلعين، حائرين... والآن نلتفتُ حولها في حلقة متواضعة من المحبين، القادرين لفضلك، لا لكي نحيي ذكراك... بل لكي نستشفَّ من نضارتها أملًا في مستقبلٍ أفضل نتعهّده كلّ يوم في قلوبنا ونأخذ

عن تشبثها في التربة استزادة في الصمود وحبًا للوطن الجريح المعذّب... ولنلتقي مسيحيين ومسلمين، على الإفادة من عبرٍ تقدّمها لنا... ولها في تراثنا الروحي مقام مرموق.

يوم اخترتها من بين أشجار الأرض قاطبة استلهمتَ صاحب المزامير الذي غنّاها طويلًا فأجاد؛ وجعلت منها في باحة الجامعة نشيدًا توحيديًا يلتقي عليه طلّابها على اختلاف مشاربهم ومعتقداتهم فيتعالى نغمًا شجيًا من أفواههم، حافزًا على الثبات في وجه الأعاصير ودعوة ملحّة إلى قلب صفحة الماء البغيض وكتابة صكٍّ جديد مهرْتَه بدم الزكي وشهادة حية لرسالة مقدسة نذرت حياتك لها في خدمة الانسان فوفيت النذر كما أردت وكما تعهّدت أمام ربك وفاديك.

سفري إلى فرنسا في إجازة

أواخر صيف ١٩٨٨ التقيت المونسنيور بطرس حرفوش في جزّين في بيت الكاهن في زيارة الخوري ريمون خادم رعية جزّين، وإذ كان على معرفة بالمعاناة التي عشتها وأعيشها في الأبرشية خلال تلك السنوات الصعبة من الحرب وبخاصة في صيدا والجوار والتي ما تركتها لا نهارًا ولا ليلًا، دعاني إلى قضاء عطلة شهر اعتبرها عطلة ضرورية لمتابعة العمل في ضيافته في البيت اللبناني في باريس وألحّ عليّ فقبلتها. أما موعدها فلم يحدّد نظرًا إلى الظروف التي لا يمكن لنا إلّا أن نأخذها بالاعتبار لأنه ما كان يمكنني أن أسافر إلّا إذا سمحت لي الظروف بذلك. وفي أحد الأيام تدبّرت أوراق السفر وعزمت عليه، بينما كانت التفجيرات قائمة على قدم وساق في بيروت وضواحيها. رافقني الخوري طانيوس الخوري إلى بيروت ومنها أقلتنا طائرة من طيران الشرق الأوسط وحطّت بنا في مطار قبرص ولم أدر ما هو السبب ومن هناك أقلتنا طائرة أخرى إلى باريس دون أي انزعاج على متنها ولا حين هبوطها في مطار باريس حيث كان المونسنيور قد أرسل أحد الآباء لاستقبالي ومرافقتي إلى البيت اللبناني الذي استقبلني على الرحب والسعة وأحسن وفادتي على مدى خمسة عشرة يومًا. وبينما كنت هناك اتّصلت هاتفيًا بابن عمي جان عازر حلو المقيم هو وعائلته وإخوته وأخواته في ولاية فلوريدا من الولايات المتحدة الأميركية، فدعاني بإلحاح إلى المجيء إلى الولايات المتحدة لرؤية الأقارب فيها. ولمّا لم يكن لديّ تأشيرة سفر إلى أميركا فقد حصلت

عليها من القنصلية الأميركية في باريس بعد تدقيق في الأسئلة التي ما كان لي عهد بها من قبل. وهناك جرى بيني وبين المسؤول الذي استدعاني إليه دون أن يعرّفني بنفسه حديث لا بدّ من ذكره بالتفصيل.

بينما كنت مع عشرات المسافرين الطالبين إذنًا بالسفر استدعاني أحد الموظفين دون أن أعرف رتبته أو اسمه وأخذ يطرح عليّ أسئلة: بدأتُ بالتعريف عن حالي وعن محل إقامتي في باريس وإقامتي في لبنان بكلّ وضوح. ولما قلتُ له إنني في لبنان مقيم في صيدا بحكم وظيفتي على صعيد الأبرشية والرعية وأنوي الذهاب إلى مدينة جكسنفيل من أعمال فلوريدا حيثما يقيم أبناء عمي المولودون في أميركا لأقضي معهم وبينهم ما بقي لي من العطلة السنوية وهي خمسة عشرة يومًا قال: «وماذا تعمل في صيدا وهي مدينة إسلامية؟» أجبتُ شغلي في صيدا وأنا فيها منذ السنة ١٩٥٣ فزاد تعجّبًا قائلًا: «سأعطيك خمس سنوات يمكنك أن تقضيها في الولايات المتحدة»، فقلتُ إن مدة إقامتي عند أقاربي محدودة أعود بعدها إلى مقرّ عملي في صيدا، فما كان منه إلّا أن قال وقد ظهر على محياه بعض التعجّب: «ما دمت مقرّرًا ذلك الله يحميك! الله يحميك!» أما من كان ذلك الموظّف فلست أدري ولمَ أظهر لي تلك الغيرة على حياتي؟ لست أدري إن كان يهوديًا إسرائيليًا عالمًا بخفايا الأمور وبما يبيت للبنانيين من مكائد أم أميركيًا ضالعًا في الأمور وفي ما كان يتدبّر في كواليس الدول العظمى من مطبّات للشعب اللبناني الضعيف ولسائر الشعوب العربية لكي تظل قاصرة عن تدبير أمورها بنفسها؟ وبعد أقل من سنتين حدثت في لبنان أمور أحرقته وجعلته تحت حكم السوريين بطريقة مباشرة. وبات حكامه من كبيرهم إلى صغيرهم دُمى بين أيدي السوريين يحرّكونها كيفما شاؤوا وطاب لهم تنفيذًا لمصالحهم الخاصة.

غير أنّ كلّ ما جرى لم يفت من عضدي ولم يمنعني من متابعة رسالتي الكهنوتية على ما فيها من مخاطر، لأن إيماني بالعيش المشترك يتطلّب من العاملين به المحافظين عليه تضحياتٍ جلّى كان لا بدّ منها ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا؛ كما رفضت الانكفاء على الذات واختيار الخط الأسلم والطريق الأقل خطرًا قيامًا بالواجب الذي نذرت ذاتي له. وأمل بعد كلّ ذلك أن أكون مقبولًا لدى الله ولدى الناس الطيبين الذين يضعون المصلحة

العامة للكنيسة فوق مصالحهم الشخصية. ومن باريس سافرت إلى جكسنفيل في الولايات المتحدة حيث قضيت خمسة عشر يومًا في ضيافة أبناء عمي الذين فرحوا بي وأكرموني ومن جكسنفيل عدت إلى باريس ثم إلى لبنان...

الفصل الثاني عشر

بداية تبلوّر فكرة عودة المهجّرين

بعد خمس سنوات ونيّف من تهجير المسيحيين من الجبل وثلاث سنوات ونصف من تهجيرهم من إقليم الخروب وشرقي صيدا وساحل جزّين، جرى اتّصال من قبل الأستاذ وليد جنبلاط ببعض المسيحيين وبعض رجال الإكليروس ودعاهم إلى لقاء يشارك فيه المسيحيون والدروز اتخاذًا لموقف من أمرين:

أ- رفض الفرز الطائفي وتقسيم لبنان إلى كانتونات طائفية.

ب- عودة المسيحيين إلى منازلهم وقراهم في جبل لبنان، العامود الفقري للوطن والحجر الأساس في وحدة الوطن.

بعد تشاور على عدّة مستويات بدأت الاجتماعات التحضيرية في قصر المير أمين في بيت الدين حيث كان يجتمع نخبة من الشبان المسيحيين بينهم الآباء مرسيل أبي خليل وسليم الغزال ويوحنا الحلو. وكان ينضمّ إليهم مندوب السيّد جنبلاط وأمين سير الإدارة المدنية السيد هشام ناصر الدين. وتواصلت الاجتماعات على مدى شهرين تقريبًا انتهت ببيان أو بما يسمّى «ورقة عمل» من أربع صفحات طبعت ووزّعت مع دعوة من السيّد وليد جنبلاط إلى ما يقارب الألفي شخص مسيحي من رجال دين ودنيا للمشاركة في لقاء يعقد في قصر المير أمين في بيت الدين في السابع من كانون الثاني ١٩٨٩.

حضر هذا المؤتمر أربعة مطارنة هم: المطران إبراهيم الحلو، والمطران جورج كويتر راعي أبرشية صيدا ودير القمر للروم الكاثوليك، والمطران بولس بندلي راعي أبرشية عكّار للروم الأورثوذكس. كما شارك في الاجتماع عدد كبير من الرسميين سفراء ووزراء ونواب حاليين وسابقين وعدد من رجال الإكليروس والراهبات وجمهور غفير ناهز عدده الألفي نسمة. وتكلّم عدد من خطباء جرت مداخلات كثيرة اتّسمت معظمها بالإيجابية بعيدًا عن النعرات الحزبية والطائفية. وكانت كلمة افتتاح اللقاء لي وهذا نصّها:

أصحاب المعالي والسيادة والسعادة، أيها المحتفل الكريم

ما أطيب وما ألذ أن يسكن الإخوة معًا مزمور ١: ١٣٢

يشرّفني أن أحييكم بهذه الكلمة من مزامير داوود، أنتم يا مَن قدمتم من أنحاء لبنان كافة رؤساء روحيين ورجال فكر وقلم وسياسة تلبية لدعوة كريمة أطلقها في هذا الظرف العصيب من تاريخ لبنان حضرة الأستاذ وليد بك جنبلاط. وقد توسّمتم فيها تباشير سلام طال ما تاقت إليه النفوس خلال سنوات الحرب الطويلة والمدمّرة.

بإسم اللجنة التحضيرية لهذا اللقاء الذي كان لي فرح المساهمة في أعمالها، أرحّب بكم جميعًا، راجيًا للقائنا هذا النجاح المنشود، وفقًا لما أراده مجلس المطارنة الأجلاء في اجتماعه الأخير برئاسة غبطة أبينا السيد البطريرك الداعي إلى عودة المهجّرين إلى قراهم وأرزاقهم عودة كريمة حرّة آمنة قائمة على الوفاق الذي هو الطريق الأقرب والآمن إلى الخلاص.

وفّقنا الله جميعًا إلى المشاركة في صنع السلام الحقيقي في مطلع هذه السنة الجديدة إرساءً لأسس لبنان الجديد على العدل والمحبّة والمساواة لنستحق إذّاك الطوبى من فم المعلّم الإلهي القائل: طوبى لصانعي السلام فإنّهم أبناء الله يدعَون.

بعد كلمتي، ألقى صاحب الدعوة الأستاذ وليد جنبلاط كلمةً شاملة عبّر فيها بوضوح عن الغاية من هذا اللقاء وعن ضرورة عقده في هذا الظرف بالذات. ثم توالى على المنبر الخطباء: المطران بندلي، الخوري سليم الغزال، الأستاذ إيلي حبيقة، الأستاذ خليل خيرالله، الأستاذ جورج ديب نعمه رئيس بلدية دير القمر والسيّدان إنعام رعد وشوقي خير الله...

أما المفاجأة فهي أنّ وليد جنبلاط دعا جميع الحاضرين حالًا بعد الغذاء إلى تناول القهوة في ضيافة المطران إبراهيم الحلو في الكرسي الأسقفي، فانتقل الجميع سيرًا على الأقدام صفًا واحدًا يتقدّمهم المطران إبراهيم والأستاذ جنبلاط. وتمنّى سيادة المطران بولس

الخوري بعد أن هنأ المطران إبراهيم على استعادة كرسيه في بيت الدين أن يستعيد هو أيضًا كرسيه في جديدة مرجعيون قبل أن يوافيه الأجل. ولكن المفتاح لم يسلَّم يومذاك.

كانت تلك الدعوة نوعًا من كسر الجليد القائم بين الزعيم الدرزي والمطران. صحيحٌ أن تسليم مفاتيح الكرسي الأسقفي لم يتمّ آنذاك، لكن الأخير اعتبرها بادرة طيّبة وخطوة أولى على طريق المصالحة التي لن تتأخر وقد بدأ وليد بك الاستعداد لها بإفراغ الكرسي ممن كانوا يشغلونها. وآخرهم الأستاذ سهيل القش من طائفة الروم الكاثوليك من زحلة وهو أستاذ في الجامعة اللبنانية قد طلب منه وليد جنبلاط كتابة سيرة المرحوم والده كمال جنبلاط دون أن يوفّق إلى القيام بذلك العمل وفق ما كان يتمناه الابن.

بقي همّ تسليم مفاتيح الكرسي إلى المطران شاغلًا البال. وبعد مدة، وبينما كنت والمطران في زيارةٍ تفقدية لوليد بك في ذكرى اغتيال والده وبينما كانت الدار بجميع صالوناتها الكبيرة والصغيرة تغصّ بالوافدين وبينهم نواب ووجهاء وعسكريون كبار لبنانيون وسوريون، استدعاني من بين الحضور وليد بك وأخرجني إلى شرفةٍ تطلّ على الجانب الشرقي الشمالي من الجنينة، وأغلق الباب وراءنا وأسرّ إليّ قائلًا: «عن قريب سأسلّمكم مفاتيح المطرانية في بيت الدين بعد أن أجد مكانًا أنقل إليه منها سهيل القش.» وبالطبع شكرته ودعوت له بالخير والطمأنينة ولعائلته بالسلام ثم قلت له: «أرجوك وليد بك قبل أن تسلّمنا المفاتيح بساعات قليلة، أرجوك تنبهنا لكي نتدبّر شوية ماي مصلايي لنرش الكرسي فيها بعد خروج سهيل منها.» لسماعه هذا الكلام ضحك طويلًا وتمسّك بحديد الشرفة واحمرّ وجهه، ثم أردف قائلًا: «طيّب طيّب.» ودخلنا معًا من الشرفة إلى الصالون، وبقيت تلك الكلمة في باله ردّدها عليّ ضاحكًا عندما ودّعناه على أعلى درج القصر...

إنتهى الاجتماع في قصر المير أمين ببيان ختامي توزّع على الصحافيين ورجال الإعلام كما أنشئت لمتابعة العمل ثلاث لجان:

أ- لجنة متابعة (كنت عضوًا فيها).

ب- لجنة تنفيذية (كنت عضوًا فيها).

ج- لجنة دراسة وإعلام.

وتعيّن يوم الجمعة ١٣ كانون الثاني موعدًا للقاء أعضاء اللجان الثلاث في قصر المير بشير (قصر الشعب) في بيت الدين الساعة العاشرة صباحًا.

موقف السلطات الروحية

أثناء الاجتماعات التحضيرية للّقاء الذي جرى وتكلّمنا عنه طلب إليّ أن أرأس لجنة من خمسة أعضاء أنيط بها الاتصال بغبطة السيّد البطريرك مار نصر الله بطرس صفير وبسائر رؤساء الطوائف المسيحية الأخرى. وكانت الزيارة الأولى إلى غبطة البطريرك صفير وعرضنا له ما نقوم به وما ننوي تحقيقه فكان لغبطته موقف إيجابي من التحرّك المذكور. إنّما حذّرنا من حدوث شرخٍ وانقسام في صفوف المسيحيين، وبخاصة لدى المهجّرين الذين يتوقون إلى العودة. وأمر العودة هذا يجب معالجته بالطرق السلمية دون سواها لأنّ اللجوء إلى السلاح مكروه لدى الجميع ... وغطّت وسائل الإعلام تلك الزيارة ودوافعها ونتائجها المرجوّة، وأحدثت ضجّة في الأوساط المسيحية، وبخاصة لأنّ مَن دعا إليها زعيم معروف كان يهاجم السيّد البطريرك والكنيسة في خطبه وأحاديثه وما كان يوفّر أحدًا بينهم من انتقاداته اللاذعة...

أجرينا اتصالًا كذلك بالسفير البابوي في لبنان المطران لوتشيانو أنجلوني وأطلعناه على حقيقة ما نقوم به، فبارك هذا التحرّك خدمةً لمصلحة المهجّرين وإحياء السلام المفقود بين المواطنين.

وإذ لمست لدى السيّد جنبلاط رغبة صادقة في إعادة الاتّصال بالسلطة الكنسية المقطوع منذ سنوات، وبخاصة مع السفير البابوي، عرضت عليه أن أقوم شخصيًا بالعمل على إعادة الحوار المقطوع شرط أن يوقف حملته ضد البطريرك ورجال الكنيسة. فوعدني وعدًا قاطعًا بأنّه على أتمّ الاستعداد للقيام بذلك، إذّاك اتّخذت موعدًا من سيادة السفير البابوي فقابلته وعرضت عليه رغبة السيّد جنبلاط الملحّة بمقابلته، تردّد سيادته وتريّث في إعطاء الجواب ريثما يتمّ التشاور مع غبطة السيّد البطريرك على ألّا يكون اللقاء بالسيد جنبلاط إلّا بعد لقاء بيت الدين الذي كان يحضّر له في السابع من كانون الثاني ١٩٨٩. وفي الواقع، فقد تمّت زيارة السفير البابوي للسيّد وليد جنبلاط في بيته الكائن في المنطقة

الغربية في بيروت، بدلًا من أن تتمّ في كنيسة مار فرنسيس للآباء اللاتين في رأس بيروت. وأبى السفير البابوي الإطلال في وسائل الإعلام والحديث عن الزيارة.

زيارة منطقة دير المخلّص

تجاوبًا مع القرار المتّخذ، قام أعضاء اللجنة يوم الأربعاء ٢٥ كانون الثاني ١٩٨٩ بتفقّد قرى منطقة دير المخلّص للاطّلاع على أحوالها والوقوف على حاجاتها. فقمنا بزيارة القرى التالية: خربة بسري والمحتقرة حيث البيوت لا تزال قائمة، إنما تحتاج إلى ترميمٍ وتأهيل. إنتقلنا إلى قرى بكيفا ومزموره ومزرعة الضهر والجليلية والمطلّة فوجدناها مهدومة كليًّا بما فيها الكنائس، لما انتهينا من زيارة القرى المذكورة عدنا إلى دير المخلّص الذي استضافنا على الغداء مع مرافقينا من أفراد الحزب الاشتراكي المسلّحين. انتقلنا بعد الغداء إلى بلدة جون من دون أن نجول فيها وبين بيوتها التي ما زالت قائمة ما عدا بيت واحد مهدوم، وكنيسة الموارنة لا تزال قائمة إنما بحاجة إلى نوافذ وأبواب وترميم من الداخل، وتلك أيضًا كانت حال كنيسة الروم الكاثوليك... وطلب منا مقرّر اللجنة السيّد ضاهر غندور عدم زيارة بيوت المسيحيين وتفقّدها وإرجاء ذلك إلى موعدٍ آخر لاحق، ريثما يتمّ الاتصال بالأستاذ نبيه برّي لأن معظم بيوت المسيحيين كان يسكنها أناس من الشيعة.

تابعنا الطريق إلى علمان الممتدة من جسر الأولي القديم حتى تلّة الحمّار وأطراف مجدلونا وهي بلدة تضمّ ثلاثمئة وعشرة بيوت وكنيستين، إحداهما قديمة جدًا على اسم يوحنّا المعمدان والثانية على اسم مار مارون وكلتاهما مهدومتان ومجروفتان كليًّا على غرار بيوت علمان. أما في منطقة البرغوتية فالكنيسة القديمة المشيّدة على اسم مار أنطونيوس الكبير والتي تحتاج إلى ترميم، فقد خلصت من الهدم وهي تقوم في الحي الأعلى من البلدة على الطريق العام...

إنتهت الزيارة التي شارك فيها السيد محمّد أبو العرم مقرّر اللجنة والدكتور ضاهر غندور والشيخ توفيق بركات، المحامية تريز عيد، السيّد إيلي عيد، الراهبة جان سيدة، الدكتور أنطوان ضاهر، الأستاذ نزيه يمّين وكاتب هذه السطور. كما قام بدراسة عامة للأوضاع المهندس المعماري حبيب سميا ومهندس آخر اختصاصي بالشؤون الكهربائية.

وكان المقصود من تلك الزيارة التفقّدية الاطّلاع على أحوال القرى التي يجب العمل على إعادة الأهالي إليها.

لقاءٌ في بيت الأستاذ سامي يونس

يوم الجمعة الواقع فيه ٢٧ كانون الثاني ١٩٨٩ عقدت لجنة الاتّصالات الداخلية المنبثقة عن اللجنة التنفيذية اجتماعها الأوّل في بيت الأستاذ سامي يونس، غربي بيروت، الساعة العاشرة صباحًا. وانضمّ إلى صاحب البيت نائب الشوف زاهر الخطيب والأستاذ أنطوان الأشقر والأرشمندريت عصام البيطار ممثّلًا سيادة المطران جورج خضر متروبوليت جبل لبنان للأرثوذكس وكاتب هذه السطور ممثّلًا سيادة المطران إبراهيم الحلو. دام الاجتماع حتى الثانية عشرة والثلث جرت فيه مناقشات أمور متعدّدة وتمّ الاتفاق فيها على النقاط التالية:

١ – تأكيد أهمّية هذه الخطوة من حيث أبعادها الإنسانية والاجتماعية الوطنية.

٢ – إستعادة وحدة الجبل من خلال إعادة المهجرين وصولًا إلى استعادة وحدة البلاد.

٣ – ضرورة فصل قضية المهجّرين عن القضية السياسية والأزمة العامة.

٤ – التدرّج والواقعية في العمل.

٥ – إنجاح الخطوة بحصرها ضمن الإطار الذي وضعها فيه صاحب المبادرة.

٦ – الاتّصالات.

قبل أن ينتهي اللقاء تسلّمت وسائل الإعلام بيانًا مكتوبًا عن الاجتماع ومقرّراته وتعيّنت جلسة قادمة في بيت الدين يوم الجمعة ٣ شباط القادم بعد انعقاد الجلسة العامة للّجنة التنفيذية.

إفتتاح كنيسة مار أنطونيوس في الرميلة

قلنا في حديثنا عن تهجير الشوف إن الرميلة استعادت بعض عائلاتها في الأسبوع الأوّل للتهجير بفضل الجو الذي خلقه الأستاذ الياس عطا لله مع الزعيم جنبلاط والحزب

الشيوعي المرابط في الرميلة. أمام هذا الواقع وتشجيعًا من قبلنا للعائدين، حاولت غير مرّة أن أقيم القدّاس يوم الأحد للمقيمين في أحد البيوت وكانوا يتهرّبون خائفين ويقولون نحن ننزل إلى صيدا ونسمع القدّاس في مار الياس. وبقيت ملّحًا على طلبي حتى قبلوا بأن أقدّس للعائدين في أحد بيوت الياس نجم الساعة التاسعة من يوم الأحد. وبينما كنت أجمع أغراض القدّاس في الحقيبة جاءني تلفون من صاحب البيت الذي كنت مستعدًا أن أقيم القدّاس فيه ورجاني بألّا أذهب فرضخت لذاك الطلب الملّح، ولكني لم أيأس. والتقيت خلال الأسبوع الأستاذ الياس تابت وقلت له بأني سأذهب وأقيم القدّاس عندك في البيت، وهكذا صار لكن عدد الحاضرين اقتصر على أهل البيت. ولكن ذلك التحدي أعطى نتيجة وجاءني أحد الموجودين المدعو جميل عطا لله شقيق الياس عطا لله، وقال لي يوم الأحد القادم يمكننا أن نسمع قدّاسك في الكنيسة وسنعمل في هذا الأسبوع على تنظيفها وهكذا صار.

في الخامس عشر من كانون الثاني ١٩٨٩، بعد أن دبّرنا ثلاثة أبواب خارجية للكنيسة، أقمت فيها القدّاس في الساعة ٩,٣٠ بعد إغلاقها عن الاحتفالات الدينية على مدى أربع سنوات. تعرّضت خلالها للسرقة والنهب حتى النوافذ الحديدية خلعوها من الأساس. وجاء أهالي الرميلة من العائدين المقيمين ومن المهجّرين الذين لم يعودوا بعد شيوخًا ونساءً وأطفالًا وحضروا القدّاس واقفين والهواء البارد يلعب في الكنيسة وكأنهم في عيدٍ متأثّرين بالعودة سالمين...

الساعة الثالثة والنصف من يوم الثلاثاء الواقع فيه ١٧ كانون الثاني ١٩٨٩ احتفل سيادة المطران إبراهيم الحلو بالقدّاس الإلهي عيد مار أنطونيوس الكبير شفيع الرعية وعاونه الأبوان طانيوس الخوري والياس إيليا كاهن الرعية الذي قدم من بعيد خصيصًا لهذه الغاية. وبما أن الأنطش كان مأهولًا ولم يستطع اللجوء إليه، استقبله أحد أبناء الرعية في بيته بانتظار إخراج المحتلّ من بيت كاهن الرعية. كان الطقس عاصفًا والأهالي متأثّرين وقد دمعت عيون الكثيرين بينهم. ونقل الاحتفال بالقدّاس تلفزيون لبنان فشاهده الكثيرون ممن لم يستطيعوا الحضور، وأشاع ذلك الاحتفال المتلفز التفاؤل بقرب حلول الفرج بعد خمس عشرة سنة من الحرب والتقاتل.

هنا تجدر الإشارة إلى أن أحد تجّار دهانات البويا في صيدا، وهو مسلم، أرسل ثلاثة معلّمين من صيدا وأربع غالونات بويا لطرش الكنيسة من الداخل على علو مترين لمحو ما كان مكتوبًا ومصوّرًا عليها من دون أن يأخذ غرشًا واحدًا، تشجيعًا على العودة ومساهمة في محو آثار التهجير.

إغتيال أنور الفطايري

في الاجتماع الذي عقد في قصر المير بشير في بيت الدين الذي ضمّ عددًا كبيرًا من المشاركين يوم الجمعة في ٣ شباط ١٩٨٩ كان حوارٌ صريح بين المجتمعين وتفكير جدّي في ما يجب القيام به من أجل إعادة المياه إلى مجاريها. قال أنور الفطايري، أمين السرّ السابق للحزب التقدّمي الاشتراكي وقائد جيش التحرير الشعبي–قوّات الشهيد كمال جنبلاط، الأسبق وعضو اللجنة التنفيذية للقاء بيت الدين وأحد أعضاء لجنة دير القمر ومنطقتها، وقف وبكلّ صراحة وجرأة قال في المجتمعين: «ماذا جنى الدروز من هذه الحرب العبثية؟ وماذا ربحوا من هدم البيوت والكنائس وتهجير الناس؟ العودة إلى الذات ضرورية للمحاسبة.» كما جاءني على حدة في وقت الاستراحة يطلب مساعدة في تسهيل مقايضة بين عقارين في بلدية البرامية بين عقار للوقف وعقار يملكه أحد المواطنين الدروز فوعدته بدرس الطلب مع السلطة المختصة.

يوم الخميس الواقع فيه عيد مار مارون ٩ شباط اصطحب أنور الفطايري بعض أهالي سرجبال ووادي بنحليه لتفقّد بيوتهم وأرزاقهم للمرّة الأولى بعد تهجيرهم عنها ورافقه في السيارة السيّد جورج ديب نعمه رئيس بلدية دير القمر. وبعد الانتهاء من تفقّد بيوتهم في القريتين المذكورتين راحوا باتجاه بلدة الجاهلية، ولكن قبل أن يدخلوها بسياراتهم، اعترضهم حاجز مسلّح فترجّل أنور الفطايري من سيارته وكذلك جورج ديب الذي كان برفقته، وانتهر أنور المسلّحين فأمطروه وابلًا من الرصاص فقتل على الفور أنور، وجرح مرافقه وجرح جورج ديب في رجله. أما الباقون فقد أحاط بهم الأهالي الذين خرجوا من منازلهم وأدخلوهم إليها وحموهم من المسلّحين الذين فرّوا هاربين. وعلى الأثر شاع هذا الخبر في الجبل وفي أنحاء لبنان وأثار موجة من الخوف والقلق على مصير المبادرة وكثّف الاشتراكيون حواجزهم

واستنفروا قوّاتهم المسلّحة وداهموا القرى المجاورة وألقوا القبض على الجناة وأودعوهم السجن قيد التحقيق...

في اليوم التالي جرى تشييع جثمان الشهيد أنور الفطايري ومرافقه في قصر المختارة، واشترك مطارنة صيدا والكهنة في تقديم التعازي في جوّ حزين وكئيب وممطر. وعند الساعة الخامسة مساءً عدنا إلى الكرسي الأسقفي في صيدا.

إجتماع يوم الجمعة ٣ آذار في قصر بيت الدين

بدأت الوفود تدخل إلى قصر المير بشير ضمن ترتيبات أمنية مشدّدة. حضر الاجتماع وليد جنبلاط والمطارنة إبراهيم الحلو وجورج كويتر وجورج خضر والأباتي باسيل هاشم، رئيس عام الرهبانية المارونية اللبنانية، وعدد من الكهنة والوزراء والنواب. بدأ الاجتماع بدقيقة صمت وقوفًا إكرامًا للشهيد أنور الفطايري. تكلّم المطارنة إبراهيم الحلو وجورج كويتر وأبديا أسفهما لاغتيال الشهيد. ثم قام بعدهما الأستاذ وليد جنبلاط متشنّجًا ومضطربًا، آسفًا شديد الأسف لما حصل واتّهم بكلّ صراحةٍ ووضوح السيّد فريد حماده (وهو درزي) بمقتل أنور الفطايري. وهو يقيم اليوم في المنطقة الشرقية في حمى القوّات اللبنانية والعماد ميشال عون رئيس الحكومة العسكرية وأبدى انزعاجه من البطريرك الماروني مار نصر الله بطرس صفير لكونه استقبل فريد حماده في بكركي رغم أنه كان عارفًا بأنه متهم بمقتل أنور الفطايري... ووجّه جنبلاط سيلًا من الانتقادات اللاذعة إلى السلطات الروحية والفاعليات المسيحية التي لم تتجاوب مع الدعوة التي أطلقها بشكلٍ يضمن نجاحها السريع. وذكر البطريركية المارونية وسليمان فرنجية وريمون إدّه وسواهم حتى جعل جميع الرؤساء الروحيين يعيشون وكأنهم في قفص الاتّهام فلا يحقّ لهم الدفاع عن أنفسهم كيلا ينفجر الموقف أكثر فأكثر، وبخاصة لأن أمين سرّ اللجنة كان قد وزّع ورقة عمل صنّف فيها الناس ثلاثة أنواع تجاه مبادرة وليد جنبلاط. واتّهم الكنيسة بالتقصير وأنحى عليها باللوم لكونها لم تمنع السيّد قيصر نصر مندوب القوّات من الذهاب إلى الفاتيكان وأوروبا مبشّرًا بخلاف مبادرة وليد جنبلاط ومحرّضًا الناس عليها. وبعد أن انتهى وليد من الكلام، تعاقب الكثيرون على الكلام فمنهم من ألقى الزيت على النار وزادها تأجّجًا ومنهم من حاول التخفيف من

حدتها من دون الوصول إلى نتيجة مرضية. وظلّ الجوّ على هذا النحو حتى الساعة الواحدة وانفضّ الاجتماع من دون تعيين موعد آخر... وراح الناس يتحدثون في حلقات صغيرة في المماشي وممرات القصر.

قبل أن أغادر قاعة الاجتماعات الكبرى، دنا مني الشيخ توفيق بركات رئيس المحكمة لدى الحزب التقدّمي الاشتراكي. وأسرّ إليّ بكلمات موجزة طالبًا أن يراني لوحدي في أقرب وقت ممكن. وقلت له: «أين»؟ فقال: «أتمنى عليك أن يكون عندي في البيت.» وإذ قلت إنني لا أعرف أين يسكن، أجاب: «غدًا صباحًا عند الساعة الثامنة والنصف ألتقيك على دوار بعقلين. وهناك أنتظرك حتى الساعة التاسعة صباحًا فافترقنا متفقين على التلاقي في ذاك المكان والزمان المحدّدين.

يا لها من ليلة ساورتني فيها الهموم والهواجس حول ذاك اللقاء المرتقب، بخاصة بعد الذي سمعناه خلال اللقاء الصاخب. ولما صرنا في السيارة أطلعت سيادة المطران إبراهيم فشاطرني القلق هو أيضًا. وبينما كنت أتحدّث مع الشيخ توفيق سألته عمّا إذا كنت أستطيع أن أصطحب معي الأستاذ نزيه يميّن فرفض، وأصرّ على أن أكون وحدي وإن يكن نزيه صديقًا له ومحازبًا اشتراكيًا قديمًا ووفيًا.

صباح السبت ١٤ آذار استأجرت سيارة عمومية من مكتب شهرزاد وذهبت إلى بيت الدين فوصلت إلى دوار بعقلين الساعة الثامنة وخمسًا وعشرين دقيقة أي قبل الموعد المعيّن بخمس دقائق فلم أجد أحدًا على الطريق، بينما كان المسلّحون منتشرين على التلال المجاورة يستفيدون من دفء شمس آذار. بعد دقيقتين من الانتظار جاءت سيارة خصوصية تقلّ الشيخ توفيق بركات وهو جالس إلى جانب سائقها. وإذ رآني ترجّل ونزلت أنا أيضًا من سيارتي وتصافحنا، ودعاني إلى أن أصعد في سيارته على المقعد الخلفي إلى اليمين، وهو إلى يساري، وطلب من سائق السيارة العمومية أن يلحق بنا. وصلنا معًا إلى منزل شقيقة الشيخ توفيق واعتذر عن عدم دعوتي إلى بيته كيلا يثير الشكوك حول هذه الزيارة على حدّ ما قال لي... إجتمعنا معًا على حدة في صالون البيت وراح يفضي إليّ بمكنونات صدره. وأسّر لي بإسم قاتل أنور الفطايري، أحد أفراد الحزب التقدمي الاشتراكي، وآخر من آل أبو دياب من بلدة الجاهلية تنفيذًا لتحريضٍ قام به السيّد فريد حماده الذي ذكره سابقًا

السيّد وليد جنبلاط أمس الجمعة أثناء الاجتماع في قصر بيت الدين. وذاك ما ظهر جليًا من خلال التحقيق الذي قام به الشيخ توفيق المذكور، رئيس المحكمة... وطلب مني أن أحتفظ بهذا السرّ لنفسي... أما المقصود من إطلاعي على هذا السرّ فهو العمل والضغط على المسؤولين في المنطقة الشرقية ابتداءً من بكركي، مع الرجاء الحار لغبطته بألّا يعود يستقبل على الرحب والسعة السيّد حماده المذكور. وأن كان لا بدّ من استقباله فيكون من دون الإعلان عنه. هكذا كان رأي الشيخ توفيق بإيعاز من السيّد جنبلاط، ولكنها مهمّة شاقة وغير مقبولة وكيف لإنسان أيًا يكن مركزه الاجتماعي أن يوعز إلى السلطة الروحية، إلى البطريركية المارونية باتّخاذ موقف معيّن من شخص غريب عنها. والعمل المطلوب كذلك مني وممن أستعين به هو أن أسعى لدى دولة الرئيس العماد ميشال عون طالبًا إليه أن يرفع الحماية عن فريد حماده، لكونه يسيء إلى المبادرة التي أطلقها جنبلاط، إذ اغتال أنور الفطايري، بعد أن اغتال على يد شخص آخر، ألقى القبض عليه في حينه الشيخ حليم تقي الدين في بيته في بيروت الغربية. كما طلب أن تعمل بكركي على إقناع العماد ميشال عون بأن ينشئ مجلس إعمار الجبل، كيلا يسبقه إلى ذلك الرئيس الحصّ الذي لن يكون لمجلسه قوّة لا في الداخل ولا في الخارج. ومما قاله لي الشيخ توفيق أنه طلب من السيد سمير عون ابن المرحوم الدكتور عزيز عون أن يذهب من قبله إلى العماد ميشال عون ويقبّله عنه. ويطلب منه بإسمه العمل على إنشاء مجلس الجبل لأن وليد جنبلاط قد أصبح عاجزًا عن إعادة تعميره. كما طلب من اللواء محمود طي أبو ضرغم، عضو اللجنة التنفيذية، أن يتصل هاتفيًا بالعماد ميشال عون ويسأله الإسراع في إنشاء مجلس الجبل ... أمور سرّية أطلعني عليها الشيخ توفيق بركات وطلب مني أن أحتفظ بها سرًّا إلى زمن. وقمنا أيضًا بجولات عدة تناولنا فيها سير المبادرة الجنبلاطية، وما يواجهها من صعوبات ومشاكل معقّدة. غير أن جنبلاط لن يتراجع عنها على حد ما قاله لي على أثر اجتماع اللجنة التنفيذية أمس في قصر الشعب في بيت الدين ... وها إني أسجّلها للمستقبل القريب والبعيد، تنويرًا للأذهان وإلقاء لبعض الأضواء على منعطفٍ من التاريخ اللبناني الماروني الدرزي الحافل بالأحداث ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا عسى أن يجد فيها الخلف ما يتعظ به تداركًا لما نعاني

منه حاليًا في الجبل والشوف والجنوب ولاسيّما وأن القسم الأكبر من أبرشيتنا صيدا يقع في الشوف من الجبل ...

المؤتمر الصحفي المفاجئ والصاخب

صباح اليوم التالي الأحد ٥ آذار ١٩٨٩ أخذت وسائل الإعلام تتحدّث عن مؤتمرٍ صحافي يعقده الأستاذ وليد جنبلاط في المختارة الساعة الحادية عشرة صباحًا، بينما كان منتظرًا مجيئه إلى صيدا للمشاركة في الحفلة التي تقام في دوحة المقاصد الإسلامية إحياء للذكرى الرابعة عشرة لاغتيال المرحوم معروف سعد. وقد نقلت جريدة الأنوار في عددها الصادر في ٦ آذار ١٩٨٩ وقائع المؤتمر على صفحتها الثانية:

[...] أما المبادرة التي أطلقناها في بيت الدين اليوم فأعلن إنهاء المبادرة لأنه إذا قامت الكنيسة والجهات الروحية والسياسية في المنطقة الشرقية لرفع الغطاء عن الجهات التي تآمرت وقتلت أنور الفطايري وتسكن المنطقة الشرقية فلن أذكر اسم هؤلاء ولن أنزل إلى المستوى، مستوى العملاء الصغار لأن دم أنور الفطايري أغلى بكثير من كلّ المهجّرين فليكن هذا الكلام واضحًا للجميع.

وردًا على سؤال قال الوزير إن الذين قتلوا أنور الفطايري، وقلت بصراحة للّجنة التنفيذية في بيت الدين، منذ يومين، وأعطيتهم اسم القاتل وهو موجود في الشرقية بحماية سمير جعجع وميشال عون. قلت لهم بصراحة: بيطلعلي كوليد جنبلاط أن أطالبكم بقاتل أنور الفطايري. أما إذا أصبح ذاك الشخص وتلك الفئة في حمايتكم فلا تطلبوا مني أن أعيد المهجّرين. إنّ دم أنور الفطايري أغلى بكثير من موضوع المهجّرين الذي يبدو سابقًا لأوانه. ويبدو حتى الآن أنّ الجماعة لم تزل على المنطق الإسرائيلي الانعزالي.

يريدون أن يعيدوا المهجّرين على غير الطريقة الوطنية، وعلى الطريقة الإسرائيلية ومن خلال حراب الجيش اللبناني ولا يوجد استعجال. والغريب أنّه لم يصدر أي صوت من المسيحيين الذين نعتبرهم وطنيين أو عربًا أو ديموقراطيين. وللأمانة والتاريخ كان هناك صوت، شريفة صياغته هو صوت الأستاذ مخايل الضاهر أيّدوا المبادرة خجلًا لأنهم تلبّكوا فيها خصوصًا مَن هم في الصف

الإسرائيلي ثم أرسلوا إلينا رسالة واضحة وقتلوا الفطايري. غريب لم يطلع صوت من بيت فرنجية ولا من ريمون إدّه الديموقراطي. والغريب هو أنّ أحدًا لم يتكلّم. يأتي من وقت لآخر مرشّح الانتخابات خليل خير الله ويلقي خطابات حلوة على هذه القاعدة لا يوجد حلّ في الجبل.

وردًا على سؤال قال: لم نسمع شيئًا من البطريرك صفير وعلى ماذا نشكره؟ إذا كانت القصّة قصّة كرسي في بيت الدين، فلا لأنّ القضية أكبر بكثير من كرسي في بيت الدين، الموضوع أكبر بكثير من بناية جميلة في بيت الدين ويمكن أن أعيد النظر فيها. لم نسمع شيئًا من الفاتيكان بيطلعلي رسالة شكر من الفاتيكان. بالعكس بكركي فتحت أبوابها لقاتل أنور الفطايري... تتكلّم في موضوع سياسي وهذا ليس موضوعًا إنسانيًا فقط إنما هو موضوع سياسي أيضًا.

وعلى سؤالٍ آخر أجاب: أوقفته اليوم وسنرى كذلك سنبحث في ما يسمّى مجلس الجبل لأنّه سينشأ حوله خلاف سياسي. فليستمرّوا في بعض مئات ملايين الدولارات بإسم المهجرين.

هذا موضوع اقتصادي؛ يأتي الكثير وتتدفق الأموال من كاريتاس وسواها.

وردًا على سؤال آخر قال جنبلاط: صحيح لكن الأدوات محلية وأنا مصرّ عليها، سياسة إسرائيلية بأدوات محلية وهم يعرفون حيث كنا مجتمعين في بيت الدين وكان أنطوان الأشقر موجودًا وتكلّمنا كلامًا واضحًا أمام اللجنة ولا لزوم لأن نردّده. الرسالة وصلت إلى ميشال عون وسمير جعجع وطبعًا إلى بكركي.

وعن منفّذ عملية اغتيال أنور الفطايري قال: المنفّذ أداة لجهة سياسية معيّنة في المنطقة الشرقية. وفي وقت لاحق أتكلّم عنه عندما تصبح السياسة الوطنية. دولتلو وعظمتلو سليم الحصّ يريد أن يعمل سياسة بيروتية وحده هو واللقاء الإسلامي نخسر كلّ أوراقنا والوزارة فيها طوابير خامسة وغير منسجمة ولا بدّ من توسيعها. ميشال عون يعطي أمرًا في اليرزة وهم ينفّذون في الغربية. وهذه هي وزارتنا وهذا هو تجمّع الصنائع. معهم حق الكتائب في أن يسمّونا تجمّع الصنائع -تجمّع أضداد[...]

الفصل الثالث عشر

الفصول الأخيرة لمأساة لبنان في الحرب

حدثت على الصعيد الوطني اللبناني في شهر آذار ١٩٨٩ تطوّرات هامة جدًا يجب التوقّف عندها وسرد بعض خطوطها الأساسية لأنها على ما أظنّ سوف تترك بصماتها السيئة على مستقبل الوطن.

فتح الجيش معبر المرفأ وأصبح التنقّل بين بيروت الشرقية والغربية في متناول الجميع وخفّ الضغط إلى حدٍّ ما عن معبر المتحف وبقيت الحالة هكذا أيامًا قليلة. فإذا بالجيش اللبناني الموجود في الغربية وبرئيسه المزعوم العقيد سامي الخطيب يتلقّى الأوامر من أسياده السوريين فيغلق المعبر ويظلّ معبر المتحف وحده مفتوحًا إلى أن جاء يوم لم يكن بعيدًا أغلق فيه معبر المتحف بوجه المشاة والسيارات ... والسبب الظاهري الذي اتّخذه زعماء المنطقة الغربية حجّة لذلك تذرعوا بها أن العماد عون رئيس الحكومة قد أعاد تشغيل الغرفة العسكرية التي تراقب حركة الدخول والخروج من الموانئ اللبنانية لوضع حدّ لعمليات التهريب على أنواعها من الموانئ غير الشرعية وأهمّها مرفأ الجيّة الذي يشرف عليه ويشغله الحزب التقدّمي الاشتراكي ومرفأ في الأوزاعي الذي تشرف عليه حركة أمل بزعامة نبيه برّي.

إزاء هذا الوضع المتأزم جدًا تفجّرت المعارك بين حكومة العماد ميشال عون وما يسمّى بتجمّع الصنائع أو بقايا حكومة الرئيس سليم الحصّ المستقيلة التي تحاول عبثًا جمع شملها من دون جدوى. وشارك الجيش السوري بضراوة بقصف المناطق الشرقية من أقصاها إلى أقصاها من دون أن توفّر منطقة أو قرية من أعالي الجرد حتى الشاطئ ابتداء من ١٤ آذار حتى آخره حتى أن احتفالات الشعانين والفصح أقيمت في تلك الأجواء ولم تنفع شيئًا النداءات المتلاحقة من الداخل والخارج في لجم المدافع وإسكات الرصاص والحدّ من سقوط الضحايا البريئة بالعشرات والمئات في مختلف المناطق التي طاولها القصف العشوائي المجنون. كما أن وزارة الدفاع اللبنانية في اليرزة والقصر الجمهوري في بعبدا وخزّانات المحروقات في الدورة قصفت كذلك بعنف.

يوم الأربعاء ٢٩ آذار، وبعد أن قصفت الخزّانات في الدورة بعنف فلعبت فيها النيران من دون أن تتمكن فرق الإطفاء والجيش والدفاع المدني من إخماد الحرائق، صدرت الأوامر

إلى الآهلين المقيمين بجوارها كما إلى المستشفيات بإخلاء البيوت والمؤسّسات والمدارس والابتعاد عن المنطقة خوفًا من انفجارات جديدة منتظرة. فانصاع الأهلون للإنذارات. وتمّ ما كان متوقعًا إذ انفجر خزّان الغاز في تمام الساعة التاسعة صباحًا كان له دويّ هائل سمع حتى صيدا ارتجّت منه الأبواب والنوافذ في البيوت والمحلّات وكان أشبه بزلزال هائل يحلّ في المنطقة. فبادرت وسائل الإعلام بعد ثوان قليلة إلى إذاعة الخبر على حقيقته كاشفة عما جرى، مطمئنة المواطنين إلى عدم حصول ضحايا بشرية ولم يقع سوى جرحى بلغ عددهم ثمانية عشر من جراء تطاير جدران الخزّان وغطائه وتكسير زجاج البنايات والمحلّات التجارية. وبعد أقل من ساعة على حصول الانفجار الأوّل حدث انفجار ثانٍ في المحلّة ذاتها فتعالت سحبٌ كثيفة من الدخان الأسود حجبت نور الشمس في بيروت وضواحيها حتّى خيّل للناس المقيمين في تلك المنطقة أن الشمس في كسوف. وبقي الدخان يتعالى من مراكز الحريق أكثر من ثلاثة أيام إلى أن راح يخفّ تدريجيًا. ولقد رأيت بأمّ العين صباح السبت من الأسبوع عينه سحبًا ممتدّة منه فوق الشاطئ الصيداوي إلى الجنوب وزادها وضوحًا صفاء جو الربيع الذي كان اللبنانيون ينتظرونه للتنعّم به بين أحد الفصح المجيد والأحد الجديد...

وما كانت كارثة الانفجارات تلك وما تسبّبت به من ويلات وضحايا وخسارات وطنية فادحة لتردع السوريين وأعوانهم عن التمادي في غيّهم قصفًا للمناطق الشرقية وإمعانًا في هدمها وتخريبها وقتل الأبرياء فيها، علمًا أن ردّات الفعل من قبل أبناء المنطقة الشرقية على أخصامهم لم تكن خفيفة وتوالت أعمال القصف المدفعي بجميع عياراته حتى كان يقال إن الجيش السوري استعمل أسلحة متطوّرة جدًا وثقيلة كما كان عيار القذائف المستعملة يبلغ ٢٤٠ ملم و١٨٠ ملم فتروح تخترق ثلاث طبقات من الأبنية ولا تقل فاعلية عن القنابل التي تستعملها الطائرات الضخمة...

وإن قلنا إن القذائف لم توفّر مقامًا دينيًا ولا دسكرة ولا قرية في المنطقة الشرقية فقد نالت البطريركية المارونية في بكركي نصيبًا منها موفورًا فقد سقطت على مقربة من كنيستها قذائف مدفعية حطّمت زجاجها وأحدثت فيها أضرارًا جسيمة كما نقلت وسائل الإعلام أن السفارة البابوية في حريصا استهدفت أيضًا ببضع قذائف أصابتها من دون أن توقع ضحايا

في المقيمين فيها. وجرى بعد سماع الخبر اتّصال هاتفي بين المطران إبراهيم الحلو وسيادة السفير أنجلوني للاطمئنان والتهنئة بالسلامة.

طال القصف بالمدفع وكان للقصف الكلامي أثره البعيد بين الأطراف الذي طال وراحت الأطراف المتنازعة تتبادل التهم بشكل قاسٍ وما كانت التعليقات لتوفّر أحدًا كما نال الحكّام السوريون نصيبًا وافرًا من تلك الانتقادات اللاذعة والتهم المتبادلة التي لم توفّر أحدًا من الكبار.

إجتماع الأحزاب اليسارية في دمشق بلجنة المساعي الحميدة

وسط هذه الأجواء، انعقد اجتماع في دمشق ضم جميع ممثّلي الأحزاب اليسارية ما عدا المهندس مصطفى معروف سعد الذي كلّف الآخرين التحدث باسمه بسبب الجفاء الحاصل بينه وبين السوريين على أثر المناوشات التي جرت بين الشرطة الأمنية في التنظيم الناصري وبين السوريين على أثر المناوشات مع أحد المنشقّين عن التنظيم المدعو «أحمد حنقير» الذي جمع حوله عددًا من المسلّحين في صيدا القديمة وراحوا يعبثون فسادًا عن طريق السرقة والنهب والتحشيش وفرض الخوات على السكان وعلى المحلّات التجارية داخل المدينة القديمة. ويقال إن السوريين أيّدوا أحمد حنقير وجماعته والمخابرات السورية وقفت إلى جانبه في المعركة. غير أن تضافر القوى في المدينة والاستعانة بالقوى الفلسطينية المسلّحة قضى على زمرة حنقير التي استسلمت إلى التنظيم بعد ثماني ساعات من اندلا ع المعركة ...

إن موفدي الأحزاب اليسارية الدائرة في فلك السياسة السورية والمنفّذة لتوجيهاتها وأوامرها في لبنان طالبوا بالإصلاح السياسي الضروري قبل انتخاب رئيس الجمهورية كما طالبوا بإلغاء الطائفية السياسية والحدّ من الهيمنة المارونية على مقدّرات البلاد والطعن بالمارونية السياسية. وهي معزوفة قديمة جديدة يتكلّمون عنها في كلّ مناسبة وقد أصبحت مضغة في أفواههم يلوكونها على مثال ما كان الحكّام العرب يتحدّثون عن الإمبريالية والاستعمار والصهيونية إثارة للحقد في نفوس المواطنين السذّج وإرضاءً لشهوات بعض زعماء الحرب وميليشيات زمن الحرب.

أما أعضاء الجبهة اللبنانية أو النواب الذين كان من المفترض التقاؤهم باللجنة في قبرص أو في الكويت فقد رفضوا الحضور إلى بلدٍ من هذين البلدَين وبقوا في الوطن لأن أبناءه كانوا يعيشون أيامًا سودًا طاول خلالها القصف السوري والحليف جميع المناطق المسيحية. ورفضوا الالتقاء باللجنة قبل أن يتوقف القصف. وبعد أيام قليلة وقد خفّ القصف المتبادل وتمّ انتقال وفد من أعضاء الجبهة اللبنانية إلى الكويت مؤلّفًا من السادة جورج سعادة رئيس حزب الكتائب والمهندس داني كميل شمعون رئيس حزب الوطنيين الأحرار والنائب ميشال ساسين والمحامي شاكر أبو سليمان رئيس الرابطة المارونية والمحامي جورج عدوان الأمين العام للقوات اللبنانية. واجتمع إلى اللجنة المذكورة عدة مرّات متتالية قيل إنها مفيدة وناجحة.

إنما يبدو، وهذا ليس أكيدًا، أن أعضاء اللجنة قد أخذوا من أعضاء الوفد توضيحًا حول حقيقة الوضع اللبناني الذي كان يصل إلى اللجنة مشوهًا واتخذ الوفد شعارًا تقدّم به من اللجنة يقول: «اسمعوا منا ولا تسمعوا عنا» ... واعتبر الوفد اللبناني أن لقاءه باللجنة العربية ناجح. وفي مؤتمرٍ صحافي عقده في الكويت الشيخ أحمد الصبّاح رئيس اللجنة ووزير خارجية الكويت طالب فيه بخروج القوّات الإسرائيلية وجميع القوى الأجنبية من لبنان بمن فيهم السوريين من دون أن يسمّيهم باسمهم. إنما كان يعني ما يقول، كما صدر أيضًا عن اللجنة العربية ثلاثة نداءات إلى المتحاربين في لبنان تطالبهم بوقفٍ جدّي وتام لإطلاق النار...

عاد الوفد إلى بيروت في اليوم الرابع عشر من نيسان غداة الذكرى الخامسة عشرة لاندلاع الحرب في لبنان وبعد يومٍ رهيب من القصف المتبادل الذي طاول جميع المناطق اللبنانية وحبس الناس في الملاجئ نهارًا وليلًا كاملين...

باخرتان فرنسيتان تنتظران في البحر

بعد زيارة السيّد دونيو في الأسبوع الأوّل من نيسان إلى لبنان موفدًا من قبل الحكومة الفرنسية واطّلاعه على حقيقة الأمور على الساحة اللبنانية، عاد إلى باريس متّهمًا سوريا بشن حرب ضد المسيحيين للنيل منهم وإذلالهم وضمّ لبنان إلى سوريا بعد تفتيته، بدأ الرأي

العام العالمي يتحسّس حقيقة الوضع اللبناني، إذّاك قرّرت الحكومة الفرنسية إرسال باخرتين إلى لبنان إحداهما تحمل مستشفى يستوعب أربعين سريرًا والثانية تحمل آلاف الأطنان من الفيول لتغذية مولّدات الكهرباء في الذوق بعد أن نفدت أو احترقت خزّاناته في الدورة وامتنع على الحكومة شراء الفيول واستقدامه من الخارج بسبب الحصار الذي فرضته سوريا على مرافئ بيروت وجونيه.

ما إن شاع خبر إرسالهما حتى قامت قيامة المؤيّدين للسياسة السورية في لبنان رافضين تلك المساعدة الفرنسية مهدّدين بقصف الباخرتين باعتبار أن فرنسا قد انحازت في تقييمها للأحداث اللبنانية ووقفت بجانب المسيحيين من دون سواهم واتهموها بالعنصرية والصليبية إلى ما هنالك من ألقاب وتهم كانوا يتهمون بها الدول الأوروبية... وأرسل الرئيس سليم الحصّ كتابًا إلى رئيس جمهورية فرنسا رافضًا تلك المساعدة لكون فرنسا قد أصبحت خصمًا في النزاع وأقام وليد جنبلاط مؤتمرًا صحافيًا هدّد فيه فرنسا بالويل والثبور وعظائم الأمور مستنكرًا بشدّة تصريحات السيّد دونيو طالبًا منه ومن حكومته الاعتذار قائلًا: «إذا أرادتها فرنسا حربًا صليبية فنحن لها...»

واجتمع مجلس الوزراء الفرنسي برئاسة رئيس الجمهورية السيّد فرنسوا ميتران وصدر إثر الاجتماع بلاغ عن لسان رئيس الجمهورية يعيّن فيه موقف فرنسا الودي من جميع اللبنانيين على اختلاف عائلاتهم الروحية ومواقفهم السياسية مجدّدًا تأييد فرنسا للجنة العربية السداسية كما أعلن أن المساعدات هي إنسانية صرف وأنها ستوزّع على اللبنانيين المحتاجين إليها من دون تفرقة أو تمييز بين فئة وأخرى ... إذّاك هدأ روع الرئيس الحصّ وجماعته ورحّبوا بموقف فرنسا الجديد الذي أيّده وصول وزير المساعدات الإنسانية الفرنسي إلى لبنان السيّد برنار كوشنار الذي قام بعدة زيارات بين الشرقية والغربية وشهد بأمّ العين ذاك النهار الطويل الدامي من القصف العنيف يوم ١٣ نيسان ١٩٨٩.

عند ظهر يوم السبت ١٥ نيسان تجدّد القصف بعنف وسقط قتيلًا النائب والوزير السابق الأستاذ لويس أبو شرف في بيته في الأشرفية وأحد عشر قتيلًا وعشرات الجرحى... وفي اليوم التالي ١٦ نيسان سقط أيضًا أحد عشر قتيلًا وثمانون جريحًا ومن بين القتلى السفير الإسباني بترو دي أريستاغي وحموه الأديب اللبناني الشهير توفيق يوسف عوّاد كما

قتلت كريمة الأديب المذكور زوجة السفير، نتيجة القصف العشوائي والهمجي، في ملجأ للسفارة الإسبانية في محلّة الأنطونية ببعبدا بعد سقوط قنبلة عيار ٢٤٠ ملم على المنزل. في ذلك النهار أيضًا أصيب منزل السفير الأميركي والقائم بأعمال السفارة المصرية ووقعت قذائف عدة على محيط منزل السفير الفرنسي حيث كان يقيم الوزير كوشنير مع السفير الفرنسي بول بلان مختبئًا طوال النهار، تجنّبًا لنتائج القصف العشوائي، الذي لم يوفّر منطقة في ذلك النهار.

لقاء ٢٣ نائب مسيحي في بكركي

يوم الثلاثاء ١٨ نيسان اجتمع في بكركي ثلاثة وعشرون نائبًا مسيحيًا لبنانيًا وتدارسوا الأوضاع المأساوية بدعوة من غبطة السيّد البطريرك مار نصر الله بطرس صفير وحضور نائبيه العامين المطرانين رولان أبو جودة وبشارة الراعي والأباتي باسيل الهاشم رئيس عام الرهبانية اللبنانية المارونية. عقبه البيان التالي الذي قرأه على الصحافيين النائب إدمون رزق. ودانوا فيه القصف الهمجي الذي طاول الأهداف المدنية وحصد الأبرياء العزل، ولم يوفّر نائبًا عن الأمة ولا سفيرًا رئيس بعثة ديبلوماسية ولا رجل فكر وأدب. ودعوا إلى وقفٍ فوري عام وشامل لإطلاق النار والعودة إلى لغة العقل والحوار.

بعد الانتهاء من تلاوة هذا البيان طرح الصحافيون بعض الأسئلة على الأستاذ إدمون رزق الذي أجاب عليها بلهجة متشنّجة لأن بعضهم قال عن البيان إنه خجول...

ما إن أذيع هذا البيان حتى توالت الردود عليه من مختلف الجهات: في المنطقة الشرقية انتقدوه، وفي تلك الليلة ألقيت قذيفة على بيت الأستاذ إدمون رزق في بيروت. ومنذ الصباح التالي، بدأت التظاهرات الشعبية تتجمّع وتنطلق بعضها إلى بكركي انتزاعًا لموقفٍ قاس وعنيف من غبطة البطريرك صفير والبعض الآخر انطلق إلى قصر بعبدا تأييدًا لموقف العماد عون الذي وقف في المتظاهرين منتقدًا موقف النواب متهمًا إياهم بشتى النعوت كما طالت التّهم الأميركان الذين يدّعون العجز عن القيام بمبادرة جدية لإحلال السلام في لبنان.

شجون في دير القمر

بينما كانت المعارك قائمة على قدمٍ وساق في بيروت وضواحيها. وقد طاول القصف المدفعي المتبادل معظم المناطق اللبنانية موقعًا ضحايا بشرية وخسائر مادية جسيمة في الطرفين المتقاتلين وبخاصة الأبرياء الذين كانوا يسقطون في البيوت والملاجئ وعلى الطرقات وليس من يرحم، جاءنا إلى المطرانية في صيدا شخص من دير القمر يقول إن كاهن الرعية الأب الياس ضو الراهب المريمي المسؤول عن خدمة الرعية قد أُخضع لتحقيق من قبل مسلّحي الحزب التقدّمي الاشتراكي بعد أن اقتادوه في سيارتهم إلى منطقة خارج دير القمر واحتجزوه النهار كلّه ثم أعادوه إليها عند الساعة الثامنة والنصف مساء، بعد اتصالات عدّة ومراجعات قام بها رئيس البلدية السيّد جورج ديب نعمه الذي كان يتابع علاجه في مستشفى راهبات الصليب في دير القمر.

صباح اليوم التالي، جاء مسؤول في الحزب يطلب من الأستاذ جورج نقل الأب المذكور من دير القمر لكونه تطرّق إلى مواضيع عسكرية وأسئلة ليست من شأنه اعتبرها المسؤولون مضرّة بأمن الحزب الذي يشنّ حربًا ضروسًا على الجيش اللبناني وبخاصة ضد العماد عون رئيس الحكومة. ولمّا كانت الرعية موكول أمرها إلى الرهبانية المريمية والاتّصال برئيسها العام الموجود في دير سيّدة اللويزة مستحيل بسبب الظروف الأمنية، فقد تريّثنا في إعطاء الجواب خمسة عشر يومًا. ولما أخذت الأحوال الأمنية تهدأ صعدت أنا شخصيًا إلى دير القمر، واتّصلت بالأستاذ جورج ديب وبالأب الياس ضو فطلب مني الأستاذ جورج ديب سحب الأب الياس من الدير إلى صيدا لكونه تصرّف بخفة فثار ثائر الحزب الاشتراكي ضدّه وطلبوا منه أن يسعى لدى المطران لاستبداله أو تغييبه لمدة معينة عن دير القمر من دون أن يكون الأب المذكور قد أدرك أهمّية هذا الطلب. ولما كان استبدال الأب الياس بصفته راهبًا متعلّقًا بالرئيس العام وليس بالمطران مباشرة، ولما كان قرار الحزب ملحًّا وهامًّا بالنسبة إلى أمن الأب المذكور كان لا بدّ من التأكّد شخصيًا من موقف الحزب بشأنه.

قصدتُ الرائد في الحزب الاشتراكي حسّان البعيني في مكتبه الكائن في بيت الدين واطّلعت منه على ما يتّهم به الأب الياس، موضع اللوم، وألحّ علي هو ورئيس الشرطة الأمنية في الحزب، بإخراج الأب الياس من الدير واستبداله بشخص آخر خوفًا على حياته التي

أصبحت مهدّدة من بعض أفراد الحزب الذين كانوا يرونه، عن حقّ أو عن بطل خطرًا عليهم، إذا بقي في دير القمر. لم أكتفِ بما سمعته من الرائد البعيني ومعاونيه، بل اتّصلت بالشيخ توفيق بركات الذي ثنّى على موقف الرائد وجماعته وطلب مني العمل على إبعاد الأب المذكور عن دير القمر. وعدت إلى الدير مزودًا بما حصلت عليه من معلومات ومواقف وأطلعتُ الأب الياس عليها وطلبت منه الاستعداد لمغادرة الرعية إلى المطرانية في صيدا واعدًا بأن أقوم شخصيًا بخدمتها بانتظار راهب آخر ترسله الرهبانية إلى دير القمر.

عدت إلى صيدا وأطلعت سيادته على ما جرى وكان ذلك يوم السبت ٢٩ نيسان ١٩٨٩. وفي اليوم التالي، قصدتُ دير اللويزة مركز الرئاسة العامة وأطلعتُ الرئيس العام الأباتي أنطوان صفير على ما جرى وقد كان عارفًا بكلّ شيء وبدا الانفعال على وجهه وأظهر استياءه من تصرّف الناس تجاه الأب الياس، كما أبدى بعض اللوم على موقف سيادته وموقف بعض رجالات الدير المساير للدروز. وكلّ ما قلته لقدسه إن خروج الأب ضو من دير القمر ضروري في الوقت الحاضر خوفًا عليه من الأذى وليس لأبناء رعية دير القمر أي مأخذ عليه وعلى خدمته الرعائية، كما ليس للمطران أي لوم عليه، إنما المطلوب استبداله بكاهن آخر في الوقت الراهن. إذّاك قال الرئيس العام: «هل لديّ رهبان أرسلهم ليكونوا تحت إمرة وليد جنبلاط؟» طبعًا ما كنت أتوقّع هذا الكلام من الرئيس العام الأباتي صفير.

وفي اليوم التالي، عدت إلى صيدا ناقلًا إلى سيادته راعي الأبرشية ما رأيت وسمعت، وإذا بي أفاجأ بالأب الياس ضو في المطرانية بصيدا، وقد جاءها صباح الإثنين تاركًا الرعية الوحيدة في الشوف قبل أن يتسلّمها منه كاهن آخر. ويوم الثلاثاء الواقع فيه ٢ أيار جمعت أمتعة لي ضرورية في حقيبة، وتوجّهت إلى دير القمر، فوصلتها تحت جنح الظلام حوالي الساعة ٧،٣٠، وقصدت دير الراهبات اللواتي كن ينتظرنني لحضور القدّاس الذي لم يتوفّر لهنّ ذلك النهار، فاتّصلت رئيسة راهبات الصليب براهبات مار يوسف الظهور ودعتهنّ إلى حضور القدّاس، فاعتذرن لوجودهنّ في الملجأ خوفًا من القذائف التي كانت تتساقط في محيط المدرسة القائمة في أعلى البلدة. تناولت طعام العشاء معهنّ على مائدتهنّ ثم انتقلت إلى زيارة الأستاذ جورج ديب القائم في جناح خاص من المستشفى بقصد التعافي

والنقاهة بعد الحادث الذي تعرّض له في الجاهلية في التاسع من شباط الماضي وسقط فيه أنور الفطايري ومرافقه الخاص ونجا، بأعجوبة جورج ديب. والتقيت أيضًا في الغرفة إلى جانبه عددًا من الديريين الذين لازموه في المستشفى وكانوا يطلعونه على ما يساورهم في تلك الأيام الصعبة من شؤون وشجون فيشاطرهم همومهم ويعطيهم التوجيهات التي يراها ملائمة للظروف الراهنة.

بعدها، ذهبت إلى أنطش سيّدة التلّة في سيارةٍ يقودها خادمه المدعو مروان ديب، الملقّب بالعابوري. وكم من لقبٍ طغى على الاسم الحقيقي وأصبح الملقّب به معروفًا به دون سواه. وكانت غرفتي في الأنطش مقابل السدّة **La tribune** وهي على ما يبدو غرفة الضيوف من الإكليروس القانوني والعلماني.

كنت كلّ صباح أقيم القدّاس الإلهي الساعة ٧،١٥ في كابلّا دير راهبات الصليب لما لديهم من راهبات ومرضى ومعاقين لا يستطيعون الانتقال إلى كنيسة الرعية لسماع القدّاس. وكان ينضمّ إلى جمهور الدير راهبات مار يوسف الظهور لأنّ مدرستهنّ مقفلة منذ الرابع عشر من آذار بسبب تفاقم الأحداث ولا تزال.

ذاك كان التوقيت اليومي لقدّاسي، ما عدا أيام السبت حيث كنت أقيم قدّاسًا ثانيًا الساعة الخامسة والنصف في كنيسة سيّدة التلّة خدمة للرعية. أمّا أيام الآحاد والأعياد فقد كان نظام القدّاسات كما يلي: الساعة الثامنة صباحًا قدّاس في كنيسة السيّدة، المعروفة بالدلفانة، ولها مؤمنون يرتادونها ولا يقبلون عنها بديلًا، وفيها تصير تلاوة فرض أخوية العذراء في نهاية القدّاس الذي كانت تخدمه مجموعة من المؤمنين رجالًا ونساء وفق ألحان قديمة درجوا عليها منذ الصغر.

الساعة التاسعة والنصف أتلو قدّاسًا ثانيًا في دير راهبات الصليب تسبقه اعترافات المرضى والمؤمنين المقيمين في الجوار. كانت جوقة من الراهبات تخدم القدّاس مع عزف على الأرغن ويدوم ثلاثة أرباع الساعة.

أنتقل بعدئذ إلى سيّدة التلة حيث أحتفل بالذبيحة الإلهية الساعة الحادية عشرة وكانت تخدمها جوقة مختلطة من الفتيان والفتيات بكلّ إتقان وخشوع بحسب الأعياد

والدورة الطقسية. وكان أفراد الجوقة يلتقون مرّة أو مرّتين في الأسبوع ويستعدون لكلّ جديد يطرأ للأعياد. وهذا ما كان يحمل المؤمنين إلى سماع القدّاس في كنيسة سيّدة التلة للاستمتاع بترانيم الجوقة الموفّقة.

من حسنات الجوقة أنها باشرت بإقامة الصلوات المريمية قبل بداية الشهر المريمي منذ أن توقّفت المدارس بسبب الحرب. فكان عمل الجوقة بمثابة دعوة للأهالي إلى الصلاة واللجوء إلى سيّدة التلّة المشفّعة في دير القمر طلبًا لحمايتها. وبما أنّ تحرّكهم ذاك ناتج عن قناعة وإيمان فقد كان له تأثير كبير على المقيمين. ليتنا نجد في كلّ رعية أمثالًا لهم يشيعون الأمل في النفوس ويدعون الناس إلى الصلاة عن طريق المثل وحسن الأداء. ولدى نزولي إلى صيدا للتدريس، كنت أعهد بالصلاة إلى الجوقة المذكورة وأنبّه المؤمنين إلى سبب تغيّبي لئلّا أشيع في نفوسهم الذعر والخوف...

خلال وجودي في الدير لم أقم إلّا بكلّ زيارة ضرورية لمريض أو لحزين خوفًا من أن أباشر بها من دون التوصّل إلى القيام بها كاملة. أما زوّاري في الأنطش فكانوا يأتونني حاملين إليّ همومهم وهواجسهم حول الوضع الراهن، وبخاصة بعد أن أبعد عنهم خادم نفوسهم الأب الياس بالشكل الذي تمّ فيه، وكلّ مرّة كانوا يلتقونني يسألون: «هل نحن باقون في بيوتنا؟ وهل تأتي الساعة نضطر فيها إلى مغادرة بيوتنا وأرزاقنا كما جرى لجيراننا ولأبناء الجبل والشوف منذ خمس سنوات وأكثر؟ وإلى أين سيقذفون بنا؟ هل تكتمل خيوط المؤامرة ويأتي دورنا؟» وأي إنسان لا يتأثّر بما يسمع ويرى؟

أيضًا: «هل اكتملت خيوط المؤامرة وجاء دورنا؟ لقد بدأ الدروز يفدون إلينا من عاليه وجوارها والشويفات وجوارها ويفتحون بيوت الديريين الغائبين عن البلدة ويقعدون فيها والبعض يستولي على مفاتيحها ويعود من حيث أتى وكأن البيت الذي استولى على مفاتيحه أصبح ملكًا له؟»

إذا حاولت أن أردّ على تساؤلاتهم التي كانت تدخلني في حميم همومهم ومشاكلهم وأردت أن أسرّي عنهم وأبدّد شيئًا منها بإشاعة جوّ من الطمأنينة بيني وبين محدّثي كانت تعلو وجوههم ابتسامة صفراء باهتة تعبّر عمّا يجول في نفوسهم قبل أن يقولوا علنًا: «حسبنا

براءة وإغفالًا للحقائق الجارحة يا أبونا بعد أن رأينا أهالي الجبل والشوف المسيحيين يهجّرون بالشكل المأساوي الذي شاهدناه وعرفناه... وكان كلّ من رفض الخروج من بيته أو التخلّي عن أرزاقه وبلدته استنادًا إلى صداقة عريقة تربطه ببيت جنبلاط، يُقضى عليه قتلًا بالرصاص أو ذبحًا بالسكين من الوريد إلى الوريد أو حرقًا بالنار ولم ينجُ من أولئك الذين يدعون الانتماء السياسي إلى جنبلاط شخص واحد أكان امرأة أم رجلًا شيخًا أم ولدًا واحدًا...» وهناك شبان يتابعون الكلام قائلين: «لقد سقطت الأقنعة وانقطع الوصل بين زعمائنا في الدير وخارجها وأصبحنا رهائن رخيصة لنزوات أناس يتربّصون بنا شرًّا والعالم عنا لاهٍ، غائب لا يهمّه شيء ولم تعد من خطوط حمراء يقف عندها المعتدي الطامع بأرضنا وأرواحنا...»

كنت آمل في أن ألتقي بعض المسؤولين الدروز في الحزب التقدّمي الاشتراكي فلم أوفّق إلى واحد منهم سوى الشيخ توفيق بركات والرائد حسّان البعيني لأني كنت دومًا أعتبر أن في التلاقي مع بعض المسؤولين الدروز وسيلة إلى التصافي والتقارب والتخفيف من حدّة التشنّجات التي خلقتها الأحداث الدامية الخيرة التي كوت الجميع بنيرانها المحرقة ولم يسلم أحد من أذاها...»

كانت في كلّ أسبوع زيارة لي يوم الثلاثاء إلى صيدا قيامًا بساعات التدريس في فرع جامعة القدّيس يوسف في البرامية حيث كنت مرتبطًا أسبوعيًا بأربع ساعات ترجمة didactique du français، وكنت أنبّه الموجودين في الكنيسة قبل أن أغادر إلى أن غيابي هو بداعي الواجب التدريسي وليس هروبًا من الخطر. وبعد أربع وعشرين يومًا في دير القمر، خلفني في تلك المهمّة إلى حين، حضرة الخوري طانيوس الخوري فقضى في الخدمة ذاتها ثلاثة أسابيع وجاءه على مدى عشرة أيام الخوري جبرايل الفغالي يساعده في الخدمة.

في اليوم الثلاثين من تمّوز مساء الأحد بدأتُ رياضة روحية في رعية سيّدة التلّة استعدادًا للعيد الذي يقع في الأحد الأوّل من آب وتزامن تلك السنة مع عيد الرب. كان الإقبال على الرياضة والصلاة كبيرًا وبعض الديريين الذين حرموا من بيوتهم أتوا من بيروت للاشتراك في الصلاة وحضور المواعظ وقضاء بعض الوقت عند أقاربهم وأصدقائهم في دير

القمر ثم يعودون من حيث يأتون. مساء الجمعة بعد القيام بالصلاة داخل الكنيسة خرج المؤمنون بزياح لصورة سيّدة التلّة إلى دار الكنيسة الخارجية في موكب يتقدّمهم الصليب وراعي الأبرشية المطران إبراهيم الحلو. ويوم الأحد جرى الاحتفال بالعيد والقدّاس الذي قام به سيادة راعي الأبرشية أمام حشد كبير من المؤمنين من دون أن توجّه الدعوات كما جرت العادة...

حادثةٌ ذات مغزى

في أحد الأيام الأولى من شهر أيلول ١٩٨٩ خرج المهندس الخاص بالآثار المدعو أسامة البعيني إلى سوق دير القمر بأربعة مسلّحين وراح يأمر الأهالي بإغلاق متاجرهم بلهجة شديدة اشتمّ حينها السامعون أنه سكران أو أقله متظاهر بالسكر حسب ما ظنّ البعض بعد أن سكب على ثيابه زجاجة من العرق ليظهر أمام الناس أنه سكران وغير مسؤول عمّا يفعله ويقول. وبعد أن أكمل دورته في السوق سيطر على أهالي الدير الذين شهدوا تصرفاته أو سمعوا بها من الآخرين الرعب والقلق. وراحوا يتداولون في ما يجب عمله وذهب قسم منهم إلى قصر المختاره وقابلوا وليد جنبلاط وأخبروه بما جرى فاستنكر بشدة واستقبح العمل ووعدهم بزيارة يقوم بها إلى دير القمر ليلتقيهم مع جميع المهجّرين إليها من الدروز في باحة الكنيسة. فوصل وليد جنبلاط فجأة ومعه جمهور من رفاقه المسؤولين في الحزب التقدّمي الاشتراكي واتخذ مكانًا له ووصل الأستاذ جورج نعمه رئيس المجلس البلدي وكان للمرّة الأولى يغادر فيها المستشفى حيث كان يستشفي بعد محاولة اغتياله. وألقى كلمة في أهالي دير القمر وفي الدروز الموجودين في الدير وإلى السيّد وليد جنبلاط، كانت مختصرة، صريحة وواضحة ثم قام الأستاذ وليد جنبلاط وردّ عليها معتذرًا باسمه الشخصي واسم الدروز المقيمين في الدير عن كلّ إساءة صدرت حتى الآن بحقّ أهالي دير القمر محاولًا تبديد مخاوفهم قائلًا إن حرب التحرير عاصفة هوجاء عصفت بأهالي الشوف وعاليه من الدروز ودفعت بهم لاجئين إلى دير القمر من دون أن يكون لهم أي مطمع آخر وعندما تنتهي الحرب سيعود كلّ درزي إلى بيته من دون أي تردّد. وفي الحقيقة لمسنا من حديثه الصراحة. ولما ترك جنبلاط المنبر طلب من سيادته أن يقول كلمة فقام

وارتجل كلمة شكر فيها الأستاذ جنبلاط على موقفه هذا الوطني وختمها بدعاء إلى الله راجيًا وضع حدّ للمأساة الحالية التي يعيشها اللبنانيون آملًا أن يعود كل مهجّر إلى بيته ويستعيد كلّ مظلوم حقه...

أخذ رجال الإعلام المحتشدون في الساحة صورًا كثيرة للجمع المحتشد وللذين ألقوا كلماتهم. بعد ارفضاض الاجتماع انتقل بعض الحاضرين والذين بلغ عددهم عشرة أشخاص إلى منزل السيّد أسعد رنّو لتناول طعام الغداء مع السيّد وليد جنبلاط ومرافقيه ومنهم المقدّم شريف فيّاض نائب رئيس الحزب والمرشّح الرئاسي أنطوان الأشقر ونجيب الكك والقاضي منير حنين والسيّد جورج ديب وشقيقه رياض والأستاذ عصام كرم نقيب المحامين السابق. المائدة أقيمت على شرفة المنزل الشرقية الجنوبية، وصفا جوّ الاجتماع وتكاثرت الأسئلة. فسئل الأستاذ جنبلاط عن موقفه من اللجنة الثلاثية وعن العودة إلى عملها في القريب العاجل والوصول إلى سلام عاجل ينهي الأزمة ويوقف سير الحرب اللبنانية التي ما زالت على أشدّها منذ أربعة عشر سنة ونيف. فقال السيد جنبلاط إنهم مستعدون لمحاورة الآخرين بالأمور العسكرية، وبخاصة العماد ميشال عون لأنه الأقوى على الساحة من دون البطريرك صفير الذي ينحصر الحوار معه سياسيًا والذي يجب أن يتخذ منه موقفًا إيجابيًا يتضمّن بعض التنازلات لحلّ الأزمة اللبنانية. وأما نحن الدروز، فقد كنا أقلية وسنبقى أقلية حتى إذا جعلوا عدد نواب المجلس النيابي ١٢٨ نائبًا، فلن تكون حصّتنا أكثر من أربعة عشر نائبًا. وجرى التداول في إلغاء التصاريح التي تعطى للمسيحيين القادمين إلى الشوف والمارين فيه إلى البقاع أو الجنوب أو بيروت واختلفت الآراء حول ضرورتها أو إلغائها. وكان للأستاذ وليد موقف يدعو إلى إلغائها لأنها غير صحيحة بعكس بعض الآراء الأخرى الصادرة عن المجتمعين الذين كانوا يجدون في تلك التصاريح ضمانة للعبور على حواجز الحزب الاشتراكي دون كبير عناء أو التعرّض لخطر التوقيف والحجز...

بالطبع كانت ردود الأستاذ جنبلاط مستندة إلى واقع معيّن لست أدري إن كان يؤمن به حقًّا أو أن أجوبته تلك كانت متأثّرة بالجوّ الراهن ومواقف الحاضرين منه. على كلّ حال أظنّ أن اللقاء في باحة الكنيسة صباحًا والاجتماع إلى مائدة السيّد أسعد رنّو قد أتاحا

لأهالي الدير فرصة جديدة كما لسيادته ولجميع الحاضرين أيًا كانوا لتنفّس الصعداء ورفع كابوس الضغط والقلق عن نفوس الديريين والمسؤولين عنهم، أقلّه إلى حين...

غادرنا البيت الذي استضافنا عند الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة متوجّهين إلى دير سيّدة مشموشة عن طريق الشوف-جزّين حيث كان لنا أن نحتفل بمباركة إكليل عروسين. وبينما كنا في السيارة التي راحت تقطع بنا تلك المسافة التي تستوجب ثلاثة أرباع الساعة من الوقت طرحت على سائقها المدعو مارون مخّول من بلدة طنبوريت إن كان قد تغدّى أجاب بالإيجاب عارضًا على مسمع من الجميع ما قد حصل بينه وبين مشاركيه على الطعام وهم من الدروز الذين منذ أن سألوه عن ضيعته وعلموا أنه من طنبوريت، قال له رئيسهم: «هي بلاد المتاولة ولا يمكننا أن نتفق معهم»، فتعجّب سائق سيارتنا من ذاك القول ونقله إلينا بحرفيته.

الفصل الرابع عشر

عودة خجولة نتيجة حرب الشرقية

إن الحياة التي ازدادت صعوبة في المناطق الشرقية بسبب القصف العنيف المتبادل دفعت بعشرات العائلات المسيحية إلى اللجوء إلى جزّين ومرجعيون والقليعة وإلى كلّ ما يسمّى الشريط الحدودي حتى الناقورة وبدأ نوع من الحوار الخجول مع الزعماء الفلسطينيين والمسلمين في المنطقة، وهذا فتح المجال أمام من تهجّروا من مناطقهم لسنوات بأن يفكّروا بالعودة إليها ولقي هذا التفكير تشجيعًا لدى الفئات الإسلامية والفلسطينية المقيمة على الأرض.

على هذا الأساس جاء زعيمٌ فلسطيني يدعى زيد وهبه بزيارة إلى المطرانية المارونية فاستقبلناه على مدى ساعة ونصف وأظهر رغبة شديدة في أن يعود المسيحيون إلى ضيعتين هما المية ومية ودرب السيم وقد تهجّر منها الأهالي كليًّا. ولهذه الغاية استقبل لديه وفودًا من هاتين البلدتين وجمعها إلى فلسطينيين. كما كانت لقاءات في دارة الأستاذ مصطفى سعد في صيدا، والتقينا جمعيات إنسانية عرضنا عليها تلك الفكرة بغية مد يد المساعدة إلى العائدين من أجل ترميم البيوت وتهيئة العودة بما يتوفّر لديهم من إمكانيات. وأخذت الفكرة تتحقّق في الحيّة بعد أن لقيت تشجيعًا من قبل الأستاذ وليد جنبلاط بالتعاون مع الكولونيل زياد رئيس المخابرات السورية المقيم في الرميلة منذ عدة سنوات. وطبعًا فإننا قد أيّدنا تلك الفكرة وشجّعنا القائمين بها والداعين إليها وأن تسهيل عملية تنقّل المسيحيين في تلك المناطق ساعد كثيرًا على تحقيق ما كان يجول في الأفكار.

في هذه المناسبة وفي ذلك الجوّ الذي بدأ يروق فإن مكتب كاريتاس لبنان في صيدا أطلق حملته السنوية في الأسبوعين الأخيرين من الصوم الكبير في شوارع صيدا ولقي هذا العمل تشجيعًا من قبل السكّان من دون أن يخلو وجود الشبان في الشارع من مضايقات بعض المتعصّبين المسلمين بخلاف ما كانوا يلقون من تشجيع وتأييد ومساهمات نقدية من قبل معظم الفئات الأخرى الإسلامية.

«حربٌ بين المتاولة والشيعة»

الحرب التي دارت رحاها بين حزب الله وحركة أمل في إقليم التفّاح والتي دامت وقتًا لا يستهان به ووقعت فيها ضحايا من كلا الطرفين والتي كان يسمّيها أحد مخاتير إحدى قرى إقليم التفّاح حرب «المتاولة والشيعة» تهكّمًا وازدراءً، لم يسلم منها بعض المسيحيين الموجودين في قراهم وبيوتهم. يوم الجمعة العظيمة أصيب مواطن مسيحي من جرنايا بشظية قتلته للحال وهو في داره كما أصيبت زوجته ونقلت إلى أحد المستشفيات في صيدا للمعالجة. وقد كانت حصّة كفرشلّال وجرنايا في حرب الإخوة كبيرة فقطعت عنها المياه وسرقت القساطل التي تجرّها. فجاء إلى المطرانية مختار بلدة كفرشلّال الشيعي اسماعيل اسماعيل وأخبرنا بما جرى فدفع له المطران إبراهيم الحلو ثمن قساطل المياه مكان المسروقة. وأعاد ربط بلدة جرنايا بشبكة المياه على همّة ذلك المختار الذي كان يحمل في سيارته ستين أو سبعين ربطة من الخبز نشتريها من أفران صيدا لكي ينقلها إلى أهالي جرنايا وكفرشلّال على مدى أسابيع إلى أن راقت الأمور وأخذ الناس يخرجون من بيوتهم وينزلون إلى كفرحتّي أو إلى صيدا لابتياع ما يحتاجون إليه.

ولكن المعارك بين أمل وحزب الله عادت من جديد بعد مقتل المسؤول في حركة أمل أبو علي حسن في زقاق البلاط في بيروت وكانت نتيجة المعارك بينهما في ١٧ نيسان ١٩٩٠ أحد عشر قتيلًا في الإقليم ثلاثة وثلاثين قتيلًا في بيروت. ومع أن محاولات التهدئة في الشرقية لم تنقطع بين القوّات اللبنانية والجيش اللبناني فقد سقط مؤخّرًا قتيلان وأربعة جرحى. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى الزيارة التي قام بها سفير فرنسا آنذاك في لبنان إلى العماد ميشال عون بعد الحصول على إذنٍ من رئيسه في فرنسا لأنه مندوب إلى لبنان الذي كان يرئسه آنذاك الياس الهراوي. وبقي السفير الفرنسي في حديث مع العماد عون في بعبدا ساعتين كاملتين بغية الحصول على حلّ للحرب القائمة والتي حاول مؤتمر الطائف من خلال مقرّراته أن يضع حدًّا لها ويعيد السلام إلى لبنان. أما العماد عون فكان يقول: «ليس المطلوب أن ننسى الماضي وأن نفرك الأيادي في الصالونات حول مائدة مستديرة المهمّ هو أن نأخذ بالاعتبار ما يريده الشعب اللبناني الذي هو واضح وصريح تحرير بلاده من الجيوش الأجنبية كافة ومن الميليشيات التي خربت البلاد وأهلكت العباد.»

حادثٌ خطير

يوم الأربعاء ١٩ نيسان ١٩٩٠ وبينما كانت ناقلة ركاب كبيرة تقلّ رجالًا ونساءً مع بعض الأولاد من المريجة إلى فرن الشبّاك أصابها رصاص القناصة عندما كانت على مفترق فرن الشبّاك بدارو في خزّان البنزين ففقد السائق القدرة على ضبطها وضربت عامود الكهرباء على الرصيف وانحصر الركاب في داخلها وهي تحترق بشكلٍ هائل وسريع فأخرجت منها إحدى عشرة جثّة محترقة وبعض الجرحى الذين أصابتهم النار جزئيًا فتركت هذه الحادثة تأثيرًا كبيرًا على الشعب اللبناني ولم تقتصر الأحداث على حادثة بدارو فرن الشبّاك بل جرى تفجيرٌ آخر في اليرزة (وزارة الدفاع) ترك دمارًا كبيرًا كما أوقع قتيلين. في هذا اليوم بالذات جاء إلى المطرانية في صيدا شخصان من كفرجرّه يقولان إنهما يرغبان في العودة إلى بلدتهما وللحال اتصلت بالسيّد مصطفى سعد وأطلعته على رغبتهما في العودة فأجابني بأنه من الأفضل الانتظار بعض الوقت قبل اتخاذ قرار بهذا الموضوع لأن جبهة كفرجرّه ليست هادئة في الوقت الحاضر ومن الضروري عدم الدخول في مغامرة قد لا تحمد عقباها.

تجنّب الخطى الخاطئة

بعد أن أُعطي المطالبون بالعودة إلى المية ومية ودرب السيم الضوء الأخضر، جاءنا أحد المسؤولين الفلسطينيين المقيمين هناك وطلب من المهندس حبيب سميا المندوب إلى تلك المحلّات من قبل كاريتاس لبنان لدرس أحوال تلك البيوت في البلدتين، التريث في عمله ذلك لأن الفلسطينيين المقيمين فيهما لا يزالون حاقدين على سكّان البلدتين المذكورتين ويضمرون الشر ويريدون الانتقام ممن يعودون ولهذا فقد طلبت كاريتاس من المهندس المذكور الانسحاب وانتظار أجواء أكثر هدوءًا. ومن جهة أخرى علمت أن وسائل الإعلام التي تدور في فلك العماد عون قد شنّت هجومًا عنيفًا ضد البطريرك صفير لكونه لم يرسل إلى كنيسة السيّدة في الحدث مندوبين عنه للمشاركة في الصلاة لراحة أنفس ضحايا البوسطة الثلاثة عشر الذين أقيمت لهم صلوات الجناز مشتركة. كما وأن المطران خليل أبي نادر مطران بيروت لم يسلم من تلك الانتقادات وطلبوا منه الاستقالة في أسرع وقت ممكن. إن الجوّ العام يبدو قلقًا جدًا بسبب تلك الأخبار التي لم تسلم من الحدة.

في اليوم عينه استقبلنا في المطرانية بصيدا اللجنة المطالبة بالإعداد لعودة خمسة وعشرين عائلة إلى الجيّة لكنني استمهلتهم بعض الوقت لكوني لم أستطع الاتصال بالأستاذ وليد جنبلاط ولا بالعقيد السوري بسبب وجوده في سوريا. وفي الصباح أيضًا جاءنا مقدّم فلسطيني يقول إن سبع عائلات مارونية قد عادت إلى قرية بصليا وهي تقيم في بيوت لها لا أبواب لها ولا نوافذ ولا أثاث فيها إلّا القليل الذي استطاعوا نقله معهم. وإذ كان الاستعداد لدينا ممتازًا فكيف الوصول إلى تلك العائلات والطريق الذي يربط بصليا بجزّين مقطوع والطريق الذي يصلها ببلدة كفرملكي يسيطر عليه حزب الله. لم يبقَ سوى الطريق الوعر الذي شقّه الفلسطينيون في الوديان والجبال وهو غير آمن إلّا للذين فتحوه. وذاك ما يجب درسه مع الفئات التي تسيطر عليه!

إن استعادة البيوت ممن يحتلّونها شرقي صيدا وساحل جزّين ليست بالأمر السهل بالرغم من حسن نية رؤساء الميليشيات المسيطرة على المنطقة. وعلى سبيل المثال لا الحصر، كنا نضع وقتًا طويلًا مع هؤلاء المسؤولين لإقناع المحتلّين بالتخلّي عن البيوت التي احتلّوها وأقاموا فيها. وهذا التفاوض الذي يستلزم ذاك الوقت كان يحمل أصحابها على اليأس وعلى اضطرار الهاربين من حمّى الحرب في بيروت إلى الإقامة في بيوت أقاربهم أو أصدقائهم بانتظار الفرج الذي لم يكن أحيانًا كثيرة قريبًا ليعيد الثقة إلى النفوس المثقلة بالهموم المعيشية والأمنية. وكلّ من رافق أولئك الراغبين في العودة يحمل همومهم إن عادوا واسترجعوا بيوتهم وأرزاقهم ويحملها كذلك حين يستحيل عليهم استرجاعها. ويظلّ يفكّر في السبل الواجب اتخاذها تخفيفًا عنهم وتسهيلًا للصعوبات التي تعترضهم سواء أكانوا مقيمين أم عازمين على العودة... والصعوبات ليست فقط معيشية وأمنية إنما أيضًا مدرسية. إذ إن المدارس الرسمية في القرى لم تكن بعد قد فتحت والمدارس الخاصة تستلزم ما لم يكن في إمكانية الأهالي تحمّلها.

من جهة أخرى فإن عودة المسيحيين لم تكن لتروق المسلمين المتعصّبين المقيمين في تلك القرى منذ خمس وست سنوات لا رقيب عليهم ولا حسيب وعلى حدّ ما يقال يأكلون الأخضر ويقطعون اليابس. ورغبة في قطع الطريق على عودة المسيحيين كانوا يشيعون الأخبار الكاذبة عنهم كمثل تعاملهم مع العدو الإسرائيلي فيخاف المسيحيون

وإن لم يكونوا على صلة البتة بالإسرائيليين لا من قريب ولا من بعيد. ولذلك فقد كنا على اتصالٍ دائم بالأستاذ مصطفى سعد لإشاعة جوّ من التفاهم وإزالة الشكوك العالقة في نفوس الطرفين من المواطنين. وكان حضرته يدعو ويشجّع لإقامة اجتماعات على مستوى الرؤساء الروحيين مسلمين ومسيحيين تبدّد الشكوك وتخفّف من الهواجس المتأصّلة في النفوس.

لم يخلُ الأمر من بعض الأمور الشاذة التي كانت تسمم الأجواء وهكذا فإن ثلاثة أشخاص من كفرشلّال تعرّضوا للإهانة: شقيقان في قوى الأمن الداخلي وآخر مواطن مدني؛ ثم رابع من صيدا وهذا بينما كان يقوم برياضة على شاطئ البحر اسمه كمال فاخوري اختطفه مجهولون فكان لهذا العمل أثره السيء في المحيط المسيحي.

يوم السبت ١٢ أيار ١٩٩٠ قام صاحبا السيادة المطران إبراهيم الحلو والمطران جورج كويتر بزيارة إلى المختارة لمقابلة الأستاذ وليد جنبلاط وكنت معهما. وكان القصر يعجُّ بالوافدين إليه من كلّ الفئات وإذ علم بوجودنا اعتذر من زائريه وجلس معنا ما يقارب العشرين دقيقة تكلّمنا فيها عن هواجسنا ومخاوفنا التي كان أيضًا على علم بها. وهو قد يكون مشاركًا لنا فيها لأن الأمن والسلامة ليسا متعلّقين به وحده لأن على الأرض عدة قوى لا تأتمر بواحد فهناك السوريون والفلسطينيون وهناك أمل وحزب الله ولكلٍّ من هذه القوى مسؤول عنها. وبخاصة لا يمكن ضبط الأمن في الجيّة التي تربط بيروت بالجنوب وبالإقليم وعليها قوى متعدّدة فالمطلوب الاتّصال بالسوريين وإدخالهم في مسؤولية ضبط الأمن وبخاصة للعائدين والحفاظ على أرواحهم وممتلكاتهم.

لفتة خاصة

إن الأستاذ نزيه يمّين قد تدبّر مع بعض الأساتذة مدرسة تسجّل فيها ثلاثمئة طالب وطالبة من جميع الصفوف تؤمن فيها الدروس للطلّاب العائدين مع أهاليهم إلى دير القمر. وجرى اجتماع في البلدية كنت حاضرًا فيه وانطلقت هذه الفكرة وتحقّقت خدمة للطلّاب العائدين ولعيالهم.

وما إن عدت إلى المطرانية في صيدا حتى علمت بوفاة الخوري طانيوس عسّاف خادم رعية كفرشلّال وذلك إثر انفجار في الرأس بعد أن تلا القدّاس الإلهي نقل على أثره

إلى مستشفى حمّود في صيدا حيث فارق الحياة بعد ساعات من وصوله. وقد تعيّن موعد الدفن في بلدته كفرشلّال في إقليم التفّاح الساعة الثالثة بعد الظهر. وبما أن البلدة تقع في منطقة لا تزال القوى المتحاربة المسيطرة عليها كان لا بدّ من الاتصال بالمسؤولين في حزب الله وحركة أمل تأمينًا للمرور. ولكن بينما كنت والمطران في سيارة يقودها المهندس حبيب سميا على منعطف مكشوف على كفرملكي حيث قوى حزب الله، أطلق قنّاص علينا الرصاص وكاد يصيب مقدّم السيارة إلى اليمين. إذّاك أسرع السائق وأوقف السيارة في زاوية من الطريق وأكملنا طريقنا سيرًا على الأقدام إلى أن وصلنا إلى الكنيسة حيث قمنا بالصلاة ومراسيم دفن الكاهن. وتأمينًا للعودة جرى الاتصال من جديد بالقوى المسلّحة على الأرض لئلا نتعرّض من جديد للرصاص الغاشم أو المقصود لأننا نجهل ما يخبئ لنا الآخر.

إجتماعُ للرؤساء الروحيين في بكركي

يوم الجمعة ٢٥ أيار ١٩٩٠ دعي الرؤساء المسيحيون من قبل السيّد البطريرك إلى اجتماعٍ عقد في بكركي فبلغ عددهم ثلاثين بطريركًا وأسقفًا ورؤساء للكنيسة البروتستانتية بحضورٍ ممثّل لقداسة البابا جاء خصيصًا. وفي الاجتماع أرسل قداسة الحبر الأعظم من خلال الحاضرين إلى جميع المسيحيين في لبنان رسالة بصوته مسجّلة يدعوهم فيها إلى الحوار، الطريق الوحيد الواجب سلوكه، حلًّا لجميع المشاكل اللبنانية. وعاد المطران إبراهيم الحلو وقلبه مفعم بأملٍ كبير بأن يرى السلام يحلّ محلّ الحرب والاقتتال. إستمرت الهدنة بين المتحاربين وجرى حديث حول إعادة فتح المدارس إنما المياه والكهرباء لا تزال مقطوعة وبات الناس يتزودون حسبما يستطيعون بأنفسهم، بالماء لقضاء حاجاتهم الضرورية.

نقطة استفهام حول عودة أهالي الجيّة

يوم الخميس ٣١ أيار استقبلنا في المطرانية الأشخاص الثلاثة الذين يؤلّفون لجنة العودة إلى الجيّه ونقلوا إلينا القرار الصادر عن وليد جنبلاط بضرورة العمل والتفاهم مع السوريين الذين كانوا يتغيّبون عن الاجتماع المقرر، إما لشغل طارئ أو لوجودهم في سوريا أو لسبب آخر نجهله. وتبديدًا لكلّ شكّ أخذت الهاتف واتصلت شخصيًا بالعقيد السوري

زياد الذي أجابني بأن المسألة خلقت نوعًا من الرفض عند البعض، ولهذا فإنه يلزمها بعض الدرس والوقت. إذّاك حمّلت اللجنة هذا الجواب وانتقلت به إلى وليد بك في المختارة الذي استقبل الخبر بكلّ وجوم.

رجاءٌ جديد

يوم الأربعاء ٢٠ حزيران استقبلنا في المطرانية عشرة أشخاص آتين من الجيّة وجوارها وقد كانوا فرحين لأنهم أخذوا الضوء الأخضر من العقيد السوري زياد ومن الأستاذ وليد جنبلاط بإعادة خمسة وثلاثين ٣٥ عائلة إلى الجيّة وتحديدًا في حي قصوبه وفي حي دير مار شربل ومن بين القادمين إلينا ممثّل للحزب التقدّمي الاشتراكي لتدارس كيفية العمل وتأمين الأمان والسلام للعائدين. وفي اليوم التالي عرضت على المطران مشروعًا يقضي بإقامة لجنة على صعيد الأبرشية يؤخذ أعضاؤها من الرعايا التي لم تصب بالتهجير تعمل على مساعدة العائدين بالطرق التي تتوفّر لديها لكن سيادته أبدى مخاوفه من عدم نجاح تلك اللجنة فألغيت النظر في تأليفها مع أن حثّ المواطنين على التعاون بما يتوفّر لديهم من إمكانيات توحّد في ما بينهم بالملمات والضقات التي يحتازونها. وهل أفضل من مد يد المساعدة إلى الإنسان في ضيقته من تلك التي تتحسّس ما به من ضيق وتمتدّ للتخفيف عنه ولو بفلس الأرملة أو بانعطاف إلى ما به من بؤس وشقاء؟ ويا للأسف كانت تنقصنا تلك اللفتة أو ذلك الانعطاف من أبرشيات في لبنان ورعايا فيها ازدادت عمرانًا وازدهارًا وما رأيناها ساعة كانت أخت لها في لبنان تعاني الأمرّين أو تعمل على إعادة بناء كنيسة مهدّمة أو ترميم أخرى أو مد يد المساعدة بشيء ما ليعرف هذا المنكوب أن في الكنيسة المحلية من يشاطرونه فعليًا همومه ... لقد وعَيتُ منذ الصغر في بلدتي وادي جزّين حركة إنسانية تسمّى العونة: وهو، عملًا بالقول المأثور: «الحمل على الأجاويد خفيف» أي أنّ أبناء الرعية كانوا يهبّون تلقائيًا لنجدة من يصاب بما له أو برزقه تخفيفًا عنه من المصاب الذي يحلّ به...

محاولات فاتيكانية لتقريب وجهات النظر

باشر السفير البابوي بوابلو بوانتي فور مجيئه إلى لبنان بزيارات إلى جميع رؤساء الفئات اللبنانية المتحاربة بغية الوصول إلى اتفاق في ما بينهم على حلّ المشكلة اللبنانية.

ولكن ويا للأسف فشل في إيجاد حلول لتلك الأمور التي ازدادت تعقدًا. إن رئيس الجمهورية رفض مع الحكومة كلّ تعديل لما جاء في اتفاق الطائف مستندًا إلى موقف دمشق الذي يحثّ الجميع على القبول به من دون قيدٍ أو شرط إذّاك توقف السفير البابوي عن متابعة مبادرته التوفيقية التي تكلّلت بقصفٍ مركّز على الخطوط الفاصلة بين المنطقتين أوقع عدة ضحايا فبلغ عدد القتلى ستة والجرحى خمسة عشر وكلّهم من المواطنين الأبرياء. إذّاك فإن وزراء اللجنة الحميدة العربية قاموا بزيارة إلى الفاتيكان واجتمعوا إلى الأب الأقدس البابا يوحنّا بولس الثاني بحضور الكردينال كازارولي Casaroli أمين السرّ واعتبرها الوزير السعودي إيجابية وموضوعية كما اجتمعت اللجنة للغاية نفسها برئيس الجمهورية الفرنسية فرنسوا ميتران بحضور ملك المغرب الحسن الثاني وأوفدت الحكومة الفرنسية إلى لبنان وسوريا السيّد فرنسوا شار مدير عام وزارة الخارجية واحتفظ بالصمت الكلّي بعد زياراته ولم يصدر عنه شيء.

ومع أن الزيارات المتنوعة تواصلت ظل القصف أيضًا متواصلًا. ففي إقليم التفّاح المعارك مستمرّة من قرية إلى أخرى بين أمل وحزب الله وبعد الظهر اتصل بي هاتفيًا السيّد حسن حمّود وأخبرني عن اتفاقٍ ثنائي يهدف إلى وقف إطلاق النار في إقليم التفّاح بين حركة أمل وحزب الله بمناسبة عيد الأضحى الواقع يوم الإثنين في الثاني من تمّوز ١٩٩٠ وهو زمن يفسح أمام القرويين في جمع غلالهم من الحقول التي كما قيل لي كانت تبشر بالخير تلك السنة.

قصف جزّين

يوم الإثنين ٩ تمّوز قصفت المدفعية بلدة جزّين على مدى ساعتين من قبل حزب الله المرابط في البقاع وإقليم التفّاح وسقط ثلاثة قتلى هم: ريتا ميشال الحلو وجوزف عيد رومانوس وزوجته وخمسة جرحى كما أحدث القصف خسائر مادية جسيمة. كثيرون ممن جاؤوا إلى جزّين طلبًا للهدوء والسكينة غادروها وآخرون تساءلوا عن أسباب ذاك القصف العنيف الذي تكرّر مرّتين خلال عشرة أيام. وفي المرّة الثانية وقع ثلاثة جرحى كما وقعت قذيفة أمام تمثال سيّدة المعبور من دون أن تنفجر. وازداد القتال في إقليم التفّاح عنفًا

ووقع عدة ضحايا ويبدو أن حركة أمل لم تكن لتواجه وحدها حزب الله. وبعضهم يقول إن الفلسطينيين دخلوا في المعركة إلى جانبها مما جعل الحركة تتقدّم على محور كفرملكي. وليس أكيدًا أن حركة أمل تتقدّم إنما الأكيد والثابت أن القتلى والجرحى يسقطون بكثرة من كلا الطرفين.

الإثنين ٣٠ تمّوز التقيت الدكتور علي الشيخ عمّار من الجماعة الإسلامية على مدى ساعة كاملة واستعرضنا سائر الحركات بدءًا من صيدا وخلال أربعة أشهر ثم الأشخاص الذين لا يزالون موقوفين في جوّ من الانفتاح والتفاهم والصراحة ووعدني بأن يعمل جهده لتحرير أولئك الأشخاص وعدم التعرّض لسواهم كما قال لي إنه مهتمّ بأن تكون العلاقات المسيحية الإسلامية على أحسن حال حفاظًا على روحانية العيش المشترك الذي لا بدّ منه.

القدّاس الأوّل في الجيه

في اليوم الأخير من نيسان ١٩٨٥ لم يبقَ مسيحي في بلدة الجيّه التي أصبحت بعد أسابيع خرابًا ينعق فيها البوم وتستثمر أراضيها على أيدي الطارئين الآتين إليها من كلّ حدب وصوب. وهنا لا بدّ من التذكير بأن الجيه تعرّضت للتهجير للمرة الأولى سنة ١٩٧٥/١٩٧٦ ثم عاد إليها معظم أهاليها. وأعيدت عليها هجمات التهجير والتدمير سنة ١٩٨٥ وكانت تلك المرة قاضية عليها وعلى كنائسها بشكلٍ كامل بحيث لم يبقَ فيها حجر على حجر. إنما المحاولات والمحادثات التي بدأت كما قلنا سابقًا في شهر آذار سنة ١٩٩٠ أدّت إلى إعادة خمس وثلاثين عائلة من أهاليها إليها. وعلى سبيل تشجيع العائدين وحثّ الغائبين عنها إلى التفكير بشكلٍ جدّي بالعودة إلى رعيتهم الجيه أقمتُ القدّاس الأول للعائدين يوم ١٥ آب عيد انتقال السيّدة العذراء شفيعة الرعية أمام أحد البيوت الذي لم يبقَ منه سوى بعض جدرانه الخارجية. والبيت كما قيل لي هو ملك السيّد جرجس نادر القزّي الذي كان قد هاجر إلى أوستراليا.

أقمت القدّاس في الهواء الطلق أمام أحد جدران البيت المذكور الذي لا يزال قائمًا بحضور عدد لا يستهان به من المسيحيين الآتين من بيروت الشرقية ومن رعية الرميلة التي فرحت بعودة شقيقتها وجارتها الجيه، وكما حضره أيضًا ممثّلون عن الأحزاب الموجودة

هناك. كانت كلمتي شكرًا لله الذي أتاح لنا هذا اللقاء بعد سنوات طويلة في عيد السيّدة العذراء شفيعة الجيه. وشكرت كذلك جميع الذين ساهموا من قريبٍ أو بعيد في عودة هذا العدد من أهالي الجيه راجيًا أن يزداد مع توطيد السلام في هذه الربوع العزيزة. وأنهيت اللقاء بزياح أيقونة السيّدة العذراء وإعطاء البركة لجميع الحاضرين. بعد القدّاس طلب ممثّلو الحزب الاشتراكي الذين حضروا القدّاس من الأب جوزف القزّي أن يلتزم الحياد ولا يتعاطى بشؤون العودة لأن معاطاته بشأن العودة غير مقبولة لكونه كان فاعلًا مع القوّات اللبنانية التي لا تزال أعمالها السيئة على حدّ قولهم ماثلة أمام العيون. وأظنّ أن الأب المذكور قبل بملاحظات المسؤولين حفاظًا على مصلحة الراغبين في العودة.

كما أمنتُ لهم القدّاس الأحد ١٩ آب الساعة الحادية عشرة وعملت مع كاريتاس لبنان والرسالة البابوية على إعادة ترميم البيوت وتعمير جزئي للبيوت المهدومة. وقمت في تلك الأثناء أيضًا باتصالات كثيفة مع الرهبانية اللبنانية المارونية التي بنت لها لاحقًا ديرًا ومدرسة في الجيه، فلقيت عند الأباتي باسيل هاشم الرئيس العام للرهبانية التجاوب المطلوب ووعدني بأن يرسل إلى الجيه أحد الآباء المتطوعين لتلك الخدمة، هذا إذا أحبّ أحدهم ذلك لأنه لا يريد أن يأمرهم بذلك. كما وأن ترميم الدير ليصبح أهلًا للسكن يتطلّب أشياء كثيرة، وبخاصة لأن المدرسة قد نهبت كلّيًا ولم يبقَ منها سوى الجدران والسقف وهي بحاجة إلى أن ترمّم. وبانتظار أن يحقق الرئيس العام طلبي بقيت على موعد مع العائدين أؤمن لهم القدّاس كما بدأنا المشروع، أمام جدار من جدران لا تزال قائمة لأحد البيوت، أقلّه قبل أن يبدأ فصل الشتاء.

معارك بين الفلسطينيين في صيدا وعين الحلوة

يوم الخميس ٦ أيلول وقع حادثٌ دموي في عبرا، قرب صيدا، بين الناصريين والحركة الإسلامية أسفر عن مقتل مسلّح من الحركة وجرح إثنين أيضًا نتج عنه تشنّج وتبادل لإطلاق النار استمرّ ساعتين استعمل فيها جميع أنواع الأسلحة فاضطر السكّان إلى الاختباء في الأماكن الأمنة. كما لوحظ أن مسلّحي فتح في الحركة الفلسطينية شاركوا الناصريين في المعركة. وفي اليوم التالي استعادت المدينة هدوءها وفتحت المصارف والمحلّات أبوابها

بالرغم من تشييع جثمان أحد الذين سقطوا في اشتباكات الأمس. وفي اليوم التالي أي السبت وقع اصطدام فظيع بين مجموعات تؤيّد عرفات وأخرى مؤيّدة لأبو نضال واستعملت في المعركة جميع أنواع الأسلحة الخفيفة منها والثقيلة ومن جراء تلك المعارك وقعت بعض القذائف المدفعية على بيوت المواطنين في المدينة صيدا. ويقال إن حصيلة المعارك التي جرت في مخيم عين الحلوة، بقرب مدينة صيدا، قد بلغت بعد أربع وعشرين ساعة من القتال العنيف الذي استعمل فيه جميع أنواع الأسلحة الخفيفة والثقيلة ثلاثمئة ضحية منها سبعون قتيلًا والباقون جرحى. وبعد تلك المعارك العنيفة سيطرت جماعة عرفات على المخيم غير أن جيبًا للمقاومة بقي مسيطرًا في صيدا في حي الصباغ يقاوم بشراسة العرفاتيين الذين هاجموهم بعنف وأرغموهم على الاستسلام. وهنا تجدر الإشارة إلى أن جميع أحزاب المدينة اتفقت مع السلطات الروحية والمدنية على التزام الحياد في تلك المعارك كما أن بعثات صيداوية ذهبت إلى دمشق تستجدي موافقة حكامها على القرارات التي اتخذها الصيداويين وأظن أنها نالت ما راحت تطالب به. بعد عشرة أيام من الإضراب في المدينة فإن مكاتب الحركة الفلسطينية الثورية ظلّت مفتوحة في المدينة من دون أن يعرف السبب غير أن ميليشيا الجماعة الإسلامية انسحبت من الشوارع تاركة الحفاظ على الأمن بين أيدي الشرطة المختصّة بالسيّد مصطفى سعد واستعادت الحياة في المدينة طبيعتها.

توتّر في بيروت

يوم الجمعة ٢٨ أيلول أخذت قوى الجيش اللبناني المؤتمرة بأوامر الجنرال لحّود وتحت طاعة الرئيس الياس الهراوي مواقع القوّات اللبنانية من مرفأ بيروت حتى نهر الكلب وضربت حصارًا على المنطقة التي يشرف عليها الجنرال عون لكي تمنع وصول السيارات إليه العمومية والخاصة ما عدا سيارات الصليب الأحمر وسيارات النواب والدبلوماسيين. أما السيارات الراغبة في الخروج من تلك المنطقة التي تسيطر عليها قوّات الجنرال عون فيسهّل مرورها والمشاة كذلك يبقى دخولهم إلى المنطقة وخروجهم منها حرًّا ومسموحًا به للمشاة من دون سواهم. وكان سكّان بيروت الغربية ينظرون بتفاؤل إلى تلك القرارات المتخذة آملين أن تفرض على الجنرال عون الاستسلام وبعضهم كان يعتبرها ظالمة. على أن الناس كانوا في انتظار وترقّب للأحوال: هل ستنفّذ تلك القرارات بحذافيرها ويستمرّ العمل بها إلى أن يستسلم الجنرال عون أم أنها ستؤول إلى مفاوضات وصولًا إلى حلول سلمية.

إستمرار القتال في إقليم التفّاح

إستمرّ القتال بعنف بين الأخوة في إقليم التفاح ووقعت خسائر فادحة من الفريقين في الأرواح والممتلكات وتأثّر الناس كثيرًا بما يجري وإن لم يكونوا مصابين مباشرة بانقطاع مياه الطاسة عن عشرات القرى في الإقليم. قامت تظاهرات احتجاج تجمهرت أمام الشيخ محمد مهدي شمس الدين نائب رئيس المجلس الإسلامي الشيعي وأمام السفارة الإيرانية ولم تصل إلى نتيجة.

حصار المنطقة التي يسيطر عليها الجنرال عون

فرضت الحكومة اللبنانية التي تألّفت بعد اتفاق الطائف حصارًا شديدًا على المنطقة التي يسيطر عليها الجنرال عون. وانقطعت عنها المحروقات على أنواعها، الخضار، الأدوية ومنعت السيارات من الدخول عليها. وحدهم المشاة يستطيعون الدخول إليها من دون أي شيء معهم حتى المال كان إدخاله محرّمًا؛ ردًّا على ذلك الحصار قامت تظاهرات ضخمة جدًا ضمن المنطقة تنادي بفكّ الحصار عنها وتدعم سياسة الجنرال. وفي أحد الأيام قامت تظاهرة ضخمة جدًا وذهبت باتجاه نهر الموت وإذ أرادت احتراق حاجز الجيش التابع لقيادة الجنرال لحّود وليس في أيديها سوى مشاعل وشموع مضاءة وجدت نفسها تحت وابل من رصاص القوّات اللبنانية المندسّة بين عناصر الجيش فوقع من بين أفرادها ما يقارب الخمسين قتيلًا وجريحًا فعمّت الفوضى وصار التراجع وألقى الجيش بالمسؤولية على عناصر القوّات اللبنانية المندسّة بين المتظاهرين وعلى كلّ حال تبقى الحكومة المسؤولة الأولى عن كلّ ما جرى. وكان الناس يأتون كلّ مساء من داخل المنطقة التي يسيطر عليها عون إلى الخطوط الفاصلة ويحيّون الناس المقيمين من الجهة الثانية ويدعونهم إلى رفع الحواجز المصطنعة من المتن الشمالي إلى الشويفات من دون أن تغيّر شيئًا من تصرّفات ومواقف حكومة الطائف التي ما كانت إلّا لتزداد تصلبًا.

يوم السبت ١٣ تشرين الأوّل ١٩٩٠ وعند الساعة السابعة صباحًا قام الجيش الذي يقوده لحّود بمساندة الجيش السوري بهجومٍ شامل على المنطقة التي يسيطر عليها الجنرال عون ثم راح الطيران السوري يقصف القصر الجمهوري في بعبدا بالقنابل فلجأ الجنرال عون

مع مساعديه إلى السفارة الفرنسية في الحازمية ومن هناك طلب منه أن يوجّه نداء إلى مؤيّديه بالتوقّف عن القتال والتقيد بالأوامر التي يعطيها الجنرال لحّود. وإذّاك طلب الجنرال عون اللجوء إلى فرنسا فاستمهلت الدولة الفرنسية التجاوب مع ذاك الطلب ريثما تستأذن الدولة اللبنانية بإنزال طائرة هليكوبتر في السفارة لنقل الجنرال عون ومساعديه. فطلب لبنان وقتًا لدرس إمكانية محاكمة عون أمام محكمة لبنانية...

إن الصحف التي صدرت الأحد ١٤ تشرين الأوّل حملت على صفحات كاملة صورًا عن المعارك التي حصلت أمس السبت ووصفت بدقة الطريق الذي استعمله الجيش اللبناني وحليفه الجيش السوري والخراب الذي تسبّب به دخوله إلى المناطق التي كان يقيم فيها مؤيّدو الجنرال عون كما وقعت جرائم ارتكبها الجيش الغازي بحقّ العسكريين وبحقّ المدنيين العزّل ونتج عن تلك التصرّفات اللاإنسانية احتجاج الكثيرين ضد حكومة الطائف التي وقعت في عهدها تلك التصرّفات الشاذة ضد الأبرياء وضد الممتلكات حتى أن المدافن لم تخلُ من التعديات عليها. السفير البابوي احتجّ ضد ما ارتكب من اغتيالات وتعديات وفي مصاف إكليروس كان نوع من النقمة والاحتجاج على كلّ ما جرى في ذلك النهار ليس عن حبٍّ للجنرال عون بل إدانة للأعمال البربرية المشينة التي ارتكبت بحقّ الإنسانية. ولم يخلُ البطريرك صفير من انتقادات من قبل المؤمنين ورجال الإكليروس لكونه التزم الصمت في الوقت الذي كان الاحتجاج فيه ضروريًا وبخاصة لأن الزعماء المدنيين لم يبدوا حزمًا أمام ما جرى من جرائم ويعزى إلى البطريرك صفير مسؤولية السكوت وبخاصة لأن ما قاله في عظة الأحد أبدى فيه نوعًا من الارتياح للحلول التي أعطيت للأزمة التي انتهت على حدّ ما نسب إليه بخروج الجنرال عون من القصر الجمهوري. وما زال ذاك الموقف من الجنرال عون يتفاعل في السرّ والعلانية بين البطريرك والعماد عون حتى بعد عودة هذا الأخير من فرنسا.

إغتيال داني شمعون وعائلته

نهار الأحد ٢١ تشرين الأوّل ١٩٩٠ وفي تمام الساعة السابعة صباحًا دخلت مجموعة من المسلّحين مؤلّفة من أربعة أو ستة أشخاص بيت الأستاذ داني شمعون في

الطبقة السادسة من مركز شاهين في بعبدا يحملون مسدسات مزوّدة بكاتمات للصوت وقتلوه مع زوجته إنغريد عبد النور وولديهما طارق وعمره ثماني سنوات وجوليان وعمره خمس سنوات الأصغر حاول الاختباء فقضوا عليه. أما الصغرى وعمرها أحد عشر شهرًا فقد أخفتها الخادمة وهي من التابعية السرلنكية في الحمّام. عند شيوع الخبر في البلاد ثارت موجة من الاشمئزاز والاستنكار الشديد الذي لم تعرف البلاد مثيلًا له بعد سني الحرب الطويلة وتساءل الناس عن الدافع لارتكاب هذه الجرائم النكراء وعن مرتكبيها الذي ظلّوا مجهولي الهويّة عند عامة الناس لكنهم معروفون بأسمائهم ودوافعهم عند العلي القدير. وهذه جرائم تضاف إلى سلسلةٍ طويلة من الجرائم التي ارتكبت خلال هذه الحرب التي قضت في لبنان على البشر والحجر ولما تُعرف أسبابها الحقيقية ولما يعرف الرابح الحقيقي منها حتى الآن إنما المعروف الخاسر الأكبر لبنان والإنسان في لبنان. وتعيّن دفن المغدورين الأربعة الساعة الثانية عشرة من يوم الأربعاء ٢٤ تشرين الأوّل في دير القمر. وأقيمت لهم جنازة وطنية واعتبر الزعيم وليد جنبلاط الحداد عليهم شخصيًا، وكان أفراد حزبه يؤمّنون كلّ ما يمكن أن يُؤدّى للضحايا من تكريم كما أن ورقة النعي حملت اسمه في المقدّمة قبل سواه من آل شمعون. وأقيم الجنّاز في كنيسة سيّدة التلّة في دير القمر ورئس صلاة الجنّاز سيادة المطران رولان أبو جودة ممثّلًا غبطة البطريرك مار نصر الله بطرس صفير وأقام الذبيحة الإلهية المطران إبراهيم الحلو رئيس أساقفة صيدا يعاونه الأبوان مرسيل أبي خليل وسمعان أبو عبدو. وبعد الانتهاء تمّ تلاوة الرقيم البطريركي سُمع صوت عال يقول ... عاقب لك ... لكن هذه الإهانة العلنية لقيت استنكارًا شديدًا عبّر عنه الأستاذ جورج ديب رئيس البلدية. وبعد صلاة الجنّاز ألقيت ثلاث كلمات في باحة الكنيسة الخارجية الأولى لنائب رئيس الأحرار الأستاذ إيلي مكرزل والثانية للسيّد جورج ديب رئيس بلدية دير القمر والثالثة للأستاذ وليد جنبلاط. ولقد قُدِّر عدد المشاركين في المأتم بعشرين ألف نسمة قدموا من جميع النواحي اللبنانية ومعظمهم من الدروز. ومع أن الخلاف بين الضحايا وحكومة الهراوي الحصّ قائم وحادّ فقد أرسل الرؤساء الثلاثة الياس الهراوي وسليم الحصّ وحسين الحسيني ممثّلين عنهم، وأما ممثّل الرئيس الهراوي فقد كان الوزير ميشال ساسين. غابت عن المأتم القوّات اللبنانية وحزب الكتائب.

الفصل الخامس عشر

آمال السلام وإعادة البناء

في السادس في تشرين الثاني جرى توافق بين حركة أمل وحزب الله رعته الحكومة السورية في دمشق. وهل يطبّق ذلك الاتفاق عمليًا فوق الأرض في إقليم التفّاح الذي يجري فيه القتال بينهما منذ أكثر من عشرة أشهر. وفي هذا النهار استقبلنا أناسًا آتين من صربا قالوا إن ما يشبه السلام قد حلّ بين الفريقين المتنازعين في الطائفة الشيعية وها إن مياه نبع الطاسة بدأت تعود إلى القرى في الإقليم.

في الأشرفية تأخّرت القوّات اللبنانية في الخروج منها وهذا الذي أخّر دخول الجيش اللبناني إليها. في صيدا بدأت الترتيبات الأولية لدخول الجيش اللبناني إلى الإقليم من خلال اجتماعٍ جرى في بيت الوزير الدكتور نزيه البزري اشترك فيه الوزير دلول ومجموعة تمثّل الفصائل الفلسطينية وحركة أمل وحزب الله وجرى اتفاق على دخول الجيش اللبناني إلى المنطقة لكي يؤمّن عودة الأهالي إلى بيوتهم وأرزاقهم.

لا بدّ هنا من الإشارة إلى أنه منذ تمّ الاتفاق على عودة الأهالي إلى بيوتهم بدأت أعمال النهب والسرقة لكلّ ما في البيوت من أثاث ونوافذ وأبواب. وتلك أيضًا لم تسلم من السرقة.

في ٢٠ تشرين الثاني استقبلت في صيدا وفدين يمثّلان كاريتاس لبنان. وقام الجميع بزيارة المركز الصحّي في صيدا الكائن في البناية التي وضعتها المطرانية المارونية تحت تصرّف كاريتاس لبنان. وكم كان سرور مندوبة كاريتاس سويسرا مدام أندرسون عندما اطّلعت على العمل الجدّي الذي يقوم به المركز وبخاصة لأن المستفيدين من تلك الخدمات موزّعون بين المسيحيين والمسلمين. وهذا ما سوف ترتاح إليه الحكومة السويسرية حين ترى هذا العدد الكبير من المسلمين الذين يستفيدون من خدمات المركز الصحّي الاجتماعي بخلاف المركز القائم في سنّ الفيل لأن العدد الأكبر من المستفيدين فيه هناك هم من المسيحيين. وبعد زيارة المركز في صيدا قمنا معًا بزيارة البيوت التي عملت كاريتاس لبنان على ترميمها تحت رقابة مركز صيدا الزهراني. وكان الوفد مرتاحًا إلى ما نقوم به على هذا

الصعيد ولاسيّما ما يقوم به المركز تجاه المسلمين الذي يتعايشون والمسيحيين بسلام. قمنا بعد مغدوشة بزيارة إلى بعض البيوت الشيعية في زغدرايا التي أفادت من مساعدات كاريتاس كما زرنا بلدة بيصور وعدنا إلى المطرانية في صيدا لتناول طعام الغداء ثمّ رافقتهم إلى الجيه فاطلعوا على عودة الأهالي البطيئة. وعندما وضع الألماني Karl Ammary يده بيدي مودّعًا قال لي بارتياح كلّي: «تعلّمت اليوم أمورًا كثيرة خلال زيارتنا، شكرًا جزيلًا» -فكان جوابي عليه: «إني آمل بدوري أن تكثر المساعدات لمصلحة العائدين الذين ينقصهم كلّ شيء، ما عدا الجرأة والإرادة الطيّبة.»

بعد شهرين تقريبًا من وقف إطلاق النار في إقليم التفّاح كان فيهما نوع من الهدوء النسبي عاد الجوّ إلى الاضطراب والقلق عندما أطلقت إسرائيل قذائف مدفعية من عيار ١٥٥ ملم على تلّةٍ من تلال صربا لم تحدث سوى موجة من الذعر في صفوف السكّان. ويبدو أن ذلك كان ردًّا على طلقات كاتيوشا أطلقتها جماعات فلسطينية على إسرائيل. وهذا الحادث جعل الجيش اللبناني يتردّد في إرسال قوّاته إلى تلك المنطقة كيلا يواجه معركة مع الفلسطينيين فكان هناك تريث على أمل حلّ هذه العقدة بطريقة سلمية وعدم مواجهة الفلسطينيين. أما إسرائيل فلم تهدأ وأخذت تطارد الفلسطينيين حيثما كانوا فقصف طيرانها قرى مسيحية (القرية وصربا) مصوّبة قنابلها على بيوتٍ من تلك القرى يقيم فيها فلسطينيون فوقع بينهم قتلى وجرحى. أما المسيحيون فلم يصبّ أحد منهم بأذى ولكن هدمت بيوت لهم يقيم فيها فلسطينيون. وتعقيبًا على ما حدث فقد قرع الأهالي في القرية جرس الكنيسة حزنًا فاجتمعوا في بيت الخوري بطرس شلهوب خادم الرعية ومنه انتقلوا بتظاهرة إلى حيث كان يقيم المسؤول الفلسطيني فلم يجدوه وفي اليوم التالي قمت والمطران إبراهيم راعي الأبرشية الساعة الثانية بعد الظهر بزيارة إلى القرية حيث اجتمعنا إلى الأهالي والمسؤول الفلسطيني الذي وعدنا بإخراج المراكز التابعة له من القرية. وهنا لا بدّ من العودة إلى ما قلته بهذا الخصوص لمسؤولٍ فلسطيني سنة ١٩٨٥ في بيت الخوري بطرس كاهن الرعية. هنالك أيضًا قرى أخرى في الإقليم تعرّضت لقصف الطيران الإسرائيلي وهي برتي، وادي الليمون، محاربيه، صربا، عربصاليم، حومين ورومين.

دخول الجيش اللبناني إلى الإقليم

صباح الأربعاء بدأ الجيش اللبناني دخوله إلى إقليم التفاح، انطلاقًا من سينيق حتى أعالي قرى الإقليم فأحدث سلامًا نسبيًا دخوله لأن صيدا بقيت بين أيدي الشرطة الأمنية التابعة للتنظيم الشعبي الناصري وهذا ما لا يعيد الطمأنينة إلى نفوس العائدين.

إستقبل الأهالي الجيش بالترحاب وتمنّوا عليه أن يكون حقًّا الرادع القوي لكلّ من تسوّل له النفس تعكير صفو الناس وأمنهم بعد الذي عاشوه من قلق وخوف هنا في المنطقة وفي تلك التي تهجّروا إليها. كان في اليوم التالي عيد القدّيس مارون شفيع رعية عين الدلب فاحتفل سيادة المطران إبراهيم بالقداس فيها وعاونه الخوري الياس نصار وحضره أبناء الرعية موارنة وكاثوليك كما حضره أيضًا على سبيل المشاركة والتشجيع راهبات مار يوسف الظهور وراهبات القلبين الأقدسين اللواتي قدمن من صيدا. وفي سماء ذلك اليوم قمت بزيارة العائدين إلى الجيه متفقّدًا أحوالهم ووزّعت عليهم مائة حرام كانت قدّمتها إحدى السيّدات الفاضلات التي أبت أن تعلن عن اسمها.

حادثة مؤسفة الجمعة ١٥ شباط

جرت معركة في القرية بين فئتين فلسطينيتين متناحرتين وقع خلالها ثلاثة قتلى من الأهالي وهم: بشاره السمرا وزوجته وعجوز أخرى من عائلة جرجورة. إستمرت المعركة إثنتي عشرة ساعة يوم ١٥ شباط ١٩٩١. إن البيت الذي قُصف تهدّم على من فيه فقتلوا تحت الردم. وفضلًا عن الضحايا التي ذكرناها فهنالك أيضًا خسائر مادية كبرى. وراح الناس يتساؤلون بمرارة وإلحاح قائلين ولماذا لا يستلم الجيش الأمن في البلدة. وفي اليوم التالي قمنا بزيارة تهدئة واطمئنان إلى القرية وقدّمت التعازي بالضحايا التي وقعت كما اجتمعت إلى قسمٍ كبير من السكّان وشاركت في مراسيم جنازة القتلى.

أمام ذاك الوضع الأمني المضطرب والهلع الذي استولى على السكّان رحنا نتساءل ما العمل؟ هل اللجوء إلى رئيس الجمهورية وإلى الحكومة ينفع شيئًا؟ وهل نبقى مكتوفي الأيدي؟ لقد قمنا بلقاءات مع المراجع السُنّيّة المحليّة في صيدا التي كانت مستاءة جدًّا مما جرى في القريه وأوقع ضحايا بريئة. فضلًا عن تلك اللقاءات طلب سيادته مقابلة رئيس

الجمهورية الأستاذ الياس الهراوي فتعيّن له موعد المقابلة في ١٨ شباط الساعة الثانية عشرة ظهرًا. رافقته في زيارة الرئيس فعرض سيادته على فخامته الوضع في القرى المسيحية التي تعاني على كلّ صعيد من الوجود الفلسطيني فيها وسأله ما هو المانع من إرسال الجيش إلى تلك القرى ما دام الجيش قد أرسل إلى الإقليم ليفصل بين القوى الشيعية المتحاربة؟ وكان جواب الرئيس غير مقنع لنا وفيه كثير من التهرّب من تحمّل المسؤولية المترتبة على الحكومة وعلى الجيش لحماية اللبنانيين من الفلسطينيين تخوّفًا من وقوع اصطدام بين الجيش والفلسطينيين ... حتى أن الرئيس قال لنا ما لم نكن نتوقعه من رئيسٍ للجمهورية مسؤول عن رعاية شعبه قال لنا بالحرف الواحد: «لننتظر نهاية حرب الخليج التي أتمنّى أن تكون مأسوية على العراقيين وعلى حلفائهم الفلسطينيين!» وسألناه عمّا إذا كان ممكنًا ربط الجيش الموجود في جزّين ومنطقتها ما دام مرتبطًا بالقيادة العليا في اليرزة بالجيش الموجود في الإقليم، فأجاب فخامته بأن «هذا الموضوع متعلّق بأنطون»، أي بالجنرال أنطوان لحد قائد جيش لبنان الجنوبي حليف إسرائيل.

في حديثنا مع فخامته، لم يخفِ أمامنا امتعاضه من المطران بشارة الراعي مطران جبيل الذي حمل في عظته يوم عيد القدّيس مارون حملة عنيفة على السوريين. وأردف قائلًا أيضًا إنه يتمنى أن يرى صاحب الغبطة البطريرك صفير يقف وقفة جريئة وحازمة كرئيسٍ وراعٍ لكنيسة لبنان، ولكن لسوء الحظ فإن موقفه يدعو إلى الأسف. وبخصوص سياسة العهد المتّبعة تجاه إعادة بناء القرى المهجّرة وعودة المهجّرين إليها ولنا فيها القسط الأوفر أبدى الرئيس انزعاجه من فقدان المال الضروري ومن تقاعس الدول الأجنبية عن مد يد المساعدات إلى لبنان بانتظار عودة السلام إلى الربوع اللبنانية لتعمل على مساعدتها لأنه ما من أحد يريد أن يساعد اللبنانيين قبل أن يخيّم السلام، وما من أحد يريد أن ينفق المال عبثًا لأن الحرب اللبنانية علّمتنا أشياء كثيرة.

وما دام مصير بلدنا متعلّقًا بحرب العراق والفلسطينيين في الكويت فمن واجبنا أن نشير إلى أن صدّام حسين الذي تضايق من حصار الحلفاء له في الكويت طلب التوقّف عن القتال بغية الانسحاب من الكويت، لكن الحلفاء رفضوا وأرادوا القضاء عليه نهائيًا. وبعد ثمانية وأربعين ساعة، تحرّرت الكويت من العراقيين وحلفائهم. ولما اشتدّ الضغط على

الجيش العراقي قامت تظاهرات في البلدان العربية في مصر والأردن والمغرب ويبدو أن عشرة آلاف فلسطيني من عين الحلوة قاموا بتظاهرة ضخمة تأييدًا لصدّام ودعوا الصيداويين إلى التظاهر معهم، لكن الدعوة لم تلقَ التجاوب المطلوب. ومن يدري إن لم يكن السوريون وراء ذلك الرفض القاطع؟

ما جرى في أيار ١٩٩١

كنت ما بين ٨ و١٠ أيار ١٩٩١ في كفرا، عين سعاده، مشتركًا في لقاءٍ لرؤساء المناطق في مؤسّسة كاريتاس لبنان وكان سيادته في روما يشارك في اجتماعات لجنة العقيدة والإيمان. وفي تلك الأثناء بعث السيّد وليد جنبلاط بالمدعو عصام باز لينقل إليّ أن السيّد وليد غير راضٍ عن موقف غبطة البطريرك صفير الرافض حسب رأيه إعطاء الدروز نائبًا في مدينة بيروت حيث يبلغ عدد الناخبين بينهم ثلاثة آلاف وخمسمئة شخصًا. وهذا حقّ لهم كان يطالب به المرحوم كمال جنبلاط منذ السنة ١٩٥٠، وتردّد السيّد باز إلى المطرانية ناقلًا إليّ هذا الخبر لكي أنقله إلى البطريرك صفير في بكركي. وإذ علمت بذلك تساءلت وطرحت على الموفد سؤالًا قائلًا: «وما شأن غبطته بالموضوع؟» وكان جوابه ملحًّا بنقل هذا الرأي الجنبلاطي إلى بكركي وإلّا ستتأزم العلاقات ولكن محدّثي بقي على موقفه المتشدّد. إذّاك حفاظًا على ما بيننا وبين جنبلاط من علاقات قصدتُ بكركي وقابلت غبطته وأطلعته على الموضوع، فكان ردّه مشابهًا لما قلته لموفد جنبلاط: «ما لنا وله في الموضوع؟ هذا ليس شأننا»، ولكن إذ رجوت غبطته بأن يأخذ بالاعتبار ما نقلته إليه وعدني خيرًا وانصرفت.

إنفجار

في ١٢ أيار ١٩٩١ حدث انفجار على كنيسة مار الياس في قنّابة صيدا الساعة ٩,٣٠ وقد وضعت المتفجّرة على الزاوية الجنوبية الشرقية للكنيسة داخل حرم الكنيسة فتحطّم زجاج النوافذ في الكنيسة، فأحدث فجوتين في جدار الكنيسة وفي السكرستيا وقدّرت الخسائر المادية في الكنيسة بمليون وستمئة ألف ليرة لبنانية تقريبًا. ذهبت إلى الكنيسة توًّا بعد الانفجار واطّلعت على الخسائر التي حدثت ولمست استياءً شديدًا لدى

المؤمنين. وكانت في الكنيسة سيّدتان تنظّفان الأرض من الزجاج وحطام النوافذ فطلبت إليهما التوقّف عن التنظيف حتى صباح اليوم التالي ليرى الناس ما جرى... وهذا الانفجار لم يمنع المؤمنين من المجيء مساءً للصلاة المريمية كالمعتاد. إحتجاجًا على ما جرى، قام الدكتور الوزير نزيه البزري بزيارة المطرانية كما جاء أيضًا الأستاذ مصطفى وأخوه الدكتور أسامه مستنكرين ما جرى. واعتبر مصطفى الحادث موجّهًا ضدّه لكونه المسؤول عن الأمن في المدينة. وقام مفتي الجمهورية اللبناني الشيخ قبّاني باتّصالٍ هاتفي مستنكرًا ما حدث.

على مدى ثلاثة أيام متتالية قام الطيران الإسرائيلي بقصف المراكز شرقي مدينة صيدا على الميه وميه ومجدليون ودام القصف ساعتين وتأثّرت به دار العناية وثانوية الراهبات المخلصيات وقمت في اليوم التالي بزيارتهما. وفي ٦ حزيران دعيت إلى روم لمقابلة الأمير ده ليكوفيتش رئيس فرسان مالطة حيث كان في ضيافة نبيل حدّاد على مدى يومين ودار بيننا حديث حول ما تقوم به جمعيته من مساعدات.

رياضة روحية للأساقفة في بكركي

في اليوم الثاني من حزيران ١٩٩١ أقيمت في بكركي رياضة روحية لأساقفة الكنيسة المارونية وانعقد كذلك مجمع ماروني اشترك فيه سيادة المطران إبراهيم الحلو وعاد غير مرتاح إلى الجو الذي ساد ذلك الاجتماع وإلى ما اتخذ فيه من قرارات من دون أن يعلن شيئًا أمامي عن مضمونها. إنما لم تكن لتختلف كثيرًا عن سياسة العلمانيين بينما الناس ينتظرون الكثير من مجمع الأساقفة في اتخاذ مواقف تساعد على حلّ المشاكل التي يعانون منها منذ سنوات. كما علمنا من الإذاعة اللبنانية الرسمية أن الفاتيكان يدعو بطاركة الشرق الأوسط الكاثوليك إلى اجتماعٍ في روما مع نيافة الكاردينال إتشيغاري يتدارسون فيه موضوع عودة المهجّرين إلى ديارهم وهذا الخبر الرسمي يعيد شيئًا من الأمل المفقود إلى نفوس اللبنانيين الذين تتوالى عليهم الضربات من كلّ الجهات وليس من يسمع وليس من يرحم...

توالت الزيارات الرسمية إلى صيدا بعد أن صرّح وزير الدفاع المهندس ميشال المرّ أن الجيش اللبناني سوف ينتشر في صيدا وجوارها بدءًا من أوّل تمّوز القادم، على هذا الأساس وتحقيقًا لهذا القرار المتخذ، فقد قامت شخصيات لبنانية كثيرة سياسية وعسكرية بزيارات

زعماء المدينة: كوزير الدولة نزيه البزري والمهندس مصطفى سعد ولرؤساء الحركة الإسلامية كالشيخ ماهر حمّود والدكتور علي الشيخ عمّار. كما وأن الزعماء الصيداويين كانوا يعقدون اجتماعات مع الزعماء الفلسطينيين المقيمين في المدينة، وفي مخيّم عين الحلوة لكونهم مرتبطين معهم بمواقف معيّنة منذ زمن بعيد لأن كلّ قرار قد يتخذ بمعزل عنهم يقود إلى معارك دامية لا يتمناها أي طرف من الأطراف. أما نحن وخلال الزيارات التي قمنا بها إلى الزعماء الصيداويين المسلمين كالأستاذ مصطفى سعد والدكتور نزيه البزري في عيد الأضحى فكنا نلقى استعدادًا حقيقيًا لدخول الجيش اللبناني وانسحاب الميليشيات من المدينة. وتابعنا الزيارات وكان الأمل يترسخ أكثر فأكثر إنما حدث تراشق بالمدفعية في العشرين من حزيران والحادي والعشرين منه على جبهة كفرفالوس التي كانت قد عرفت، منذ زمن، بعض الهدوء فوقعت قذائف على أطراف مدينة صيدا كما وقعت في مستشفى جزّين الحكومي. ويبدو أن مسؤولية القصف تقع على مسلّحي الجبهة الإسلامية في المدينة الذين أرادوا من خلال ذلك الإعلان على أنهم لا يزالون على الساحة وأن كلّ قرارٍ يتخذ يجب أن يكون لهم دور فيه بشأن دخول الجيش إلى المدينة وإلى شرقيها.

ما يجب ذكره في هذا المجال هو أن المطرانية المارونية كانت محيَّدة ولم تجرِ معها أية مفاوضات بهذا الشأن. وبالعكس يوم انسحب الجيش الإسرائيلي سنة ١٩٨٥ تكاثرت الزيارات كما سبق وقلنا إلى المطرانية وأقبل الناس على استشارتها والأخذ برأيها سواء أجاؤوا من المدينة أم من خارجها وحتى من البعيد البعيد. وما هو السبب؟ هل هو انحسار مقصود عن الساحة أم إقرار بعدم قدرتها على تسيير الأمور إلى الأفضل؟ إنني أسجل هذه الملاحظة للتاريخ.

على كلّ حال ظلّت حياتنا طبيعية. وبقينا نعمل ضمن إمكاناتنا لترسيخ الهدوء وتشجيع الناس على الثبات في بيوتهم وها نحن نرسل مجموعة من الشبان في ٢١-٢٣ حزيران إلى مركز دون بوسكو على طريق قرطبا للتمرّن على تدريب شبان على إدارة مراكز صيفية تحت رعاية كاريتاس لبنان وإدارة الأب فادي سركيس.

إجتماعات صيداوية

توالت الاجتماعات في بيت مصطفى سعد وكانت تضمّ صيداويين مسلمين وفلسطينيين من دون سواهم، وكنا عن تلك الاجتماعات مغيَّبين. ومن ثم في نهاية أحد الاجتماعات صدر قرار يقبل بدخول الجيش اللبناني على أن يظلّ الحقّ للمقاومة قائمًا بمتابعة مقاومتها لإسرائيل التي ما تزال تحتلّ جزءًا من لبنان الجنوبي وتمّ الاتّفاق على أن يدخل الجيش اللبناني الإثنين في اليوم الأوّل من تموز ١٩٩١.

في تمام الساعة الثامنة والربع مساءً استقبلنا في المطرانية المونسنيور بولس مطر مطران بيروت الجديد يرافقه المطران خليل أبي نادر وهي زيارة بروتوكولية وجرى حديث مطوّل حول ما جرى من قصف في المدة الأخيرة وعلى جوّ الرعب والخوف الذي نتج عنه فاضطر البعض من الأهالي إلى مغادرة المدينة والمنطقة إلى أماكن يعتبرونها أكثر أمنًا لهم ولعيالهم.

صباح الإثنين الأوّل من تموز ١٩٩١ باشر الجيش اللبناني دخوله تدريجيًا وببطء إلى صيدا وإلى بعض نقاط في شرقيها. وبدأ الناصريون انكفاءهم تاركين مراكزهم للجيش اللبناني شرقي المدينة. أما الفلسطينيون فقد أعلنوا في المساء أن مسلّحيهم قد أعطوا الأوامر باستقبال الجيش اللبناني وفي فوهة البندقية وردة بيضاء إنما الاحتفاظ بالبندقية واجب لمحاربة إسرائيل ومحازبيها في البلاد حتى اليوم الذي يحتلّون فيه وطنهم ويطردون منه الإسرائيليين. وما تعني كلّ هذه الكلمات المعسولة؟ وما تعني لأناس يريدون أن يستعيدوا إدارة شؤونهم بغيديهم وقوّاتهم الرسمية الوطنية؟ ومضى الوقت بسلام حتى الساعة العاشرة صباحًا من دون وقوع أي حادث مع الأحزاب والجيش. ولكن عند الساعة الثانية عشرة والأربعين دقيقة وبينما كان الجيش متوجّهًا إلى لبعا أبى الحاجز الفلسطيني المتمركز في كفرجرّه أن يتخلّى عن مركزه وينسحب. إذّاك تراجع الجيش اللبناني إلى ثكنة الصالحية فبدأت المحادثات في بيت الأستاذ مصطفى سعد في صيدا وشارك في المفاوضات الجنرال نبيه فرحات والوزير دلول والمسؤولون في التنظيم الناصري. وإذا بالراديو يتكلّم عن زيارة خاطفة للعماد إميل لحّود إلى قيادة الفيلق التاسع في الرميلة حيث يجتمع بالوزير

دلول. في تلك الأثناء جرت لقاءات في تونس بين ياسر عرفات وسائر الفرق الفلسطينية. في نهاية الاجتماع الذي عقد في صيدا أدلى الأستاذ مصطفى سعد بتصريحٍ قال فيه إنه مع دخول الجيش من دون تحفّظ وهو ضد كلّ مواجهة عسكرية أيًا تكن.

إن انتشار الجيش من الصالحية إلى لبعا فكفرفالوس لم يجد المقاومة لا من جهة الفلسطينيين ولا من جهة جيش الحركات الإسلامية. بينما ياسر عرفات أصدر أوامره ليل الأوّل والثاني من تموز إلى جماعته بالبقاء في المواقع التي تحتلّها وبأن تقاوم الجيش بالسلاح الذي لديها. وهكذا بدأت المعركة صباح الثلاثاء ٢ تموز على جبهة بيصور، جنسنايا، القريه وعين الدلب. إستخدم الجيش الأسلحة الثقيلة التي أحدثت أضرارًا جسيمة في البيوت والممتلكات الخاصة إنما لم تقع خسائر بشرية في الأرواح. أما الجيش فقد خسر ضابطين على جبهة عين الدلب برتبة نقيب وملازم أوّل كما أن خمسة عشر جنديًا وقعوا جرحى. والفلسطينيون منوا بخسائر فادحة فاضطروا إلى الانكفاء حول مخيّمات الميه وميه وعين الحلوه. جاءت رسائل من تونس تطلب وقف إطلاق النار غير أن الحكومة لم تتجاوب معها تاركة للجيش الفرصة لإكمال انتشاره الذي كان مقرّرًا. بعد يومين من المعارك وجد الفلسطينيون أنفسهم عاجزين عن متابعة المعارك فطلبوا من جديد وقف إطلاق النار. واجتمعت الحكومة من جديد في القصر الجمهوري وألّفت لجنة من وزيرين هما شوقي فاخوري وعبد الله الأمين لدرس الحقوق المدنية للفلسطينيين، فاجتمعت في بيت مصطفى سعد في صيدا وجرى اتفاق بين الفلسطينيين واللبنانيين على وقف إطلاق النار وعلى دخول الجيش اللبناني إلى مخيّم عين الحلوه والميه وميه وعلى تجميع السلاح الثقيل والمتوسّط خارج المخيّمات ونقله إلى مكانٍ بعيد عن الحدود اللبنانية الإسرائيلية. واتفق على موعدٍ هو الساعة ١٩ من السبت ٦ تموز ١٩٩١.

توقيفات عدة

إن الجيش الذي دخل وتمركز بدأ توقيفات في صفوف الفلسطينيين بحجّة معرفة المسؤولين عن تلك المعارك التي حصلت ضد الجيش اللبناني كما دعي مسيحيون من أهالي عين الدلب، القريه وجنسنايا واستجوابهم حول علاقتهم بالفلسطينيين خلال وجودهم

في قراهم. جاء الأهالي إلى المطرانية يشكون أمرهم ضد الأسلوب الذي كان الجيش يستعمله لدى استجوابهم للحال أجريتُ اتصالات مع قيادة الجيش التي وضعت حدًّا لها. ولقد شكا مكتب الاستخبارات زورًا السكان الذين عمّقوا علاقاتهم بالفلسطينيين في حين أن تلك العلاقات التي شكا منها الجيش اللبناني قد فرضت عليهم فرضًا حفاظًا على حياتهم وعلى ممتلكاتهم. وهنا لا بدَّ من التذكير بما قلته للمسؤول الفلسطيني في القريّة منذ سنوات يوم جنازة والدة الخوري بطرس شلهوب.

نجاح الجيش في الانتشار

من الضروري الاعتراف بأن انتشار الجيش كان سريعًا وموفقًا بالرغم من مقاومة الفلسطينيين له. وذاك ما لاحظه الجميع ونالوا عليه التهنئة. والآن المنتظر هو ربط الجيش اللبناني الموجود في جزّين بهذا الذي ثبت انتشاره في منطقة شرقي صيدا. ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن على حدّ قول الشاعر العربي.

في ٧ تمّوز ١٩٩١ أغلق الجيش اللبناني مداخل صيدا ومخارجها وراح يفتّش عن السلاح في البيوت والملاجئ من دون أن يلقى مقاومة تذكر إنما وقع جندي جريح عندما فتح باب مستودع للأسلحة كان الباب مربوطًا إلى متفجّرة أصابت الجندي بجراح.

بعد هذه العملية العسكرية الناجحة أخذ الأهالي المهجّرون يعودون لتفقّد منازلهم وأرزاقهم. يوم الأحد ١٤ تمّوز ١٩٩١ تلوت قدّاسي في كنيسة العناية ثم انتقلت مع ثلاثة من أبناء الرعية إلى بيصور حيث حضرت القدّاس الأوّل للخوري عبده أبو كسم حفيد الخوري يوسف أبو كسم خادم الرعية. وبعد أن توقفنا بعض الوقت في بيته للتهاني تابعت في السيارة إلى قرى عين المير ولبعا وشواليق ووادي بعنقودين وكفرجره والصالحية ومجدليون حيث الأهالي أتوا من بعيد بعد ست سنوات من الغياب يتفقدون ما تركت لهم الحرب من بيوتهم وممتلكاتهم.

زيارة إلى مزار مار الياس

يوم الثلاثاء ١٦ تمّوز قمت بزيارة إلى مزار مار الياس في حارة صيدا فذهلت عندما رأيت الجيش اللبناني وعناصر من أمل في الكنيسة حيث كانوا قد وضعوا أجهزة للتنصّت

والمخابرات مع أسرّة للنوم وكان آمر المحلّة الكومندان حكيم فدعاني إلى مكتب له وغرفة نوم قد علّق على جدار صورة للرئيس نبيه برّي وفي المقابل على جدار آخر صورة للإمام موسى الصدر وإذ فوجئ بزيارتي ألحّ عليّ بأن أتناول فنجان قهوة فرفضت شاكرًا مع أنني أبديت تعجّبي من الجمع في غرفة يستعملها كمكتب ومنامة رسمين للشخصين اللذين ذكرتهما سابقًا وبعد عودتي إلى المطرانية اتصلت بالليوتنان كولونيل ماهر الطفيلي رئيس المخابرات في لبنان الجنوبي فأبدى استغرابه مما أخبرته عنه. ولم أدر إن كان الكولونيل قد أخذ بالاعتبار ملاحظاتي فنقلها إلى الكومندان.

يوم الإثنين ٢٢ تمّوز قمت بجولة مع وفد من كاريتاس لبنان وأحد المهندسين في القرى المحرّرة للتعرّف على حاجاتها فوجدنا الخراب فيها هائلًا لقربها من خطوط التماس وتمركز المسلّحين فيها على مدى سنوات وأكثر. في الصالحية بعض بيوت لا تزال قائمة، في عبرا خراب كامل، في كفرجره لا تزال بعض بيوتها قائمة لكن كنيستها على اسم يوحنّا المعمدان التي هي من أقدم الكنائس في المنطقة تهدّم جزء منها ولكننا عدنا فعمّرناها كما كانت سابقًا لتظلّ شاهدة على الوجود المسيحي في المنطقة. في لبعا الكنيسة منهوبة ومحطّمة وساحتها مركز للقتال والمجابهة وفي جانب منها خزّان للسلاح في الأرض، بيوتها منهوبة وقسم منها مهدوم. في وادي بعنقودين وجدت ثلاث عائلات تحاول رفع الردم وتنظيف ما بقي من منازلها. كنيسة البلدة مبنية على اسم مار أنطونيوس الكبير محروقة ومن دون سقف ولم يبقَ فيها سوى الجدران الأربعة. في عين المير سمح لنا حاجز الجيش أن نتابع سيرنا حتى آخر البلدة وقد أصبحت على خطوط التماس بين المنطقة التي يحتلّها الإسرائيليون والمنطقة التي تحرّرت مؤخّرًا. أما الفكرة التي كونتها بعد هذه الزيارة من لقائي ببعض العائدين هي رغبتهم الأكيدة والملحّة بالعودة وتعمير ما تهدّم.

في ٢٤ تمّوز قمت بزيارة الميه وميه مع الأب هاني فرنسيس والمهندس حبيب سميا فوجدناها خاوية خالية إلّا من بعض عناصر الجيش اللبناني ومجموعة فلسطينية كانت تنسحب من أحد البيوت وتفكّ كلّ ما فيه من نوافذ وأبواب، وقد سمح لهم بذلك الجيش لأنهم يدّعون أنهم هم الذين ركبوها في البيت ليسكنوه.

الخميس ٢٥ تمّوز استقبلنا في صيدا لجنة من كاريتاس لبنان يرافقها السيّد ميللر Muller رئيس المنظّمة العالمية للطفل وكان الغداء في ضيافة الدكتور لبيب أبو ظهر الذي

أكرم وفادتنا. وبعد الغداء رحت والأخت عيدا يزبك واللجنة الآتية من بيروت في زيارة إلى بعض القرى شرقي مدينة صيدا وأطلعتُ الوفد شخصيًا على الواقع المرير الذي يواجه فيه العائدون بيوتهم وكنائسهم.

في درب السيم بدأ الخوري طانيوس الخوري يؤمّن القدّاس في كنيسة سيّدة البشارة من دون شبابيك وأبواب لما يقارب المائة شخص من العائدين إليها بعد غياب ست سنوات وأكثر عادوا ليبنوا من جديد ما هدمته يد الإجرائم. ويوم الإثنين السادس من آب جاءنا ممثّل عن كاريتاس العالمية السيّد جوهان Juhan فزار المركز الصحّي الاجتماعي وأعجب بما قدّم من خدمات للجميع مسلمين ومسيحيين. ثم قمنا وإياه بزيارة إلى القرى المهجرة فتأثر جدًا بما رأى من خراب وأثنى على عزم الناس على العودة كما أن المونسنيور هوسلير Hussler رئيس كاريتاس ألمانيا الذي يعرف لبنان جيّدًا وقد زاره سبع مرّات قال لي متعجّبًا إن «اللبنانيين يذكرونني بالألمان الذين أعادوا بسرعة بناء بلادهم بعد الحرب العالمية الثانية». وقام أيضًا بزيارة دير القمر وأحبّ أن يزور المختارة حيث لم يجد الوزير جنبلاط ولا أمّه ولا زوجته. وجاءنا على التوالي زائرون من أسوج ومن سويسرا بقصد الاطّلاع على نتائج الحرب وعلى ما تقوم به كاريتاس لإعادة البناء. وهكذا فقد توالت الزيارات إلى المناطق المنكوبة وبدأت المساعدات من الخارج وكان وعد من كاريتاس لبنان بتقديم ثلاثة وثلاثين ألف دولار أميركي على هذا الصعيد. وكان خلاف حول طريقة التوزيع: بيروت تقول بإعطاء المساعدات دفعة تلو الدفعة ليبدأ العائدون بالتصليح وأما المركز في صيدا فكان يقول بضرورة البدء بالعمل والدفع يصير إثر لئلا يقبض المنكوب المال ولا يباشر العمل. ولقد تعلّمنا ذلك من الخبرة السابقة التي عشناها مع العائدين.

مجزرة في معاصر الشوف

يوم الإثنين ٢١ أيلول ١٩٩١ دخل شاب من آل شكر في سيارة مسروقة وراح يطلق النار على الدروز في الحقول وعلى الطرقات انتقامًا لعائلته التي قتلها الدروز سنة ١٩٧٧ بعد اغتيال كمال جنبلاط. ويبدو أنه بعد أن قتل أربعة ببندقية حربية كان يحملها، فلاحقه الجيش اللبناني وقبض عليه.

مؤتمر صحفي لوليد جنبلاط

في ٢٦ أيلول دعا جنبلاط إلى مؤتمرٍ صحفي، ودعا البطريرك الماروني وسمير جعجع والقوّات اللبنانية والكتائب إلى اجتماع عام والعمل على مصالحة شاملة على أسس ثابتة كما طالب بإنشاء وزارة خاصة تهتم بأمر المهجّرين وإلّا فلا مجال لإعادة دير المخلّص إلى أصحابه ولا كرسي بيت الدين إلى المطران لأن كلّ ذلك يتطلب ميزانية خاصة تضعها الدولة.

وفاة الشيخ أبو شقرا الزعيم الروحي للدروز

توفي الشيخ محمد أبو شقرا وجرت مراسم الدفن في بعذران وشاركت وفود كثيرة بمراسم الدفن. كان المطران إبراهيم من دون دعوة خاصة مشاركًا في تقديم التعازي وكنت إلى جانبه. كما حضر ممثّل لغبطة البطريرك ورئيس الجمهورية الوزير شوقي فاخوري الذي قلّده وسام الأرز من أعلى درجة.

في عاليه ١١ تشرين الثاني صرّح جنبلاط خلال مؤتمر صحفي هاجم فيه الأساقفة والكهنة الذين يجتمعون ولا يعملون شيئًا جديدًا لمساعدة المهجّرين على العودة. فكان لتصريحه ذاك ردّة فعل قوية لكونه يثير الحقد ويغذي الضغينة في النفوس.

يوم الأربعاء ٢٠ تشرين الثاني أقام المطران حلو غداءً تكريميًا للأطبّاء والعاملين في مركز كاريتاس الصحّي شارك فيه المطران مطر والمطران جورج كويتر وكان عدد المشاركين ثلاثين.

زيارة الكردينال أوكونور إلى لبنان

في اليوم الأوّل من السنة ١٩٩٢ قام الكردينال أوكونور رئيس أساقفة نيويورك بزيارة إلى لبنان وأقام في بكركي. ومنها قام بزيارات عدّة إلى رئيس الجمهورية الياس الهراوي ورئيس المجلس النيابي حسين الحسيني ورئيس الوزراء عمر كرامي كما قام بزيارة الرؤساء الروحيين المسلمين في دار الافتاء وزار المطارنة في لبنان ومطران بيروت للروم الأرثوذكس واطلع

على حاجات البلاد ووعد بدعم مطالبهم وحاجاتهم لدى السلطات الأميركية. قدّمت إليه المطرانية كتابًا مشتركًا مع تقريرٍ مفصّل بالتوافق مع المطران جورج كويتر عرضت فيه أوضاع الأبرشيتين والتي تهدمت بيوتهما وكنائسهما خلال الحرب فوعد كذلك بالدعم والمساعدة.

وفاة الأب بوهيغاز

منذ الثالث من تشرين الأوّل ١٩٨٥ بقي الأب بوهيغار في خدمة المهجّرين والمقيمين في جزين على مدى ست سنوات وثلاثة أشهر. وقد وافته المنية فجأة خلال قيامه بزيارة إلى ذويه في إسبانيا في ٦ كانون الثاني ١٩٩٢ يوم عيد الغطّاس. أبلغت وفاته إلى السفير البابوي في بيروت في ٧ كانون الثاني الذي دعا المطران حلو إلى حريصا وأبلغه النبأ المفاجئ وتقرّر للحال إقامة قدّاس لراحة نفسه في جزين في ٩ كانون الثاني ١٩٩٢ الساعة الثانية والنصف بعد الظهر في كنيسة مار مارون الرعائية احتفل به السفير البابوي بابلو بوانتي. قال السفير في نهاية الإنجيل كلمة مؤثّرة في الفقيد عبّر فيها عن مآثر الأب بوهيغاز وخدماته التي أداها للشعب في جزّين والمنطقة وعن الحضور الذي ساعد الناس على البقاء. كما تكلّم عن شجاعة الأب بوهيغاز قائلًا للناس: «انظروا إلى الصورة التي تركها لكم الأب بوهيغاز والتي بقيت مرسومة في ذاكرتكم، إنه لم يكن له جنود ولا كانت له أسلحة وما كانت له سلطة إنما كانت له جذور عميقة، أشدّ عمقًا من جذور أرزكم وأقوى من جبالكم الراسخة. كان مؤمنًا بالله إيمانًا عميقًا وثابتًا، كان مؤمنًا بلبنان واللبنانيين لكلّ اللبنانيين وكان مؤمنًا بأن اللبنانيين سوف يتفقون فيما بينهم وهذا اليوم لا محالة آت لأنهم يدركون أن الأخوة والمساواة والتعاون حول الأمور أفضل الطرق إلى الوصول إلى السلام في ما بين الجميع.»

في زياراته إلى جزّين سلّم السفير البابوي مفاتيح المركز الذي كان يشغله الأب بوهيغاز إلى المطران إبراهيم الحلو ليقوم بالجردة اللازمة عن موجوداته حتى إذا انتهى منها يسلمها إليه في حريصا. وفي ١٣ كانون الثاني صعدت إلى جزّين يرافقني الخوري طانيوس الخوري واجتمعنا إلى الخوري ريمون عيد خادم رعية جزين والوكيل الأسقفي ورحنا إلى مقرّ الأب بوهيغاز قيامًا بالجردة المطلوبة حيث اجتمعنا بأمينة سرّ الأب المرحوم بوهيغاز الآنسة

سليم وسائقه ملحم تادي وطلبنا كذلك المسؤول عن البيت السيّد سليمان أبو زخم ومعًا قمنا بفصل ما هو للبيت عمّا هو للأب بوهيغاز وجمعنا الكلّ في خمسة عشر صندوق فيها وثائق متنوعة وهدايا وكتب وثياب إلخ...

يوم الثلاثاء ١٤ كانون الثاني ذهب المطران حلو إلى السفارة في حريصا حاملًا إلى السفير في حقيبة إضافة إلى المحضر الموثق أصول دفاتر الشيكات ودفاتر شيكات ودفاتر توفير.

وفاة المطران يوسف الخوري

قضى المطران يوسف الخوري رئيس أساقفة صور في مستشفى سيّدة المعونات في جبيل ثمانية وثلاثين يومًا وتوفي يوم الأربعاء ٥ شباط ١٩٩٢ ويوم الخميس ٦ شباط جرى نقل الجثمان إلى كنيسة المقرّ البطريركي في بكركي وبقي فيها حتى الساعة ١١ من يوم الجمعة نقل بعده إلى كنيسة القدّيس يوسف الحكمة بيروت حيث جرى الاحتفال براحة نفسه بحضور الأساقفة الموارنة في قدّاسٍ إلهي كما حضره قسم كبير من سائر الأساقفة كاثوليك وأورثوذكس ورؤساء الكنائس البروتستانتية وقرأ السفير البابوي كتاب تعزية من قبل قداسة الحبر الأعظم. قبلت التعازي بعد الصلاة في صالون الكنيسة ثم جرى نقل الجثمان إلى مسقط رأسه بكاسين حيث جرى له استقبال في أعالي البلدة وحملوا النعش على الأكف حتى كنيسة القدّيسة تقلا وهناك جرى له في اليوم التالي جنّاز حافل بحضور أربعة أساقفة هم: رولان أبو جودة النائب البطريركي والمطران خليل أبي نادر والمطران بشارة الراعي والمطران إبراهيم الحلو ومن ثم جرى الدفن في مدفن الأساقفة إلى جانب المطرانين شكر الله وعبد الله خوري. عاد المطارنة إلى صيدا حيث تناولوا طعام الغداء على مائدة المطرانية. بعد ذلك ذهب المطارنة أبو جودة وأبي نادر والراعي برفقة المونسنيور مارون صادر، النائب العام، إلى المطرانية في صور ليختموا غرفة المطران خوري في المطرانية.

وفاة الخوري لويس عطيه

وفي ٢٣ نيسان ١٩٩٢ انتقل إلى رحمته تعالى الخوري لويس عطيه الذي خدم رعية صيدا على مدى ثمانية وأربعين سنة متواصلة وكان عمره لدى وفاته ثماني وسبعين

سنة. رئس صلاة الجنّاز لراحة نفسه المطران خليل أبي نادر ممثّلًا غبطة البطريرك صفير وإلى جانبه المطرانان إبراهيم الحلو وجورج كويتر وعدد كبير من كهنة الأبرشية أخوته في الخدمة وجمهور من المؤمنين وجرى دفنه في كنيسة مزار مار الياس حارة صيدا على الجبل في مدافن كهنة الرعية.

الفصل السادس عشر

الانطلاق الفعلي لمسيرة عودة المهجّرين

يوم الجمعة في ٥ حزيران دعاني السيّد وليد جنبلاط إلى قصره في المختارة وكنا لوحدنا فأبلغني أنه مستعد في أقرب وقت لأن يسلمنا مفاتيح المطرانية في بيت الدين بعد أن أعطى أوامره إلى المقيم فيها سهيل القش بأن يخليها في أسرع وقت. ولقد كان في اللقاء معه مرتاحًا وقبل أن أودّعه قلت له:

- وليد بك أريد أن أطلب منك شيئًا آخر.
- وما هو؟ البستان طبعًا.
- بالطبع وليد بك. بكلّ تأكيد أردّه إليك مع مدخوله، مع الشكر الجزيل.

وانصرفت من عنده لأعود من جديد ودخلت إلى المطرانية برفقة وكيله في قصر الأمين السيّد كمال جبّور المكلّف من قبل الأستاذ وليد بالإشراف على تنظيف المطرانية وإصلاح ما فيها من أضرار. وانتشر الخبر في أوساطنا فأشاع جوًّا من الراحة والطمأنينة في أجواء الكهنة والأصدقاء وبخاصة عند المطران. وخلال وجودي في قصر المختارة مجتمعًا مع الأستاذ وليد قال لي بأن أطلب من الكاهن في سيدة التلة بدير القمر بأن يقدّس أقله مرّة واحدة كلّ خمسة عشر يومًا في كنيسة السيّدة في المختارة، وهكذا صار. زرت الكهنة في دير القمر وطلبت منهم هذه الخدمة فلبّوها كعادتهم في كلّ حين. وفضلًا عن ذلك، فقد اتصلت بالسيّد عبده مراد في سنّ الفيل وطلبت منه أن يعمل على إصلاح أو ترميم الزجاج الملون المصنوع في أوروبا لكنيسة سيّدة الخلاص في الكرسي الأسقفي فوعد بترميمها بحسب الأصول.

سفر المطران إبراهيم إلى روما

في ٧ حزيران ذهب المطران إبراهيم إلى روما تلبية لدعوة موجّهة إليه لكنه لم يتأخّر فعاد إلى الأبرشية ليستقبل في ١٣ حزيران الكردينال سيلفستريني الذي جاء ليقضي وقتًا في لبنان ورهبان وراهبات وعلمانيين مستعمًا إليهم بكلّ هدوء.

إتصل بي وليد بك هاتفيًا يخبرني بأنه يسلّمني مفاتيح المطرانية غدًا صباحًا في قصر المير أمين من يد الأستاذ فؤاد السعد وحضور السيّد كمال جبّور، وهكذا صار. كما فهمت من السيّد فؤاد السعد أن وليد بك مستعدّ أن يؤثث الكرسي الأسقفي بما يلزم لتكون أهلًا للسكن ومستعد أن يجري الإصلاحات اللازمة في نوافذ الكنيسة المعطلّة.

وفي ٢٠ حزيران قصدت المختارة برفقة المطران لنشكره على ما أبداه تجاهنا في إعادة الكرسي والبستان الكائن في الرميلة. فكان مرتاحًا منبسط الأسارير لطيفًا. كما وعدنا بزيارة في المطرانية عن قريب حيث صرنا جيران له. وفي عودتنا من المختارة زرنا الكرسي ثم انتقلنا إلى دير القمر فزرنا الآباء في الأنطش وراهبات دير الصليب حيث كان الأب شلهوب يعالج في المستشفى ولم ننسَ الأستاذ جورج ديب الذي أطلعناه على ما جرى بيننا وبين الأستاذ جنبلاط. وفي عودتنا إلى صيدا قصد المطران سيدة حريصا ليحضر القداس الإلهي الذي كان يحتفل به نيافة الكردينال سيلفستريني قبل عودته إلى روما.

في الرابع من تمّوز ١٩٩٢ عهدت بترميم السكرستيا الملاصقة للكنيسة حيث قبور مطارنة الأبرشية إلى ملتزم أشغال درزي من عائلة شمس الدين من بعقلين بمبلغ أربعة آلاف وثلاثمئة دولار أميركي. يقوم الشغل بتنظيف الجدران من الداخل المسودة من جراء الحريق، ثم بتلبيسها بطبقة من الإسمنت سماكتها ٨ سنتم. وثم يعاد صبّ السطح بالباطون المسلّح لأن السقف السابق كان بالقرميد فأتى عليه الحريق كما أتى على كلّ ما كان فيها من خزائن خشبية وأثاث من بدلات للتقديس وشراشف للمذابح وأدوات كنسية للقدّاس حتى إننا عندما استعدناها لم يكن فيها سوى الجدران الأربعة. وباشر الملتزم العمل بهدوء وانضباط. ولربما قال قارئ هذه الأخبار ولماذا لم يعهد بالترميم إلى شخص مسيحي. والجواب بسيط لأننا لم نجد في المنطقة من تقدّم لهذا العمل. وهنا لا بدّ قبل الانتهاء من الحديث عن زيارة الكردينال أشيل سيلفستريني إلى لبنان أنه استقبل وفدين من منطقتين في الأبرشية: الأول جاءه من جزّين حاملًا إليه ما يعيش من هموم وهواجس والثاني كذلك أطلعه على ما قاسى طوال الحرب وعلى أمل أن تكون انتهت على غير رجعة. فوعدهم نيافته بزيارة جديدة في المناطق تجاوبًا مع رغبة قداسة الحبر الأعظم. وهنا لا بدّ من التذكير

بما قاله نيافته لسيادة راعي الأبرشية في وداعه له على مطار بيروت مبديًا له سروره بأن تكون الأبرشية قد استعادت مركزها في بيت الدين وبستانها في علمان/الرميلة بحسب ما أخبره عن ذلك وليد جنبلاط في القصر الجمهوري. وهو نوع من بداية الخير الذي يأمل أن يعمّ البلاد بأسرها خلال التفاهم وترسيخ الود والسلام بين الجميع.

بعد أيام قليلة زرت الأستاذ وليد في قصر المختارة وكنت لوحدي معه وحدّثته عن ضرورة العمل على عودة المهجّرين تدريجيًا إلى قراهم فكان يستمع إلى ما أقوله بصراحة وواجهني بصراحته المعهودة مبديًا لومه وعتبه على الكنيسة التي لم تعمل ما يلزم لمساعدتهم للرجوع إلى بلداتهم وبخاصة حيث لا مشاكل تذكر، إذ على الكنيسة أن تندفع بقوّة في هذا المجال لأنه غير قادر وحده على ذلك.

ومما قاله لي في هذا الصدد: كلّ تأخير في عودة المهجرين يؤذينا نحن معشر الدروز ويؤذيكم أنتم المسيحيين لأن ذهابكم أحدث فراغًا كبيرًا لم يملأه الدروز ويخشى من أن تملأه فئة ثالثة.

زيارة المونسنيور وليام كني إلى صيدا

إن رئيس كاريتاس أوروبا وليام كني William Knee خصّ صيدا بزيارة خلال جولته في لبنان تفقّد خلالها مكتب كاريتاس والمركز الصحّي الاجتماعي واجتمع إلى شبيبتها وزار بعض القرى التي بدأت عودة المهجّرين إليها وتناول طعام الغداء على مائدة المطرانية في صيدا بحضور راعي الأبرشية المطران إبراهيم والمطران بولس مطر والمونسنيور بطرس حرفوش. وأخذ فكرة واضحة عن العمل في نطاق العودة التي كانت بحاجة إلى حضور مستمر ودعم مالي.

الانتخابات النيابية اللبنانية

بدأت الانتخابات النيابية اللبنانية يوم الأحد ٢٣ آب وامتدت على ثلاث مراحل وكان غبطة السيّد البطريك من المعارضين لإجرائها بهذه السرعة لأن البلاد رازحة تحت الاحتلال السوري والشعب يئن جوعًا وهو بحاجة إلى الرغيف وإلى السلام والحرّية قبل كلّ

شيء. ولهذا فإن منطقة كسروان وحدها قاطعت الانتخابات وكانت النتيجة النهائية فوزًا ساحقًا للأحزاب المتعصّبة دينيًا مثل حزب الله والجماعة الإسلامية.

في ٧ أيلول ١٩٩٢ احتفل سيادته للمرّة الأولى بعد التهجير في معبد سيّدة الخلاص في الكرسي الأسقفي في بيت الدين وحضر القدّاس جمع غفير من المؤمنين بلغ عددهم خمسمئة شخص يتقدّمهم السيّد وليد جنبلاط وعقيلته نورا والوزير مروان حماده والنائب جورج ديب وسمير عون وعلاء ترو وفؤاد السعد وبيار حلو ومروان أبو فاضل. وبعد الإنجيل ألقى المطران حلو كلمة كان لها الوقع الحسن في القلوب وبعد القدّاس استقبل المهنئين في الصالون ونام ليلة في الكرسي ليحتفل صباح اليوم التالي بالقدّاس الإلهي الساعة العاشرة. أما قدّاس المساء فقد قمت به أنا شخصيًا بحضور عدد كبير من المؤمنين. وبعد يومين كلّف الأستاذ جنبلاط أحد النجّارين بأن يصنع مقاعد خشبية للكنيسة وديوانًا للصالونين في الكرسي الأسقفي. إنما تجدر الإشارة إلى أن وفدًا رئسه المطران إبراهيم ذهب من دير القمر وبيت الدين يدعو البطريرك صفير إلى المجيء إلى بيت الدين وترؤس القدّاس الاحتفالي في عيد سيّدة الخلاص لكن غبطته اعتذر. وفي الدبية جرى تسليم مفاتيح خمسين بيت إلى الأهالي بحضور المطران ووليد جنبلاط والنائب نبيل البستاني في ١١ أيلول. وفي ١٤ تشرين الأوّل اتصل بي النائب نبيل البستاني وطلب مني أن أوافيه إلى عين الحور لتسليم الأهالي ممتلكاتهم فلبيت الطلب وباركت العمل وقلت كلمة في المناسبة تفي بالمرام لكون المطران غائب في البرتغال بمناسبة مرور ٧٥ سنة على ظهور العذراء في فاطمة.

إغتيالٌ في درب السيم

في ١٤ تشرين الأوّل صباحًا اغتيل المدعو بولس باسيل في بيته على أيدي ثلاثة مجهولين وظلّوا هكذا فحدث خوف واضطراب في صفوف الأهالي العائدين وجرى دفنه في اليوم التالي في طنبوريت بناء لطلب عائلته خوفًا على قبره من التدنيس وقلت في صلاة الجنّاز التي تمّت في درب السيم كلمة أظهرت فيها استغرابي لمقتله على بعد أمتار قليلة من حاجز الجيش اللبناني بحضور الضابط ماهر الطفيلي في الكنيسة.

خلال عطلة الأسبوع في بيت الدين كانت لي زيارة إلى المختارة طلبت فيها استرجاع بستان الحمضيات في علمان/الرميلة. وكان ذلك في ٦ تشرين الثاني الساعة ١١,٣٠ قبل الظهر إذّاك، وبعد أن استمع إلي، قام غاضبًا واستدعى شابًا من الخارج وقال له بلهجة قاسية ولم هذا التصرف تجاه المطرانية؟ وما لي أن أعمل وإيجار البستان يدفع في الشهر الثاني عشر وهناك ثمن السماد والكيماوي الذي لم يدفع بعد؟ وفي الصباح نزلت إلى صيدا يرافقني حنّا من البستان غير إني كنت استقبلت قبل نزولي إلى صيدا الشيخ يوسف أبو لطيف من الطائفة الدرزية يطلب استئجار عقار مجاور لعقاره في بيت الدين مساحته عشرة آلاف كلم مربّع. وبما أن المقيمين في المطرانية في صيدا لم يظهروا أي اهتمام لما أقوم به في بيت الدين وكأن الأمر لا يهمّهم، أظهرت نوعًا من الاستياء من مواقفهم اللامسؤولة تجاه ما أعانيه في بيت الدين حيث أقيم لوحدي.

لقاءٌ هام في دير القمر

في ١٦ كانون الأوّل ١٩٩٢ جرى استقبال هامّ في القيصرية بدير القمر بعدة وفود من وزراء وموظّفين كبار ونواب لبنانيين أتوا من الشوف وعاليه كما جاءت عدة وفود أخرى من القرى المجاورة لتدارس موضوع عودة اللاجئين المسيحيين إلى قراهم. ورئس الاجتماع وليد جنبلاط وحضر المطرانان إبراهيم الحلو وخليل أبي نادر مع عدد كبير من الكهنة. إن السيّد وليد جنبلاط الذي كان قد أعطى جماعته الدروز ثلاثمئة وستة وثلاثين ألف دولار للخروج من القرى زاد على المبلغ من قبله مائة ألف دولار على ما كان قد قدّمته كاريتاس لبنان وقد حضر عدة أشخاص من ممثّليها. وكان كلّ وفد من القرى يطلب من أحد أعضائه الكلام لعرض حاجات القرى. كان الاجتماع قد حصل بمبادرة السيّد وليد جنبلاط والأستاذ جورج ديب نعمه نائب الشوف. ولقد طلب من قوى الجيش اللبناني بالسهر على الأمن على أن أحد المسؤولين أسرّ إلي أن سبع عائلات مسيحية قد أعادت تمركزها في تلك القرى.

هنا لا بدّ من التذكير بأن المسؤول عن البستان جاء من قبل وليد جنبلاط يسلّمني نقدًا وعدًا عشرة آلاف دولار أميركي من ضمان البستان عن السنة وفاءً للوعد الذي قد قطعه لي وليد جنبلاط.

في ٩ كانون الثاني ١٩٩٣ جرى تسليم ٣١ بيت إلى العائلات المسيحية في بلدة حصروت في الشوف وهي بلدة مختلطة: مسيحية وإسلامية: حضر التسليم والتسلّم مطرانا صيدا وبيروت والنواب السادة نبيل البستاني، خليل عبد النور، زاهر الخطيب وسمير عون ليصير تسليم المفاتيح إلى أصحابها المسيحيين. وتوزّع الكلام بين النائب نبيل البستاني والمطران حلو فكانت كلمة شكر وتمنٍّ حار على أن تبقى المساعي الحميدة قائمة لعودة المهجّرين، كلّ المهجّرين إلى بيوتهم. في العودة قمنا بزيارة الآباء الرهبان في الجيه الذي كانوا قد أعادوا فتح المدرسة ٩٢/٩٣ بعدد كامل لا يتجاوز الخمسمئة طالب موزّعين ما بين الابتدائي والمتوسّط بينهم ١٧ طالب مسيحي فقط. ولدى عودتنا مساءً استقبلنا نائب جزّين الأستاذ سمير عازار وتدارسنا موضوع عودة المهجّرين في المنطقة.

في اليوم التالي أقامت المطرانية غداء تكريميًا للأطبّاء العاملين في المركز الصحّي الاجتماعي في صيدا حضره إلى جانبهم الخوري فؤاد الحاج رئيس كاريتاس لبنان والجنرال المتقاعد ميشال ناصيف والأختان عيدا يزبك وجنفياف بو عبدو واعتذر عن المشاركة المطران جورج كويتر.

غابت المطرانية عن زيارة الوزير الفرنسي مسيو باسكوا لتدشين المركز الثقافي الفرنسي في دير القمر في ٢٩ كانون الثاني ١٩٩٣ ولم تحضر المطرانية لأنها لم تدع إلى ذلك الاحتفال وطبعًا المسؤول هو جورج ديب.

في ١٨ شباط جاءت إلى صيدا وفود تمثيلية لكاريتاس روما وألمانيا والشرق الأوسط ومصر والسودان والقدس والأردن والعراق وقبرص مع ممثّلي كاريتاس لبنان وزاروا المنطقة التي أخذت تعود وأقاموا قدّاسًا في بيصور. بعد ذلك توجّهوا إلى صيدا حيث تناولوا طعام الفطور في مركز صيدا حيث تحدثت الأخت عيدا يزبك عن متطوّعي المركز في القرى التي تعود. كما تكلّم الأب فؤاد الحاج عن مشكلة الهجرة في لبنان وقد رغب في إعطاء الوفد من خلال تلك الزيارة معلومات وافية عن الروح التطوعية لدى الشباب في المركز.

عيد مار مارون في الدبيه

يوم عيد مار مارون ولئلّا يحرم أهالي الدبيه العائدون من القدّاس الإلهي وقبل أن تسوّي كنيستنا الرعية في مار يوسف ومار مارون أقمت في أحد البيوت بعد سنوات التهجير للمرّة الأولى قدّاسًا في الساعة الثانية بعد الظهر حضره ما يقارب الثلاثين شخصًا كما وعدت بمتابعة الخدمة الراعوية بانتظار أن يُصلح وضع الكنيسة لننتقل إلى إقامة الواجبات الدينية فيها.

زيارة الكردينال سيلفستريني إلى الجنوب

في التاسع من آذار وصل الكردينال سيلفستريني إلى الجنوب يرافقه السفير البابوي بابلو بوانتي والمونسنيور مارينللي والمونسنيور جوزف خوري فزاروا المطرانية. ثم أقام الكاردينال الاحتفال بالقدّاس الإلهي وحوله المطرانان حلو وكويتر والمونسنيور مارينللي وخوري في الكاتدرائية رحّب به المطران إبراهيم بعظةٍ ألحّ فيها على أهمّية هذه الزيارة في الظرف الحاضر وردّ نيافته في عظة بعد تلاوة الإنجيل. وبعد القدّاس انتقلوا إلى صالون المطرانية يستقبلون المؤمنين واحدًا واحدًا ثم بعد استراحة قصيرة في مكتب المطران قاموا جميعًا إلى المائدة المعدّة لتناول طعام العشاء. وعند الساعة الثامنة مساءً أخذ يستقبل الشخصيات المدنية من وزراء ونواب وصاحبَي السماحة المفتي الشيخ سليم جلال الدين مفتي صيدا والجنوب للطائفة السنّية والشيخ محمد عسيران مفتي صيدا للشيعة. وخلال اللقاء تبودلت الخطب والأحاديث أثنت كلّها على مواقف صاحب القداسة البابا يوحنّا بولس الثاني الذي يهتمُّ كثيرًا بالأمور اللبنانية. كما جرى تبادل وجهات النظر بينه وبين الوزراء والنواب الذين قاموا بزيارته في دار المطرانية في جوٍّ من الود والمحبّة والتفاهم ارتاح إليه الجميع.

نحو الساعة التاسعة غادر المطرانية إلى دار العناية في الصالحية ليبيت ليلته فيها لعدم وجود محل يتسع له ولمرافقيه في المطرانية. وفي الغد بعد القيام بزيارة المؤسسة انتقل إلى تفقّد القرى التي أخذت تعود وتوقّف لسماع كلمة من الخوري جوزف واكيم مدير الثانوية في لبعا فرد عليه مشجّعًا وداعيًا إلى المزيد من الشجاعة لتثبيت العودة. وقد حدث

وهو في بيصور شيء لم يكن مرضيًا وهو أن السفير البابوي منع الدكتور سليمان كنعان نائب جزّين بأن يلقي كلمته أمام الكردينال سيلفستريني. فأثار بعض الاشمئزاز في صفوف الحاضرين فامتنع عن مرافقة الكردينال في رحلته ورفض المشاركة في الغداء التكريمي الذي أقامه على شرفه المطران جورج كويتر. وفي نهاية دورته التفقّدية قام نيافته بزيارة دار الافتاء في صيدا حيث كان ينتظره عدد من الشخصيات الصيداوية السنّية وتبودلت الخطب بينه وبين المفتي سليم جلال الدين كما قدّم سماحته إلى الكردينال وإلى مرافقيه الأربعة القرآن باللغة الفرنسية.

إنتقل بعد هذه الزيارة إلى كاتدرائية مار نقولا حيث أقام الذبيحة الإلهية مع مرافقيه وبعد القدّاس استقبل الكهنة والراهبات في الصالون كما استقبل متطوّعي كاريتاس ومن بعد ذلك قام بزيارة خاصة إلى سيادة المطران بولس الخوري مطران صيدا وصور ومرجعيون للطائفة الأرثوذكسية البالغ من العمر ٩٨ سنة. وفي نهاية المطاف صعد إلى مغدوشة لزيارة معبد العذراء حيث قدّم له ولدان قنينتين من زهر الليمون من صنع مغدوشه. وإذ كان في مغدوشه جرت من قبلنا محاولة فاشلة لدعوته إلى زيارة درب السيم، فمانع السفير ومن هناك عاد إلى حريصا. ولقد كان لتلك الزيارات أثر في النفوس لكونها جاءت يومين قبل إعلان الخطوط الأولى من المجمع من أجل لبنان...

إجتماع مندوبي الرعايا في بيت الدين

مشاركةً في الإعداد لأعمال المجمع من أجل لبنان اجتمع في ١٦ آذار ١٩٩٣ خمسة وثلاثون مندوب من رعايا الأبرشية لتدارس موضوع المجمع من أجل لبنان. وكان العمل جديًا بدأ ما قبل الظهر وعند الساعة الثانية عشرة ظهرًا حضروا قدّاس المطران وتلاه غداء وعودة إلى الاجتماع الذي دام حتى الساعة الرابعة مساء ثم انتهى على أمل الالتقاء في الأوّل من أيار عيد العمال.

زيارةٌ إلى دارة الحريري في مجدليون

في الأوّل من حزيران ثاني أيام عيد الأضحى التقينا في دارة الحريري في مجدليون الرئيس الياس الهراوي الذي جاء يتفقّد العائلة ويعيّد وكنت أنا والمطران جورج كويتر لأن

سيادته كان في رياضة الأساقفة الروحيين في بكركي ولهذا قدّمت الاعتذار عن سيادته وإذ أفسحوا لي في المكان قرب الرئيس أخذ يحدّثني عن رياضة المطارنة وعن مشروع تقسيم أبرشية بيروت إلى اثنتين: العاصمة والجوار. وذاك ما كان يأمله فخامته من ذاك المجمع الملتئم في بكركي. ولكن فُضّ الاجتماع ولم يتغيّر شيء مما كان منتظرًا تغييره ولا يزال الموضوع حلمًا في الأذهان.

بعد أن انتهينا من ترميم كنيسة مار يوحنّا المعمدان في كفرجرّه جاء الدكتور كميل الأسمر مدير عام الآثار في لبنان يتفقّد الأشغال التي أنجزناها فكان راضيًا عنها بعد أن تدبّرنا لها الأموال التي بلغت أربعين ألف دولار لم تدفع منها الآثار شيئًا.

تجاوبًا مع حاجات شبيبتنا الروحية التي أصبحت بحاجة إلى تثقيفٍ ديني معمّق فقد بدأنا منذ سنوات في قطّين ثم في الكرسي في بيت الدين مخيّمات صيفية للشبيبة على نفقة المطرانية وقد كانت نتيجتها حسنة.

غارةٌ إسرائيلية

بعد أن خسرت إسرائيل خمسة من جنودها تحت ضربات المقاومة الأسلامية في الجنوب راحت تصبّ جمام غضبها من الطائرات ومن البر والبحر فأوقعت أربعة وخمسين قتيلًا في صفوف المدنيين ومائتي جريحًا وعمّت ضرباتها مركز الفلسطينيين في حارة الناعمة ومخيّم البداوي ومراكز عدة ومتفرّقة لحزب الله وصولًا إلى الهرمل. وتحت تأثير ذاك القصف جرى نزوحٌ من قرى الجنوب اللبناني إلى أماكن آمنة بينما كان الجيش اللبناني يدافع عن مواقعه ضد الهجمات الإسرائيلية المتواصلة. أجريت اتصالات مع مجلس الأمن لوقف تلك الاعتداءات في حين أن إسرائيل كانت تقصد من خلال ذلك القصف العنيف المتواصل إلحاق ضربات قاسية باللبنانيين وبجميع الفلسطينيين لتصدّهم عن المجازفة مرّة أخرى باللعبة التي لعبوها سابقًا. فأوقعوا في جيشها ضحايا وفي أرضها خسائر جسيمة. ولكن بعد العودة التي عقبت الهدوء العسكري فإن عائلات كثيرة وجدت ذاتها واقفة أمام بيت مهدوم أو ممزق بالقذائف والرصاص لا يمكن اللجوء إليه وهذا أمر يشيع اليأس في قلوب المصابين بحياتهم وأرزاقهم.

بعد قيام محادثات كثيفة بين الأميركيين والإسرائيليين واللبنانيين والسوريين توقّف إطلاق النار شرط أن يوقف حزب الله إطلاق صواريخه ضد الجليل. وتشجيعًا للهاربين إلى العودة إلى بيوتهم وأرزاقهم وجّه الأستاذ نبيه برّي نداءً إليهم جميعًا يدعوهم فيه إلى الرجوع بسرعة إلى بيوتهم وممتلكاتهم بانتظار تقديم المساعدات اللازمة للترميم والإصلاح وإعادة البناء. ولا بدّ هنا من الإشارة إلى ضخامة الخراب الذي حلّ بالمساكن على اختلافها. ولئلّا يحدث انقباض أو عدم تيسير لأمور الرجعة فقد منع سير السيارات على الطريق الساحلي من صور إلى بيروت والمقصود هو ترك الطريق حرّة للقوافل العائدة وفي صيدا فقد وزّعت دعوات ومناشير في المدينة لكي يخرج الأهالي لملاقاة وتحيّة العائدين لكن الحماس من قبل الأهالي لم يكن بحسب المطلوب.

زيارةٌ تشجيعية إلى العائدين في بيت الدين والمعاصر

لما كانت العودة إلى بيت الدين والمعاصر بدأت طلائعها وإن كان ذلك بحياء وتردُّد فقد قمت بزيارة خاطفة للعائلات التي رجعت لأن المقصود منها التشجيع والإعلان لهم عن سرورنا بهم، عائدين، وكانت الزيارات سريعة ولكنها لقيت ارتياحًا لدى الناس وكنت أوجه العائدين الذين يجدون، طبعًا، بيوتًا فارغة أو بحاجة إلى الإصلاح إلى مؤسّسة كاريتاس التي لن أتأخّر عن الطلب إليها بإرسال من يلزم تقديرًا للأضرار والعمل على المباشرة بمد يد المساعدة إلى المواطنين. وحال العائدين هي شبيهة هنا كما في كلّ مكان آخر؛ يعود إليه أصحابه فيجدون بيتًا مكنوسًا أو مهدمًا جزئيًا وأرضًا يباسًا بحاجة إلى إعادة زرعها وغرسها بالأشجار المثمرة. كما وأن المدارس قد أغلقت وأصبحت العائلة التي تعود تفكّر بمدرسة ترسل إليها أولادها. المدرسة إن كانت حاضرة ومؤمّنة تساعد كثيرًا على عودة العائلات والتمركز من جديد في الرعايا المقفرة والتي تكون بحاجة إلى أمور كثيرة.

اللقاء الأوّل للشبيبة في مار عبدا (دير القمر) ٢١ آب ١٩٩٣

دعت الأبرشية شبابها إلى اجتماعٍ أوّل تجاوبًا مع رغبة قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني يعقد في دير مار عبدا للرهبنة المريمية في دير القمر. ضمّ الاجتماع سبعمئة مشترك جاؤوا من أنحاء الأبرشية، كوكبا، مرجعيون، القليعة، جزّين وجوارها، المنطقة الساحلية،

كما انضمّ إليهم أناس يسكنون بيروت. إكتمل الوصول الساعة التاسعة صباحًا ثم القدّاس الإلهي الساعة ٩،٣٠ احتفل به سيادة المطران إبراهيم الحلو وشاركه في خدمة القدّاس جميع الحاضرين.

قال سيادته كلمة ترحيب وتشجيع ودعوة إلى أن يعيشوا إيمانهم المسيحي في هذه الأيام. كما ألقى الأب سليم الغزال محاضرة دامت عشرين دقيقة بعد الانتهاء من القدّاس الإلهي تحدّث فيها عن الحضور المسيحي في الجنوب والشوف وعن الشهادة التي أداها المسيحيون في أثناء الحرب. كما أن السيّد أنطوان جبّور ماروني من القبيات ملتزم مسيحيًا أدّى أمام الجميع شهادة حياة أثّرت جدًا في الحضور. تناول الحضور طعام الغداء تحت شجرات الصنوبر وكانت حصّة كلّ إنسان سندويش مرتديلّا إيطالية وآخر بالجبن وثالثًا مربّى إضافة إلى خيارة وإجاصة كما وزّعت عليهم أيضًا قناني بيبسي كولا. وفي نهاية الغداء توزّعت عليهم ورقة تسجّل عليها ثلاثة أسئلة: ما رأيكم بالمحاضرة وبشهادة الحياة؟ هل تجدون هذا اللقاء ناجحًا؟ مقبولًا؟ غير مقبول؟ والسؤال الثالث: إن كان لديكم من اقتراحات يمكنكم أن تسلّموها إلى خوري رعيتكم؟ كانت الأجوبة بمجملها مرضية. وفي الحقيقة لقد كان ذلك اللقاء موفّقًا بكلّ نواحيه.

زار المطرانية الساعة الثانية بعد الظهر من يوم الجمعة الواقع فيه ٢٧ آب ١٩٩٣ وفد مؤلّف من السادة هشام ناصر الدين مدير عام وزارة المهجّرين، والأستاذ أنطوان إندراوس مدير مالية الوزارة، والجنرال اسكندر شلفون على رأس مجموعة من قوّات الأمن وانضمّ إليهم مندوبو مجلس الجنوب. كانت هذه الزيارة خاتمة لدورة قاموا بها في ثلاث قرى من شرقي صيدا وهي الهلالية، البراميه، مجدليون، دار العناية وعبرا... وتناول الحديث أوضاع المهجّرين العائدين وإمكانية زيادة المساعدات عندما تتوفّر لدى الوزارة علمًا بأن إزالة الخراب وتنظيف القرى منها يتطلب ميزانية خاصة لأن المالك إذا ترك لوحده لن يستطيع القيام بهذا العمل بوسائله الخاصة لأنه مكلّف ومرهق له.

تقرير مزوّر وملغوم

لقد ظهر في جريدة الديار اليومية على الصفحة الثامنة تقرير كتبه محرّران ينتميان إلى الطائفة المحمّدية وذلك في العدد الصادر في ٣١ آب وفي ذلك التقرير انتقاد للطرق

التي تستعملها كاريتاس في توزيع مساعداتها في قرية شواليق قضاء جزّين وفيها الكثير من سوء التصرّف في العمل. ويبدو من خلال ذلك التقرير تزوير للحقيقة وطعن بأعمال مؤسّسة كاريتاس وهذا يبدو أنه منطلق من بيت المختار السيّد فرحات. وللحال بعد أن اطلعت على ما جاء في الجريدة المذكورة قمت بزيارة إلى بيت المختار المذكور الذي استنكر كليًّا ما ورد في الجريدة بقلم ذينك الصحافيين نقلًا عن لسانه وأعلن أنه يكذّب ويدحض شخصيًا ما نقلا عنه. بعد هذا التأكّد من سوء نية الكاتب جرى اتصال بالجريدة فكُذِّب ما جاء في الصحيفة.

تطوّرٌ جديد في الحضور في بيت الدّين

إنّ الاحتفال بعيد سيّدة الخلاص ليلة العيد كان من نصيب المطران إميل عيد الّذي تمّ بحضور المطران حلو والخوري طانيوس الخوري اللذين بقيا ثلاثة أيّام في الكرسي الأسقفي في بيت الدّين، بعد أن أخذ الأهالي يعودون إلى بيوتهم ويتمتّعون ببرودة الجبال المنعشة صيفًا، وسلام الجوّ الّذي أخذ يصفو شيئًا فشيئًا بعد سني المحنة. وأنا قد دعيت إلى الاحتفال بالعيد نهارًا في مزار سيّدة المنطرة في مغدوشة. كما وأنّ المطرانيّة أخذت تجمع الكهنة شهريًا في الصيف في بيت الدّين، تأكيدًا على الحضور في الشوف الّذي بقي مدّة مهجورًا ومحرّمًا السكن فيه على فئة من اللبنانيّين. ولقد شجّع على هذا التقارب الزيارة الّتي قام بها الأستاذ وليد جنبلاط إلى المقرّ البطريركي في بكركي، حيث كان لها الوقع الطيّب، كما وعده غبطة البطريرك صفير بأنّ يردّ له الزيارة إلى قصره في المختارة. ولكن ما إن شاع هذا الخبر حتّى تضاربت الآراء بشأنها في أوساط المهجّرين الّذين رأوا قسم فيها علامة رضا ومباركة لما يقوم به جنبلاط في سبيل عودة المهجّرين، وقسم آخر يراها غير ضروريّة في الوقت الحاضر. أمّا الوسط الدرزي الّذي ينتمي إلى أرسلان فقد طالب بأن يشملهم أيضًا بتلك الزيارة. إذّاك أحجم غبطته عن زيارة الشوف، وأرجأها إلى موعد آخر يعلن عنه في حينه. وبعد هذا القرار سوف تتأخّر تلك الزيارة سنوات، إنّما سوف تتحقّق في موعد لاحق.

في الثامن من تشرين الأوّل دعي المطران بشارة الراعي مطران جبيل إلى إعطاء محاضرة في صيدا تناول فيها بإسهاب، مجلس الأساقفة من أجل لبنان، ودام حديثه ساعة

ونصف الساعة حضرها واستمع إليها الأساقفة ورؤساء روحيّون للطوائف الإسلاميّة، ومنهم الشيخ أحمد الزين رئيس المحكمة الشرعيّة، والعلّامة السيّد محمّد حسن الأمين قاضي الشيعة الجعفري. ولقد بلغ تقريبًا عدد الحضور من مختلف الطوائف اللبنانيّة الأربعين شخصًا. وكان الجوّ ممتازًا. وطرحت فيه الأسئلة على سيادة المطران المحاضر كما كانت أجوبته واضحة وصريحة.

إجتماع لجنة الأبرشيّة في بيت الدّين

تحت رعاية وحضور المطران إبراهيم الحلو اجتمعت اللجنة المختارة والمسمّاة لجنة الأبرشيّة المدعوّة للتحضير للمجمع من أجل لبنان، وأعضاؤها: المونسنيور يوحنّا الحلو، الآباء طانيوس الخوري، ريمون عيد، مرسيل أبي خليل، منصور الحكيّم، وبولس الخوند. والراهبات مرغريت دانيو، أوجيني جنبرت، عيدا يزبك، تريز قضماني، والسادة رفّول البستاني، نزيه يمّين، صالح حلو، وهذه هي المواضع الّتي جرى نقاشها ودراستها:

١. الوضع العام للتعليم المسيحي في الأبرشية.
٢. وضع الجسم التربوي وحالته في الأبرشيّة في المدارس الخاصّة والحكوميّة.

كان النقاش مفيدًا وقد جرى في جوّ من الصراحة والمسؤوليّة. وفي نهايته أقام سيادة المطران حلو القدّاس الإلهي الّذي حضره المجتمعون، وانتقلوا بعدئذ إلى تناول طعام الغداء، وفي الساعة الثانية، إنصرف الجميع وتعيّن موعد اللقاء المقبل في ١٣ تشرين الثاني في المكان ذاته في بيت الدّين.

زيارةٌ إلى القصر الجمهوري في ١٣ تشرين الثاني

لمّا كانت وزارة الأشغال العامّة الّتي أخذت تستملك العقارات لشقّ أوتوستراد بيروت–صيدا، وقد ضربت من أملاك المطرانيّة في الرميلة ما يقارب ثمانية وخمسين ألف مترًا مربّعًا، حملنا إلى رئيس الجمهوريّة الأستاذ الياس الهراوي شكاوينا بخصوص هذه الاستملاكات، واعترضنا على القانون ١٠٤ الّذي يلغي رخص المدارس الخاصّة المجانيّة، الّتي لا تفتح أبوابها السنة الدراسيّة ٩٢/٩٣، ولأنّ مدارس القرى المهجّرة لا يمكنها أن

تتقيّد بهذا القانون الجديد، فقد رفعنا شكوانا إلى رئيس الجمهوريّة، الّذي سجّل ملاحظة لديه بهذا الخصوص، وأرسلنا نعرض الموضوع مع المسؤولين في القصر، على أن تعرض النتيجة في ما بعد على فخامة الرئيس. لكن الزيارة والمراجعات لم تأتِ بالنتيجة المتوخاة.

في الثلاثين من تشرين الثاني ١٩٩٣، الثلاثاء صباحًا، قام السفير البابوي بزيارةٍ إلى الشوف، وبخاصة إلى دير القمر وتلّة بيت الدّين، يرافقه ضبّاط من الجيش اللبناني مع لجنة مؤهّلة لأنّ تحضّر لزيارة قداسة البابا إلى لبنان. وقد تكون تلّة بيت الدّين أفضل مكان لهبوط طوّافة البابا بغية لقائه المواطنين المسيحيّين وغير المسيحيّين في الشوف. وقد تنتقل الطوّافة به بعد استراحة يتمكّن من خلالها التلاقي معهم من دون أن يمرّ على المطرانيّة إلى صيدا... على هذا النحو كان التخطيط الّذي لم يكن لنا فيه رأي إنّما كنّا من السامعين...

في الأسبوع الأوّل من كانون الأوّل أي بعد أيّامٍ قليلة من ذلك اللقاء على تلّة بيت الدّين، صدر تصريحٌ من سيادة المطران بشارة الراعي منسّق أعمال مجمع الأساقفة بشأن المقاومة الإسلاميّة، أثار موجة من الاحتجاجات عارمة في الأوساط الإسلاميّة وفي الصحافة الوطنيّة، وكان للمسيحيّين وللموارنة أيضًا اعتراض على ذلك التصريح... وقد يكون ذلك التصريح برأيي في غير محلّه وغير ملائم للظروف الّتي يستعدّ فيها لبنان لاستقبال البابا في ربوعه... ويوم الجمعة ٣ كانون الأوّل ظهرت مجلّة الصيّاد، وعليها كاريكاتور للبابا يوحنّا بولس الثاني، يغطّي صليبه الرعائي على صدره بنقطة سوداء، واعتبرت تلك الصورة إهانة للبابا تجاوزتها الحكومة اللبنانيّة من دون أيّ اعتراض على المجلّة المذكورة. ولكن بعد يومين أو ثلاثة احتجّ السفير البابوي لدى وزير الخارجيّة كما أنّ رئيس الرابطة المارونيّة احتجّ عاليًا ضدّ ما جرى على صفحات تلك المجلّة في الصحف اللبنانيّة وفي وسائل الإعلام كافّة.

رأيٌ شخصي حول الموضوع

إنّ تصريح المطران الراعي والرسم الّذي ظهر للبابا على صفحات الصيّاد واستغلّه بعض المتطرّفين، كما أنّ بعض الدول المجاورة الّتي لم تكن راضية عن مشروع الزيارة البابويّة إلى لبنان، أثارت موجة من الاستياء والتنافر بين العائلات الروحيّة اللبنانيّة، كما أنّ

المطران الراعي الّذي كان قد أعلن عن محاضرة يعطيها في مركز معروف سعد الثقافي، قد ألغاها بناءً لطلبٍ من إدارة المركز المذكور، لكنّ زيارته لبعض الرعايا المارونيّة والكاثوليكيّة بين العاشر والثاني عشر من الشهر الحالي في المنطقة، بقيت قائمة ولم تلغَ، بل قدّرها المؤمنون كثيرًا في الرعايا الّتي زارها أي: الرميلة، وعين الدلب، والقريّة، ولبعا، ومغدوشة، والميّة وميّة، كما اجتمع إلى الكهنة والراهبات ومطارنة الأبرشيّة في دار العناية، وألقى فيهم محاضرة عن السينودس. ومن خلال تبادل الأسئلة والأجوبة، ظهرت الحاجة الملحّة إلى حلول جذريّة لمشاكل المهجّرين...

حادثٌ مؤلم

السبت ١٨ كانون الأوّل عند الساعة الثانية بعد الظهر صعق التيّار الكهربائي السيّد طانيوس نعّوم بالقرب من منزله في الرميلة، فأثار خبر وفاته موجة من الأسف الشديد في صفوف أبناء الرميلة، وبين عارفيه، لما كان يتحلّى به من حسن الصفات. ولما أبلغ خبر وفاته إلى المطران إبراهيم الحلو تأثّر كثيرًا وأصيب بضيق شديد، اضطررنا إلى الاستعانة بطبيبٍ استدعيناه إلى المطرانيّة لمساعدته على تجاوز الألم الّذي أصابه. وقد أوفد غبطة السيّد البطريرك المطران بولس مطر، فرئس الصلاة باسمه إلى جانب المطران إبراهيم الحلو. ولم يحضر مراسيم الجنازة أولاده الثلاثة الغائبون في الولايات المتّحدة الأميركيّة. إنّما حضرته إحدى بناته الموجودة في لبنان. خلال الجنّاز كان التأثّر باديًا على وجوه جميع المشاركين.

٢٤ كانون الأوّل ١٩٩٣

ليلة عيد الميلاد وزّع المسلمون المتعصّبون نشرات تدعو إلى عدم مشاركة المسيحيّين وتهنئتهم بالأعياد الميلادية فتركت هذه الحركة تأثيرًا في نفوس المسيحيّين. إذّاك، أرسلت الحكومة أفرادًا ومجموعات من قوى الأمن لحراسة مداخل الكنائس في الأعياد المذكورة، منعًا لحدوث ما لا تحمد عقباه، لأنّ الكثيرين من الموتورين يحبّون النزاعات وزرع الفتن وإقامة المشاكل بين المواطنين وبخاصّة بعدما جرى بشأن زيارة البابا إلى لبنان وتوقّع حدوثها في ربيع ١٩٩٤. وقد خفّفت من حدّة التوتّر الزيارات العاديّة الّتي قام بها الأعيان

المسلمون لتقديم التهاني بمناسبة الأعياد، ولقد زارنا في المطرانيّة في صيدا كما في سواها من المراكز المسيحيّة وفود رسميّة وشعبيّة أضفت جوًّا من الهدوء والطمأنينة، عمل على إزالة تلك الغيوم السوداء الّتي تسبّبت بها تلك المنشورات الموزّعة قبيل الأعياد المجيدة.

في الشوف كان للسيّد وليد جنبلاط تصريحات متعدّدة، يضمّنها استياءه من الكنيسة ومن المارونيّة السياسيّة، وبخاصّة بعد أن راح الكلام عن زيارة البابا إلى لبنان في نهاية الربيع المقبل يتفاعل، وهو يعتبرها لمصلحة المسيحيّين من دون سواهم وبعض الزعماء المحمّديّين الّذين أتيح لهم أن يزوروا البابا في روما كالرؤساء نبيه برّي رئيس المجلس النيابي والرئيس رفيق الحريري رئيس مجلس الوزراء. وتناقلت الصحف اللبنانيّة تصريحات متنوّعة للزعماء السياسيّين المحلّيين والدبلوماسيّين الأجانب، حول تلك الزيارة المرتقبة... ولاسيّما بعد توقيع الاتّفاق بين الفاتيكان والدولة العبريّة. وعلى هذا الأثر فإنّ البطريرك شنودة بابا الكنيسة القبطيّة قد حرّم على أبناء الكنيسة زيارة الأماكن المقدّسة في فلسطين لأنّها خاضعة لسيطرة الدولة العبريّة. وبخلاف ذلك، فإنّ الشيخ محمّد مهدي شمس الدّين رئيس المجلس الشيعي الأعلى في لبنان قد رحّب بزيارة البابا إلى لبنان وبخاصّة إلى الجنوب، وقد اعتبرها بركة للجميع. في اجتماع للرهبانيّات المارونيّة طالب المشاركون بأن تكون إقامة قداسة البابا في لبنان في الصرح البطريركي وليس في السفارة البابويّة الّتي لا تعتبر بيتًا لبنانيًّا بل أجنبيًّا. والزيارة البابويّة إلى لبنان يجب أن تحاط بضيافة شرقيّة. من جديد هوذا جنبلاط يحمل على الفاتيكان وعلى سياسته وعلى بكركي وسياستها الّتي تجهل أنّ السياسة العربيّة وحدها تحمي حقوق المسيحيّين في العالم العربي الإسلامي ثمّ أخذ يمتدح سياسة البطريرك شنوده.

قمة سورية أميركية

في ١٦ كانون الثاني ١٩٩٤ لقاء بين الرئيس بيل كلينتون رئيس الولايات المتّحدة الأميركيّة، والرئيس حافظ الأسد رئيس الجمهوريّة السوريّة. وهو اجتماع مدبّر ومهيّأ له منذ أكثر من شهر في جنيف سويسرا، حضره أكثر من مائة وخمسين شخصًا من الجانب

الأميركي وخمسة وسبعين شخصًا من الجانب السوري، ويبدو أنّ التفاهم ساد المحادثات، وأنّ الأسد قد أظهر رغبته بعقد صلح مع الدولة الإسرائيليّة، شرط أن تتنازل عن الأراضي الّتي احتلّتها منذ سنوات، ويبدو كذلك أنّ لبنان لم يكن غائبًا عن المحادثات بين الطرفين إنّما كان من الواجب أن يشارك لبنان شخصيًّا في المحادثات، لا أن يفوّض إلى آخر الكلام عنه وباسمه أيًّا يكن، لأنّ مصلحة لبنان تقضي بذلك. وأظنّ أن الأميركيين قد فوّضوا إليها السوريين الشأن اللبناني.

وفاة باسل حافظ الأسد

الجمعة ٢١ كانون الثاني ١٩٩٤، قتل باسل بن الرئيس حافظ الأسد على طريق مطار دمشق في حادث سيّارة. لقد كان برتبة رائد في الجيش السوري، ورئيسًا للحرس الجمهوري. وكان لخبر وفاته وقع الصاعقة في لبنان، فطلب الرئيس نبيه برّي من النوّاب التجمّع الساعة الثامنة صباحًا أمام المجلس النيابي للذهاب والمشاركة في مراسم الدفن الّتي سيُحتفل بها في القرداحة في بلاد العلويّين. وهكذا صار بحضور حشود غفيرة من الرسميّين والمواطنين قدّرها البعض بمائة ألف نسمة مع رؤساء عرب وأجانب أتوا يقدّمون التعازي للرئيس السوري والد المتوفّي باسل الأسد.

إفتتاح كنيسة مار مارون في بيت الدّين

بعد إحدى عشرة سنة من إغلاقها، جاء المطران إبراهيم الحلو يوم الأحد في ١٣ شباط ١٩٩٤ يفتتح كنيسة مار مارون في بيت الدّين. حضر الاحتفال الأستاذ وليد جنبلاط وزير المهجّرين والأستاذ مروان حماده وزير الصحّة، ونوّاب الشوف وعاليه وجمهور غفير من أهالي بيت الدّين ودير القمر. بعد تلاوة الإنجيل المقدّس ألقى سيادته كلمة تركت في نفوس الحاضرين تأثيرًا طيّبًا. وبعد القدّاس ألقى الأستاذ جنبلاط كلمة وتمنّى للحبر الأعظم سفرة موفّقة إلى لبنان وإلى بيت الدّين بنوعٍ خاص حيث يصير لقداسته الاستقبال اللائق بمقامه السامي.

الفصل السابع عشر

إرجاء زيارة البابا إلى لبنان

في ٢٧ شباط حدث انفجارٌ شديد الساعة التاسعة وعشر دقائق في كنيسة سيّدة النجاة في ذوق مكايل، كانت ملأى بالمؤمنين يسمعون القدّاس الإلهي يوم الأحد فقتل من جرّاء الانفجار عشرة أشخاص وسقط ثلاثة وخمسون جريحًا. إنّها لمأساة ما كانت لتخطر على قلب إنسان. كان الأب أنطوان صفير يحتفل بالذبيحة الإلهيّة فأصيب بجروح بالغة. وكان لهذا الخبر تأثير كبير في قلوب جميع اللبنانيّين مسلمين ومسيحيّين. وقد كشف المحقّقون قذائف مدفعيّة مخبّأة في الأرمونيوم ومربوطة بخيط إلى المتفجّرة ولكنّها لم تتفجّر. وفي الغد صباحًا عند الساعة الحادية عشرة احتفل غبطة السيّد البطريرك بالذبيحة الإلهيّة لراحة نفوس جميع الموتى المؤمنين الّذين سقطوا في الكنيسة، وحضرتُ القدّاس إلى جانب المطران إبراهيم، وفي نهاية القدّاس أخذت كلّ عائلة الضحيّة الّتي سقطت منها في تلك المجزرة البشريّة وتوجّهت بها إلى مسقط رأسها، حيث كان يجري دفنها.

زيارة السفير البابوي إلى صيدا محاطة بعلامات استفهام

يوم الأربعاء ٢ آذار ١٩٩٤ قام السفير البابوي بابلو بوانتي Pablo Puento بزيارةٍ إلى صيدا وذهب توًّا إلى مكتب النائب بهيّة الحريري للتداول مع الرسميّين ووجهاء المدينة في الزيارة المرتقبة لقداسة الحبر الأعظم إلى لبنان الجنوبي، ولكنّ وجهاء المدينة رفضوا اللقاء به في دار الحريري. واتّصل بي النائب مصطفى سعد مباشرة وأطلعني على عدم رضاه عن الأسلوب الّذي استعمله السفير البابوي في التعاطي مع أهالي صيدا بشأن الزيارة، كما وأنّه اتّصل مساءً بالمطران حلو وأطلعه على اعتراضه عن الطريقة الّتي اتّبعها السفير البابوي. وكان الأفضل للأخير أن يجتمع في دار محافظة لبنان الجنوبي، وهي مركز رسمي لا يستطيع أحد أن يعترض عليه. هذا إذا لم يرد أن يجتمع بهم في إحدى المطرانيّات الموجودة في صيدا. وذلك هو رأي الغائب مصطفى سعد.

وبينما كانت التحضيرات لزيارة قداسة البابا إلى لبنان قائمة على قدمٍ وساق والمقرّرة في ٢٨ أيّار ١٩٩٤ حتّى الأوّل من حزيران ١٩٩٤ تردّدت أخبار عن إرجائها إلى موعد

لاحق من دون إعطاء أسباب الإرجاء. في الخامس من نيسان ١٩٩٤، عقدت جمعيّة عامّة لبطاركة الكاثوليك والأساقفة والرؤساء العامّين لمختلف الطوائف الكاثوليكيّة في لبنان، وحضرها كذلك السفير البابوي. وفي نهايتها سافر السفير البابوي إلى الفاتيكان حاملًا في جعبته آراء المجتمعين بشأن الزيارة. وفي ١١ نيسان عقد مؤتمرًا صحافيًا أعلن فيه عن إرجاء لزيارة قداسة البابا إلى لبنان من دون التحدّث عن الأسباب، ثمّ قام بزيارة الرؤساء الثلاثة: رئيس الجمهوريّة ورئيس المجلس النيابي، ورئيس الحكومة، فتعجّبوا من هذا القرار الّذي اتّخذ آملين ألّا تكون الزيارة البابويّة إلى لبنان قد ألغيت تمامًا. في ١٢ نيسان انتقل إلى رحمته تعالى الراهب الأب بولس الحلو، وجرى دفنه في دير سيّدة مشموشة بعد جنّاز حافل حضره صاحب السيادة المطران إبراهيم الحلو، ابن عمّة الفقيد والمطران سابا واكيم، وما يقارب الستّين كاهنًا. يوم الخميس ١٤ نيسان ١٩٩٤ سقطت ١٣ قذيفة على مدينة صيدا أوقعت أربعة قتلى وتسعة جرحى بين السكّان، وكانت قد صدرت عن المنطقة الحدوديّة انتقامًا لمقتل أربعة أشخاص وعدّة جرحى معظمهم من المدنيّين. بعد هذا التفجير الّذي حصل يتبادر إلى الأذهان خواطر وأفكار مقلقة، ويتساءل النّاس عن حقّ: ماذا ينتظرنا بعد أن لاحت على الأفق بوادر السلام، ثمّ قضت عليها بشكل غير منتظر أعمال حربيّة.

يوم الخميس أيضًا جرت لقاءات بين الوزير جنبلاط والمطارنة إبراهيم لحلو وجورج كويتر وجورج خضر وخليل أبي نادر، وحضرها النائب نبيل البستاني لدراسة إمكانيّة إعادة بناء بيوت العبادة من كنائس وجوامع تهدّمت أو خربت خلال الأحداث. أمّا المباشرة بالعمل فليس من يدري متى ستكون...

يوم الجمعة ١٥ نيسان ١٩٩٤ اتّصل النائب مصطفى سعد هاتفيًّا بالمطران إبراهيم الحلو وطلب منه أن يشارك باجتماع في دارته لدراسة أوضاع المدينة بعد القصف الّذي تعرّضت له أمس البارحة، وأوقع فيها ضحايا من قتلى وجرحى. عندما علمت من سيادته بالغاية من اللقاء طلبت منه التريّث في الجواب، لأنّ الوقوف إلى جانب فئة من المتحاربين والتخلّي عن الأخرى يعني أنّ المطرانيّة أصبحت محازبة لفئة دون الثانية، والحقيقة هي أنّ المسألة تهمّ الطرفين، ولا يجوز أن تدرس من ناحية وتترك من الناحية الأخرى، الّتي يسقط

فيها ضحايا أيضًا يجب الحدّ منها لأنّها في معظمها ضحايا بريئة. بعد هذا التردّد لم يحضر أحد منّا الاجتماع ولست أدري كيف نظر إليه المجتمعون في صيدا، على أنّ الصوت الّذي يدعو إلى السلام لا يجوز أن يسكت مهما كانت التضحيات.

في ٢ أيّار ١٩٩٤ استقبلنا في المطرانيّة بصيدا لجنة من قبل الرئيس نبيه برّي رئيس المجلس النيابي، وأطلعتنا على رغبتها في توزيع مساعدات على البيوت الّتي تضرّرت بالأحداث وخلال التهجير على أن تشمل المساعدات السكن والزراعة، حتّى يتمكّن الإنسان العائد من أن يتدبّر شؤونه بنفسه من دون اللجوء إلى آخر قيامًا بأود نفسه ولاسيّما إذا كان ربّ عائلة. في هذا التاريخ عاد الخوري مارون شاهين إلى بيته في بيت الدّين، قيامًا بخدمة الرعيّة والنيابة الأسقفيّة. ويوم الإثنين في تمام الساعة السابعة مساءً كانت لي محاضرة في دار العناية في الصالحيّة حول علاقة الخوري برعيّته والرعيّة بخادم نفوسها.

يوم الثلاثاء ١٧ أيّار ١٩٩٤ كان لي موعدٌ ولقاء برفقة المطران إبراهيم والخوري طانيوس الخوري مع وزير الشؤون المائيّة والكهربائيّة غير أن التزام هذا الأخير بموعد آخر مع لجنة خبراء فرنسيّين جعلته يعتذر، فكان اجتماعنا مع اللجنة المؤلّفة من السادة عصام جابر وسمير قربان، شكر وفادي ساروفيم، ودارت المناقشات في الاجتماع حول الموضوع التاليين:

١. قناة الصفا، أو قناة المير بشير الممتدّة من نبع الصفا حتّى الكرسي الأسقفي والّتي تروي مياهها من النبع الأرزاق حتّى آخر حيارة دير القمر وقد وضعت الإدارة المدنيّة يدها عليها منذ السنة ١٩٨٣.

٢. مياه الشرب الّتي باعتها المطرانيّة إلى الدولة سنة ١٩٤٨ وقيمتها ٢٥٠٠ م^3 والّتي تتصرّف بها الدولة كما تشاء، ويبدو أنّ الدولة قد وضعت يدها على كمّيّة تزيد على الكمّيّة المشتراة ولهذا يجب إعادة ضبط المياه.

بعد مناقشات طويلة دامت أكثر من ساعتين طرحت اللجنتان علينا السؤالين التاليّين:

١. إذا كنّا نفضّل أن نعهد بإدارة القناة إلى شخص منفرد معيّن أم إلى مؤسّسة؟ فضّلنا المؤسّسة على الشخص المنفرد.

٢. المبلغ الّذي تطلبه المطرانيّة سنويًّا كإيجار أو استثمار لهذه القناة، فلم يجب أحد من الحاضرين بيننا عن المبلغ الّذي تريده سنويًّا المطرانيّة: المطران لم يجب ولا الخوري طانيوس ولا المحامي. أمام هذا التردّد الّذي أزعج اللجنة المفاوضة، اقترحتُ عشرين مليون ليرة لبنانيّة، ولكن المحامي الواقف مع المطرانيّة، وإذ رأى المبلغ مقبولًا من اللجنة الوزاريّة، فقد تابع يقول إنّ المبلغ زهيد جدًّا. ما أسهل الاعتراض ولكن ما كان أصعب الجواب الّذي أبى أحد أن يتقدّم به. على أنّ أجور موظّفي القناة يجب أن تكون على نفقة الوزارة. واستمهل أعضاء اللجنة بعض الوقت لإعطاء الجواب، على أن يعقد الاجتماع التالي بعد أسبوع...

الخميس ٢٦ أيّار كان لنا لقاء في وزارة المهجّرين مع الأستاذ وليد جنبلاط تحدّثنا خلاله عن أمور كثيرة، عن وضع حجر الأساس لكنيسة السيّدة في البراميّة، عن عودة المهجّرين، عن مطالب السيّد جميل بستاني القابض على زمام القناة منذ ١٩٤٨ والمطالب بحقوق الإجازة...

في ٢٨ أيّار ١٩٩٤ أحيينا غداءً لمساعدة كاريتاس في مطعم «لونا ريفاج» في الرميلة، وبلغ عدد المشاركين ١٨٠ شخصًا عرضت خلاله الأعمال الّتي تقوم بها كاريتاس على صعيد مساعدة المهجّرين العائدين، وعلى صعيد المستوصف الخيري. كان المدخول الصافي للغداء سبعة ملايين ليرة لبنانيّة.

وخلال غياب المطران إبراهيم الحلو في الرياضة السنويّة في بكركي عقدت لجنة إعادة تعمير الكنائس وبيوت العبادة اجتماعها العادي في محلّة الصنائع (رئاسة الوزارة) فحضرته لكنّني لم أخرج منه بفكرة طيّبة لعدم جديّة الأعضاء المشاركين، وعدم توصّلهم إلى اتّخاذ القرارات النافعة، لأنّ الكلام من دون طائل كان أكثر من العمل المجدي.

وفاة الكاردينال البطريرك مار أنطونيوس بطرس خريش

الجمعة ١٩ آب ١٩٩٤ الساعة ٧،٣٠ صباحًا انتقل إلى جوار ربّه البطريرك انطونيوس خريش الكلّي الطوبى على سريره في بكركي حيث أمضى ثماني سنوات بعد استقالته من منصب البطريرك. الساعة ١١،٥٠ ليلًا، أبلغني خبر وفاته الخوري ريمون عيد. السبت

صباحًا ذهب سيادته إلى بكركي لتقديم التعازي ورافقته أنا والخوري طانيوس الخوري، وهنالك علمنا أنّ موعد الدفن قد تعيّن في ٢٢ آب ١٩٩٤ ونقل الجثمان إلى كنيسة الصرح البطريركي، وكانت تقام لراحة نفسه القدّاسات طوال النهار. في ٢٢ آب أقيمت صلاة الجنّاز لراحة نفسه في الساحة الداخليّة للكرسي البطريركي بحضور البطاركة حايك (سريان كاثوليك)، وغسباريان (أرمن كاثوليك)، وبيداويد (كلدان)، كما حضر الرؤساء الثلاثة رئيس الجمهورية الياس الهراوي، ونبيه برّي رئيس المجلس النيابي، ورفيق الحريري رئيس الوزراء.

أبّن الراحل الكبير غبطة البطريرك نصر الله صفير. وجرى الدفن في مدفن البطاركة الجديد في بكركي. يوم الأحد في ٢٨ آب الجاري احتفل في صيدا في الكاتدرائيّة، بقدّاس لراحة نفس غبطته، سيادة المطران إبراهيم الحلو عند الساعة ١٠,٣٠، حضره عدد غفير من المؤمنين، وبعض الشخصيّات الرسميّة. تقبّل التعازي سيادته بعد القدّاس، وطوال النهار من قبل الزوّار الّتي قدمت من المدينة وجوارها، وفي مقدّمهم نوّاب حاليّون وسابقون ذاكرين بالخير رعايته لأبرشيّة صيدا طوال عشرين سنة وأكثر.

العودة إلى مزرعة الشوف

ما من أحد يجهل أن مزرعة الشوف قد عرفت لدى اغتيال كمال جنبلاط في آذار ١٩٧٧ مجزرة كبرى ذهب فيها سبعة وخمسون شخصًا من الموارنة تركت في النفوس أثرًا كبيرًا لن يمحي وفي القلوب جرحًا بليغًا لا يندمل. وفي أحد الأيام وفيما كان المهجرون يعودون إلى قراهم لإعادة بناء قراهم جاءَنا في زيارة إلى المطرانية أربعة أشخاص هم الأستاذ حسيب عبد الساتر والعميد حنّا أبو شقرا والمحامي جان حرب وشخص رابع وراحوا يتساءَلون أمام سيادة المطران إبراهيم الحلو وأمامي عن عدم التفكير بإعادة المهجّرين من بلدتهم إليها كما كانوا يخشون إهمال هذه الأمور الجوهرية التي يجري بحثها في غير بلدة من بلدات الشوف المهجرة وخوفًا من إدراج بلدتهم في خانة النسيان حمّلوا هذا الهمّ إلى سيادة المطران آملين في أن يصير بحثها والتداول به مع الوزير وليد جنبلاط. وبالرغم من تقديري واحترامي لكلّ من الحاضرين الأربعة طرحت عليهم السؤال التالي الذي لم يخلُ من

امتحانٍ لقدرتهم على التحدّث بِاسم مسيحيي البلدة؛ قلت: «وهل تمثّلون الفئة المسيحية لتتكلموا باسمها؟» إذّاك انتصب العميد حنّا أبو شقرا غاضبًا ووقف في القاعة قائلًا: «وهل تشك في قدرتنا على ذلك؟» التزمت الصمت إلى أن هدأ غضب العميد ثم قلت: «آخذ على عاتقي الاتصال بأقرب وقت بالوزير جنبلاط لأنقل إليه رغبتكم في ذلك.» وفي اليوم التالي ذهبت إلى وزارة المهجّرين على غير موعد مسبق وكانت لا تزال في احدى البنايات في الدامور وفيها يقيم الوزير دوامه الرسمي لتصريف الأعمال. ولما علم بوجودي طلبني إلى مكتبه حيث طرحت عليه مسألة عودة المهجّرين إلى مزرعة الشوف فكان جوابه التالي: «المسألة صعبة وتستلزم بعض الوقت.» فلم أقبل بجوابه بل ألححت عليه إذّاك نادى أحد معاونيه وقال له: «إستدعِ للحال السيد أبو شقرا وليعمل على تأليف لجنة لدراسة عودة المهجّرين إلى مزرعة الشوف.» شكرته وانصرفت ولما وصلت إلى المطرانية أطلعت المطران إبراهيم على ما جرى بيني وبين السيد جنبلاط. ثم اتصلت بالسيّد حسيب عبد الساتر وأخبرته عن لقائي بالسيّد جنبلاط وعن تأليف لجنة تدرس أمور العودة وأشرت عليه بأن يقوم بزيارة السيّد جنبلاط في مكتبه بالوزارة وهكذا صار. وبدأوا يدرسون ظروف العودة.

إن السرعة التي أجريت فيها هذه الاتصالات لم ترُق مجموعة أخرى من آل عبد الساتر كان يتزعمها العميد عبد الساتر فأجرى اتصالًا بالمطرانية وأطلعني على اعتراضه على هذه الاتصالات التي تمّت على غير علم أو معرفة من قبله بها وإن الذين كانوا عندي لا يملكون الصيغة التي تناسب الجميع، وهو موقف لا يمسّ الجوهر بل الأسلوب الذي ينتقص، حسب ظنهم، من كرامتهم. وهذا نموذج من السياسة المحلية التي لا تزال جماعتنا المسيحية تحافظ عليه وترعاه بالرغم من كلّ ما أصابهم من نيران الحرب الداخلية.

تمّت المصالحة وتأمنت العودة بعد أن نال العائدون تعويضات عن الخسائر البشرية التي منيت بها الجماعة المسيحية. وتلك الاحتجاجات لم تكن مبنية إلّا على الأسلوب وليس على الجوهر حفاظًا على زعامة وهمية أو هي من خيط العنكبوت. ولنا على ذلك أمثلة عديدة لا فائدة من ذكرها إنما ان دلت على شيء فعلى النفسية التي تتحكّم بصفوف المسيحيين والتي لم تحررهم منها سنوات الحرب وفظائعها.

يوم مصالحة في الباروك

في التاسع من أيلول ١٩٩٤ جرت في الباروك والفريديس مصالحة هامّة ترأسّها فخامة الرئيس الياس الهراوي ووزراء من الحكومة ونوّاب وشخصيّات عدّة، كما حضرها المطران حلو والمطران أبي نادر، وشارك فيها عسكريّون وكهنة وصحافيّون إلى جانب عدد كبير من المواطنين. والتقى أكثر من ٣٠٠ شخص دعوا إلى مائدة الأستاذ وليد جنبلاط في المختارة. وفي عودته من المختارة قام رئيس الجمهوريّة بزيارة الكرسي الأسقفي في بيت الدّين، يرافقه عدد من الوزراء واستقبله المطران إبراهيم الحلو يحيط به عدد من الكهنة، قدموا خصّيصًا لهذه الغاية، وألقى سيادته كلمة ترحيبيّة ذكّر فيها بالتقليد الّذي اتبعه عليها رؤساء الجمهوريّة، الّذين كانوا يؤمّون الكرسي في عيد سيّدة الخلاص في ٨ أيلول من كلّ سنة ويحضرون القدّاس الإلهي ويتناولون مع مرافقيهم الغداء في الكرسي، وتمنّى سيادته على أن يستمرّ هذا التقليد الّذي انقطع بسبب الحرب والتهجير. إستمرّت هذه الزيارة زهاء ساعة صفّقت له فيها طويلًا أولاد المخيّم الصيفي وعددهم ١٠٢ من كلا الجنسين فضلًا عن المسؤولين عنهم. وفي الساعة الرابعة والنصف حضر فخامته القدّاس الإلهي في كنيسة سيّدة التلّة الّذي احتفل به سيادة راعي الأبرشيّة المطران حلو.

إجتماعٌ ضخم في عبرا مدرسة مكسيموس الخامس حكيم

في ٢٧ تشرين الثاني ١٩٩٤ أقيم مهرجان تكريمي ضخم في مدرسة مكسيموس الخامس حكيم في عبرا داخل ملعب المدرسة، جمع أكثر من عشرة آلاف شخص، جاؤوا من مختلف المناطق وأراد من خلاله البطريرك مكسيموس حكيم أن يشكر الرئيس برّي على التقديمات الّتي ساعد بها المهجّرين للعودة إلى قراهم وتعمير بيوتهم، وشارك فيه مطارنة الجنوب ما عدا المطران إبراهيم الحلو، الّذي كان غائبًا في روما وكنتُ ممثّلًا لسيادته، وألقيتُ كلمة في المهرجان كان لها الوقع الحسن على ما أظنّ حتّى أن الكثيرين اتّصلوا بي مهنّئين مباشرة على الساحة كما على التلفون في ما بعد رجوعهم إلى منازلهم ومقرّ أعمالهم ولا بدّ من نشر الكلمة في هذا السياق:

صاحب الغبطة الكلّي الطوبى

دولة الأستاذ نبيه برّي رئيس مجلس النوّاب

أصحاب السيادة والسعادة

أيّها القادة العسكريّون

آبائي، سيداتي، سادتي

لقد شرّفني صاحب السيادة المطران إبراهيم الحلو راعي الأبرشيّة، المشارك اليوم في حفلات تقام على شرف السيّد البطريرك الكاردينال مار نصر الله بطرس صفير في روما، بأن أكون ممثّلًا له في هذا اللقاء التكريمي الحاشد لدولة الأستاذ نبيه برّي، وأناط بي إلقاء كلمة بإسمه، فلبّيت الطلب على ما فيه من دقّة والتزام. وبعد التأمّل والتفكير والجوّ جوّ بناء وتعمير، والمناسبة، مناسبة تقدير للكبير في بلادنا، على يد كبير في كنيستنا، استلهمت كلمة السيّد المسيح الّتي جاءت في إنجيل القدّيس متّى كالتالي: «مثله مثل عاقل بنى بيته على الصخر».

والبيت اللبناني الّذي يعاد بناؤه، اليوم، سواءٌ أكان في لبنان عامّة، أم في هذه المنطقة بالذّات، الّتي سمّوها شرقي صيدا، أو كما يحلو للبعض أن يسمّيها ساحل جزّين، أحد هموم دولة الرئيس الضاغطة الملحّة، التي يسعى ناشطًا مع السلطتين التنفيذيّة والتشريعيّة إلى إيجاد الحلول الملائمة لها، فعهد بمسؤوليّة التعمير فيها إلى مجلس الجنوب الّذي راح يعمل بجدّ واندفاع وانفتاح على الجميع قيادةً وأعضاء، في هذا السبيل مشكورين، من دون أن ننسى ما قامت به الهيئات العالميّة الإنسانيّة منذ بداية العودة وفي مقدّمها كاريتاس لبنان، والكلّ ساهم في هذا الموضوع.

دولة الرئيس،

وأيّ صخر أفضل لبناء الوطن اللبناني وتحصينه من الداخل والخارج من صخرة الإيمان بالوطن الواحد الموحّد، الحاضن لبنيه كافّة، الجامع لهم من

شتات التهجير المكاني والنفساني، وصهرهم في مجتمعهم مع أصدقائهم على أسس الاحترام المتبادل، والعيش المشترك الّذي يغضي فيه الجار عن إساءة جاره، صافحًا، ويقيل الأخ أخاه من عثرته، ويأخذ القويّ منّا بيد الضعيف ويساعده على النهوض من كبوته ويمسح دمعة عن خدّ يتيم ويكفكف أخرى من عين ثكلى، بما آتاه الله من رحمة، ويبني سقفًا يأوي تحته من شرّدته الحرب والمؤامرات الخبيثة عن داره ويلملم شمل عائلة في جوّ دافىء وحميم. ويفرّج عن كربة مقهور ويسهّل طريق العودة أمام من أُبعد قسرًا عن أرضه، ليعيد إليها الحياة ويشيع في أرجائها، وبين ساكنيها الطمأنينة والسلام.

إنّ كلّ بيتٍ تعملون على إعادة بنائه يضع مدماكًا ثابتًا في عمارة الوطن، وكلّ عائلة مهجّرة اقتلعت من أرضها تعيدونها بكرامة إلى حيث كانت، تصل ما انقطع من حسن الجوار، وترسّخ العلاقة بين المواطنين.

دولة الرئيس،

لقد تبنّيتم بسرعة أدواء هذه المنطقة فعالجتموها بحكمة وشجاعة وانفتحتم على خدمة جميع أبنائها من دون تفرقة ولا تمييز. ولا غرو ونهجكم في هذا المجال نهج الإمام الصدر، ردّ الله غربته، عنه أخذتم وبهديه سرتم حتّى راحت ألسنة الناس تلهج بعاطر حبّكم وتردّد مع الشاعر:

وكلّ مكان يُنبت العزّ طيّب   فكلّ امرىء يولي الجميل محبّبٌ

طيّب الله حياتكم بنعمه وغمركم ببركاته، وأيّدكم بعون منه تعالى، لأنّ من أعزّ أخاه الإنسان أعزّه الله في الدنيا والآخرة.

ومن قول عليّ بن أبي طالب:

إذا وصلت إليكم أطراف النعم   فلا تنفّروا أقصاها بقلّة الشكر

لقد وصلت الأوائل إلى مستحقّيها يا دولة الرئيس، إنّما يبقى أقصاها، فلا تجعلوه قصيًّا جدًّا، بعيد المنال لأنّ هنالك بيوتًا كثيرة لا تزال بحاجة إلى إنجاز وأخرى لم يبدأ العمل فيها. وكلّها يترقّب وصول المساعدات حتّى إذا كان بين مواطنيَّ الحاضرين لهذا اللقاء والغائبين عنه من فاته من الغيث وسميّه فلا يفوتنّه وليّه وخير الأعمال بالإكمال.

والله وليّ التوفيق. وشكرًا جزيلًا لراعي هذا الاحتفال وبركة منه لجميع المشاركين فيه.

غير أنّ التكريم الّذي وجّه إلى الرئيس برّي لم يرُق أبدًا الوزير جنبلاط الّذي يعمل على إعادة المهجّرين إلى الجبل.

ملاحظة ضرورية وإن قاسية

هكذا انتهى الاجتماع وعاد كلّ إلى مقرّه وبيته وبتنا ننتظر الأموال لمساعدة من هجرتهم الحرب وباتوا ينتظرون العودة إلى قراهم لكي يعمّروها وإلى كنائسهم لكي يشيدوها أو يرمّموها ولكن المساعدات كانت ضئيلة ولم تكن متساوية بتلك الّتي كانت تعطى في الشوف والجبل. وهل إعادة بناء البيت في البراميّة مثلًا أقلّ كلفة من بناء البيت في علمان؟ وهل إعادة بناء كنيسة البراميّة أو الهلاليّة أو عبرا في محافظة الجنوب أقلّ كلفة من بناء كنيسة مهدومة في علمان أو جدرا مثلًا؟ لماذا تساعد كنيسة في الجبل وتحرم منها كنيسة في الجنوب؟ أقول هذا بكلّ بساطة لأن الأبرشيّة تضمّ أقسامًا في الجنوب وأخرى في الشوف، وهنا لا بدّ من التوقّف بمرارة عند الأسلوب الّذي كان يتعاطى به المشرفون على توزيع التعويضات في مدينة صيدا على المسيحيّين القلائل الّذين لم يكن عددهم ليتجاوز الخمسين عائلة وقد عرض عليّ بعضهم شكواهم واعتراضهم على تلك التعويضات. مثلًا على ذلك: نجد في بناية واحدة عدّة مستأجرين أو مالكين مسلمين ومسيحيّين، والمعروف هو أنّ المسيحيّين هم الّذين هجّروا ثمّ عادوا إلى مساكنهم على غير ما تركوها، وبدلًا من أن يعوّض عليهم بما يرفع عنهم الظلم الّذي لحق بهم في الحرب يعطون النزر اليسير بخلاف المسلمين المقيمين في البناية عينها جيران أخبروا مما نالوه من تعويضات. وقد

جاءنا منهم من يسألنا إذا كانوا يأخذون الشك الّذي يقدّم لهم أم لا وهو جزء من عشرة ممّا كان يعطى لجيرانهم المسلمين في البناية عينها. وعرضنا هذه الشكوى في زيارة قام بها المطارنة إلى الرئيس رفيق الحريري في رئاسة الحكومة، وقد أعطيته أسماء أشخاص معروفين يسكنون في هذا الحيّ أو ذاك من مدينة صيدا، وهو لا شكّ بصفته ابن صيدا يعرفها حيًّا حيًّا وبيتًا بيتًا، ولكن تلك المراجعة لم تأتِ بنتيجة بالرغم من الوعود المعسولة. غير أنّ تلك التصرّفات لم تحدّ من عزمنا على تشجيع العودة الّتي لم تتوقّف حتّى أنّ الأبرشيّة بجميع رعاياها الكبيرة والصغيرة من الخيام في قضاء مرجعيون حتّى بمهريه في قضاء عاليه، كانت ورشة مستمرّة في إعادة البناء، بناء البيوت، وبناء الكنائس الّتي كانت تشاد في معظمها على مرحلتين: مرحلة بناء قاعة راعويّة يلتئم فيها شمل أبناء الرعيّة في أفراحهم وأحزانهم، وفيها يقيمون احتفالاتهم الدينيّة، حتّى إذا ما انتهوا من بنائها يباشرون بناء الكنيسة فوقها. ولا لزوم لتعداد القاعات الراعويّة والكنائس الّتي أعيد بناؤها، حسبنا أن نعدّ الرعايا على خريطة الأبرشيّة لنعرف عددها، إنّما وبكثير من الألم والمرارة، أقول إنّ رعيّة بريح وحدها في الشوف بقيت معاندة للعودة، بالرغم من المداخلات الّتي جرت على كلّ صعيد، من قبل البطريرك الماروني والأستاذ وليد جنبلاط، والمطرانيّة الّتي لم تترك وسيلة إلّا واستعملتها إنّما باءت كلّها بالفشل.

لا بدّ من أن يقول من يقرأ كلماتي هذه إذا كان من أهالي بريح إنّني أقسو عليهم في ما أقول، غير أنّني آسف جدّ الأسف لبقاء بريح مهجّرة تحت كلّ سماء وأصلّي إلى الله لكي يحقّق لها العودة، ويوحّد في ما بين أهاليها مسيحيّين ودروز.

ولا بدّ من الإشادة في هذا المجال ونحن في معرض الكلام عن العودة بالتبرّعات الّتي تكاد ترد من الأبرشيّات في أوروبا بناءً لطلبنا، والّتي كانت تطالب كذلك كلّ كنيسة تردها مساعدات ماليّة بأن تؤدّي حسابًا مفصّلًا عن الطريقة الّتي أنفقت فيها المساعدات الّتي كانت ترسلها بإسم هذه الكنيسة أو تلك، وهي حسابات ينظّم طريقة استعمالها وإنفاقها المهندس الّذي يشرف على بناء الكنيسة، ثمّ ترسل إلى المرجع الّذي يقدّمها ويتبرّع بها.

وإن كان لا بدّ من كلمة وإن قاسية وقد لا يقبلها المسيحيّون اللبنانيّون الّذين زادتهم الحرب تألّقًا وغنى وبحبوحة على حساب إخوان لهم في لبنان، فهي أنّ الّذين ذاقوا الأمرّين في الحرب اللبنانيّة وبدأوا يعودون ويبنون لم يجدوا من إخوانهم المسيحيّين في لبنان اشتراكًا وإسهامًا، ولو بقيمة فلس الأرملة، تأكيدًا على تضامنهم مع إخوان لهم في إعادة بناء كنائسهم وفرشها وتأثيثها. ولو أنّ ما كان يسمّى «العونة» في قرانا الجبليّة ظلّ قائمًا لترسّخت المحبّة في القلوب التي بدأت تجفّ ويا للأسف وتتلاشى. وذاك الأمر يدعو إلى التأمّل وفحص الضمير لدى الكبار والصغار.

إفتتاح كنيسة مار مارون –عقلين (الدبيّة)

إنّ كنيسة مار مارون في عقلين (الدبيّة) الّتي خربت ودُنّست بعد أن سرقت ولم يبقَ لها ومنها سوى الجدران الأربعة مهشّمة، قد عملنا على ترميمها واستلزم ذلك ثلاثة عشر ألف دولار دفعت منها وزارة المهجّرين سبعة آلاف والباقي أمّنته المطرانيّة مع أبناء الرعيّة، حتّى أصبحت مؤهّلة لقبول المؤمنين قيامًا فيها بواجباتهم الدينيّة. وأقام فيها سيادته قدّاسًا احتفاليًّا، عاونه فيه المونسنيور يوسف البستاني والخوري سامر ناصيف، وحضر إلى جانب المؤمنين النوّاب نبيل البستاني، جورج ديب وسمير عون وخليل عبد النّور فضلًا عن ممثّلين للسيّد جنبلاط من الحزب التقدّمي الاشتراكي.

العودة إلى البرامية

بعد عودة السلام ببطء إلى منطقة شرقي صيدا أخذ المواطنون يعودون إلى البراميه وكان لي أن ألتقي العائدين حول مذبح الرب تشجيعًا وتأكيدًا لهم بأننا إلى جانبهم ولهذا فقد وجدت من المناسب أو بالأحرى من الضروري إقامة قدّاس في أحد منازل العائدين لأن الكنيسة مهدومة ولمّا تقرر عمليًا إعادة بنائها فكان القدّاس الأوّل في دار السيّد ميلاد روكز انتهى بلقاء عائلي مع المشاركين القلائل الذين أفصحوا عن مكنونات صدورهم التي لمن تكن مطالبة بأكثر من إعادة بناء كنيسة صغيرة كافية وافية لتأمين واجباتهم الدينية فيها. أمّا أنا فكنت أستمع منهيًا الحديث قائلًا لهم: الاتكال على الله وعلى السيدة العذراء وعلى همّتكم.

بدأ العمل الجدي على إعادة البناء فصار وضع الحجر الأساس برئاسة المطران إبراهيم الحلو راعي الأبرشية وكان ذلك في الثاني من شهر حزيران ١٩٩٤ حيث كان عددٌ من المدعوين والرسميين وأبناء الرعية العائدين والقادمين من أمكنة إقامتهم الحالية. وممّا أثّر بي في ذلك الاحتفال أن أرملة عجوز معروفة باسم «أمّ خليل» تعيش من مساعدة الناس لها في الرعية وخارجها قد دعتني إليها بينما كانت تجلس على كرسي على بعد من الجماعة في ذلك المساء وبعد الانتهاء من وضع الحجر الأساس وقد تأثّرت عندما قدّمت إلي مساهمة منها في إعادة بناء الكنيسة تسعين ألف ليرة لبنانية وهي بمثابة فلس الأرملة التي تكلّم عنها السيّد المسيح في إنجيله المقدّس...

وجاء العمل بالبناء بكلّ جدية ونشاط فتقدّم أحد المهندسين من بيروت المدعو أنطوان نصّار وأخذ على عاتقه إعادة بناء القاعة بحسب المساحة الأصلية القديمة لقاء خمس وثلاثين مليون لبنانية قدّمناها له تدريجًا، فدفع من جيبه ومن ماله الخاص عشرين مليون ليرة لبنانية لأن الكلفة لإعادة بناء القاعة من دون التبليط بلغ خمسًا وخمسين مليون ليرة لبنانية. فشكرًا لمن بنى وساهم وعوض الله على كلّ محسنٍ بالخير والنجاح.

منحت سرّ العماد المقدّس في القاعة بعد الانتهاء من بنائها للطفل أنطوني روكز في ١٩٩٤/١٢/١١ وصار تدشين القاعة احتفاليًا في ١٩٩٤/١٢/١٨.

وتتابعت الأعمال لبناء الكنيسة فوق القاعة إلى أن صارت كما هي مؤهّلة لتكريم السيّدة العذراء وذلك بفضل المحسنين وهمّة وكلاء الوقف. بارك الله الجميع وجزاهم خيرًا على كلّ ما أُنجز لعبادة وتمجيد الله وتكريم السيّدة العذراء.

تدشين القاعة الرعويّة في البراميّة برعاية المطران إبراهيم الحلو

كانت تنعم رعيّة البراميّة بكنيسة حديثة العهد مبنيّة بالحجر الطبيعي الأصفر، قضت عليها أيدي الغدر فهدمتها وأستولت على حجارتها، ولكن الّذي نال من الحجر لم يستطع أن ينال من البشر ومن عزمهم على الصمود فكان أن أعيد العمل في بناء قاعة فسيحة على أساس الكنيسة الّتي هدمت وما أن تمّ بناء القاعة الرعويّة حتّى فتحت أمام المؤمنين قيامًا بواجباتهم الدينيّة فيها على أمل متابعة العمل لبناء الكنيسة فوقها. وكان طول القاعة ٢٦ مترًا

وعرضها ١٦ مترًا. وبعد أن أنجز بناؤها وتجهيزها، كان لها احتفال وتكريس بحضور سيادة المطران جورج كويتر والنوّاب ميشال موسى وعلي عسيران ومصطفى سعد، وجمهور غفير من المؤمنين الّذين أخذوا يتنفّسون الصعداء ووعد سيادته الحاضرين بمتابعة البناء لتشييد الكنيسة كما كانت في الأصل وأفضل بعون الله وبركة السيّدة العذراء صاحبة المقام. وتتابع العمل من رعيّة إلى رعيّة ومن معبد إلى آخر، لكي يجيء بناء الحجر مع عودة البشر، وكان الله ولي التوفيق والنجاح.

الفصل الثامن عشر

انطفاء «شمعة من شموع صيدا»

كان ذلك آخر لقاء لي مع المطران إبراهيم الحلو في اليوم الثاني من شهر شباط ١٩٩٦، فبعد أن خرجت من الكنيسة حيث كان لي أن أتلو القدّاس للمؤمنين في تمام الساعة الخامسة مساءً بمناسبة عيد دخول المسيح إلى الهيكل، وكان له أن يحضره كعادته في آخر الكنيسة قرب كرسيّ الاعتراف يتلو سبحة العذراء كعادته مستعدًّا لسماع اعتراف المؤمنين. خرج من الكنيسة ودعا من توقّفوا للسلام عليه ساعة خروجهم من الكنيسة إلى الدخول إلى المطرانيّة لتناول القهوة معه والتحدّث إليهم كعادته. هكذا قضى معهم ما لا يزيد عن العشرين دقيقة واجتمعنا معًا في المكتب نتداول بأمور راعويّة عاديّة كلانا من دون ثالث بيننا، ثمّ قال لي: «ما رأيك، غدًا رسامة المطران بولس الطيّاح مطرانًا على المكسيك في بكركي الساعة الثالثة مساءً. وما رأيك هل أذهب قبل الظهر أم أتناول طعام الغداء هنا في صيدا وأذهب حالًا إلى المشاركة في الاحتفال؟» وإذ كان ينتظر رأيي قلت: «أرى أنّه من الأسهل عليك أن تذهب قبل الظهر إلى بكركي تتناول طعام الغداء هناك، فيتاح لك مجال الراحة بعد الغداء وقبل الاحتفال برسامة المطران، بدلًا من أن تتناول طعام الغداء وتذهب حالًا، وقد يكون هذا مزعجًا لك». سمع ما نصحته به ثمّ ودّعني قائلًا: «لنرى غدًا صباحًا ما سيكون من أمرنا». تلك كانت كلماته الأخيرة إليّ ولم يكن أحدنا عارفًا بأنّها ستكون آخر كلمة يوجّهها إليّ قبل أن يغادر هذه الأبرشيّة والمطرانيّة الّتي تفانى حتّى الرمق الأخير في خدمتها، منذ أن سيم كاهنًا في الثاني والعشرين من كانون الأوّل ١٩٥١ حتّى أسقفيّته عليها طوال إحدى وعشرين سنة كاملة، في أصعب الظروف وأشدّها خطرًا وإحراجًا، من دون أن يغادرها إلّا تلبية لإرادة الحبر الأعظم البابا يوحنّا بولس الثاني، الّذي عيّنه مدبرًا رسوليًّا على الكنيسة المارونيّة مع بقاء البطريرك الكاردينال مار أنطونيوس خريش على كرسي البطريركيّة «Sede plena» وهذه المهمّة بقيت ملقاة على عاتقه بضعة أشهر إلى أن تمّ انتخاب المطران نصر الله صفير بطريركًا على الكنيسة المارونيّة، عاد بعدها سيادته إلى كرسيه في صيدا...

وفاته

كيف علمت بوفاته؟ كان من عادته أن ينزل إلى الكنيسة من غرفته قبل وقت التقديس يصلّي ويتأمّل إلى أن يحين وقت قدّاسه اليومي الساعة السابعة صباحًا. وتأخّر عن الوقت المعيّن للقدّاس وفي الكنيسة مؤمنون ينتظرون إذّاك صعدت إلى الطابق حيث غرفة النوم، وفتحت باب المكتب الّذي يعطي على غرفة النوم، فوجدته مستلقيًا بشكلٍ طبيعي إلى الجانب الأيمن، ويده اليمنى تحت خدّه ممسكًا بأصابيع يده اليسرى بسبحة العذراء وكأنّه يصلّي. خلته للوهلة الأولى نائمًا نومًا طبيعيًّا، فناديته: «سيّدنا، سيّدنا» فلم يجب، وحركته فإذا به جامد كمن فارق الحياة منذ ساعات. للحال أخذت سمّاعة الهاتف وطلبت الدكتور أنطوان ضاهر صديقه فجاء سريعًا، وتأكّد من أنّ الوفاة قد حدثت منذ ساعات... أعلنت الوفاة على من كانوا ينتظرون في الكنيسة الّذين لم يتجاوز عددهم العشرة: إثنان من الإخوة المريميّين، وبضع راهبات، والخوري سامر ناصيف فوقع الخبر علينا جميعًا كالصاعقة، وبخاصّة عليّ أنا، وما كنت أتوقّع له هذه الوفاة المفاجئة. وكان أوّل اتّصال لي بالبطريركيّة المارونيّة في بكركي، ثمّ بأحد أبناء شقيقه، جاك، وشقيقاته، وراح الخبر ينتشر كالبرق، ناقلًا نبأ الوفاة الّذي وقع كالصاعقة، إذ لم يكن أحد يتوقّعه ولا كان لسيادته رحمه الله ما ينذره بهذا الموت المفاجىء أقلّه ظاهريًّا. واتّخذ الطبيب الدكتور أنطوان ضاهر كلّ الاحتياطات اللازمة، حفظًا للجثمان، أقلّه إلى ما بعد الأحد لكي يؤمّن لسيادته دفنة مكرّمة، يشارك فيها أبناء الأبرشيّة وكلّ من يجب دعوته من السلطات الروحيّة والمدنيّة والزمنيّة.

بعد ساعات قليلة أخذت الوفود تؤمّ الكرسي الأسقفي في صيدا، بمن فيهم الأهل والأقارب، كما وأنّ غبطة البطريرك صفير أوفد سيادة المطران رولان أبو جودة نائبه العام، بعد أن عيّنه مدبرًا بطريركيًّا على أبرشيّة صيدا، ومعه صار تعيين مراسيم جنّاز المطرن إبراهيم الحلو يوم الإثنين الموافق الخامس من شباط ١٩٩٦ في كاتدرائيّة مار الياس في صيدا، كما جرى ختم مكتبه وغرفة نومه بالشمع الأحمر، إلى أن تصير جردة كاملة بموجب القانون لكلّ محتويات غرفة النوم والمكتب. ونقل جثمان المطران إلى الكاتدرائيّة ورفع على طاولة ظهر السبت ٣ شباط حتّى الساعة الحادية عشرة من يوم الإثنين، ساعة الاحتفال بالجنّاز

الّذي ترأسه غبطة السيّد البطريرك، وحضور السفير البابوي وعدد كبير من السادة الأساقفة من مختلف الطوائف المسيحيّة، وكهنة الأبرشيّة وسواهم من الأبرشيّات المختلفة، والرهبان والراهبات ووفود غفيرة من الأبرشيّة والجوار. بعد تلاوة الإنجيل المقدّس قرأ الخوري طانيوس الخوري برقيّة تعزية من قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني، كما ألقى غبطة البطريرك الكاردينال مار نصر الله بطرس صفير رثاءً بليغًا، عدّد فيه ما قام به المطران الراحل من أعمال جليلة في خدمة الأبرشيّة وما تحمّل من تضحيات وصلبان خلال رعايته للأبرشيّة الّتي قام بها في أيّام الحرب اللبنانيّة الّتي عانت منها الأبرشيّة كثيرًا في البشر والحجر وما زالت تعاني... بعد صلاة الجنّاز خرج موكب الجنازة من الكنيسة في شارع رياض الصلح يتقدّمه الصليب وشارات الأخويّات، الّتي جاءت من الأبرشيّة للمشاركة في الصلاة ووداع الراعي الكبير. وكانت المحلّات على جانبي الشارع مغلقة، وشاركت المدينة في المأتم المهيب، وكان الوجوم ظاهرًا على الوجوه حتّى أنّ أحدهم ردّد عاليًا في المسيرة وهو مسلم صيداوي: «اليوم انطفأت شمعة كبيرة من شموع صيدا.» ولمّا وصل الموكب إلى ساحة النجمة في وسط المدينة نقل الجثمان إلى سيّارة الموتى، وصعدت أنا فيها بينما استقلّ الكثيرون من الكهنة والمشيّعين سيّاراتهم، الّتي سارت وراء سيّارة الموتى الناقلة للنعش باتّجاه بيت الدّين. ولمّا وصل موكب الجنازة إلى بلدة كفرحيم الدرزيّة، كان الأهالي قد خرجوا إلى الطريق العام، وأرادوا أن يحملوا النعش إلى آخر البلدة لكنّنا شكرناهم واعتذرنا، ووقفنا معهم دقائق معدودة، مقدّرين لعاطفتهم النبيلة. ثمّ تابع الموكب سيره إلى دير القمر حيث كان الأهالي يتقدّمهم الصليب وكهنة الرعيّة والنوّاب، وحمل النعش على الأكف، وسار الموكب حتّى آخر البلدة وسط التراتيل الجنائزيّة وقرع أجراس الكنائس حزنًا، حتّى آخر البلدة حيث أعيد النعش إلى سيّارة الموتى، وتابع الموكب مسيرته حتّى معاصر بيت الدّين، حيث جرى استقبال كذلك على الطريقة عينها، وتابع من هناك إلى بيت الدّين فتوقّف في الساحة على قرع الجرس حزنًا، والترانيم الجنائزيّة وسار حتّى آخر البلدة، ومن ثمّ أعيد النعش إلى السيّارة، وتابعنا طريقنا إلى الكرسي الأسقفي حيث كان استقبال حاشد. وحمل النعش على الأكتاف من الساحة حتّى داخل الكنيسة حيث المنصّة، وتلي من جديد الرقيم البطريركي، وفي نهايته صار وضع البخور، ثمّ تقدّم الكثيرون لوداع الحبر الكبير الّذي كان مثالًا في

التضحية وبذل الذّات في رعاية شعب المسيح، الموكول إليه. وعندما أغلق النعش كان منظر المودّعين مؤثّرًا، وقد غصّت الحناجر بالأدعية والدموع السخينة تترقرق من العيون، كما حمل النعش على أكتاف الكهنة إلى المقرّ الأخير، حيث مدفن الأحبار الّذين تعاقبوا على رعاية الأبرشيّة. والجميع يدعون للراحل الكبير بالراحة في دار الخلود، سائلين الربّ يسوع أن يظلّ راعيًا لهذه الأبرشيّة، فيمدّها بمن يرعاها ويسوسها، وفق مشيئته القدّوسة، فتظلّ شاهدة للحقّ في هذا المحيط المختلط الّذي ينتظر من الله عناية خاصّة لكي يبقى اسمه مكرّمًا على كلّ الشفاه.

بعد الانتهاء من تلك المراسيم انتقلنا إلى الصالون حيث ألقيت قصائد تأبينيّة وتقبّلنا التعازي من جميع الوفود القادمة. وفي اليوم التالي صار قبول التعازي في المطرانيّة ببيت الدّين طوال النهار، وقد غصّ الكرسي الأسقفي بالمعزّين دروزًا ومسيحيّين، وقد أتوا من قريب وبعيد يشاركون كهنة الأبرشيّة وأقارب الحبر المتوفّي حزنهم وأسفهم على فقدان راعيهم الجليل.

في اليوم التالي كان استقبالٌ للمعزّين في الكرسي الأسقفي في صيدا الّذي أمّته أيضًا وفود عديدة من المدينة صيدا ومن أنحاء الجنوب كافّة، تقديرًا للخسارة الكبيرة الّتي منيت بها الأبرشيّة والبلاد. ويوم الأحد الموافق للحادي عشر من شباط ١٩٩٦ أقيم قدّاس وجنّاز لراحة نفس الراعي الجليل في مسقط رأسه وادي جزّين، شارك فيه عدد كبير من كهنة المنطقة الّذين سمحت لهم ظروفهم وخدماتهم الكهنوتيّة. وألقيت كلمة شرحت فيها ظروف الوفاة المفاجئة، وآخر ما كان لي من حديث مع سيادته، وقدّمنا التعازي لشقيقاته الثلاث، ولأبناء أشقّائه، ولجميع الأهل والأقارب، كما أقامت العائلة غداءً لجميع الكهنة المشاركين في الصلاة، بمثابة «لقمة الرحمة» في بيت الفقيد الكبير في جوّ من الحزن والكآبة مقرون بالتسليم الكلّي لمشيئة الله القدّوس.

لقد رعى سيادته الأبرشيّة بعينٍ ساهرة طوال إحدى وعشرين سنة منذ الثالث والعشرين من آب ١٩٧٥ وعُرف عهده بحروب داخليّة أدّت إلى مقتل الكثيرين من أبناء الأبرشيّة، وتهجير القسم الأكبر من أبنائها في الشوف والبقاع الغربي، والزهراني وجزّين. وظلّ واقفًا صامدًا في قلب العاصفة الهوجاء، متّكلًا على الله لاجئًا إلى العذراء مريم سيّدة الخلاص،

وقد تسلّح بسبحتها الّتي ما فارقته ليلًا ونهارًا حتّى الرمق الأخير من حياته. رحمات الله عليه.

بعد أن رحل المطران إبراهيم الحلو إلى بيت الآب السماوي أخذ السادة الأساقفة الموارنة يفكّرون بما لم يستطيعوه إبّان حياته، إذ إنّهم حاولوا سلخ قضاءي حاصبيّا ومرجعيون عن أبرشيّة صيدا في مجمع الأساقفة الملتئم في بكركي سابقًا، وضمّهما إلى أبرشيّة صور. فمانع سيادته واعترض على ذلك، وكتب إلى روما ناقلًا إليها رأيه فتجاوبت روما مع طلب المطران حلو، وأبقت الحال على ما هي عليه. ولكن بعد وفاته أعاد المجمع الأسقفي برئاسة غبطته الكرّة، ونفّذ ما كان يطالب به فسلخ الأراضي المقدّسة عن أبرشيّة صور، وحصر أبرشيّة صور في لبنان، بعد أن ضمّ إليها قضاءي حاصبيّا ومرجعيون، وفيهما ما يقارب خمسة عشر ألف ماروني. إنّما اعترض الموارنة فيهما ولم يلقَ اعتراضهما تجاوبًا لدى السلطة الكنسيّة المحلّيّة، الّتي نالت موافقة روما على ما كانت قد اتّخذته من قرار، زاعمة أنّها تريد أن تجعل من التقسيمات الإداريّة المدنيّة، أساسًا لتكوين الأبرشيّات، وتسهيلًا للمعاملات من دون أن يطبّق هذا القرار إلّا اعتباطيًّا، وفي أبرشية صيدا دون سواها من الأبرشيات. وبما أن سيادة المدبّر البطريركي قد طلب رأيي خطيًّا في التقسيمات المشار إليها للأبرشية الجديدة فقد وجهت إليه الكتاب التالي نصّه:

صاحب السيادة الحبر الجليل المطران رولان أبو جودة النائب البطريركي العام،

المدبّر البطريركي على أبرشيّة صيدا السامي الاحترام

بعد تقديم الواجب بوافر الحبّ والاحترام، وتجاوبًا مع رغبتكم في الاطّلاع على آراء كهنة الأبرشيّة وأبنائها حول مشروع إقامة أبرشيّة مارونيّة في فلسطين القديمة بجزئيها العربي والإسرائيلي، تعرف بأبرشيّة القدس، وتشمل برعايتها موارنة الخليج العربي، وإلحاق بعض أجزاء أبرشيّة صيدا الحاليّة بأبرشيّة صور العتيدة، تعويضًا عمّا تخسره من موارنة في الأراضي المقدّسة، أرفع إلى سيادتكم ما يلي من آراء واقتراحات جمعتها بعد التداول فيما بين معظم كهنة الأبرشيّة والإستئناس بأفكار مؤمنيها.

أوّلًا -إنّ إنشاء أبرشيّة مارونيّة في القدس تضمّ الأراضي المقدّسة في جزئيها العربي والإسرائيلي تعزيزًا للوجود الماروني لأمر جدير بالاهتمام والتقدير على أن يلحق الخليج العربي بأبرشيّة دمشق المارونيّة مثلًا تحاشيًا لكلّ حساسيّة عرقيّة أو إتنية أو سياسيّة ما دام الخلاف قائمًا بين العرب وإسرائيل.

ثانيًا -لقد عاشت أبرشيّة صيدا هذا القرن عمليّتي تجزئة واقتطاع: الأولى كانت سنة ١٩٠٦ عندما أنشئت أبرشيّة صور كما هي معروفة حاليًا. والثانية تمتّ سنة ١٩٧٧ لدى قيام أبرشيّة زحلة على كامل أراضي البقاع فأخذت من أبرشيّة صيدا منطقة البقاع الغربي بأكمله. والثالثة هي هذه المقترحة في الوقت الحاضر خلال ترمّل الأبرشيّة ومعاناتها الطويلة من التهجير، والتدمير، وفراغها من معظم سكّانها على سبيل المثال لا الحصر، فراغ الشوف من موارنته ما عدا رعيّة دير القمر، وإن تكن العودة قد بدأت تتحقّق بخجل وبطء لأسباب لا تخفى على اللبيب والمطّلع على دقائق الأمور.

ثالثًا -إنّ المعايير المتّخذة في تحديد أبرشيّة سواء أكانت مستندة إلى التقسيمات الإداريّة المرعيّة في الدولة، أم إلى الاستنساب المبني على تلبية حاجات الجماعة الروحيّة والاجتماعيّة تفرض ذاتها في كلّ حالٍ وآن، وإلّا وقع الإجحاف على فئة دون الأخرى.

رابعًا -إنّ إلحاق قضاءي مرجعيون وحاصبيّا بصور يكسب هذه الأخيرة خمس رعايا جديدة قائمة هي: القليعة، وجديدة مرجعيون، والخيام، وكوكبا، وحاصبيّا، وراشيّا الفخّار، إضافة إلى الموارنة المنتشرين في سواها من الرعايا المجاورة كدير ميماس وبرج الملوك وإبل السقي وبلاط حتّى يبلغ عددهم في تينك القائمقاميتين إثني عشر ألف ماروني، يقوم بخدمتهم أربعة كهنة، بينهم إثنان أبرشيّان وإثنان آخران ينتميان إلى الرهبانيّة الأنطونيّة الجليلة، وإكليريكي في غزير في سنته الخامسة، يتهيّأ للرسامة الكهنوتيّة المقدّسة هو الطالب فادي سلامة من رعيّة القليعة... ولا بدّ هنا من الإشارة إلى أنّ لأبرشيّة صيدا في فلسطين رعيّة تدعى «عين قنية بانياس». أوكل أمرها إلى مطران صور والأراضي المقدّسة.

خامسًا -تسألون يا صاحب السيادة عن الرعايا الموجودة إداريًا في قضاءي جزّين، التابعة كنسيًّا لأبرشيّة صور، فهي التالية: العيشيّة والقطراني والجرمق، وهاتان الأخيرتان مهجّرتان، ولست أعرف شيئًا عن عدد سكّانهما الموارنة...

سادسًا -أمّا فيما يتعلّق برعايا صربا وجرجوع وعزّة التابعة إداريًّا لقضاء النبطيّة، وأبرشيًّا لصيدا، فقربهما من صيدا، وانفتاحهما الطبيعي عليها، يحتّم إبقاءهما في أبرشيّة صيدا، وبخاصّة لأنّ إلحاق صربا بالنبطيّة منذ أربعين سنة تقريبًا تمّ تأديبيًّا في حينها، كما يقال، إذ كانت تابعة انتخابيًا لجزّين وتمّ فصلها عنها في عهد الرئيس كميل شمعون، لأنّها كانت ضد أحد المرشّحين النافذين آنذاك في جزّين.

أمّا الحديث عن رعايا الحجّة والعدّوسيّة والنجّاريّة الداخلة في قضاء صيدا، والمتعلّقة رعائيًّا بصور فأمرها حاصل قبل طرحه على بساط البحث.

وختامًا إذا كان لي من رأي أرفعه إلى سيادتكم فهو الرجاء إلى آباء السينودس الّذي يرئسه غبطة أبينا السيّد البطريرك مار نصر الله بطرس صفير الكلّي الطوبى، فهو التريّث انتظارًا للسلام المنشود، لأنّ المنطقة والبلاد المجاورة لا تزال في غليان وقلق على المصير، لئلّا يساء فهم كلّ تدبير جديد من قبل أبناء المنطقة، الّذي لا يزال مصيرهم السياسي والأمني مجهولًا.

صيدا في ١٧ أيّار ١٩٩٦

الخوري يوحنّا الحلو

النائب العام

مدرسة الإخوة المريميين في الرميلة

وجاءني ذات يوم سيادة المطران رولان أبو جودة المدبّر البطريركي على أبرشيّة صيدا يقول إنّ غبطته قد تلقّى كتابًا من سيادة السفير البابوي في لبنان يخبره فيه أنّ جمعيّة الإخوة المريميّين في لبنان ترغب في أن تتخلّى عن مدرستها في الرميلة قضاء الشوف، المعروفة باسم مدرسة سيّدة فاطمة للإخوة المريميّين، وهي من أحدث مدارسها الّتي كانت قد بنتها

في السنة ١٩٥٩ على أرض لا تقلّ مساحتها عن تسعين ألف متر مربّع، اشترت قسمًا منها من مطرانيّة صيدا المارونيّة، كما أنّ هذه المطرانيّة قد سمحت لها بشقّ طريق في ممتلكاتها ربطتها بالطريق الدوليّة صيدا-بيروت، من دون أن تأخذ من إدارة المدرسة ليرة واحدة لقاء تلك الطريق الّتي تبلغ مساحتها خمسة آلاف مترًا مربّعًا وذلك تشجيعًا لها وبالطبع تحسينًا لسائر الأراضي الّتي تملكها الأبرشيّة على جانبي الطريق... ولمّا أطلعني سيادة المطران أبو جودة على فحوى الكتاب الّذي استلمه غبطته من سعادة السفير البابوي، أجبت المطران أبو جودة بما كنت أعرفه عن المدرسة المذكورة وظروف بنائها، وموقف المطرانيّة الإيجابي منها. فقلت له: «إن كانوا حقًّا يريدون أن يتنازلوا عنها بشكل أو بآخر فنحن أحقّ من سوانا باستلامها، أيًّا تكن الطريقة، سواءٌ أكانت عن طريق الإجارة أو البيع والشراء، لأنّ المطرانيّة قد ساهمت كثيرًا في مشروعها». وإذ أجبته بالطريقة الّتي عرضتها الآن طلب منّي سيادته أن أعرض على غبطته ما كنت أعرفه عن تاريخ تلك المدرسة في كتاب يحمله سيادته إلى غبطته، وهكذا صار، فدبّجت كتابًا باللغة الفرنسيّة إلى غبطته الّذي ما إن اطّلع عليه حتّى شفعه بكتاب إلى سعادة السفير البابوي وأرسله إليه. إذّاك توقّف الإخوة المريميّون عن المشروع الّذي كانوا قد قرّروه، واستأذنوا السفير البابوي بتنفيذه، ورحنا نحن نعمل على المطالبة به لمصلحة الأبرشيّة، من دون أن تلقى عروضنا تجاوبًا لديهم، تخوّفًا من أن نحصل على المدرسة، استنادًا إلى ما ندّعيه من حقوق لنا عليها، ما أحبّوا أو ما راق لهم الكلام عنها...

على ذمّة الراوي

في يومٍ من الأيام وبينما كنت عائدًا من جزّين في سيارة المدبّر الرسولي سيادة المطران رولان أبو جوده وكانت الساعة على ما أظنّ حوالى الثالثة بعد الظهر وكان علينا أن نمرّ في المختاره وصولًا إلى بيت الدين قال لي سيادته: «ما رأيك بزيارة إلى الأستاذ وليد جنبلاط الآن؟» أجبته الوقت صعب، ولست أدري ان كانت الزيارة ممكنة الآن في وقت الراحة. قال علينا أن نحاول وتمّت المحاولة فاستقبلنا وليد بك ما يقارب النصف ساعة انتقلنا بعدها إلى سيارتنا المتوقفة عند أسفل درج القصر الذي رافقنا عليه وصولًا إليها فودعنا ولما وصلنا إلى الكرسي في بيت الدين ترجّلنا من سيارة سيادته وقبل أن يودعني عائدًا إليها

أسرّ إليّ قائلًا: «لماذا وليد بك يطالب بك مطرانًا على الأبرشية: لماذا لم تسأله مباشرة سيادتك؟» وانتهى لقائي به ذلك النهار...

لكن ما رفضوا القبول به آنذاك عادوا بعد سنتين إلى التفاوض بشأنه على أساس استئجار المدرسة على حالتها الحاضرة الخالية من كلّ أثاث، المحتاجة إلى إصلاح وترميم بما يزيد على مئات ألوف الدولارات. وتمّ الاتّفاق بعد عدّة مفاوضات مع السلطة المحليّة الموجودة في لبنان، ومع الرئيس العام الموجود في روما، على أن تستأجر المطرانيّة المدرسة وترمّمها على نفقتها لمدّة ثلاث عشرة سنة قابلة للتجديد وفقًا للشروط التالية وهي:

السنة الأولى مجانيّة، وبدءًا من السنة الثانية تدفع المطرانيّة خمسة وثلاثين ألف دولار /٣٥٠٠٠ د/ على أن تزيد قيمة الإجارة سنويًا عشرة آلاف دولار حتّى السنة الثالثة عشرة. وبعد أن تمّ التفاوض على الشكل الّذي تكلّمنا عنه، إذا بالسلطة المحليّة ليلة التوقيع بالذات، تتراجع وتحدّد مدّة الإجارة بتسع سنوات فقط، إذّاك رفضت المطرانيّة هذا الاقتراح لأنّ الجمعيّة أخلّت بتعهّدها. ولا تزال المدرسة المعروفة بمدرسة سيّدة فاطمة للإخوة المريميّين في الرميلة خاوية خالية من كلّ شيء، تتداعى تحت العواصف والأشتية وحرّ الصيف وقرّ الشتاء، يشغل منها قسمًا أو جناحًا لا بأس به الجيش اللبناني منذ سنوات... وهذه هي قصّة تلك المدرسة الّتي أدّت لأبناء المنطقة والجوار خدمات جلّى تذكر بالخير فتشكر عليها ويا ليتها استمرّت...

نعود إلى الأشهر الّتي تلت وفاة المثلّث الرحمة المطران إبراهيم الحلو وسبقت انتخاب المطران الجديد: وفيها كان المطران رولان أبو جودة مدبّرًا بطريركيًّا، عهد إليّ بمهام النيابة العامّة، وفيها طلب منّي أن أعهد بإدارة مدرسة مار الياس في صيدا، الّتي توقّفت سنة قبل أن تلغى إجازتها، إلى الخوري عبدو أبو كسم، فامتثلت للطلب وقدّمت له المطرانيّة عشرة ملايين ليرة لبنانيّة بأمرٍ من سيادة المطران أبو جودة لإعادة فتحها. كما كانت المطرانيّة في عهد المثلّث الرحمة المطران إبراهيم الحلو قد باشرت ببناء مدرسة جديدة في بلدة درب السّيم على أرض يملكها وقف السيّدة المحلّي. وبعد سنوات افتتحت أبوابها لاستقبال الطلّاب الّذين بلغ عددهم الخمس ماية طالب وطالبة وما فوق، حتّى الصفوف الثانويّة الّتي أجيز لها أن تفتحها. وهي اليوم على ما أظنّ تؤدّي خدمات جلّى

على صعيد التربية والتثقيف، آخذة بالاعتبار أحوال الأهالي الاجتماعيّة في هذه الظروف الصعبة الّتي يعاني فيها المواطنون من ضيق في اليد والمعيشة.

أمّا الإعداد لانتخاب الخلف للمقام الشاغر بوفاة المطران إبراهيم الحلو، فقد بلغ أشدّه وقد قدّم كهنة الأبرشيّة عريضة بهذا الشأن قدّموها لغبطة السيّد البطريرك مار نصر الله بطرس صفير، يتمنّون عليه وعلى أساقفة المجمع السامي احترامهم انتخاب أحد الكهنة الثلاثة مطرانًا للمحلّ الشاغر في الأبرشيّة: المونسنيور يوحنّا الحلو والخوري طانيوس الخوري والخوري ريمون عيد، علمًا بأنّي أنا أحد الثلاثة قد كنت في الثالثة والسبعين من عمري، ولم يعد لي سوى القليل لأبلغ السنّ القانونيّة الّتي يتقاعد فيها الأسقف، الّذي يرعى الأبرشيّة. ويبدو كما نمي إليّ أنّه بالرغم من تقدّمي في السنّ فقد رشّحني غبطته ولكنّني لم أحظ بتأييد أكثريّة الأساقفة الناخبين. ومن بين الإثنين الآخرين نال أكثريّة أصوات المقترعين الخوري طانيوس الخوري، القيّم العام في الأبرشيّة الّذي جرت سيامته الأسقفيّة في الخامس من تشرين الأوّل ١٩٩٦ بعد ثمانية أشهر من وفاة المثلّث الرحمة المطران إبراهيم الحلو. وبعد السيامة وحفلة التنصيب للأبرشيّة ومركزه في بيت الدّين، والّتي عاد إليها بعد سنوات التهجير المريرة، يتابع العمل الرعوي والكهنوتي بكلّ أمانة وإخلاص.

المطران الجديد

كان للمطران الجديد الّذي كان عارفًا بأمور الأبرشيّة أن يكمل الرسالة الّتي ليست بسهلة، وبخاصّة لأنّ عودة المهجّرين كانت قد بدأت بكلّ ما فيها من صعوبات وتضحيات، وبكلّ ما فيها من سهر على حسن سير الأمور حفاظًا على كرامة العائدين، الّذين قد أصيبوا في صميم كرامتهم، وكان عليهم أن يعضّوا على الجرح الدامي، وينفتحوا على العيش مجدّدًا مع من ذاقوا منهم الأمرّين، كيلا يبقى بينهم من يطالب بثأر وإلّا عادت المعارك الدامية إلى سابق عهدها، وهذا ما كان يرفضه الكبير والصغير، ويسعى إلى فتح صفحة جديدة من العيش بسلام في قرى كانت الحياة فيها مشتركة بين الدرزي والمسيحي، أو بين المسيحي والمسلم، لأنّ منطقة الشوف في الأبرشيّة تضمّ موارنة ودروزًا ومسلمين. وتسهيلًا لذلك التعايش بسلام، كان على الرئيس الروحي أن يقيم بينه وبين الآخرين مدنيّين كانوا أو

روحيّين، علاقات حسنة واتصالات مباشرة، تساعد كثيرًا على إشاعة جوّ من الودّ والسلام، يفيد منه ويحاول الحفاظ عليه الكبير والصغير أيّا تكن طائفته.

تعاونت على كلّ صعيدٍ مع سيادة المطران خوري تأمينًا لرعاية أبويّة للجميع علمانيّين كانوا أم رجال دين. كما أطلقنا ورشة إعمار للكنائس في الأبرشيّة، بالرغم من قلّة الموارد، وعملنا على إعادة بعض الكهنة إلى الخدمة في رعايا الأبرشيّة، بعد أن كانوا قد غادروها رغمًا عنهم، بسبب الأحداث، إمّا إلى خارج لبنان وإمّا إلى داخله. كما أمّنا من مداخيل الأبرشيّة أو بالأحرى من المطرانيّة مبلغًا من المال كحسنات قدّاسات شهريّة، تسند، وإن لم تكن تفي بالحاجات الضروريّة كافّة. وهذا كان بفضل ما استعادته المطرانيّة من حقوق لها على مياه قناة الصفا المعروفة بقناة المير بشير، الّتي كانت الإدارة المدنيّة التابعة للحزب التقدّمي الاشتراكي قد استولت عليها، إبّان التهجير، ثمّ سلّمتها لإدارة مياه الباروك لتستغلّها كمياهٍ للشفّة وقسم منها للري. وبعد أن حرّرت المطرانيّة الأرزاق التابعة لها، إشترت أملاكًا جديدة، منها عودة من آل بستاني في دير القمر وبستان زيتون في بلدة طنبوريت جنوبي شرقي مدينة صيدا، وبستان آخر في بلدة الدبيّة، وتابعت الدعاوى المقامة ضدّ الدولة الّتي استملكت أراضي في أعالي بلدة بيت الدّين، الشوف، وأخرى على الساحل في بلدة الرميلة لشقّ أوتوستراد بيروت–صيدا الجنوب. وكان لنا على هذا الصعيد دعاوى ضدّ الدولة استمرّت سنوات، انتهت بأحكام قضائيّة، تحسّنت فيها أسعار الاستملاكات، ممّا ساعدنا على شراء بستان مساحته ٧٢٠٠٠ م٢ من الليمون المتنوّع والبلح وسواها من الأشجار المثمرة في وسط بلدة الرميلة من مالكه الآغا بأسعار منخفضة رفعت مداخيل المطرانيّة وعزّزت من وجود رعيّة الرميلة ومن حضور الكنيسة في المحيط بعد سنوات الحرب القاسية، وشجّعت المقيمين على استثمار أراضيهم زراعيًّا وسياحيًّا. وكان لهذا العمل الشرائي الّذي أقدمت عليه المطرانيّة أثر جيّد في النفوس، الّتي خامرتها موجات من اليأس من العيش في هذه المنطقة حيث أخذت فئات من لونٍ معيّن تطغى على فئات أخرى، كانت ترى فيها مزاحمة على الحضور الفاعل على أرض الآباء والأجداد.

ظلّت علاقاتنا بالجميع سليمة ومستمرّة، نتبادل الزيارات في كلّ مناسبة. وما انقطعت بالضبّاط السوريّين الّذين كانوا قد اتّخذوا لهم مقرًّا في بلدة الرميلة. وفي إحدى المرّات

على صعيد التربية والتثقيف، آخذة بالاعتبار أحوال الأهالي الاجتماعيّة في هذه الظروف الصعبة الّتي يعاني فيها المواطنون من ضيق في اليد والمعيشة.

أمّا الإعداد لانتخاب الخلف للمقام الشاغر بوفاة المطران إبراهيم الحلو، فقد بلغ أشدّه وقد قدّم كهنة الأبرشيّة عريضة بهذا الشأن قدّموها لغبطة السيّد البطريرك مار نصر الله بطرس صفير، يتمنّون عليه وعلى أساقفة المجمع السامي احترامهم انتخاب أحد الكهنة الثلاثة مطرانًا للمحلّ الشاغر في الأبرشيّة: المونسنيور يوحنّا الحلو والخوري طانيوس الخوري والخوري ريمون عيد، علمًا بأنّي أنا أحد الثلاثة قد كنت في الثالثة والسبعين من عمري، ولم يعد لي سوى القليل لأبلغ السنّ القانونيّة الّتي يتقاعد فيها الأسقف، الّذي يرعى الأبرشيّة. ويبدو كما نمي إليّ أنّه بالرغم من تقدّمي في السنّ فقد رشّحني غبطته ولكنّني لم أحظ بتأييد أكثريّة الأساقفة الناخبين. ومن بين الإثنين الآخرين نال أكثريّة أصوات المقترعين الخوري طانيوس الخوري، القيّم العام في الأبرشيّة الّذي جرت سيامته الأسقفيّة في الخامس من تشرين الأوّل ١٩٩٦ بعد ثمانية أشهر من وفاة المثلّث الرحمة المطران إبراهيم الحلو. وبعد السيامة وحفلة التنصيب للأبرشيّة ومركزه في بيت الدّين، والّتي عاد إليها بعد سنوات التهجير المريرة، يتابع العمل الرعوي والكهنوتي بكلّ أمانة وإخلاص.

المطران الجديد

كان للمطران الجديد الّذي كان عارفًا بأمور الأبرشيّة أن يكمل الرسالة الّتي ليست بسهلة، وبخاصّة لأنّ عودة المهجّرين كانت قد بدأت بكلّ ما فيها من صعوبات وتضحيات، وبكلّ ما فيها من سهر على حسن سير الأمور حفاظًا على كرامة العائدين، الّذين قد أصيبوا في صميم كرامتهم، وكان عليهم أن يعضّوا على الجرح الدامي، وينفتحوا على العيش مجدّدًا مع من ذاقوا منهم الأمرّين، كيلا يبقى بينهم من يطالب بثأر وإلّا عادت المعارك الدامية إلى سابق عهدها، وهذا ما كان يرفضه الكبير والصغير، ويسعى إلى فتح صفحة جديدة من العيش بسلام في قرى كانت الحياة فيها مشتركة بين الدرزي والمسيحي، أو بين المسيحي والمسلم، لأنّ منطقة الشوف في الأبرشيّة تضمّ موارنة ودروزًا ومسلمين. وتسهيلًا لذلك التعايش بسلام، كان على الرئيس الروحي أن يقيم بينه وبين الآخرين مدنيّين كانوا أو

روحيّين، علاقات حسنة واتصالات مباشرة، تساعد كثيرًا على إشاعة جوّ من الودّ والسلام، يفيد منه ويحاول الحفاظ عليه الكبير والصغير أيًا تكن طائفته.

تعاونت على كلّ صعيدٍ مع سيادة المطران خوري تأمينًا لرعاية أبويّة للجميع علمانيّين كانوا أم رجال دين. كما أطلقنا ورشة إعمار للكنائس في الأبرشيّة، بالرغم من قلّة الموارد، وعملنا على إعادة بعض الكهنة إلى الخدمة في رعايا الأبرشيّة، بعد أن كانوا قد غادروها رغمًا عنهم، بسبب الأحداث، إمّا إلى خارج لبنان وإمّا إلى داخله. كما أمّنا من مداخيل الأبرشيّة أو بالأحرى من المطرانيّة مبلغًا من المال كحسنات قدّاسات شهريّة، تسند، وإن لم تكن تفي بالحاجات الضروريّة كافّة. وهذا كان بفضل ما استعادته المطرانيّة من حقوق لها على مياه قناة الصفا المعروفة بقناة المير بشير، الّتي كانت الإدارة المدنيّة التابعة للحزب التقدّمي الاشتراكي قد استولت عليها، إبّان التهجير، ثمّ سلّمتها لإدارة مياه الباروك لتستغلّها كمياهٍ للشفّة وقسم منها للري. وبعد أن حرّرت المطرانيّة الأرزاق التابعة لها، إشترت أملاكًا جديدة، منها عودة من آل بستاني في دير القمر وبستان زيتون في بلدة طنبوريت جنوبي شرقي مدينة صيدا، وبستان آخر في بلدة الدبيّة، وتابعت الدعاوى المقامة ضدّ الدولة الّتي استملكت أراضي في أعالي بلدة بيت الدّين، الشوف، وأخرى على الساحل في بلدة الرميلة لشقّ أوتوستراد بيروت–صيدا الجنوب. وكان لنا على هذا الصعيد دعاوى ضدّ الدولة استمرّت سنوات، انتهت بأحكام قضائيّة، تحسّنت فيها أسعار الاستملاكات، ممّا ساعدنا على شراء بستان مساحته ٧٢٠٠٠ م٢ من الليمون المتنوّع والبلح وسواها من الأشجار المثمرة في وسط بلدة الرميلة من مالكه الآغا بأسعار منخفضة رفعت مداخيل المطرانيّة وعزّزت من وجود رعيّة الرميلة ومن حضور الكنيسة في المحيط بعد سنوات الحرب القاسية، وشجّعت المقيمين على استثمار أراضيهم زراعيًّا وسياحيًّا. وكان لهذا العمل الشرائي الّذي أقدمت عليه المطرانيّة أثر جيّد في النفوس، الّتي خامرتها موجات من اليأس من العيش في هذه المنطقة حيث أخذت فئات من لونٍ معيّن تطغى على فئات أخرى، كانت ترى فيها مزاحمة على الحضور الفاعل على أرض الآباء والأجداد.

ظلّت علاقاتنا بالجميع سليمة ومستمرّة، نتبادل الزيارات في كلّ مناسبة. وما انقطعت بالضبّاط السوريّين الّذين كانوا قد اتّخذوا لهم مقرًّا في بلدة الرميلة. وفي إحدى المرّات

وبينما كنت مع راعي الأبرشيّة المطرن طانيوس الخوري في زيارة بروتوكوليّة إلى المقدّم السوري المقيم في الرميلة، وأحبّ أحد الموجودين وهو من الطائفة السنيّة من صيدا أن يعرّف الضابط السوري بي، أجابه هذا الأخير: «أعرف عنه الكثير وأعرف أنّه صلب ولا يزال، بخلاف ما كان عليه المطران إبراهيم الحلو.»

بغض النظر عما ألمح إليه الضابط السوري، فإن هذا ما جعلني أحافظ على ما أنا عليه وما قد عرفت به الضبّاط السوريّين كما في المحيط الصيداوي المسيحي والإسلامي الّذي أعيش فيه منذ الخمسينات، ولن أغيّر من موقفي ذاك أيًّا يكن الإنسان الّذي يواجهني، لو كان عليّ أن أتعاطى معه لمرّة واحدة، أو أن أصادقه. لأنّي أجد نفسي في ذلك الموقف، بعيدًا عن التمويه والمداهنة الّتي أرفضها كلّيًّا في نفسي وفي الآخرين الّذين كانوا يجدون فيها بعض القسوة في مواجهة الغير، تتسبّب لي عن بطل أو عن حقّ بخلق مسافة بيني وبينهم، غير مقصودة وغير مستحبّة، لا تتأخّر عن أن تزول حين تتأصّل العلاقات وتترسّخ الاتّصالات مع من لا يتأثّر بالظواهر.

إنّ هذه العلاقات الشخصيّة بيني وبين الكهنة المقيمين في الأبرشيّة، أيّا تكن طائفتهم، لم تكن مرتبطة بما أنا عليه، بل كنت أتجاوزها إلى العمق إلى ما يوطّدها من تبادل الخدمات في جوٍّ من الاحترام الصافي الّذي أبى أن يشوبه أيّ كدر، لأنّ الوجه المسيحي الّذي وجب علينا أن نطلّ به على الآخرين، هو الّذي يحمل الصفاء والودّ والسلام، بعيدًا عن كلّ زغل وإلّا خسرنا الرهان في نقل حقيقة أيماننا ورسالتنا إليهم.

أحبّ سيادة راعي الأبرشيّة أن يكافئني والنائب العام في الشوف المونسينيور مارون شاهين برتبة كنسيّة اِلتمسها من غبطة أبينا السيّد البطريرك، فكانت رسالة غبطته التالية:

بطريركيّة أنطاكية وسائر المشرق المارونيّة

سجلّ التفويضات والإنعامات عدد ٩٧ /٨٣٢

بكركي في ١٨ حزيران ١٩٩٧

البركة الرسوليّة تشمل حضرة المونسنيور يوحنّا الحلو النائب العام لأبرشيّة صيدا المارونيّة الجزيل الاحترام،

طلب إلينا سيادة أخينا المطران طانيوس الخوري، مطران صيدا السامي الاحترام أن نمنحكم رتبة الخورأسقفيّة، تقديرًا منه للجهود الّتي بذلتموها في خدمة أبرشيّة صيدا، وقد كرّستم حياتكم الكهنوتيّة للقيام بهذا الواجب بما عرفتم به من غيرة وتقوى ودقّة وانضباط. وقد تعاقب عليكم مطارنة فضلاء أجلّاء: هم المثلّثو الرحمة المطران أغوسطين بستاني، والمطران أنطونيوس خريش الّذي أصبح لاحقًا بطريركًا، والمطران إبراهيم الحلو. وقد كنتم إلى جانبهم جميعًا تخدمونهم وتتفانون في سبيل النفوس في رعايا أبرشيّة صيدا وتعملون على تأمين مصلحة المطرانيّة بكلّ ما أوتيتم من فطنة وعلم وخبرة. ولا تزالون تتابعون الخدمة وتعاونون بروح كهنوتيّة أصيلة، سيادة أخينا المطران طانيوس الذي يتّكل على علمكم وخبرتكم وحسن إدارتكم لتسيير أمور الأبرشيّة بمقتضى الواجب والقانون، وهذا ما نعرفه معرفة شخصيّة. ونسأل الله أن يكافئكم عليه مزيد عافية واطّراد نجاح في خدمتكم.

وقد أثبتّم خاصّة ما تتحلّون به من صفات كهنوتيّة يوم ثقلت عليكم وعلى أبناء الأبرشيّة وطأة المحنة الّتي مرّت بكم، وبوجهٍ أخصّ يوم تعرّض الكرسي الأسقفي لما تعرّض له من أخطار، فأقمتم حيث أنتم، تواجهون المخاطر بشجاعة كبيرة مع المثلّث الرحمة المطران إبراهيم، فأعطيتم بمثلكم هذا أمثولة في الإيمان بالله وفي التجرّد والإخلاص. وقد عرفتم كيف تحافظون على علاقات المودّة والصداقة مع جميع من عايشتموه من أبناء صيدا الأبيّة وما جاورها من رعايا.

وما انقطعتم يومًا عن تغذية النفوس بما تكسرون لها من خبز الكلمة، سواء أكان قولًا أم كتابة، وقد نشرتم بالطبع غير كتاب من بينها ما يعود إلى القدّيس الكبير مار أغوسطينوس.

إنّنا تقديرًا منّا لهذه الخدمات الّتي أدّيتموها لأبرشيّة صيدا وللكنيسة المارونيّة في لبنان، وقد برهنتم معها على أنّكم على مثالِ السيّد المسيح «ما جئتم لتُخدَموا بل لتخدموا» (مر ١٠: ٤٥)، يسرّنا، في مناسبة بلوغكم الخامسة

والسبعين، واحتفالكم بعد أربع سنوات بيوبيلكم الكهنوتي الذهبي، وعيد شفيعكم القدّيس يوحنّا المعمدان أن نمنحكم رتبة الخورأسقفيّة ونخوّلكم استعمال ما يعود إليها من شارات وإنعامات، سائلين الله، بشفاعة شفيعكم والسيّدة العذراء أمّ الله، أن يكافئكم خيرًا ويطيل أيّامكم على عافية ويشملكم برضاه وبركاته.

الكاردينال نصر الله بطرس صفير
بطريرك أنطاكية وسائر المشرق

بحكم مهمّتي كنائبٍ عام في الأبرشيّة ما توانيت قطّ عن تلبية الطلبات الّتي تأتيني من أنحاء الأبرشيّة كافّة سواءٌ أكان ذلك في الليل أو في النهار، كما وإنّي لم أقفل باب المطرانيّة بوجه كلّ من يطرقه لحاجة شخصيّة أم جماعيّة، لأنّي أتحسّس حاجات النّاس وبخاصّة في الظروف الصعبة الّتي يعيشها النّاس إبّان الحرب أو بعد الحرب، حيث كانوا محتاجين إلى من يقول لهم كلمة تشجيع أو تعزية تساعدهم على الصمود إبّان المحن الّتي يعيشونها سواءٌ كانت عائليّة أم اجتماعيّة. وطبعًا لم يكن لي أن أقترح العجائب أو أن أحلّ المشكلات الّتي تعرض عليّ، إنّما وجود شخص يستمع الشكاوى ويسعى إلى حلّها يخفّف الكثير من ضغطها على من يشكو منها أيًا تكن.

على سبيل المثال، أنقل ما جاءني به ذات يوم شخص غريب عن المنطقة مرتبط بوظيفة رسميّة كان عليه أن يمارسها في أقصى الجنوب آتيًا من المتن. لقد قال لي بالحرف الواحد: «بعد سنة وأكثر عندما كنت أمرّ يا أبونا بسيّارتي أمام المطرانيّة وأجد بابها مفتوحًا كنت أطمئن وأرتاح من دون أن أتوقّف أمامها أو أدخلها وأقول في نفسي، البلد بأمان». وتلك شهادة إنسان غريب اعترفت بأهمّية الحضور في الأيام الصعبة التي عاشتها البلاد وبنوع خاص المنطقة وقد طالتا...

أنا ما أخذت فرصة في صيف أو في شتاء، وإذا اضطررت إلى التغيّب عن المطرانيّة ليومٍ واحد أو لأيّام ما كنت أقفلها بل كنت أكل الحضور إلى كاهن آخر، يؤمّن العمل كما يستقبل كلّ طارىء، فيؤمّن له مطلبه إذا استطاع أو يرجئ ذلك إلى يوم أعود فيه إلى المطرانيّة. وما كنت أطمع من خلال ذلك الدوام المستمرّ بمالٍ أجنيه أو بأجرٍ أستوفيه من

ذوي الشأن والسلطان في الأبرشيّة، بل كان ذلك عن اقتناع منّي وقيامًا برسالة أردت أن أكون لها وفيًّا أيًّا تكن الظروف والصعوبات. وآمل بعد أن أنهيت مهمّتي والدور الرسمي الّذي كان قد ألقي على عاتقي، أن يكون عملي ذاك مقبولًا عند الربّ يسوع، الّذي توخّيت خدمته من خلال خدمتي لإخوتي البشر، مسيحيّين كانوا أم مسلمين، وأردّد قائلًا: «ما طمعت بمنصبٍ كهنوتي، أو درجة أرقّى إليها، بل إرضاءً لضميري وتنفيذًا للشعار الّذي اتّخذته منذ بداية حياتي الكهنوتيّة الّذي أعلنته آنذاك مطبوعًا على الصور التذكاريّة «ستكونون لي شهودًا»، «Vous serez mes temoins»، وأرجو أن أكون أمينًا لذاك الشعار.

إستقالتي من التدريس في الجامعة

لمّا كنت مدرّسًا للترجمة في جامعة القدّيس يوسف للآباء اليسوعيّين، فرع البراميّة، منذ السنة ١٩٨٧ أي منذ تأسيس الفرع la didactique du francais، الّذي عمل على تأسيسه المغفور له الأب ماس اليسوعي، الّذي استشهد في مكتبه بالجامعة المذكورة في البراميّة سنة ١٩٨٧ فقد تقدّمت باستقالتي من التعليم في ذلك الفرع للعمل في مهمّتي في الأبرشيّة. كما طلبت من سيادة المطران طانيوس الخوري أن يعمل على المطالبة بإعفائي من العمل في رابطة كاريتاس لبنان حيث كنت رئيسًا فيها لإقليم صيدا والنبطيّة وإقليم الخرّوب منذ السنة ١٩٧٥، مقترحًا عليه تقديم اسمَي الأبوين فادي سركيس والياس نصّار. رفض سيادته إعفائي من هذا المنصب وتقديم أحد الأبوين المذكورين ليصير التعيين من الإدارة المركزيّة في بيروت قائلًا لي: «دعني من هذا الموضوع ما دام العمل في الإقليم قائمًا على أحسن ما يرام.» وأمام هذا الرفض أكملت العمل بالتعاون التام مع أعضاء المكتب وإشراف الأخت الراهبة عيدا يزبك، قبلت بمتابعة العمل حتّى اليوم الّذي لم يكن بعيدًا، وقد فوجئت أنا والأخت المذكورة المساعدة الاجتماعيّة بإعفائنا من مهمّتنا بموجب كتابٍ أرسل بالفاكس إلى مركز كاريتاس في صيدا من دون أن يقول رئيس كاريتاس لبنان الأب إيلي ماضي المرسل اللبناني، كلمة شكر لا تزيد شيئًا ولا تنقّص من قيمتنا، إنّما تبرهن عن نفسية أو خلقية من أرسلها. وممّا زاد في الطّين بلّة وقحة، أنّه لم يحضر هو شخصيًّا إلى المكتب في المركز بل أرسل مندوبًا عنه حتّى إذا ما انتهينا من التسليم والتسلّم وانصرفنا

دخل حضرته. ولكنّ مرور خمس وعشرين سنة على تأسيس كاريتاس في لبنان الجنوبي كان لا بدّ من الاحتفال به، إشادة بمن أسّسوها ومن رعوها لتكون شاهدة على المحبّة في تلك السنوات الصعبة من تاريخ لبنان.

كلمةٌ بمناسبة اليوبيل الفضّي لمؤسّسة كاريتاس لبنان في صيدا

كان مساءٌ وكان صباحٌ أفاق فيه الجنوبيّون على القذائف والصواريخ تتساقط على القرى والأحياء في المدن، فتقتل وتجرح وتهدم بيوتًا، وتحرق مزروعات لتدفع بالمواطنين إلى الهرب من أخطارها أو البقاء في أرضهم والاكتواء بنيرانها. إذّاك تنادى مطارنة الجنوب إلى لقاءٍ في دار المطرانيّة المارونيّة في صيدا في ربيع ١٩٧٢، تدارسوا خلاله الأوضاع على الصعيدين الإنساني والاجتماعي، وما يمكن أن تقدّمه الكنيسة من مساعدات تخفيفًا من آلام المواطنين ومعاناتهم، وبخاصّة أن ليس في مقدورهم أن يوقفوا الحرب. إنّما بقي عليهم بلسمة جراح المصابين بما تيسّر لديهم من أساليب. وللحال استعانوا بالأخ اليسوعي إيلي معماري صاحب الخبرة، والباع الطويل في معالجة أمثال تلك المآسي الّتي يعاني منها الجنوب، فأقرّوا بالإجماع تأسيس رابطة كاريتاس لبنان الجنوبي، واستصدروا لها من الحكومة علمًا وخبرًا، واتّخذت لها مقرًّا في المبنى التابع للمطرانيّة المارونيّة في صيدا، شارع رياض الصلح، البوّابة الفوقا، حيث لا تزال منذ ذلك الحين.

وأنشئ في المبنى مركز صحّي اجتماعي، وتعاقب على إدارته عدّة راهبات ينتمين إلى جمعيّات رهبانيّة: راهبات المحبّة، وراهبات القلبين الأقدسين، وراهبات مار يوسف الظهور، كما يضمّ جسمًا طبيًّا متنوّع الاختصاص. تتأمّن الخدمة فيه على مدى الأسبوع من دون انقطاع، برغم ظروف الحرب. وقد تطوّر العمل فيه إلى الأفضل والأشمل، فافتتح فيه مركز طبّ الأسنان، يمتدّ فيه العمل في بعض الأيّام حتّى الرابعة مساءً.

وفي الطبقة الثانية من المبنى مركز إداري اجتماعي يستقبل النّاس المسؤولون فيها، فيستمعون إليهم، ويحاولون التجاوب مع مطاليبهم المحقّة، بقدر ما

تسمح لهم إمكانات المركز الماديّة، حتّى إذا لم يستطع إسداء الخدمات المطلوبة يحاولون الاتصّال بالمؤسّسات والجمعيّات الأخرى وفقًا لنوع الحاجات المطلوبة. ومنه تنطلق الهبات والمساعدات والقروض على أنواعها من مدرسيّة، وجامعيّة وطبيّة وتنمويّة وإسكانيّة، وما سواها الّتي ترسلها إليه كاريتاس المركزيّة بعد درسها وإقرارها... وأمّا الدوام فيه فلا يحدّه توقيت معيّن، وكان يستمرّ حتّى ساعات متأخّرة من الليل ويبدأ مع الصباح الباكر ولاسيّما في أوقات الطوارئ. يتعاقب على التعاون مع القيّمين على العمل أفواج من المتطوّعين والمتطوّعات الّذين ما تخلّوا عن الخدمة في أشدّ الظروف خطرًا وأكثرها حرجًا، ولا نزال نذكر تضحياتهم بالفخر والإعجاب...

حملت كاريتاس لبنان الجنوبي عبء المساعدات في لبنان الجنوبي حتّى سنة ١٩٧٦، وعندما تأسّست كاريتاس لبنان شملت خدماتها أجزاء الوطن اللبناني كافّة، بعدما عمّت الحرب لبنان بأسره.

فإلى مؤسّسي كاريتاس لبنان الجنوبي الّذين أصبحوا في ذمّة الله لينالوا عند ربهم حسن الجزاء، آمنين مطمئنّين تحيّة إجلال وإكبار، ممّن تسلّموا الوديعة عنهم، كما أحيّي بفخر واعتزاز من على مذبح الربّ العاملين ليل نهار في هذا المجال الحاملين على أكتافهم أثقال همومهم وشجونهم، الّذين يتفانون في الخدمة، وفي ابتكار الأساليب لمساعدتهم على تأمين العيش اللائق وتجاوز صعوبات الحياة.

لست أغالي إن قلت إنّهم تحمّلوا غير مرّة خطر الموت أو الخطف قيامًا بما اعتبروه خدمة إنسانيّة مقدّسة، من دون أن يثنيهم عن هذا الواجب تهديد ووعيد، وهم ذاهبون لنجدة عائلة تستغيث أو قبضة من المواطنين صمدت على أرض المعركة، فكانت خميرة فاعلة في عجين عودة المهجّرين إلى الديار الّتي نزحوا عنها قسرًا.

في اللغة العسكريّة تقدير للجندي المجهول... وفي هذا الإقليم من كاريتاس لبنان أكثر من جنديّ مجهول، قد يجهله النّاس، العامّة منهم والخاصّة، أو قد يتجاهلونه، إنّما هم معروفون عند ربهم، وأعمالهم معروفة لديه، والطوبى

كلّ الطوبى لمن كانت مكافأته عند الربّ من دون سواه، لأنّه وحده يحسن الجزاء لمستحقّيه...

أيّها الأحبّاء،

إنّها لمحةٌ تاريخيّة من تاريخ كاريتاس في هذه المنطقة قد يجدها البعض طويلة، غير أنّي أجدها خاطفة لا تعبّر بالتمام عمّا يحصل في هذا الساحل الشوفي، وقضاءي صيدا والنبطيّة، وجزء من قضاء جزّين، فيبقى عليكم أن تتعرّفوا على ما تقوم به من نشاطات بأنفسكم، لتعرفوا مدى معاناتها... كاريتاس هي لكم ومنكم... ولا تزال رغم سنّها الخامسة والعشرين غرسة طريّة العود... كونوا لها القوّة في رعاياكم... بكم تكبر وتقوى وبدونكم تضعف وتموت... ساعدوها لتظلّ وجه الكنيسة المشرق في لبنان، به تطلّ على الإنسان، كلّ إنسان، فتعزّي وتؤاسي وتنعش الأمل في النفوس الكسيرة... ساعدوها لتظلّ قادرة على البناء والتنمية في مجتمعنا الّذي يمرّ في ضيق خانق... وأخالكم تجيبون: من أين لنا أن نساعد ونحن لم ننهض بعد من الخسائر الّتي حلّت بنا من جرّاء التهجير؟... هذا صحيح، ولكن إن تشابكت أيدينا، وتضافرت جهودنا، فما لا يقوى عليه أحدنا منفردًا، يقوى عليه الكلّ متّحدًا. وربطة خبز في الشهر لا تزيد الفقير فقرًا إذا قدّم ثمنها بل ترفع من مستواه هذا إذا تبنّى الفكرة والتزم بها الجميع بدقّة وانتظام... أمّا الغني الميسور فمن نعم الله عليه يجود.

إليكم أوجّه ندائي هذا، أنتم الحاضرين معنا، المشاركين في هذه الذبيحة الإلهيّة الّتي أقدّمها على نيّتكم... كونوا لها رسلًا فاعلين في محيطكم، لأنّها تعتمد عليكم بعد الله، ثقوا بها حتّى إذا نالت ثقتكم، وأظنّكم لا تبخلون بها عليها، انتعشت واندفعت بقوّة في الخدمة، ونفحت في قلوبكم الرجاء بغد أفضل، يهيمن فيه السلام والأمان والازدهار.

ومن حسن الصدف وأقدسها أن نبدأ احتفالاتنا اليوبيليّة في شهر آذار المكرّس لتكريم مار يوسف وفي اليوم الثاني لعيده، وهو القدّيس الّذي أقامته العناية الإلهيّة مربيًّا للطفل الإلهي وحارسًا له. وثروته الوحيدة، كلّ ثروته اتّكال

على الله وتسليم كلّي لمشيئته. ولنا في حياته عبرة ومثل، وفي شفاعته ضمانة أكيدة لنجاح كاريتاس في رعاية شؤون الإنسان كلّ إنسان في مجتمعنا اللبناني.

فيا أيّها القدّيس العظيم علّمنا أن نرتمي مثلك بين يدي العناية الإلهيّة عندما تتفاقم الأخطار علينا وتتعاظم الصعاب في طريقنا.

إعتراض وتشويش

كان لتصرّف الأب إيلي ماضي ذاك الوقع السيّء على نفوس أبناء المنطقة، فصار احتجاج في المطرانيّة لدى المطران طانيوس الخوري، الّذي تنصّل من كلّ ما جرى مظهرًا استياءه من الطريقة الّتي جرى فيها الإعفاء والتعيين، ولكنّه رفض الاحتجاج أو مراجعة المسؤولين. وأمام هذا الموقف تنادى الكثيرون من صيدا ومغدوشة، وقاموا بزيارة إلى الصرح البطريركي في بكركي، حيث أظهروا استياءهم ممّا جرى، ولسوء الحظ فقد كان اللقاء عاصفًا، في حين أنه كان يحتاج إلى كثيرٍ من التروّي. وإذ لم يلقوا تجاوبًا من غبطة السيّد البطريرك خرجوا منفعلين نادمين على قيامهم بتلك الزيارة الّتي كنت قد نصحتهم بإلحاح بعدم القيام بها. إنّ هذه الزيارة الّتي رفضتها بشدّة وكنت معترضًا على القيام بها، تركت أثرًا سيّئًا في نفوس جميع القائمين بها ولا يزالون يذكرونها بكثير من الندامة والغضب.

هكذا انتقل الإشراف على المكتب إلى آخرين وبدأ المركز الصحّي الاجتماعي في التقهقر بعد أن تسلّمت إدارته إحدى السيّدات من آل الصغبيني فأساءت إدارته والإشراف عليه والتصرّف مع الأطبّاء والمرضى الذين يؤمّونه. وجاءتني ذات يوم إلى مكتبي في المطرانيّة تطلب الانتقال من الطابق الذي يشغله كاريتاس كمستوصف منذ ثلاثين سنة تقريبًا إلى الطابق الأرضي في البناية، لكون المطرانيّة هي الّتي قدّمت طابقًا للمستوصف وطابقًا للمكتب وسواه من الموظّفين، مدّعية أنّ الطابق عالٍ ويصعب على المرضى أن يصعدوا إليه، ولهذا فقد بدأ العمل فيه يخفّ كثيرًا، ولم يعد المكان يفي بالمرام، فأجبتها: «هذا الطابق موضوع في خدمة المستوصف منذ السنة ١٩٧٢، وقد وصل عدد المرضى الّذين يؤمّونه سنويًا عاليًا جدًا... أرجوك أن تذهبي والمسؤولات معك وأن تفحصي ضميرك، وادرسي الأسباب الّتي جعلت هذا العدد يخفّ لنرى هل أنّ هذا التأخّر ناتج عن سوء

المعاملة، عن الأدوية، أم عن أيّ شيء سواه ثمّ نرى معًا الحلول الواجب اتّخاذها...»
وذهبت السيّدة المذكورة ولم تعد، وعلمت بعد شهور، وبعد أن تغيّرت الإدارة العليا في رابطة كاريتاس لبنان، أنّ السيّدة قد نقلت إلى مركز آخر في مدينة صور، واستلمت إحدى راهبات مار يوسف الظهور إدارة المستوصف التابع لكاريتاس لبنان، بعد أن تمّ نقله إلى مكان آخر في المدينة... وفي بناية تملكها مطرانية الروم الكاثوليك وعلى مقربها منها.

وانتهت مدّة رئاسة الخوري إيلي ماضي على رئاسة كاريتاس لبنان، وجرت انتخابات جديدة نجح فيها الأب لويس سماحة، وهو راهب ينتمي إلى الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة، فراح يعمل بكلّ قواه على تحسين أوضاع الرابطة الّتي كانت قد تردّت بعض الشيء. وإذ رأى الأب سماحة وبعض معاونيه في المركز الأساسي أنّه من الضروري إعادة الاعتبار للعاملين في كاريتاس، بعد أن عوملوا بجفاء وقلّة احترام من قبل المشرف السابق على كاريتاس لبنان الأب إيلي ماضي، طلب من سيادة راعي الأبرشيّة المطران طانيوس الخوري أن يرئس قدّاسًا شارك فيه حضرته، وبعد أن ألقى كلمة تكلّم فيها بإسهاب عن خدمات كاريتاس منذ تأسيسها في الجنوب وعن تضحيات المشرفين عليها المنسينيور يوحنّا الحلو والأخت عيدا يزبك مما يزيد على العشرين سنة في أشدّ الظروف صعوبة وهي سنوات الحرب الإسرائيليّة والتهجير، سلّم كلًّا منّا درعًا تكريميّة لما قدّمناه من خدمات إلى المواطن على اختلاف مذهبه ودينه. وفي أثناء القدّاس الإلهي تقدّمت بكلمة شكر داعيًا للرابطة بالمزيد من النشاط والتقدّم في خدمة الإنسان كلّ إنسان في الجنوب وعلى صعيد لبنان.

اعترافًا بما قمت به طوال المدّة الّتي كنت مسؤولًا فيها عن رابطة كاريتاس لبنان في صيدا والجنوب، فقد أقامت بلديّة صيدا لقاءً تكريميًّا لجميع الّذين عملوا وما زالوا يعملون على الصعيد الإنساني، ويقدّمون خدمات اجتماعيّة، وقدّمت خلاله دروعًا تذكاريّة لجميع الّذين كانت لهم نشاطات في الحفل الّذي أقامته في دار البلديّة برعاية وحضور وزير الشؤون الاجتماعيّة وكنت من بين المكرّمين، حيث التقيت وجوهًا عديدة ممّن جاهدوا في ذلك الحقل الاجتماعي الانساني. صحيح أن الإيمان بأن يعمل الإنسان تجاوبًا مع إرادة من خلقه وعلّمه بالمثل وبذل الذّات، لكي يحبّ أخاه الإنسان الآخر، ويقيله من عثرته، وجميل جدًّا هو ذاك العمل ولكن الاعتراف بالجميل هو أيضًا ضروريّ وحافز لمتابعة العمل

في ذاك المجال، لأنّ السيّد المسيح له المجد، سأل أيضًا في إحدى المرّات عمّن أحسن إليهم ولم يجد بينهم سوى واحد فقط عاد ليشكره...

حفلة تكريميّة وتوقيع كتاب

لمّا كنت قد دأبت على نشر مقالات دينيّة واجتماعيّة في بعض المجلّات، وبخاصّة في جريدة النهار اليوميّة. ولمّا كنت قد حفظتها مع تاريخ نشرها أحببت أن أعيد نشرها في كتاب تحت عنوان: «كلمات كان لا بدّ منها» لتبقى محفوظة في خدمة من يهوى القراءة والمطالعة والوقوف على بعض مواقفي من محطّات دينيّة واجتماعيّة في حياتي الكهنوتيّة، فقد جمعتها في كتابٍ سبق وذكرت عنوانه آنفًا. ولمّا علم أصدقائي بما أقدمت عليه طلبوا منّي بالحاح أن أقدّمه إلى الجمهور وأوقّعه كما يفعل الكثيرون. وتردّدت قبل أن أقوم بما طلبوه منّي، وبعد أخذ وردّ والاتّصال بمن خبروا هذا الأمر، وضرورة التجاوب مع الدّاعين إلى حفل توقيع وكانوا قد استحصلوا لي من فخامة رئيس الجمهوريّة العماد إميل لحّود على وسام الأرز من درجة فارس، ليجمعوا بين حفل التوقيع على الكتاب وتعليق الوسام، إذّاك لم يبقَ لي سوى القبول بما عرضوه عليّ. فاتّصلت بإدارة فرع الجامعة اليسوعيّة في البراميّة بغية إقامة الحفلة في القاعة الخاصّة بالجامعة، فرحّبت الإدارة واتفقت معها على موعد وتوزّعت الدعوات على هذا الأساس. ومثّل فخامة الرئيس الدكتور ميشال موسى وزير الشؤون الاجتماعيّة آنذاك، الّذي علّق الوسام المذكور بحضور أساقفة ونوّاب حاليّين وسابقين، وحشد كبير من الكهنة والراهبات والمواطنين الّذين غصّت بهم القاعة المذكورة. وكان المتكلّمون الخطباء: العلّامة السيد محمّد حسن الأمين قاضي الشرع لدى الطائفة الشيعيّة الكريمة، والوزير السابق الأستاذ إدمون رزق، والقاضي الرئيس الأستاذ الياس عيد، وانتهى الاحتفال في القاعة بكلمة شكر ألقيتها، وضمّنتها لمحة خاطفة عن مجيئي إلى صيدا سنة ١٩٥٣ خادمًا للرعيّة فيها وأستاذًا في مدرسة الإخوة المريميّين الّتي كانت قائمة على البوّابة الفوقا في المدينة، المعروفة بمدرسة مار لويس، والّتي انتقلت بعد سنوات قليلة إلى تلّة في بلدة الرميلة، مشرفة على الطريق الدوليّة بين صيدا وبيروت حيث عرفت باسم مدرسة سيّدة فاطمة، بعد أن اعلنت الدولة استملاكها وضمّها إلى مديريّة الآثار لإجراء الحفريّات اللازمة فيها.

هكذا كان لي أن أتابع نشاطي وخدماتي الكهنوتيّة بكلّ دقّة وغيرة لا أتراجع عن القيام بما تفرضه عليّ مسؤوليّاتي كنائب عام في الأبرشيّة، الّتي راحت تطالب بحقوق لها في استملاكات عقاريّة وضعت وزارة الدفاع يدها عليها لمصلحة الجيش، وهنالك عقارات في الساحل في منطقة الرميلة حيث كان لنا أن نعترض على الأسعار الّتي حدّدتها، وكانت متدنيّة، وأبت إلّا أن تتمسّك بها ممّا اضطرّنا إلى المحاكم الاستئنافيّة بواسطة المحامي الأستاذ الياس فرنسيس الّذي تابع الدعاوى الاستملاكيّة، فخرج منها بأحكام، أعتقد أنها كانت لمصلحة الكرسي الأسقفي. كما وأنّه حصل على أحكام ضدّ مصلحة مياه الباروك الّتي كانت قد وضعت يدها على مصلحة مياه نبع الصفا، ومياه قناة الصفا الّتي كانت تروي الأرزاق منذ الصفا حتّى آخر حيارى دير القمر، واستحصل على تعويض عن المدّة الّتي كانت قد استولت الوزارة فيها على استثمار المياه للريّ وللشرب بقيمة ثمانمئة مليون ليرة لبنانيّة لا غير. كما وأنّ المطرانيّة قد حصلت على إيجار استثمار سنوي عن مياه الريّ والشفّة بقيمة ثمانين مليون ليرة لبنانيّة. وهذا المبلغ ما كانت المطرانيّة لتحصل على مثله يوم كانت تستثمر تلك المياه سواءٌ أكان للريّ أو للشفّة... وهنا يجب أن تقال كلمة الحقّ وبجرأة وصراحة لأنّ ما نالته المطرانيّة من خلال هذه الدعوى المقامة تحصيلًا لما لها من حقوق على مياه قناة الصفا المستعملة للري وللشفة، هو ما يجب أن تشكر عليه المحامين الّذين أقاموا الدعوى، ورافعوا فيها ولاحقوها وصولًا إلى تلك النتيجة الممتازة الّتي ما عرفت مثيلًا لها منذ أن تسلّمتها، من قبل، من مائة وأربعين سنة تقريبًا...

ها هي المطرانيّة الآن تدرس ما يمكن وما جرى من تعديات في جوار قصر المير أمين على أرزاق الكرسي المحيطة بالقصر، بعد أن أجرى بمسح شامل، تحديدًا لما تمّ استملاكه في هذا المجال من قبل الدولة، وما حصل من تعدّيات على أملاك الوقف بغية الوقوف على حقيقة الأمر، وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه واسترداد حقوق الوقف العقارية كاملة، صيانة من كلّ تعدٍّ مقصود أو غير مقصود. وهذا الموضوع كان يجب بتّه منذ أن قام القصر وتجدّد وأصبح مركزًا مرموقًا بين الفنادق في لبنان، يؤمّه السيّاح من الداخل والخارج وبنوع خاص في أيّام الصيف، وحينما تقام في القصر المهرجانات والخفلات الغنائيّة والموسيقيّة الّتي يشارك فيها مغنّون وموسيقيّون لبنانيّون وأجانب.

الفصل التاسع عشر

نهاية المرحلة الإسرائيلية

إنّ بقاء الجيش الإسرائيلي في جزء من لبنان، وبقاء جيش لبنان الجنوبي على تحالف معه، لم يضع حدًّا للتفجيرات الّتي باتت تلاحق الجنود في سيّاراتهم، وإن كانت مصفّحة، وما كان ينقضي يوم إلّا ونسمع فيه أنّ لغمًا قد انفجر تحت سيّارة على الطريق العامّة من المنطقة الفلانيّة، أوّ أنّ لغمًا آخر قد انفجر بآخر وهو يقوم بعمل أو يصلح خطًّا كهربائيًّا. وأظنّ من دون أن أكون واثقًا من الأمر أنّ الخيانات لم تكن ببعيدة عمّن هم داخل المنطقة سواءٌ أكانوا مجنّدين أم لا، لأنّ المال يعمي العيون، ويطمس على الضمائر فيستهوي النفوس الضعيفة وتقع في ما كان ينصب لها من فخاخ، تصطاد الكثيرين من الأبرياء الّذين دخلوا في الجيش الجنوبي، ليؤمّنوا معيشتهم بعد أن سدّت بوجوههم أبواب الرزق، وطرق العيش ولاسيّما أولئك الّذين هجّرتهم الحروب من قراهم ومناطقهم، وقذفت بهم إلى أماكن لا مسكن لهم فيها ولا أرض يستنبتونها الرزق لهم ولعيالهم... ولم يجدوا بابًا يدخلونه تحصيلًا لقوتهم سوى الانخراط في الجيش، علمًا بأنّ ذلك لم يكن تأييدًا لإسرائيل ولا لسياستها المتّبعة في لبنان. وهذا هو السبب الّذي لم يأخذه بالاعتبار القضاء العسكري الّذي راح يقاضي هؤلاء لكونهم عملاء للجيش الإسرائيلي بعد عودتهم إلى لبنان. وهو نوع من الظلم الذي لحق بالكثيرين ممّن عادوا إلى الأراضي اللبنانيّة ولا يزال سيفًا مسلطًا على أعناق المقيمين في إسرائيل الّذين يريدون الرجوع إلى لبنان ويخشون الأحكام الّتي سوف تصدر بحقّهم على مثال من حوكم وأودع السجن للأسباب ذاتها.

الأوضاع في جزّين في غليان

نقلت جريدة النهار في عددها الصادر يوم السبت في ٢ آب ١٩٩٧ خبرًا عن مصادر موثوق بها، على حدّ قولها، أنّ المخابرات الإسرائيليّة استدعت قبل أيّام كاهن رعيّة جزّين الأب ريمون عيد إلى مرجعيون وأخضعته لتحقيق مطوّل، تركّز على مواقفه الوطنيّة ودعواته المتكرّرة أبناء المنطقة إلى رفض الاحتلال والعزوف عن الانخراط في «جيش لبنان الجنوبي»، ووجّهت إلى الأب عيد أسئلة عدّة حول مواقفه الّتي يعتبرها الإسرائيليّون

«تحريضيّة»، ومنها لماذا يزور البيوت ويطلب من أصحابها عدم إرسال أولادهم إلى الجيش الجنوبي ولماذا معظم أصحابه أو جيرانه يؤيّدون المقاومة؟ ولماذا يكره الاحتلال إلى هذا الحدّ؟ ويبدو أنّهم قالوا أيضًا: «المرّة المقبلة لن نخبرك عن الحضور أو نرسل أحدًا يطلبك، إذا لم تغيّر مواقفك حيالنا. وليكن في علمك وعلم الكنيسة أنّنا لن نقبل بوجود موفد بابوي جديد في جزّين، مهما كلّف الأمر. وعلمت النهار أنّ الأب عيد أجرى اتّصالات بعدد من المراجع الدينيّة الرفيعة في لبنان، وأنّ الفاتيكان بات على علم بالأمر. ومن المقرّر أن يصل قريبًا إلى بيروت شقيق الأب عيد المطران إميل عيد المعتمد البطريركي الماروني في الفاتيكان، حتّى يكون على بيّنة من هذه الممارسات والتهديدات. « إنتهى ما نشرته النهار.

ونهار الثلاثاء في ٥ آب ١٩٩٧ جاء في جريدة النهار البيان التالي:

نفى المسؤول عن «جيش لبنان الجنوبي» في منطقة جزّين الرائد إميل نصر ما أوردته النهار السبت الماضي عن تحقيق الاستخبارات الإسرائيليّة مع كاهن رعيّة جزّين الأب ريمون عيد بما يلي: «للأب ريمون عيد كلّ احترام لدى جميع أبناء الرعيّة وجميع المسؤولين في جيش لبنان الجنوبي، وإنّني أنفي أن يكون قد تعرّض لأيّ مضايقات أو احتجاج أو استجواب. وندعو وسائل الإعلام إلى الاتّصال بالأب عيد للتأكّد من أنّ هذا الخبر المغرض ليس صحيحًا.»

وأمام هذه الأخبار المتناقلة وحول مسألة استجواب كاهن جزّين وتهديده قال السفير السابق سيمون كرم ما يلي فنقلته عن جريدة النهار المذكورة:

الخوري ريمون عيد كاهن جزّين وحبيبها، الأكثر التصاقًا بها من نفسها، شرب مع أبنائها كأس الاحتلال حتّى الوجع النفسي والشخصي، وكابد ما يكابدونه من خمسة عشر عامًا ونيّف، في البلدة وعلى الطريق والمعبر، إلى الحدّ الّذي نال من عزيمته الّتي ما نالت منها صعوبة أو محنة منذ وقف للمرّة الأولى على مذبح مار مارون قبل أربعين عامًا. معاناة الخوري ريمون وأهليه من ممارسات الإحتلال الإسرائيلي تعاد لها معاناتهم من تخلّي الدولة عنهم وانغماسها في ما يقفل أفق تحرير الجنوب وجزّين لتنصب مكانه شبح التهجير والمشاريع المشبوهة.

أصحاب الوجوه الصفراء نبشوا محنة الكاهن متباكين عليه، بعدما مرّ الأوّل من آب ومعبر كفرفالوس موصد أمام أهل المنطقة، فيما هم لم يحرّكوا ساكنًا لنصرة أهالي جزّين لدى أيّ مرجع إقليمي أو دولي. سوف ينطوي صيف آخر وسنة أخرى ومعبر كفرفالوس مقفل والدولة تتلهّى بتبادل المناورات مع أنطوان لحد، والخوري ريمون عيد وأهله في جزّين يساقون إلى غرف الإستجواب ويسامون الهوان هنا وهناك، فيما إسرائيل تتصرّف على أساس أنّ احتلالها لجزء من الأرض شرط لبقاء ما هو قائم على بقيّة الأرض. وحدهم أهل جزّين حضنوا كاهنهم المهان، يبلسمون جرحه، ويشدّون عزيمته ليبقى بينهم يمشي أمام موتاهم ويبارك أفراحهم. وحدهم يعرفون معنى وجعه لأنّه وجعهم. وحدهم يحمونه بصدورهم العارية وجباههم العالية.

ونهار الأربعاء في ٦ آب ١٩٩٧ نشرت جريدة النهار التوضيح التالي الّذي بعث به إليها الأب ريمون عيد:

تتبّعت أخبار الصحف والإعلام في هذه الأيّام وأسفت للضجّة الإعلاميّة الّتي تردّدت في مختلف وسائل الإعلام حول شخصي، حيث أنا في جزّين، وحول ما قيل أنّي تعرضت له من حدث وتهديدات، وقد تريّثت إلى اليوم الرابع بعد السبت والأحد، قبل أن أخرج عن صمتي، تقديرًا منّي أنّ الخبر وهمي عارض، وأنّ القضيّة المعروضة لا أهميّة لها ولا أساس.

أمّا اليوم وقد تفاعل الخبر وتجاوز حدود الواقع والحقيقة وكاد يربك العلاقات ويعكّر جوّ الألفة والسلام، فرأيت لزامًا عليّ أن أسرع إلى التوضيح أنّ ما ورد في جريدة النهار ليوم السبت ٢ آب ١٩٩٧ هو عار عن الصحّة جملة وتفصيلًا، وأنّ في الأمر التباسًا. ولا صحّة لما قيل من أنّي ألقيت عظة ليوم الأحد ٣ آب لأيّ دعوة للنّاس ولأي موضوع أو غرض. ولا صحّة أصلًا وتفصيلًا لكلّ ما نشر وأذيع لاحقًا في مختلف وسائل الإعلام حيال هذه المواضيع.

إنّي صادق في ما أقول وحرّ وحاسم، وأنا الّذي، بالرسالة الروحيّة الّتي أحمل، وبشفافيّة الفكر والقول والمحيّا الّتي بها أعمل، ما تعرّضت يومًا لأيّ

صدام مع أحد لأيّ فئة أو جانب كان. وقد رأيت دومًا في النّاس، أيًّا كانوا وجه الله ووجه الأخ والصديق. أمّا نهج حياتي ومسلكي فكان دائمًا أن أعمل بالصمت والخفاء، إيمانًا منّي بأنّ الله الّذي يرى الخفايا هو الّذي يجازي في العلن. وما توخّيت أن أكون يومًا «ظهورة» للشاشة والإعلام.

لذا، وفيما أشكر كلّ الذين بادروا إليّ بالاهتمام، أرجو وأدعو كلّ وسائل الإعلام، وهي المدعوّة خاصّة في أيّام القهر والسوء، إلى أن تكون الحمائم البيض، رسولة البشرى والأخوّة بين النّاس... أدعوها إلى أن تقفل تمامًا هذه المواضيع المتعلّقة بشخصي، وكأنّها لم تكن، وأرجو إلّا يكون إليها عودة لإثارة أو لتذكير. فالنّاس كفاهم اضطرابًا وكلّهم يتوقون إلى الطمأنينة والإلفة والسلام.

هكذا انتهى توضيح الأب ريمون الّذي يطلب إقفال هذا الباب الّذي فتح لسبب على غير علم منه كما يظهر، وقد اطّلعت المطرانيّة على حقيقته الّتي تناولتها وسائل الإعلام، فأرادت أن تستغلّها لغاية في نفس يعقوب، وعرضت المطرانيّة بصفتها المرجع الروحي والراعوي للأب المذكور أن تقول كلمتها في الموضوع لكنّ الأب ريمون ارتضى التوضيح الّذي أعلنه ونشرناه آنفًا كما ورد في صحيفة النهار.

نشرت الأنوار تحيّة أرسلها النائب الدكتور محمّد عبد الحميد بيضون حيّى فيها الأب ريمون وأشاد بموقفه وأعلن عن تضامنه معه بوجه الإرهاب الإسرائيلي... وجرت اتّصالات بالمطرانيّة في صيدا لعقد لقاء في صيدا حول موضوع جزّين وإعادة فتح معبر كفرفالوس على أمل أن يضمّ اللقاء وزراء المنطقة ونوّابها الحاليّين والسابقين، والمطارنة: طانيوس الخوري، وجورج كويتر، والياس كفوري. كما قام وفد من رابطة شباب منطقة جزّين برئاسة لويس أبو زيد بزيارة النائب بيار حلو رئيس الرابطة المارونيّة، وجرى معه عرض للأوضاع الراهنة.

محاولات غير موفقة

أمّا اللقاءات الّتي كانت مقرّرة من قبل الفاعليّات من جزّين ومنطقتها في المطرانيّة بصيدا فقد ألغيت منعًا لكلّ التباس بشأنها لأنّ المطرانيّة رأت في عقدها في المطرانيّة

بصيدا خروجًا على سياسة العيش المشترك الّذي كانت تدين به وتعمل على تعزيزه. ولمّا ألحّت الفعاليّات على عقدها، رفضت المطرانية الطلب، فاتّخذت مقرًّا لها في دير مار روكز للرهبانيّة الأنطونيّة ولم تأتِ بنتيجة تذكر، فرأت هذه الفعاليات أنّه من الأوفق للمصلحة العامّة إلغاؤها، لأنّها لن تأتي بنتيجة مرجوّة. وكيف لنا أن نعقد اجتماعات ذات طابع مسيحي في دار المطرانيّة. ولم نسكت عن المطالبة بإحقاق الحقّ ورفع الضيم عن المواطنين المظلومين بسبب اتهامهم بالتعامل مع العدوّ الإسرائيلي، وقد قمنا باتّصالات مباشرة وشخصيّة برئيس الجمهوريّة العماد إميل لحّود، أمّا النتيجة المتوخّاة فلم نحصل عليها ولا أولئك الّذين كانوا يعقدون اجتماعاتهم في دير مار روكز توصّلوا إلى ما كانوا يبتغون، إنّما كنّا نقيم اتّصالات جانبيّة بمديريّة المخابرات في الجيش اللبناني وبفروعها في الجنوب الّتي كانت تستمع إلى مطالبنا وتحاول قدر المستطاع لديها أن تتجاوب معنا لكون الحلّ والربط في تلك الأمور يرتبط أيضًا بالأمن السوري الّذي كان يهيمن على الأمن اللبناني ويدوزن الأمور معه، إن لم يكن أكثر من ذلك. حتّى أنّ أشخاصًا كانوا يمرّون لساعة أو لأكثر على المخابرات اللبنانيّة ثمّ يذهبون إلى بيوتهم بانتظار إجراء محاكمتهم أمام القضاء العسكري الّذي ما كان ليشدّد القبضة عليهم بل يرسلهم إلى بيوتهم وعيالهم. ولا لزوم لذكر أسماء من حظوا بالعفو التام، وكأنّهم لم يخرجوا أبدًا من لبنان. وتلك تسهيلات قام بها الجيش اللبناني مشكورًا.

لا بدّ هنا من التأكيد على أنّنا في المطرانيّة واكبنا مشروع العودة وما تأخّرنا قطّ عن الاهتمام بكلّ ما كان يعرض علينا من حالات تستوجب رعاية وتدخّلًا مباشرًا لدى ذوي الحلّ والربط عملًا بقول الشاعر:

على المرء أن يسعى إلى الخير جهده ... وليس عليه أن تتمّ الرغائب
وكم تمنينا لو تحقّ الرغائب المرجوة ولكن ... تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن

سعينا وما قصّرنا لدى القاصي والداني خدمة لكلّ محتاج أو مظلوم من دون تفرقة بين هذا أو ذاك من المواطنين أيًّا يكن دينه ومذهبه. وذاك هو ما كان يرتاح إليه ضميرنا ويطمئنّ، عندما كنّا نعود في نهاية النهار إلى ذواتنا فنرى أنّنا حقًّا كنّا فعلة عاملين بحسب ما يريد الربّ منّا وينتظر. وإنّ لأقول هذا بفخر واعتزاز، لكوني ما عشت لنفسي بل للآخرين

صدام مع أحد لأيّ فئة أو جانب كان. وقد رأيت دومًا في النّاس، أيًّا كانوا وجه الله ووجه الأخ والصديق. أمّا نهج حياتي ومسلكي فكان دائمًا أن أعمل بالصمت والخفاء، إيمانًا منّي بأنّ الله الّذي يرى الخفايا هو الّذي يجازي في العلن. وما توخّيت أن أكون يومًا «ظهورة» للشاشة والإعلام.

لذا، وفيما أشكر كلّ الذين بادروا إليّ بالاهتمام، أرجو وأدعو كلّ وسائل الإعلام، وهي المدعوّة خاصّة في أيّام القهر والسوء، إلى أن تكون الحمائم البيض، رسولة البشرى والأخوّة بين النّاس... أدعوها إلى أن تقفل تمامًا هذه المواضيع المتعلّقة بشخصي، وكأنّها لم تكن، وأرجو إلّا يكون إليها عودة لإثارة أو لتذكير. فالنّاس كفاهم اضطرابًا وكلّهم يتوقون إلى الطمأنينة والإلفة والسلام.

هكذا انتهى توضيح الأب ريمون الّذي يطلب إقفال هذا الباب الّذي فتح لسبب على غير علم منه كما يظهر، وقد اطّلعت المطرانيّة على حقيقته الّتي تناولتها وسائل الإعلام، فأرادت أن تستغلّها لغاية في نفس يعقوب، وعرضت المطرانيّة بصفتها المرجع الروحي والراعوي للأب المذكور أن تقول كلمتها في الموضوع لكنّ الأب ريمون ارتضى التوضيح الّذي أعلنه ونشرناه آنفًا كما ورد في صحيفة النهار.

نشرت الأنوار تحيّة أرسلها النائب الدكتور محمّد عبد الحميد بيضون حيّى فيها الأب ريمون وأشاد بموقفه وأعلن عن تضامنه معه بوجه الإرهاب الإسرائيلي... وجرت اتّصالات بالمطرانيّة في صيدا لعقد لقاء في صيدا حول موضوع جزّين وإعادة فتح معبر كفرفالوس على أمل أن يضمّ اللقاء وزراء المنطقة ونوّابها الحاليّين والسابقين، والمطارنة: طانيوس الخوري، وجورج كويتر، والياس كفوري. كما قام وفد من رابطة شباب منطقة جزّين برئاسة لويس أبو زيد بزيارة النائب بيار حلو رئيس الرابطة المارونيّة، وجرى معه عرض للأوضاع الراهنة.

محاولات غير موفقة

أمّا اللقاءات الّتي كانت مقرّرة من قبل الفاعليّات من جزّين ومنطقتها في المطرانيّة بصيدا فقد ألغيت منعًا لكلّ التباس بشأنها لأنّ المطرانيّة رأت في عقدها في المطرانيّة

بصيدا خروجًا على سياسة العيش المشترك الّذي كانت تدين به وتعمل على تعزيزه. ولمّا ألحّت الفعاليّات على عقدها، رفضت المطرانية الطلب، فاتّخذت مقرًّا لها في دير مار روكز للرهبانيّة الأنطونيّة ولم تأتِ بنتيجة تذكر، فرأت هذه الفعاليات أنّه من الأوفق للمصلحة العامّة إلغاؤها، لأنّها لن تأتي بنتيجة مرجوّة. وكيف لنا أن نعقد اجتماعات ذات طابع مسيحي في دار المطرانيّة. ولم نسكت عن المطالبة بإحقاق الحقّ ورفع الضيم عن المواطنين المظلومين بسبب اتهامهم بالتعامل مع العدوّ الإسرائيلي، وقد قمنا باتّصالات مباشرة وشخصيّة برئيس الجمهوريّة العماد إميل لحّود، أمّا النتيجة المتوخّاة فلم نحصل عليها ولا أولئك الّذين كانوا يعقدون اجتماعاتهم في دير مار روكز توصّلوا إلى ما كانوا يبتغون، إنّما كنّا نقيم اتّصالات جانبيّة بمديريّة المخابرات في الجيش اللبناني وبفروعها في الجنوب الّتي كانت تستمع إلى مطالبنا وتحاول قدر المستطاع لديها أن تتجاوب معها لكون الحلّ والربط في تلك الأمور يرتبط أيضًا بالأمن السوري الّذي كان يهيمن على الأمن اللبناني ويدوزن الأمور معه، إن لم يكن أكثر من ذلك. حتّى أنّ أشخاصًا كانوا يمرّون لساعة أو لأكثر على المخابرات اللبنانيّة ثمّ يذهبون إلى بيوتهم بانتظار إجراء محاكمتهم أمام القضاء العسكري الّذي ما كان ليشدّد القبضة عليهم بل يرسلهم إلى بيوتهم وعيالهم. ولا لزوم لذكر أسماء من حظوا بالعفو التام، وكأنّهم لم يخرجوا أبدًا من لبنان. وتلك تسهيلات قام بها الجيش اللبناني مشكورًا.

لا بدّ هنا من التأكيد على أنّنا في المطرانيّة واكبنا مشروع العودة وما تأخّرنا قطّ عن الاهتمام بكلّ ما كان يعرض علينا من حالات تستوجب رعاية وتدخّلًا مباشرًا لدى ذوي الحلّ والربط عملًا بقول الشاعر:

على المرء أن يسعى إلى الخير جهده   وليس عليه أن تتمّ الرغائب
وكم تمنينا لو تحقّ الرغائب المرجوة ولكن   تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن

سعينا وما قصّرنا لدى القاصي والداني خدمة لكلّ محتاج أو مظلوم من دون تفرقة بين هذا أو ذاك من المواطنين أيًّا يكن دينه ومذهبه. وذلك هو ما كان يرتاح إليه ضميرنا ويطمئنّ، عندما كنّا نعود في نهاية النهار إلى ذواتنا فنرى أنّنا حقًّا كنّا فعلة عاملين بحسب ما يريد الربّ منّا وينتظر. وإنّ لأقول هذا بفخر واعتزاز، لكوني ما عشت لنفسي بل للآخرين

الّذين كنت أخصّهم بقسط وافر من وقتي، ولا أخفي أنّي كنت أنقل ما يشكون منه على صفحات جريدة النهار في أكثر من عدد من أعدادها، حتّى جاءني ذات يوم أربعة أشخاص رأوا في ما كتبت تعبيرًا عن آلامهم وشكاويهم وبينهم مواطن شيعي، وطلبوا منّي أن أواصل الكتابة في ذاك الموضوع الّذي يمسّهم في الصميم، إذ أنّ الدولة قطعت عنهم رواتبهم قبل إصدار الأحكام بحقّهم، فباتوا في حالة من اليأس والبؤس مميتة. بيد أنّ الحملة المنظّمة ضدّ الدولة وتصرّفاتها اللاإنسانيّة وضعت على ما أظنّ حدًّا لسلوكٍ ظالم. أمّا غياب الرقابة فهذا أمر يشكو منه الجميع وبخاصّة في تلك الظروف وقد عمّت فيها الفوضى وبات كلّ شيعي ينتمي إلى المقاومة أو ادّعى الانتماء إليها يفرض نفسه محرّرًا للجنوب من العدوّ الإسرائيلي وعملائه وبطلًا يجب فرض احترامه على سائر المواطنين الّذين لم يكن لهم شرف حمل السلاح ومقاومة الإسرائيليّين وأتباعهم بنظره ونظر كلّ من دان بذاك المبدأ الّذي أزعج الكثيرين.

إجتماعٌ في دار الفتوى في صيدا

بعد الانسحاب المفاجىء للإسرائيليّين من الجنوب اللبناني، عام ٢٠٠٠ بشكل غير منتظر، وبهدوء تام، بحيث لم تجر معركة أرغمتهم على الانسحاب ولا جرى تفاوض قضى المتفاوضون فيه بضرورة الانسحاب وتحرير الأرض اللبنانيّة، جرى اجتماع في دار الإفتاء في صيدا شارك فيه رؤساء الطوائف الروحيّون وتبودلت الآراء حول الأسلوب الّذي يجب التعاطي فيه مع أبناء المناطق المحرّرة، بينما كان قد صدر عن السيّد حسن نصر الله أمين عام حزب الله تصريح يهدّد فيه بالقتل جميع الّذين تعاملوا مع الإسرائيليّين قائلًا بالحرف الواحد: «سوف نذبحهم فوق أسرّتهم»، فأثار ذاك التصريح الرعب والخوف الشديد، ليس فقط في نفوس من تعاطوا مع الإسرائيليّين وخدموا في جيش لبنان الجنوبي، بل وأيضًا في نفوس المواطنين العاديّين الّذين باتوا يخشون حربًا يشنّها من يعتبر ذاته منتصرًا في الحرب ضدّ الفئات اللبنانيّة الّتي لم تشارك في الحرب، وبخاصّة بين المسيحيّين الذين تعاونوا مع إسرائيل خلال الاحتلال الّذين يشكّلون أقليّة في مناطق معيّنه من الجنوب بين أكثريّة شيعيّة.

في ذلك الاجتماع الّذي ضمّ فقط الرؤساء الروحيّين من جميع الطوائف الدينيّة القائمة على الساحة الجنوبيّة، وبقربي أحد مشايخ السنّة وهو من صيدا، ويدعى الشيخ أحمد دالي بلطه، الّذي صار بعد سنوات مفتيًا على السنّة في صور، طرحت عليه السؤال التالي: «من المسؤول برأيكم عن أرواح العباد؟» أجاب: «الله وحده سبحانه وتعالى...» ثمّ أردف قائلًا متذكّرًا ذلك التصريح الشهير الّذي صدر عن السيّد نصر الله، إنّه لا يجوز له أن يتلفّظ بمثل ذلك الكلام. فاكتفيت بجوابه ولم أعلّق على الماضي تاركًا لسواي أن يدينه وينتقده.

جرى اتّصالٌ بمحافظ صيدا، وعرضنا عليه نحن المجتمعين القيام بجولة إلى الجنوب لنطمئن الأهالي بعد الوقوف على أحوالهم، فلم يتجاوب مع الطلب الصادر عن دار الإفتاء، إذ قيل له في القصر الجمهوري، إنّ عليكم ألّا تتعدّوا في زيارتكم مدينة صور، فرضخ سعادته للأوامر. أمّا نحن رؤساء الطوتئف المسيحيّة فقد توجّهنا إلى القرى الجنوبيّة الحدوديّة عن طريق الناقورة وصولًا إلى القليعة فمرجعيون استطلاعًا على ما كان قد جرى. وعلمنا أنّ عددًا كبيرًا بعدّ بالمئات والألوف من أبناء تلك المناطق، قد انتقلوا مع الجيش الإسرائيلي أو وراءه داخل الحدود الإسرائيليّة تاركين في نفوس الباقين حسرة وخوفًا لسنا نقوى على إزالته وفراغًا كبيرًا في القرى لم يكن أحدٌ يتوقّعه، ولا يدري كيف يكون مصير الذّاهبين والمقيمين، ولأنّ الدولة لم تأخذ مكانها في المنطقة، كان لا بدّ من فراغ ولو لوقت قصير يخشى فيه من تعدّيات على الأرواح والأرزاق. وعدنا مساءً إلى صيدا متأرجحين بين الفرح للخروج الإسرائيلي الّذي استمرّ ثماني عشرة سنة والخوف من نتائج سلبيّة ترخي بظلّها الثقيل على المواطنين المقيمين على الحدود، وبخاصّة أولئك الّذين لم يقاطعوا الإسرائيليّين، وكانوا يروحون ويعملون في إسرائيل، كسبًا لمعيشة صعب الحصول عليها فوق أرض لبنان.

عندما انسحب الإسرائيليّون وانحسب جيش لبنان الجنوبي معهم يبدو أنّ بعض الّذين كانوا يخافون على أنفسهم من شرّ يلحقه بهم الآخرون، أشار بعض المتنفّذين عليهم بأن يستسلموا إلى الجيش اللبناني أمام مطرانيّة الروم في جديدة مرجعيون، فراح الشبّان يصعدون إلى كميونات الجيش طلبًا للخلاص من الشرّ الأعظم، وإذا بالجيش يقتادهم إلى

ثكناته ومنها ثكنة في رياق وراحوا يخضعونهم لتحقيقات جديّة وقاسية ظنًّا منهم أنّهم كانوا على علاقة بالعدوّ الإسرائيلي. ومن بين أولئك الشبّان الّذين انجرّوا هكذا، شاب من كوكبا جاءني والده يشكو إليّ سوء المعاملة الّتي كان يلقاها ابنه في تلك الثكنة، باعتباره متعاملًا مع الإسرائيليّين وهو لم يعرف عنهم شيئًا، إنّما شغله كان مع قوّات اليونيفيل الدولية المنتشرة على الحدود الإسرائيليّة اللبنانيّة. وراح يطلب تدخّلًا من قبلي لدى الجيش لإطلاق سراحه لكونه كان يلاقي المعاملة السيّئة، ويذوق الأمرّين في الاستجواب الّذي كان يخضعونه له من دون أن يعرف السبب، وغالبًا ما كانوا يتّهمونه بأشياء لا علاقة له بها. وحين كان يتعب ويقع أرضًا كانوا يتركونه جانبًا. وبدوري قمت باتّصالات عدّة مع مدير المخابرات في الجنوب العميد حسن أيّوب وكان يعدني خيرًا. ولكن الشخص كان في أبلح ثمّ في بيروت. وبعد عدّة شهور جاءه مسؤول في الجيش وأطلق سراحه إذ لم يكن عليه شيء يستوجب التوقيف. وهذا نوع من مائة حادث أو أكثر يعامل بموجبه أبرياء لا ناقة لهم ولا جمل في التعامل مع إسرائيل، زجّوا بأنفسهم في سيّارات الجيش خوفًا من الفوضى الّتي توقّعوها فنالوا من الجيش الأمرّين. ولمّا أرسل إلى ثكنة صيدا اتّصل بي العميد يقول: «إنّ الشاب الّذي راجعتني بشأنه مرارًا وتكرارًا هو الآن عندي، وقد أطلق سراحه، إنّما ليس معه أجرة نقل إلى بيروت، وصدف أنّ أباه كان عندي في المطرانيّة، فأرسلته إلى ثكنة محمّد زغيب، لكي يتسلّم ابنه ويأخذه إلى بيته في بيروت. هذا نموذج تكرّر ويتكرّر مرارًا. وتدور الدائرة على الضحيّة الّتي قد تكون في أغلب الأحيان بريئة لا ذنب عليها البتّة إلّا لأنّها وقعت ضحيّة سوء تصرّف المسؤولين الّذين قلّما يحقّقون في ما يعرض عليهم، وكأنّ كلّ من يساقون إليهم مجرمين يستحقّون العقاب الّذي غالبًا ما يسبقه عذاب أشدّ مرارة من الحكم الّذي ينزلونه قضائيًّا بهم. إنّ ما سمعنا مباشرة من أصحاب العلاقة عن المعاملات الّتي يقوم بها العسكريّون تجاه من يوقفونهم لكونهم انتقلوا إلى الجانب الإسرائيلي، خوفًا من سوء المصير، إذا وقعوا بين أيدي جماعة حزب الله أو حركة أمل كان من ذلك النوع من المعاملات الّتي لا يقبل بها إنسان ويندى لها جبين الشرفاء.

تدشين المبنى الجديد لمدرسة مار الياس في درب السّيم

لمّا كانت المطرانيّة قد بنت مدرسة جديدة في قطعة أرض يملكها وقف السيّدة العذراء في بلدة درب السّيم بعد أن ضرب الطيران الإسرائيلي بناية مدرسة مار الياس في صيدا القائمة جنوبي الكاتدرائيّة ولم تعد صالحة كما أشرنا إلى ذلك سابقًا. ولمّا كان قد استعيض عن البناء الحجري القديم الّذي تهدّم بستّ غرف مصنّعة، تبرّع بها جلالة ملك السعوديّة، وظلّ التعليم قائمًا فيها على مدى سنوات وفي خلال ذلك الوقت أنجزت المطرانيّة البناء في درب السّيم، وجهّزته بما يلزم حتّى أصبح معدًّا لنقل الطلّاب إليه، وأحبّت أن تدشّنه بحضور رسميّين، مدنيّين وعسكريّين وجمهور غفير من الأهالي والأصدقاء، حيث ترأس الاحتفال سيادة المطران طانيوس الخوري راعي الأبرشيّة، وألقى كلمة، كما ألقى كلمة أخرى رئيس المدرسة الخوري عبدو أبو كسم، ولمّا كنت قد افتتحت المدرسة سنة ١٩٦٢ في البناء القديم قرب الكاتدرائيّة حيث ظلّت تعمل أكثر من ثلاثين سنة تحت إشرافي إلى أن تسلّمها الأب أبو كسم المذكور في صيدا، فقد طُلب إليّ أن أقول في الحفل الكريم معرّفًا بالمدرسة وبتاريخها قديمًا وحديثًا، لأنّها كانت على حدّ قول أحد المؤرّخين والرحّالة الإنكليزي الّذي قدم المدينة سنة ١٨٦٢، ألف وثمانمئة وإثنتين وستّين، أولى المدارس المفتوحة في المدينة لتعليم الأولاد أصول القراءة والكتابة، وهي شهادة قيّمة لما عرف به الإكليروس الماروني من شغف بالعلم ورغبة في تعليم أبنائهم وسواهم من الراغبين في الدرس القراءة والكتابة منذ أجيال في الريف تحت السنديانة وفي المدينة إلى جانب الكنيسة القائمة.

كلمتي في تدشين المبنى الجديد للمدرسة في درب السّيم

لمدرسة مار الياس في صيدا حكاية أشبه بالأسطورة: فيها قال رحّالة إنكليزي سنة ١٨٦٢، إنّها أولى المدارس قدمًا في المدينة، وفيها قال المؤرّخ منير الخوري في كتابه «صيدا عبر التاريخ» أنّها تأسّست على يدي الخوري الياس عطيّة الوكيل الأسقفي الماروني عام ١٨٥٨، ثمّ توقّفت لمدّة من الزمن لسبب أو لآخر حتّى أعاد فتحها الأب يوحنّا الحلو ١٩٦٢ في البناء القائم

جنوبي شرقي كاتدرائيّة مار الياس على شارع رياض الصلح. وها هي تنتقل اليوم من صيدا إلى ضواحيها في درب السّيم لتتابع الرسالة التربويّة الّتي تعهّدتها في منتصف الجيل الماضي... وهذا إن دلّ على شيء فعلى التزام الكنيسة واجب التربية سواء أكان في ظلّ قبّة الجرس أي في حيّ رجال الأربعين كما تحت سنديانة الضيعة الشهيرة كما في رحاب الثانويّات والجامعات الحديثة.

انطلقت المدرسة سنة ١٩٦٢ ابتدائيّة مجّانيّة بكامل الصفوف الابتدائيّة بستّين تلميذًا في سنتها الأولى تقدّم منهم إثنا عشر طالبًا من الصفّ الخامس الابتدائي إلى شهادة السرتفيكا اللبنانيّة فنجح منهم ستّة طلّاب فلم تكن النتيجة مرضيّة لا للإدارة ولا للسلطة الروحيّة المحليّة العليا... فإذا بالنشاط يزداد وإذا بنسبة النجاح تعلو حتّى تصل إلى مائة بالمائة وإذا بالأستاذ مصطفى الزعتري مدير الثانويّة الرسميّة المعروفة باسمه في صيدا يختار العشرة أو الخمسة عشر الأوائل من بينهم ويقبلهم في الصفّ المتوسّط الأوّل في ثانويّته كلّ سنة... أمام هذا النجاح بلغ عدد التلاميذ في ذلك البناء القديم ٥٥٠ طالبًا. إنّما أخذ العدد يتضاءل مع بداية الحرب اللبنانيّة، إلى أن احتلّت إسرائيل صيدا فضربت بقذائفها الميدانيّة وبطيرانها على مدى أيّام مدينة صيدا فأوقعت مئات الضحايا البريئة ودمّرت الكثير من المباني والمؤسّسات ومن بينها مدرسة مار الياس، ولم تعد متابعة العمل ممكنة في ما بقي منها وإعادة بنائها مستحيلة، لكنّ اللفتة الكريمة الّتي شمل بها خادم الحرمين الشريفين المؤسّسات التربويّة وسواها بعد الإجتياح الإسرائيلي شملت مدرسة مار الياس حيث أنشئ فوق الملعب ستّ قاعات من الخشب المصنّع «préfabriquées» تأمن فيها التعليم بقدر ما كانت تستوعب حتّى أواخر السنة المدرسيّة ٩٥/ ٩٦.

هذا بعض ما مرّت به هذه المدرسة طوال تاريخها القديم والحديث غير أنّ الروح الوطنيّة المنفتحة على الجميع الّتي عرفت بها قديمًا وحديثًا وقد استقبلت الآتين إليها من ذوي الدخل المحدود والطبقة الإجتماعيّة غير الميسورة لا فرق بين مسلم ومسيحي، جعلت ممّن يقصدونها عائلة واحدة يعيش أفرادها

متحابين، متعاونين، ومنها خرجوا إلى العالم ينهلون العلم أو يعملون حيث يتوفّر لهم العمل ويشدّهم جميعًا لى مدرستهم الأولى في صيدا حنين ما زالوا كبارًا يعبّرون عنه ومن بينهم من يحضر هذا الاجتماع وقد تبوّأوا في مجتمعهم مراكز عالية...

إنّها لمسيرة عشتها على مدى أربع وثلاثين سنة، عشتها ولا أزال أذكر كلّ واحد من تلاميذها، أذكر حلوها ومرّها، أذكر ما عانيت فيها منذ اليوم الأوّل وبخاصّة في سنوات الحرب اللبنانيّة، وأيّام الاحتلال الإسرائيلي الغادرة، أذكر سنوات التهجير والعودة، سنوات العودة البطيئة والخجول، سنوات الأمل الّذي لم يفارقني قطّ، وفيها أترقّب عودة الأمور إلى طبيعتها والحياة الاجتماعيّة إلى صفائها والوطنيّة إلى أصالتها المعهودة.

فإلى الأمام يا مدرسة مار الياس في درب السّيم، كما كنت في صيدا، للفقير قبل الغنيّ، للمعوز قبل الميسور تحضنين الجميع برفق، تحصدين ما زرعوا لك وتزرعين لهم ما سوف يحصدون، ما سوف يحصده الخلف جيلًا بعد جيل إلى أن يضمحلّ القمر... وشكرًا لكم جميعًا.

وإذ كان لي أن أبرّر نقل المدرسة من صيدا إلى درب السّيم بينما يملك الوقف المحلّي، أي وقف مار الياس ثلاثين ألف مترًا مربّعًا من الأرض في تلّة مار الياس شرقي صيدا، أحببت أن أعطي السبب الحقيقي الّذي لا يزال حتّى كتابة هذه السطور قائمًا، وقلت إنّ الجيش اللبناني قد صادر جزءًا من الأرض التابعة للوقف ولم يتراجع عن مصادرتها بالرغم من مراجعة المسؤولين عسكريّين ومدنيّين، إذّاك ثار ثائر الصديق العميد حسن أيّوب الحاضر في الصفّ الأمامي، وأحبّ أن يغادر لو لم يتدخّل أصدقاء له عديدون ويهدّئوا من روعه، ويعدوه بوضع الأمور في نصابها على حساب الحقيقة الواضحة كنور الشمس والّتي لم تعرف التجنّي على أحد في الكلام الّذي قلته. وها نحن اليوم وبعد سنوات من ذلك الاحتفال وتلك الخطبة نطالب الجيش بالتخلّي عن تلك التلّة فيجيب خطيًّا ومن خلال المراسلات الّتي تبادلناها بأنّ الجيش صادرها لأسباب أمنيّة ولا يمكنه التراجع عن مصادرتها. إنّ لفظة مصادرة الّتي وردت في خطابي، وأثارت حفيظة العميد الصديق يشدّد

عليها الجيش ولا يستحي من أن يكرّرها في تبادل الرسالات معنا، أيّ مع المطرانيّة... مع أنها أغاظت العميد في ذاك الاحتفال على غير حقّ.

جرى إقبال على المدرسة المذكورة في درب السّيم وصار البناء الجديد يضيق بالطلاّب الوافدين من كلّ حدبٍ وصوب، مسلمين ومسيحيّين حتّى أنّ الإدارة اقتلعت الغرف الخشبيّة المنصوبة في صيدا والّتي كان يجري التدريس فيها ونصبتها في ملعب المدرسة الجديدة في درب السّيم، لتضمّ قسمًا من النشاطات المدرسيّة، وراحت الإدارة تعمل مع الداخل والخارج من أجل توجيه اهتمام الخيّرين بتوسيع المدرسة وبناء طابق علوي تأمينًا للمزيد من الصفوف وتلبية لحاجات الطلاّب المتزايدة. ونجحت الإدارة في أن تجذب أنظار المؤسّسات الأجنبيّة الخيريّة إلى مساعدة المدرسة ويبدو أنّ إحداها قد خصّت المدرسة بمبلغٍ من المال لا يستهان به من أجل إضافة طبقة جديدة عليا. ولكنّ الأساس لم يكن مؤهّلًا لقبول تلك الزيادة وبعد أخذٍ وردّ صُرف النظر ولم يرق الموضوع والقرار المتّخذ الإدارة المشرفة على المدرسة، فاتّهمت المطران أو المطرانيّة بعرقلة المشروع في حين أنّ المطران استنادًا إلى الرأي الخطّي الّذي قدّمه المهندس الّذي وضع خرائط البناء الأوّل وأشرف على تنفيذها وجد أنّ الأساس القائم عليه البناء الأوّل لا يتحمّل بناءً جديدًا ما لم يدعّم من جديد ولهذا طلب صرف النظر عنه. وذاك ما لم يكن مقبولًا ومحتملًا بعد أن حكم المهندس الأساس بالتخلّي عن الزيادة الجديدة وثبّت رأيه مهندس آخر استقدمته المطرانيّة من إحدى لجان الهندسة المختصّة بتلك الدراسات، وهو من رعيّة الكنيسة التابعة للأبرشيّة في منطقة الشوف.

إنفجارٌ على باب الكاتدرائيّة في صيدا

بينما كنت مساءً عند الساعة الثامنة وعشرين دقيقة يوم الأربعاء في ١٧ تشرين الأوّل ٢٠٠١ في مكتبي بدار المطرانيّة أستمع إلى نشرة الأخبار دوّى صوت انفجار قوي، خلته تحت نافذة المكتب، فخرجت مسرعًا لأرى وأستطلع الخبر، وأبحث عن محلّ له في الساحة إذا بي أرى ثلاثة يدخلون إلى الساحة، وإذ رأوني منذهلًا أبحث عن مكانه قالوا لي إنّه وقع أمام باب الكنيسة الكبير، فأسرعت لأرى حقيقة ما جرى حيث ما زال الدخان

الّذي تصاعد من الانفجار قائمًا. ودنوت من الباب الرئيسي للكاتدرائيّة الّذي وضعت المتفجّرة إلى جانبه، وقد ظهرت عليه خدوش وسواد وعلى البلاط نوع من الزيت الناتج عن تلك المتفجّرة، الّتي قال عنها الخبراء أنّها من نوع تلك الّتي تصنّع محليًّا وتستعمل لصيد السمك، وبالطبع لم تحدث خسائر تذكر لا في الباب ولا في البلاط إنّما كان لها وقع سيّء علينا وعلى المدينة الّتي ما إن سمع عقلاؤها وزعماؤها ونوّابها بالحادث حتّى راحوا يتوافدون إلى المطرانيّة ليلًا. وبقينا نستقبل الزائرين إلى ما بعد الساعة الحادية عشرة ليلًا، كما وأنّ بعض رجال قوى الأمن الداخلي ظلّوا إلى الصباح في الساحة وخارجها، كما جاء مندوبو الصحافة يأخذون الصور مستنكرين ما جرى وأراد أحدهم مراسل السفير أن يأخذ تصريحًا منّي فقلت له:

أعجب ممّا جرى، إن أرادوا أن يرعبونا من خلال هذا العمل فإنّنا نقول لهم إنّنا هنا منذ أجيال، وتعرّضنا لأمور خطيرة لم تستطع أن تقتلعنا من هذه المدينة الّتي نحبّ أهاليها ونحترمها. وإن أرادوا من خلال عملهم انتقامًا منّا فإنّنا نعلن على الملأ بأنّنا لم نؤذِ أحدًا، وأمّا إن أرادوها رسالة من خلالنا إلى الخارج فإنّنا نقول لهم علنًا وصراحة إنّنا لسنا سعاة بريد لا لهم ولا لغيرهم وعملهم ذاك لن يزيدنا إلّا تمسّكًا وتشبّثًا بهذه الأرض.

هكذا نشرت السفير ما أعلنت عنه، كما استنكرت ما جرى وظلّ النّاس يفدون إلى دار المطرانيّة من المدينة والجنوب والعاصمة بيروت، ويستنكرون ويشجبون ما جرى، وأقلّ ما يقال فيه وعنه أنّه عمل جبان وخسيس لا يزيدنا إلّا تماسكًا وصلابة في مواجهة تلك الأعمال المنكرة والخسيسة.

واستنكرت دائرة الأوقاف الإسلاميّة في صيدا علنًا على صفحات الجرائد ما جرى. ونحن عجبنا وأسفنا شديد الأسف لما حدث لأنّ الكنيسة ما أغلقت بابها يومًا بوجه طارئ أو محتاج أو هارب أو مظلوم أو مستغيث يلجأ إليها. ولا كانت هي منذ أجيال بمن فيها من مؤمنين ومؤمنات ورعاة عامل تفرقة بين أبنائها وأبناء الجوار على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم، ولا استقوت بالغريب المحتلّ الّذي هدم وقتل وشرّد وهجّر المواطن الساكن فيها، بل وقفت بوجه كلّ من عبث بالأمن أو حاول أن يهجّر ويهدم ويقتل مستعملة ما

لديها من تاريخ نظيف وقوى معنويّة وأدبيّة يشهد لها بها الكثيرون من المواطنين. وهو مبدأ درجت عليه منذ القديم ولا تزال متمسّكة به عن قناعة وثبات، لأنّها تعي بوضوح ومسؤوليّة واجبها الوطني ورسالتها الإنسانيّة والمسيحيّة القائمة على المحبّة واحترام الآخر أيًّا يكن دينه ومذهبه وانتماؤه السياسي، لأنّه إنسان وأخ وجار تتفاعل معه في سبيل خير الوطن وأبنائه وتقدّمهم وتماسكهم في السرّاء والضرّاء.

وإذا أراد منه الجاني الاصطياد في الماء العكر وزرع الفتنة والتفرقة بين مسلمٍ ومسيحي وبخاصّة في هذه المدينة فهو خاسر، فاشل، لا محالة ولن يجني من فعلته الشنيعة سوى الخزي والعار ومن الأفضل له ولمن وراءه من خفافيش الليل أن يدع هذا السلاح جانبًا لكونه لم يجد نفعًا على حامليه لا في الماضي القريب ولا في البعيد لأنّ مسلمي هذه المدينة الّذين خبرهم على حقيقتهم المثلّث الرحمة المطران بطرس البستاني راعي الأبرشيّة سنة ١٨٦٠ وما بعد قال فيهم: «إنهم طيّبون محبّون». ولقد برهنوا عن تلك المحبّة والطيبة باتّصالاتهم السريعة وزياراتهم إلى المطرانيّة واستنكاراتهم الصادقة للذي جرى. فشكرًا للفاعل الجاني أيًا يكن الّذي وحّد القلوب على مقاومة الشرّ والإثم وأيقظ الضمائر ودفع النّاس إلى التلاقي من جديد نبذًا للفتن الطائفيّة والمذهبيّة الّتي لا يفيد منها سوى الغريب والعدو.

مع أنّ العلاقات المسيحيّة الإسلاميّة في المدينة يسودها جوّ من الاحترام المتبادل ولا يرغب أيّ طرف من الطرفين في أن يعكّر صفوها لا من الدّاخل ولا من الخارج فقد وقعت جريمة على باب أحد المستوصفات الخيريّة الّتي تديرها وتشرف عليها جماعة تبشيريّة أجنبيّة، فتحت مركزًا لها في المدينة على الطريق العام المتفرّع من شارع معروف سعد إلى جهة البحر. ويبدو أنّ شخصًا قرع باب المركز صباحًا بقصد طلب دواء وللمعالجة. ولمّا فتحت له السيّدة المسؤولة وهي أميركيّة الجنسيّة ومتزوّجة من شاب إنكليزي، أطلق عليها النار من مسدّس بيده فأرداها للحال قتيلةً وبالطبع انتشر الخبر وتناولته وسائل الإعلام وجرت اتّصالات بالسلطات الكنسيّة لمختلف الطوائف ودعينا إلى اجتماع في دارة الحريري في مجدليون حيث كان عددٌ كبير من رؤساء الطوائف المسيحيّة والإسلاميّة والجميع شجبوا ما حدث.

موقفي في اللقاء

لمّا طلب منّي الكلام شجبت بشدّة ما جرى. وهنا عدت بالذاكرة إلى ما أطلعني عليه الشيخ سليم سوسان رئيس دائرة الأوقاف الإسلاميّة من القلق الّذي بدأ يساور فئات إسلاميّة متطرّفة من تصرّفات المشرفين على ذلك المركز التبشيري الّذي بدأ يثير قلق المسلمين منه وعليه، وطلب منّي آنذاك التدخّل بما لديّ من اتّصالات للحدّ من ذاك العمل الّذي قد يؤدّي إلى ما لا تحمد عقباه على جميع الأطراف. وقمت معه بزيارة إلى رئيس المدرسة الإنجيلية في صيدا وأطلعناه على القلق الّذي يساور الصيداويّين، ولكنّ لم يلقَ تدخّله أذانًا صاغية، حتّى انتهى الوضع إلى المأساة الّتي وقعت. وبالطبع كان احتجاج وكانت مشاركة منّا في تقديم التعازي وفي الصلاة لراحة نفس الضحيّة الشهيدة. وكان لا بدّ من إعلان موقف على الملأ ممّا جرى فكانت لي هذه الكلمة التالية نشرتها في جريدة النهار في عددها الصادر يوم السبت ٣٠ تشرين الثاني ٢٠٠٢، فلقيت استحسانًا لما فيها من موقف جريء وصريح، وكانت تحت عنوان «توضيح لا بدّ منه»:

> قبل أربعة أشهر اتّصل بي هاتفيًا فضيلة الشيخ الصديق سليم سوسان رئيس دائرة الأوقاف الإسلاميّة في صيدا، وطلب أن يجتمع بي فالتقينا في دار المطرانيّة المارونيّة، حيث أطلعني على بعض ما يراود أفكار إخواننا المسلمين الصيداويّين من هواجس وقلق ممّا تثيره نشاطات إنسانيّة لجماعة مسيحيّة أجنبيّة اتّخذت لها مركزًا في أحد شوارع صيدا الجنوبيّة، لأنّها لا تخلو من توجّهات تبشيريّة تثير التململ والانزعاج لدى بعض الفئات الإسلاميّة. ومع أنّه لم يكن هو شخصيًّا مهتمًا لتلك المواقف فقد رأى أنّه من المستحسن تدارك الأمور قبل استفحالها.

وإذ لم أكن على علم بما يجري أحببنا أن نشرك في الموقف الواجب اتّخاذه في هذا المجال، الصديق الشيخ جان داوود رئيس المدرسة الإنجيليّة في صيدا. فذهبنا إليه وأفضى إليه الشيخ سليم بما يقلق باله، فاستمع إليه ووعده بإجراء الاتّصالات بالمسؤولين. ومنذ ذلك الحين لم أعد أعرف شيئًا عن الموضوع حتّى الحادي والعشرين من تشرين الثاني الجاري، حين فوجئت بالجريمة المروّعة الّتي ذهبت ضحيّتها سيّدة أميركيّة على باب

المستوصف الّذي كانت تستقبل فيه النساء الحاملات وتقدّم لهنّ المساعدات المتنوّعة والإرشادات الّتي تراها ضروريّة.

واستنكارًا لتلك الجريمة دعت السيّدة بهيّة الحريري إلى اجتماعٍ في دارتها في مجدليون شارك فيه ممثّلون للطوائف المسيحيّة والإسلاميّة في المدينة وفاعليّات مدنيّة وعسكريّة من صيدا والجوار، فشجب الجميع ذلك الحادث المؤلم الذي وقع قبيل انعقاد مؤتمر باريس ٢. ثمّ تناقلت الصحف والمجلّات ووسائل الإعلام ما جرى، وتنادى الجميع إلى استنكار ما وقع وبينهم الشاجب واللائم والمتّهم وكان كلّ واحد يعطي سببًا وتفسيرًا لما جرى. لكنّ ما جرى كان فظيعًا جدًّا وليس له مبرّر، أيًّا يكن الدافع إليه، إذ لم يؤخذ بهذا المبدأ الأساسي الذي يحكم كلّ مجتمع متنوّع المشارب والمذاهب وهو ضرورة القبول بالآخر واحترامه، أيًّا يكن بحيث لا يجوز إلغاؤه والقضاء عليه. كما لا يجوز لفئة ميسورة أن تستغلّ فقر فئة أخرى فتستعمل معها الترغيب في ما تؤمن به ولا لفئة أخرى مقتدرة في محيط معيّن أن تستقوي على فئة أخرى فتستضعفها وتفرض عليها رأيها بالقوّة وتقضي عليها. فلا استعمال القوّة والعنف مقبول ولا استعمال الترغيب كذلك مقبول. لأنّ في كلّ من الأسلوبين حدًّا من حريّة الإنسان وانتقاصًا من كرامته، والحكمة أساس الملك في المجتمع ولا بدّ منها لحسن سير الأمور في الرعيّة وقيام العيش المشترك.

لا بدّ من التوقّف بعد الحادث الأليم الّذي أودى بحياة تلك السيّدة الأجنبيّة الّتي اختارت صيدا مركزًا للتبشير، أجل لا بدّ من التأمّل بأنّ المحيط الصيداوي المسلم بالرغم من طيبته لا يقبل أن يحكى له عن دين آخر. ولا يريد، وإن وجد فرقًا بين هذا المسيحي وهذا المسلم في الحياة والسلوك لصالح الفريق المسيحي، يفضّل البقاء في ما هو عليه وفي ما ورثه عن الآباء والأجداد مردّدًا ببساطة مقولة طال ما سمعناها منهم وهي أنّ بين ديننا ودينكم من حيث الزمن ستمئة سنة. أنتم سابقون ونحن بكم لاحقون، إنّنا لأشبه اليوم بكم في الأجيال الوسطى. ولا بدّ من أن نلتحق بكم مع الوقت ونتجاوزكم. لا يمكن لمسيحي أن يواجه ذلك التفكير وتلك المقولة إلّا بعيش مسيحي وسلوك لا غبار عليه، يفرض على الرائي الغريب أن يقول ما قيل سابقًا في المسيحيّين الأوائل: «أنظروا كيف يحبّ بعضهم بعضًا». وكلّ ما هو دون ذلك فهو ضياع للوقت وإثارة للفتن الّتي نعرف كيف تبتدئ ولا ندري متى وكيف وأين تنتهي.

لنا مثل في لبنان ظاهر للعيان الّذي عرف دخول عائلة من الدروز في المسيحيّة لا عن حاجة ماديّة أو طبيّة ولا عن إغراء بمنصب معيّن بل عن قناعة وإيمان، حيث اختار الأمير أو المتنفّذ الدرزي أو السنّي ديانة أبناء رعيّته اختيارًا للأفضل واقتناعًا بها. ومن المستحسن ألّا يدعو المسيحي شريكه المسلم أو الدرزي في الوطن إلى اعتناق المسيحّة طمعًا بشيء ما أو اقتناعًا باطنيًا بالأفضل، كما فعل الأب عفيف عسيران الّذي اعتنق المسيحيّة عن نضوج عقلي وإيماني، وأحبّ أن يعيش إيمانه بالمسيح عن طريق الخدمة الصامتة والمثل الحيّ بعيدًا عن التحدّي المقيت وتحاشيًا لكلّ ما يسمّى تبشيرًا بالكلمة. لقد كان مثالًا يحتذى في التواضع والخدمة عملًا بقول السيّد المسيح «أنا ما جئت لأُخدَم بل لأَخدُم، وأبذل ذاتي عن كثيرين». ولهذا فقد أثّر كثيرًا في المحيط الإسلامي الصيداوي وفي المحيط الإسلامي العام، ولا يزال بعد وفاته يذكر بالخير ويفاخر أنسباؤه المسلمون به، وبما ترك لهم من مثل صالح بقي حيًّا في نفوسهم وفي ذاكرتهم يتناقلونه جيلًا بعد جيل. وإنّ ما أقوله وأكتبه ليس إلّا القليل القليل عن الأحاديث الّتي أسمعها منهم في مجتمعاتهم وفي زياراتهم إليّ حيث يلتقونني أنّى شاؤوا وأرادوا. وما أجمل ما يطيب لنعمة الرب أن تعمله في النفس بعيدًا عن كلّ تدخّلٍ بشري قائم عن مصلحة ذاتيّة تتنافى وإرادة الربّ القدّوس. ولهذا أرى أنّنا نحن معشر الكهنة ومعشر المسيحيّين المؤمنين الراغبين في نشر كلمة المسيح في محيطنا الصغير والكبير، إذا أردنا حقًّا أن نؤثّر في جيران لنا لا يشاطروننا إيماننا أن نكون ملح الطعام الّذي يعطيه نكهة فيجعله مقبولًا على متناوليه والنور الّذي يضيء ويفتح الطريق الآمن يسلكه طالبو الحقّ والحياة. فلا الملح يؤذي إذا كان صالحًا وموفورًا ولا النّور يزعج الباحث عن الطريق السوي بل يهدي سواء السبيل...

الفصل العشرون

زيارة البطريرك صفير إلى الشوف وجزّين

منذ أن أخذ المسؤولون في الحكومة اللبنانيّة يعملون على عودة المهجّرين إلى مناطقهم، كان للوزير وليد جنبلاط طلب على رؤساء الكنيسة وفي مقدّمهم غبطة البطريرك الكاردينال مار نصر الله بطرس صفير، أن يقوم بزيارة إلى الشوف، ليكسر الجليد الحاصل في علاقات الدروز بالمسيحيّين. وهذا ما كان قد أسرّ به إليّ غير مرّة مشدّدًا على أن تعمل الكنيسة بجدّ ونشاط على جبر ما انكسر وعلى رأب الصدع القوي في العلاقات بين المسيحيّين والدروز، لأنّ التهجير كما قلت سابقًا وردّد أمام الكثيرين جنبلاط بلسانه، غير مرّة، وأمامي، أنّ الكنيسة لم تقم بأي نشاط حتّى الآن في سبيل عودة المهجّرين، وعليها ألّا تتأخّر لأنّ التهجير خلق فراغًا لم يستطع جماعتنا الدروز أن يملأوه. والإبقاء على هذا الفراغ هكذا ليس من مصلحة أحد، وإلّا جاءت فئة ثالثة وملأته، وهذا ليس من مصلحتنا ولا من مصلحة المسيحّين. وبقي جنبلاط يعمل على هذا الصعيد إلى أن بدأت فكرة زيارة السيّد البطريرك تلوح في الأفق تحقيقًا لها.

ولمّا استقرّ عليها غبطته وأراد أن يضعها موضع التنفيذ، جرى اتّصال بالمطران طانيوس الخوري مطران الأبرشيّة، كما كان عرض لهذه الفكرة في اجتماع المطارنة في المقرّ البطريركي في الديمان، حيث كان يقضي غبطته شطرًا من الصيف وأخذت الفكرة تغزو المجتمع اللبناني، المسيحي والمحمّدي، دون أن ندري إن كانت مقبولة في معجم السياسة السوريّة الّتي تهيمن آنذاك على الحكم في لبنان. على كلّ حال لقد رأت تأييدًا عارمًا في الأوساط المسيحيّة الّتي كانت تعيش تحت ضغط رهيب من قبل السلطة السوريّة وضبّاطها العسكريّين، الّذين كانوا يفرضون إرادتهم على الحكّام اللبنانيّين ويديرون شؤون البلاد السياسيّة والأمنيّة والاقتصاديّة من خلالهم. وذاك واقع ما كان ليختلف عليه إثنان. ولهذا ما كانت تلك اللفتة الكريمة من غبطة أبينا السيّد البطريرك المنتظرة من زمن طويل إلّا لتحصّن الوفاق والعيش المشترك في الجبل، حتّى وإن لم يكن السوري ينظر إليها بطمأنينة

لأنّ كلّ ما يوحّد بين الفئات اللبنانيّة غير مقبول لدى السوريّين وحلفائهم في لبنان، الّذين لن يطيب لهم عيش إلّا إذا رأوا اللبنانيّين في خصام وتنازع عملًا بمبدأ «فرّق تسد».

إبلاغ جنبلاط بالزيارة البطريركية

ما إن بلغنا خبر الزيارة في المطرانيّة حتّى صعدتُ برفقة المطران طانيوس الخوري راعي الأبرشيّة إلى الديمان وطلب أن يرافقنا في الزيّارة الخوري عبدو أبو كسم مدير المركز الكاثوليكي للإعلام... وصلنا إلى الديمان واجتمعنا ثلاثتنا إلى غبطته وأفضى إلينا بمكنونات صدره وبما قرّره بخصوص الزيارة المرتقبة إلى الشوف، حيث يقضي يومين، يتّخذ خلالهما من المطرانيّة في بيت الدّين مقرًّا له ومنه سوف ينتقل لزيارة جزّين يستقبل الوفود الّتي تزوره على اختلاف المستويات السياسيّة والروحيّة والشعبيّة. وفهمنا من غبطته أنّ زيارته ستكون مقتصرة على جزّين في الجنوب لأنّها ذاقت الأمرّين، وكانت قد تحرّرت حديثًا من الاحتلال الإسرائيلي. وبعد أن أخذنا تلك المعلومات من غبطته، وتناولنا طعام الغداء في المقرّ البطريركي بحضور الخوري عبدو أبو كسم الّذي لم يسرّ إليه غبطته بما قد يراه مزعجًا ومقلقًا. عدنا إلى بيت الدّين نذيع خبر تلك الزيارة المرتقبة ونستعدّ في الدّاخل والخارج لاستقبال غبطته. وكانت لنا الزيارة الأولى إلى معالي الوزير وليد جنبلاط ننقل إليه خبر تلك الزيارة الّتي يقوم بها غبطته إلى جزّين، إذّاك قال جنبلاط: «إن أراد غبطته أن يشمل بالزيارة دار المختارة فنكون له من الشاكرين والمرحّبين، وإن لم تسمح له ظروفه بها فإنّنا سوف ننزل على الطريق العام ونستقبله مع الوفود على الطريق العام. وهذا استقبال لن نقبل ببديل عنه أيًّا تكن الظروف». شكرناه وعدنا إلى بيت الدّين وكان لنا اتّصال بغبطته، أطلعناه من خلاله على فحوى الزيارة الّتي قمنا بها إلى دار المختارة ليعمل من خلال ما جرى فيها وما نقلناه إليه على اتّخاذ الموقف الّذي يراه مناسبًا.

ومن ثمّ بدأنا في التحضيرات اللازمة للزيارة التاريخيّة على كلّ صعيد: منها ما هو داخلي في غرف الضيوف وفي المطبخ وصالة الطعام، ومنها ما هو خارجي ما يختصّ بالدعوات الرسميّة لمواكبة الزيارة إكرامًا للضيف الكبير وتحاشيًا لكلّ نقص يجرّ علينا النقد من الداخل والخارج. وفي تلك الأثناء نمي إلينا أنّ غبطته سوف يعرّج في طريقه على دارة

الميرِ طلال أرسلان في الشويفات وهو زعيم درزي له مكانته الحزبيّة والوطنيّة. ووصلت الأخبار إلى الفئات الثانية المؤيّدة للأستاذ وليد جنبلاط، والّتي تدور بكلّ بساطة في فلكه، فأزعجها الخبر الّذي كان صحيحًا وراحت تعمل على تفشيل الزيارة للأمير طلال، ومن بين الرافضين لها النوّاب المسيحيّون في الشوف أصدقاء وليد، حتّى إنّهم ذات يوم قدموا إلى الكرسي الأسقفي في بيت الدّين ومعهم المقدّم فيّاض وهو ضابط درزي متقاعد ينتمي إلى الحزب التقدّمي الاشتراكي وله مركز هام في الحزب.

تجاذبات كادت تطيح الزيارة

في اجتماع عقد في المطرانيّة ببيت الدّين كنت حاضرًا ومشاركًا، أثير موضوع الزيارة إلى خلدة إلى بيت الأمير طلال، فوقف النائبان جورج ديب ونبيل البستاني واعترضا بشدّة على زيارة البطريرك إلى خلدة، وبأسلوب لم يكن مقبولًا ومنتظرًا من قبل نائبين مارونيّين، وفي دار المطرانيّة المارونيّة، لم يقل المقدّم شريف فيّاض كلمة واحدة، ولا تلفّظ سيادته بكلمة، أمّا أنا فتصدّيت لما قيل بشدّة وحزم وقلت للجميع: «ما من أحد أيًّا يكن موقعه السياسي أو الطائفي أن يملي مواقف على البطريرك، ولا أن يحدّ من تصرّفاته في زيارته إلى الشوف، له ملء الحرّيّة في أن يزور من يشاء، ولا نقبل بأن تفرض عليه مواقف أيًّا يكن الشخص الّذي يفرضها.» وللحال تناول المقدّم شريف فيّاض الحديث وقال مردّدًا: «لغبطته أن يزور من يشاء، وليس لأحد أن يحدّ من حريّته في هذا المجال، ونحن مستعدون لاستقباله في دميت».

وفي تلك الأثناء نقل إلى غبطة السيّد البطريرك أنّ بعض النوّاب الموارنة في الشّوف يعترضون على مشروع الزيارة إلى الشويفات إلى قصر الأمير أرسلان، الّتي كان من بين الّذين يعملون لها سيادة المطران بولس مطر رئيس أساقفة بيروت. وأمام تلك الأخبار والتجاذبات امتعض غبطته، وتساءل عمّا إذا لم يكن من الضروري إلغاء الزيارة المقرّرة إلى الشوف. وبينما كانت الأفكار حول هذا الموضوع قيد الدرس، جرى اتّصال بالكرسي الأسقفي في بيت الدّين، وتكلّم المطران مع غبطته، ونقل إليه الحديث الّذي جرى أمامه وموقفي الحازم منه ورد المقدّم فيّاض. وهنا استفهم مجدّدًا غبطته عمّا قلتُه وعن موقف المقدّم

فيّاض والتزام النائبين المذكورين الصمت التام. وهكذا انطلقنا في التحضير لاستقبال غبطته ووضعنا لائحة بمن يجب أن ندعوهم في الكرسي الأسقفي بمعاونة الآباء المقيمين إضافة إلى المونسينيور بطرس حرفوش النائب البطريركي السابق في باريس. وهنا أحبّ النائب جورج ديب نعمة أن يتدخّل في قضيّة المدعوين إلى تناول بعض وجبات الطعام مع غبطته، فرفضت رأيه في الموضوع، وقد أبيت في ذلك التقيّد بسياسة أهل الحكم في المنطقة، الّذين كانوا راغبين في تطبيق ما يرونه موافقًا لتطلّعاتهم الحزبيّة، متجاهلين عن حقّ أو عن بطل ما للزيارة من أبعاد وطنيّة تعلو فوق ما يطمح إليه من خلالها المتزعّمون على المنطقة الّذين يدورون في فلك الزعيم الجنبلاطي وليد بك، الّذي وإن يكن على علاقة سليمة بنا إلّا أنّنا نرفض تدخله في أمرٍ هو من شأننا.

الزيارة التاريخية

تمنّينا على غبطته أن يشمل بزيارته الشوف الساحلي: الجيّة والرميلة وعلمان، ثمّ قرى إقليم الخرّوب الّتي هي في طور العودة وإعادة التعمير، لكنّه أحبّ أن تكون إلى دير القمر، طبعًا مرورًا بالدّامور ودميت وكفرحيم ودير القمر ومعاصر بيت الدّين وبيت الدّين وصولًا إلى الكرسي الأسقفي. بدأ الاستقبال الرسمي في دميت وكفرحيم ثمّ في دير القمر حيث كان الرسميّون والشعب في أوّل المدينة عند المنشيّة فسار الموكب في الشارع العام على أنغام الموسيقى وصولًا إلى الساحة العامّة ومن ثمّ تابع الموكب سيره إلى المعاصر فبيت الدّين فالكرسي الأسقفي حيث دخل كنيسة سيّدة الخلاص على أنغام ترانيم دينيّة ومزامير أنشدتها جوقة الأبرشيّة، وقرع الأجراس. وقال كلمة حيّى فيها راعي الأبرشيّة والجماهير الّتي غصّت الكنيسة والساحات بهم، ولمّا خرج من الكنيسة مرّ على الصالون فتوالت الجماهير للسلام عليه والتبرّك بلثم يديه ثمّ صعد إلى الجناح الخاص به في الطابق الثاني مع بعض الأساقفة المرافقين له ليأخذ بعض الراحة بعد الطريق الطويل الّذي قطعه موكبه والاستقبالات الّتي أقيمت له قبل وصوله وحين وصوله إلى بيت الدّين، وهي راحة محقّة لمن كان يحمل على كتفيه ثقل السنين الّتي تزيد على الثمانين، وهموم وشجون طائفة ما زالت تعاني من رواسب الحرب الّتي لم توفّر من نارها لا بشرًا ولا حجرًا.

وبما أنّ الغرف في الكرسي الأسقفي كانت تحت تصرّف الضيوف والمرافقين لغبطته فقد كنت أقضي النهار في الكرسي الأسقفي ببيت الدّين وليلًا أنزل إلى صيدا على أن أعود صباح اليوم التالي...

في اليوم التالي لوصول غبطته إلى بيت الدّين، جاءت وفود شعبيّة من المناطق المجاورة للترحيب بغبطته طوال ما قبل الظهر ثمّ تناول الغداء مع ثلاثين مدعوًّا من الشخصيّات الروحيّة والمدنيّة سياسيّين ورجال أعمال من الأبرشيّة وبعد استراحة لم تدم طويلًا توجّه موكب غبطته إلى المختارة حيث أجرى له الأستاذ وليد جنبلاط استقبالًا حافلًا في ساحة القصر بحضور عدد كبير من مشايخ الطائفة الدرزيّة وأعيانها والسادة النوّاب، وألقى النائب جنبلاط خطابًا ترحيبيًّا بغبطته ذكّر بالعلاقة الوثيقة الّتي كانت تربط بين دار المختارة والبطاركة، كما علّق الآمال الكبيرة على هذه الزيارة التاريخيّة في هذه الأيّام حيث يعمل الجميع على تعزيز عودة المهجّرين وترسيخ ما يسمّى بالعيش المشترك. وبعد أن أنهى الأستاذ جنبلاط خطابه ردّ غبطته عليه بكلمة مسهبة ومكتوبة ذكّر بالعلاقات التاريخيّة الّتي كانت قائمة بين البطريركيّة المارونيّة والبيت الجنبلاطي العريق ولاسيّما تلك الّتي توثّقت في عهد الست نظيرة جنبلاط جدّة الوزير وليد ووالدة النائب كمال بك وألحّ على ضرورة الحفاظ على تلك العلاقات وتوطيدها لمصلحة البلاد وخير الجميع كما وأنّ غبطته دعا جميع المسؤولين إلى دعم عودة المهجرين لأنّ بها دعمًا لنهضة الوطن من آثار الحرب المدمّرة وشفاءه من أمراض مزمنة يعاني منها. وبعد أن تبودلت الخطب أمام الجماهير في الساحة العامة دعي غبطته ومرافقوه من الرجال الروحيّين والسياسيّين إلى القصر حيث احتلّوا قاعات الاستقبال فيه، طبعًا لأنّ قاعة واحدة تضيق عن استقبال المرافقين والمستقبلين الرسميّين وقدّمت للجميع المرطّبات على أنواعها والقهوة وبعد استراحة قصيرة غادر غبطته والموكب المرافق الدّار الكبيرة باتّجاه جزّين الّتي كانت جمهرة غفيرة من أهاليها ومن أبناء الجوار الّذين أمّوها ذاك النهار للمشاركة في استقبال البطريرك الّذي يزور جزّين بعد سنيّ المحنة القاسية الّتي عاشها أبناؤها وسكّانها وأبناء المنطقة المجاورة منذ بداية الحرب اللبنانيّة سنة ١٩٧٥ وحمي وطيسها واشتدّ بدخول الجيش السوري إليها ثمّ الاحتلال

الإسرائيلي وقيام جيش لبنان الجنوبي فيها، حيث كانت التضحية الكبرى على مدى سنوات بنخبة من شبّانها الّذين كانوا منخرطين في الجيش أو أولئك الّذين ذهبوا ضحيّة القصف الّذي كان ينصبّ عليها من جهّات متعدّدة.

جزين تتنفّس الصعداء

أجل تنفّست جزّين الصعداء لدى زيارة غبطته إليها وأعدّت له استقبالًا شعبيًّا ضخمًا، ضمّ الألوف من أبنائها وأبناء المنطقة الّذين قدموا إليها للمشاركة في استقبال الضيف الكبير وكان اللقاء في الشارع الرئيسي حيث أقيمت منصّة كبرى وفوقها مذبح أقام عليه غبطته القدّاس الإلهي يشاركه فيه عدد من الأحبار والكهنة، أمام جمهور غفير من المؤمنين غصّ بهم الشارع الرئيسي بدءًا من الساحة الممتدّة من دار البلديّة حتّى المستديرة القائمة أمام كنيسة مار أنطونيوس في وسط البلدة، بعد أن تحوّل مرور السيّارات إلى شارع جانبي ذهابًا وإيابًا كيلا تتعطّل أشغال المواطنين القادمين إليها والذاهبين منها إلى الجنوب أو إلى الشوف. وكان لراعي الأبرشيّة المطران طانيوس الخوري كلمة ترحيبيّة بغبطته تضمّنت إشارة واضحة إلى المثلّث الرحمات البطريرك بولس المعوشي ابن جزّين البار الّذي أوصى بجميع ما اقتناه من مالٍ نقدي وممتلكات في جزّين إلى راهبات العائلة المقدّسة المارونيّات، بغية أن يقمن فيها ومنها وعليها مؤسّسة خيريّة تعنى بالأيتام كما بالعجز المهملين المتروكين، وعهد بتنفيذ الوصيّة إلى الخلف الجالس على سدّة البطريركيّة، ولكنّ غبطة الواقف توفي في بداية الحرب اللبنانيّة وخلفه على مدى عشر سنوات من الحرب المثلّث الرحمة البطريرك أنطونيوس خريش الّذي لم يستطع الإشراف على أعمال الرهبانيّة الموصى لها ولا غبطة البطريرك الحالي نصر الله صفير أعار المسألة الاهتمام المطلوب، ولاسيّما وقد كانت المحلّة الّتي كان من المفروض أن تقام عليها المؤسّسة مسرحًا أو مقرًّا للقوّات المسلّحة من سوريّة وإسرائيليّة إلى جيش لبنان الجنوبي. أمّا وقد مضت إحدى وثلاثون سنة على وفاة البطريرك بولس المعوشي صاحب الوصيّة دون أن ينفّذ منها شيء، فقد راح أقارب المثلّث الرحمات البطريرك ينحون باللائمة على غبطة البطريرك صفير لكونه لم يعمل بما أوتي من سلطان على الرهبانيّة المذكورة صاحبة الوقفيّة يحملها على تنفيذ الوصيّة بحذافيرها، عملًا

بإرادة الموصي الّذي حرم ورثته الشرعيّين وأقاربه ممّا كان يملكه، وخصّ بها فئة المعوزين والمهمّشين، تؤمّن مساعدتهم على أيدي أعضاء تلك الرهبانيّة.

هنا لا بدّ من أن أذكر ما قاله لي سنة ١٩٨٤ النائب والوزير السابق المرحوم جان عزيز ابن شقيقة البطريرك المعوشي وقد كان يتذمّر آنذاك من التباطؤ في تنفيذ الوصيّة وهو أنّ الطعن بها ممكن ولكن حفاظًا على كرامة الموصي، فإنّهم يأبون الطعن بها ويتمنّون على ذوي الشأن الإسراع في تنفيذها، الّذي لم يتحقّق حتّى تاريخ زيارة البطريرك صفير إلى جزّين. ولقد تضمّنت كلمة المطران طانيوس الخوري راعي الأبرشيّة كلمة بهذا الخصوص أرجو أن تكون قد لقيت بعض الاستحسان لدى أقارب البطريرك معوشي، كما دعا البطريرك صفير أصحاب الشأن إلى العمل بمضمون الوصيّة. ولست أدري إن كانت الرهبانيّة المسؤولة بدأت تعي المسؤوليّة الملقاة على عاتقها بهذا الشأن وتعمل على تنفيذ إرادة الموصي، وإلّا فالتخلّي عنها لآخرين أفضل وأسلم نتيجة.

بعد نهاية القدّاس عاد وفد غبطة البطريرك إلى بيت الدّين سالكًا الطريق الّذي سلكه في مجيئه ليقضي ليلة في الكرسي الأسقفي في بيت الدّين، ويعود في اليوم التالي إلى استقبال الوفود القادمة إليه من أنحاء الأبرشيّة كافّة. ويبدو أنّ مجيء غبطته إلى الشوف قد تزامن عن قصد أو صدفة مع مجيء غبطة البطريرك لحّام إلى مدينة صيدا، حيث استقبله الصيداويّون وأبناء الجوار في المدينة استقبالًا لائقًا، وخطب فيهم طالبًا تعزيز العيش المشترك، الّذي ينادى به في كلّ مكان من لبنان والّذي لا غنى للبنانيّين عنه حيث أقاموا ساحلًا أم جبلًا شمالًا أم جنوبًا، لأنّها حقيقة لا بدّ من أن يعيشها الجميع عن قناعة وبكلّ ثبات.

بعد أن انتهينا من الاحتفال في جزّين نزلت توًّا إلى صيدا وقد كانت الساعة الثامنة والنصف مساءً ولم يعد لديّ مجال للذهاب مع الموكب البطريركي إلى بيت الدّين، وكان لي حديث وأنا بالسيّارة على التلفون مع النائب جورج ديب، لم يخلُ من عتاب قاسي اللهجة والمضمون بسبب الدعوات الّتي كنّا قد وجّهناها إلى الغداء مع غبطته في بيت الدّين لليوم الثاني، لأنّ حضرته كان يريد أن يحصر الدعوات بأناس معيّنين رفضت التقيّد بهم من دون سواهم...

بعد أن قضى غبطته في زيارته التاريخيّة إلى الشوف وجزّين يومين كاملين غادرها إلى أبرشيّة بيروت عن طريق الفريديس، حيث زرع أرزة في قطعة أرض فوق الطريق العام، ومن ثمّ اجتمع في الباروك إلى مجموعةٍ من أهاليها وإلى رؤساء روحيّين من الدروز، كما شارك في الاجتماع أيضًا مدنيّون من المسيحيّين والدروز، وانتقل بعدها إلى عين زحلتا فبلدة الصفا التابعة لأبرشيّة بيروت، حيث ودّعناه وقفلنا راجعين إلى الكرسي الأسقفي في بيت الدّين.

تقييم الزيارة البطريركيّة

إنّ الزيارة التاريخيّة الّتي قام بها غبطة البطريرك الكاردينال مار نصر الله بطرس صفير إلى الأبرشيّة وحصرها بمنطقة الشوف الأعلى وفي بلدة جزّين، فتحت آفاقًا جديدة أمام المواطنين وبخاصّة أمام الدروز والمسيحيّين، وثمّنت المصالحة الّتي وجب الإعلان عنها رسميًّا وبخاصّة حين جعل من الكرسي الأسقفي الماروني في بيت الدّين مركزًا له حيث جاء المواطنون الدروز والمسلمون والمسيحيّون للسلام عليه، وبهذه الطريقة أعاد إلى المطرانيّة مركزًا معنويًّا بين مختلف الطوائف الّتي يتكوّن منها الجبل وأعطت دفعًا جديدًا لعودة المهجّرين الّذين كانوا متردّدين في العودة من مناطق تهجيرهم، ورسّخت نوعًا ما المصالحة بين المسيحيّين والدروز ما عدا بريح الّتي مع أنّها لا تزال حتّى كتابة هذه السطور مهجّرة بسبب البيت الّذي بناه الدروز في أرض أحد أبناء الرعيّة الموارنة دون أن يكملوه، والّذي طالب المسيحيّون بهدمه، بينما كان للدروز رأي آخر ولم نستطع في المطرانيّة ولا في بكركي إيجاد حلّ له يرضي الطرفين، علمًا بأنّ لدى الموارنة نوعًا من التعنّت في المواقف كان من الضروري التخلّي عنه والتسليم بالحلول الّتي عرضت عليهم. وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّ ذلك التعنّت صادر عن موقف معلن من كهنة في بريح يخدمون في أبرشيّة بيروت وجونية... ولم يستطع أحد أن يليّن من مواقفهم. وإراحة للضمير أقول وأشدّد بأنّهم كانوا على خطأ. ولو أنّهم قبلوا بالمصالحة لكانوا استرجعوا أرزاقهم واستثمروها بالطرق الّتي يريدون، وانتزعوها من أيدي الدروز، وقبضوا التعويضات المتوجّبة لهم من الوزارة كما فعل سواهم من أبناء الرعايا الأخرى في المنطقة، مع تمتّعهم بحريّة العودة ساعة يشاؤون. وقبل أن أختم كلامي عن زيارة البطريرك إلى المطرانيّة وإقامته فيها، فقد أرّخنا لها ببلاطة رخاميّة وضعناها بأمر من سيادته على أحد جدران قاعة الاستقبال لتبقى ذكرًا يحكي للداخل إلى الكرسي الأسقفي أو الساكن فيها عن تلك الزيارة التاريخيّة.

من الضروري أيضًا أن نذكّر أنّ الأستاذ وليد جنبلاط عندما دخلت جماعته إلى الكرسي الأسقفي في بيت الدّين وعملت فيها سرقة ونهبًا وأحرقت السكرستيّا، قد أرّخ إلى جانب البلاطة التاريخيّة الّتي كان قد وضعها المطران أغوسطين البستاني ذاكرًا اسم المطران بطرس الّذي اشتراها واسم من زاد عليها وبنى الكنيسة فيها أي المطران أغوسطين، كيف أنّه أي الأستاذ وليد قد رمّمها بعد أن لعبت بها أيدي الّذين استولوا عليها. فكان كلّ من يدخل إلى المطرانيّة ويقع نظره على البلاطة الموضوعة فوق الباب الّذي يؤدّي إلى الطبقة الثانية، يقرأ اسم المطران بطرس البستاني الشاري لتلك الدار الجاعل منها مسكنًا له ١٨٦٣، وتحت تلك الكتابة اسم المطران أغوسطين الّذي رمّم الدّار وبنى فيها الطابق العلوي، كما جعلها مقرًّا دائمًا له ولخلفائه. وعلى البلاطة ذاتها جاء من يؤرّخ ترميم هذه الدار وليد جنبلاط بعد أن دخلت إليها الميليشيات سنة ١٩٨٣. وكانت تلك الزيادة الّتي أضافها في البلاطة وليد جنبلاط قد أثارت اهتمام الكثيرين حتّى أنّ منهم قد أشار على سيادة المطران طانيوس الخوري بطمس الكتابة كلّها وبوضع لوحة خشبيّة رسم عليها صليب. فالبلاطة بفضل ما زيد عليها مؤخّرًا تبيانًا لما فعله جنبلاط، تشهد للملأ وللأجيال الطالعة التعدّي المسلّح على هذا المقام المسيحي من قبل الدروز وحلفائهم، والّذي حاول وليد جنبلاط أن يصلحه بتوقيع علني منه ليبقى لكلّ من يقيم أو يزور هذه الدّار، اعترافًا ثابتًا بما جرى وبما ارتكبه مؤيّدوه من أخطاء يسجّله على تلك البلاطة الباقية ما بقيت الدّار قائمة.

نتائج الزيارة على الصعيد العام

إن كانت زيارة غبطة السيّد البطريرك إلى الشوف وجزّين قد أثمرت فرحًا وابتهاجًا في صفوف المسيحيّين بفضل ذلك الانفتاح على فئةٍ من اللبنانيّين كان لها ثقلها وأهميّتها في الحرب اللبنانيّة القذرة وأمنت لهم حليفًا جديدًا لا بدّ منه لقيام لبنان من عثرته وتوطيد الأمن والسلام في ربوعه إلّا أنّ الدولة السوريّة الرابضة بكلّ ثقلها على صدور اللبنانيّين منذ سنوات وسنوات لم ترقها هذه الزيارة وتاليًا لم يرقها هذا التقارب والإنفتاح المجّاني بين فئات لبنانيّة تقاتلت ثمّ نراها الآن تتآلف على إعادة بناء لبنان وتعميره ولم يكن لسوريا يد فيه. ويبدو أنّ مرور غبطة السيّد البطريرك في عودته إلى الدّيمان في مدينة عاليه وبعدها في بلدة الكحّالة وما رافقت هذه الزيارة من حماسة واندفاع لدى الشبّان الّذين ينتمون إلى القوّات اللبنانيّة

والتيّار العوني وقد أساء رجال الأمن اللبنانيّون معاملتهم وواجهوهم ضربًا بأعقاب البنادق والهراوات واقتادوهم إلى السجون. تلك مشاهد ستبقى عارًا على جبين رجال الأمن في الدولة اللبنانيّة الّتي كانت تنفّذ آنذاك أوامر السوريّين الموجودين في لبنان. وأعتقد أنّ العمل على إعادة اللحمة بين أبناء الجبل مسيحيّين ودروزًا ومسلمين بعد الّذي اعتراها من شقاق لا تقع مسؤوليّته على فريق دون الآخر بل يتحمّل الجميع المسؤوليّة، ولا بدّ من أن يعمل الجميع على رأب الصدع والعمل معًا يدًا من دون اللجوء إلى الغريب لكي يبقى لبنان كما سمّاه وأراده قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني رسالة إلى العالم، يعلّمه في الحياة والمثل كيف يعيش أبناء الديانات متفاهمين متعاضدين إعلاءً لشأن الإنسان كلّ إنسان، أيًّا يكن دينه ومذهبه ما دام يؤمن الإنسان فيه أنه للآخر وليس له أن يدينه، لأنّ الله خالقه هو وحده يدينه على كلّ أعماله في مسيرته فوق هذه الأرض الّتي لا بدّ من أن تنتهي...

لا أريد أن أنتقل من موضوع زيارة غبطة السيّد البطريرك وتأثيرها على المواطنين مسيحيّين ومسلمين في الشوف قبل أن أحاول إظهار أهمّيّة التلاقي بين كبار القوم، بين الرؤساء الروحيّين وما يتبعه من اندماج حتمي بين أفراد الشعب. الكلّ يعلم، وإن لم يجرؤ على التصريح بما يعلم أن الحرب اللبنانيّة الّتي ذهب ضحيّتها عشرات الألوف من الضحايا وتسبّبت بخسائر ماديّة تفوق ما يتصوّره النّاس قد وقعت لأنّ كبار القوم في هذه البلاد أرادوها، لأنّهم لم يراعوا ولم يسمعوا لصوت ضميرهم فأحرقتهم نيرانها، وذهبت بالأخضر واليابس ولم يسلم أحد منهم، وليس لنا من برهان ساطع سوى التطلّع إلى الوراء، منذ السنة ١٩٧٥ لنرى أين هم الزعماء الّذين كانوا يديرون شؤون الحرب والقتال. والّذي بقي حيًّا منهم، ها هو الآن، يتباكى ويدقّ صدره حسرة وندامة على سياسة اتّبعها ويحالف اليوم عدوّ الأمس... ولم ذاك الجهل؟ ولم التحسّر على خسارة في الأرواح والممتلكات؟ أليست المسؤوليّة جسيمة عليهم أمام الله والنّاس والتاريخ؟

على سبيل المثال، عندما عيّنت خادمًا لرعيّة صيدا المارونيّة، ما لقيت من سكّانها المسلمين سوى الترحيب والاحترام وكنّا نتبادل الزيارت في الأعياد الدينيّة وما سوى ذلك من المناسبات تلبيّة لدعوة رسميّة أو لتقديم التعازي بأحد أفراد عائلة وما كنّا نتأخّر عن قرع جرس الكنيسة حزنًا لدى مرور موكب جنازة زعيم مسلم في شارع رياض الصلح مشاركة للمدينة في حزنها.

وخلال وجودي في صيدا كان المسلمون كالمسيحيّين يذكرون بالخير المرحوم الخوري يوسف عطيّة خوري الموارنة على مدى خمسين سنة، هو الصيداوي المتجذّر في المجتمع الصيداوي المنفتح على المسلمين والمشارك لهم في أفراحهم وأحزانهم كأنّه واحد منهم، يرجعون إليه في حلّ مشاكلهم كما كانوا يرجعون إليه لحلّ الخلافات العائليّة الناشئة: عليه يعرضون أمورهم وإليه يستمعون بكلّ ثقة للحلول الّتي كان يقترحها عليهم.

ويُروى أنّهم في جنازته ساروا بالموكب الجنائزي وحملوا النعش إلى مدفن الكهنة في مزار مار الياس، حارة صيدا، كما أنّ المؤذّن صلّى من على المأذنة اعترافًا بما له من أفضال على المدينة وساكنيها. هذا ما كنت أسمعه عنه على ألسنة المسيحيّين والمسلمين. شهود عيان، ما كانوا يبغون من ذلك سوى نقل الحقيقة الّتي عاشوها وأحبّوا أن ينقلوها إلى الأجيال الطالعة.

ما عدا عن ذلك فلقد سمعت غير مرّة وفي غير مناسبة صيداويًا أصيلًا ومسلمًا عريقًا في إسلامه ووطنيّته، هو الدكتور لبيب أبو ظهر، رحمه الله، يفاخر بالعيش الإسلامي المسيحي المشترك في مدينة صيدا، قائلًا في أكثر من مناسبة: «إنّ صيدا لا تعرف حارة للنصارى وأخرى للمسلمين بل نرى الجميع مندمجين، متآلفين، ونأبى أن تكون حياتنا المشتركة بخلاف ذلك وعلى غير ما ورثناه عن آبائنا وأجدادنا. وذاك ما ردّده مرارًا... ويوم اجتاح الجيش الإسرائيلي مدينة صيدا وقد ضربها بالقنابل والصواريخ بعنف، هرب الكثيرون من سكّانها إلى القرى المسيحيّة المجاورة فاستقبلهم الأهالي على الرحب والسعة أيّامًا إلى أن تأمّنت لهم العودة بسلام إلى بيوتهم. وكانت تجاوبًا طوعيًّا مع حاجة إخوان لهم وجيران تشدّهم إليهم صلات وثيقة من المواطنيّة والأصالة اللبنانيّة.

عندما ذرّت الحرب قرنها وعصفت بالمدينة والجوار تنفيذًا لمخطّطٍ جهنّمي واخترت التنقّل في المدينة قيامًا بواجباتي في سيّارة ولم يعودوا يروني متنقّلًا في الشارع كالسابق، جاءني أكثر من صيداوي مسلم يطلب منّي عدم تغيير عادتي، وعدم التنقّل في السيّارة، لأنّهم حريصون على أن يروني بينهم كواحد منهم يروح ويجيء بأمان وسلام كما كنت أفعل سابقًا.

قد يطول بي الكلام ويضيق الوقت عن وصف حالات مشابهة عشتها بنفسي ومع الآخرين طوال إقامتي في هذه المدينة وكنت مرتاحًا إليها لكونها عفويّة وصادقة، لا يبغي القائم بها مكافأة، لأنّها تصدر عن إيمان بوحدة العيش والشراكة في المصير الواحد الّذي يتوق إليه كلّ من يدين بما يدعو إليه الضمير الحيّ، بمعزل عن الفوارق الّتي أقامها المغرضون، والأنانيّون الّذين يدّعون محبّة الله ويكرهون أبناءه سواء أكانوا ينتمون لهذا الدّين أم لذاك. ولا ننسى أنّهم بشر مخلوقون على صورة الله ومثاله، والويل لمن يشوّه تلك الصورة ويتنكّر لها من خلال أعماله اليوميّة...

تبيانًا للحقيقة وطيبة الصيداويّين أنقل ما ورد في عدد جريدة النهار الصادر يوم الجمعة ٢١ حزيران ١٩٨٥ من تصريح للمهندس مصطفى سعد الأمين العام للتنظيم الناصري إلى مندوب الوكالة اللبنانيّة للأنباء تضمّن الكثير من الإيجابيّات الّتي تصبّ في خانة التمسّك بالعيش المشترك:

[...] إنّ عبرا ستبقى عبرا حتّى ولو أمعن في بيوتها المغتصبون والموتورون والمتعصّبون نهبًا وحرقًا وتدميرًا وجرفًا، ولو تطاولت أيديهم على حرماتها ومقدّساتها فعاثوا في كنيستيها القديمة والجديدة تدنيسًا وهدمًا وجرفًا، محاولة محو رموز المسيحيّة ومعالمها المتجذّرة في هذه التربة المتقادمة العهد في تاريخ المنطقة لجزّين، وجزّين امتداد لصيدا ونحن من صيدا وجزّين نشكّل جزءًا لهذا اللبنان...»

وأردفت تعقيبًا على هذا الكلام أقول: «لقد قلت ذاك الكلام يا أبا معروف لأنّك مؤمن بالعيش المشترك المسيحي الإسلامي، غير المرتبط بإسرائيل، ولك ملء الحقّ في ذلك لأنّك ربيب بيت لبناني عريق وابن الشهيد معروف سعد الأبي الذي تمرّس بالمسؤوليّة بحكمة وتجرّد، ولم يعش لذاته بل لغيره فانفتح على المسيحي واحتضنه لينتزع من قلبه عقدة الخوف من جارٍ له مسلم، وتفهّم حاجات المسلم فسعى إلى تأمين مطالبيه الشرعيّة دون أن يؤذي جارًا له مسيحيًّا». (جريدة النهار ٢٢/٦/١٩٨٥)

وإذا كنّا على وصال دائم بالمقامات الروحيّة السياسيّة الصيداويّة، فقد كانوا يشركوننا في احتفالاتهم ولمّا طلبوا منّي إعطاء محاضرة في ذكرى التحرير من الاجتياح الإسرائيلي في المركز الثقافي التابع للحريري كانت لي الكلمة التالية بين أربعة محاضرين أمام حشد كبير من الناس في ١٨ شباط ١٩٩٨:

أيّها الكرام،

إخواني،

أرى من واجبي في بداية هذا الحديث أن أتوجّه بالشكر إلى القيّمين على هذا المركز الثقافي الّذي أتاح لي في هذا اللقاء فرصة ثمينة لأشهد لبعض ما رأيت وسمعت وعانيت، كما عانى الكثيرون من أبناء هذه المدينة وجوارها خلال الاحتلال الإسرائيلي لها والّذي لا يزال رابضًا على قسم كبير من لبنان الجنوبي والبقاع الغربي، ولا يزال يعاني منه الأمرّين. على بضعة كيلومترات منّا، إخوان لنا نأمل واثقين في أن يحتفلوا بدورهم مثلنا بذكرى التحرير بمشاركة جميع اللبنانيّين إن شاء الله.

إذا كان لا بدّ من شهادة لمجتمع ذهب له شهداء كثيرون وقد أخذ يسترجع عافيته، ويستعيد نشاطه وحيويّته، فشهادتي ترتكز على عنصرين أساسيّين أشير إليهما بوضوح وأشدّد على أهمّيّة كلّ منهما، إنهاضًا لمجتمعنا اللبناني من كبوةٍ تشدّ به إلى زوال إذا استمرّت تفكّك أوصاله حتّى إذا نهض منها استجمع طاقاته وانطلق من جديد تحقيقًا لرسالة في الكون ينتظرها منه العديدون.

وانطلاقًا من هذه الفكرة أعتبر أنّ التحرير نوعان يكمّل أحدهما الآخر:

تحرير من عدوٍّ يتشبّث بأرضنا طمعًا بخيراتها المتنوّعة وهو عدوّ خارجي لا بدّ عاجلًا أم آجلًا من أن نتخلّص منه. والتاريخ القديم والحديث حافل بالأمثلة الّتي عاشتها بلادنا ثمّ تحرّرت ممّن كان يستلبها حريّتها ويأكل خيراتها.

وتحرير أو بالأحرى تحرّر من عدوٍّ آخر يكمن في الإنسان قد يكون أكثر شراسة من العدو الخارجي وأشدّ منه فتكًا بالمجتمع اللبناني فأراه يتّخذ مظاهر عدّة. تارة هي الأنانيّة المقيتة القتّالة الّتي لا تريد سوى المصلحة الذاتيّة عملًا بالقول المعروف... «أنا ومن بعدي الطوفان»، وطورًا هو التعصّب الذميم الأعمى الّذي يتّخذ من الدّين ستارًا يحتمي وراءه تنفيذًا لمأربٍ خسيس. إنّه والدّين على طرفي نقيض. والدّين براء منه. وهذا التعصّب ليس حكرًا على فئة معيّنة، ولا يتفاعل في إطار دين معيّن بل إنّه ظاهرة اجتماعيّة خطيرة وداء قتّال لا بدّ من معالجته وتحرير الإنسان من آفته.

وقد تعاطى اللبنانيّون التحرير من الاحتلال الإسرائيلي كلّ على طريقته:

هذا تعاطاه عن طريق السلاح والمقاومة المسلّحة، فسقط له شهداء كثيرون ولا يزالون يقدّمون ذواتهم قرابين على مذبح الوطن حتّى النصر الأخير. ومنهم من التزم التحرير بالرفض التام والموقف الحازم الواضح الّذي لا يقبل أيّ التباس وتفسير كما لا يعرف المواربة والخنوع وعلى سبيل المثال لا الحصر أذكر موقفًا عاشته معي نخبة من الصيداويّين رفضت التعاطي مع المحتلّ منذ الدقيقة الأولى للإجتياح، وبقيت على موقفها الرافض الّذي حافظت عليه بكلّ ثبات بالرغم من المحاولات المغرية الّتي كان الاحتلال يقوم بها اكتسابًا لصداقتها.

أيّها السادة،

إذا دخل الإنسان حقلًا خرّبته رياح عاتية، وأمطرته السماء بغزارة تجنّب الغوص في وحوله، وحسبه أن يمتّع نفسه ونظره بطبيعته وجمال أزهاره دون الولوج في منعرجاته. وتحرير الذّات من الأنانيّة والتعصّب كان له روّاده أيضًا:

إن كان المعدن يمتحن بالنّار للتأكّد من نوعيّته فتجربة الحرب في لبنان أظهرت صلابة الإنسان فيه وأصالته. عسانا نعتبر ونتعلّم. وشكرًا.

الفصل الحادي والعشرون

ذكريات وذكريات...

في اليوم الثالث من شباط ٢٠٠٣ اتصل بي هاتفيًا الشاعر اللبناني الكبير الأستاذ سعيد عقل قائلًا بعد غد أي في الخامس من الشهر الجاري ألتقيك إن شاءَ الله في نقابة الصحافة في بيروت لتسليمك جائزة المليون ليرة تقديرًا لترجماتك لمؤلّفات القدّيس أغوسطينوس إلى اللغة العربية وسيكون الاحتفال بحضور نقيب الصحافة الأستاذ محمد بعلبكي ففوجئنا بهذا الخبر ورحت أتّصل بمن استطعت من الأهل والأصدقاء كما جرى اتصال من النقيب الأستاذ محمد بعلبكي يعتذر عن عدم حضور حفلة التكريم لانشغاله في موعد عزاء في النهار ذاته بأحد أنسبائه وقد أناب عنه الأستاذ كمال اسبر الغريب عضو النقابة. وهنا أكتفي بسرد خبر الاحتفال كما ورد في جريدة النهار اللبنانية اليومية كما أرفقته بصورة الشاعر سعيد عقل جالسًا على المنصة والمكرّم يلقي كلمته. وإليكم ما قالت الجريدة:

سلّم سعيد عقل جائزته الأسبوعية وقيمتها مليون ليرة إلى المونسنيور يوحنّا الحلو على ترجمته إلى العربية «اعترافات القدّيس أغوسطينوس» وأقيم احتفال في نقابة الصحافة في حضور وزير البيئة ميشال موسى والنوّاب نبيل البستاني وأسامة سعد وجورج نجم والدكتور أنطوان خوري ورئيس مجلس القضاء الأعلى القاضي طانيوس الخوري وممثّل محافظ الجنوب نقولا أبو ضاهر والمطارنة طانيوس الخوري ومارون صادر والياس كفوري والسفير السابق سيمون كرم ورئيس مجلس الجنوب قبلان قبلان وجمع من رجال الدين والمثقّفين.

بدايةً كانت كلمة لكلٍّ من كمال اسبر الغريب باسم النقيب محمد بعلبكي وأخرى للشاعر سعيد عقل عن المونسنيور حلو شدَّد فيها على أهمّيّة ترجمة أغوسطينوس إلى اللغة العربية حتى أن مترجمها يستحقّ أن تقبّل أنامله. ثم كلمة شكر من الحلو تحدّث فيها عن القدّيس أغوسطينوس اللاهوتي والفيلسوف

الذي أغنى المكتبة الكنسية بكتابات لاهوتية وفلسفية ووجدانية فصارت هذه الكتابات مع توالي الأيام موسوعة من المعارف...

أما كلمتي في المناسبة:

لاهوتي عريق وفيلسوف ألمعي أغنى المكتبة اللاتينية الكنسية بروائعه المتنوعة، القيّمة، وفيها اللاهوتي والفلسفي والتعليمي والوجداني والكتابي الذي يتناول الكتاب المقدّس في عهديه، برموزه وأسراره؛ فما شاخت له أفكار على قِدَم العصر الذي عاش فيه ولا باخ لونُها وضعف، مع تقدّم العلم؛ بل ظلّت مرجعًا يؤمُّه كلّ طالب معرفة وينبوعًا فيّاضًا ينهل منه كلّ من يبتغي ريًا لظمأ إلى الحقيقة تعاني منه النفس. كتاباته والحقّ يقال موسوعة من المعارف والتأمّلات الرصينة، والاختبارات الشخصية، تتجدّد باستمرار لكونها تنهل من ينبوع دائم العطاء لا يتوقف ولا ينضب: ذاك هو القدّيس أغوسطينوس.

لقد ولد في الثالث عشر من تشرين الثاني سنة ٣٥٤ في تاغسطا من بلاد إفريقيا المعروفة اليوم بسوق أخرى في الجزائر، من أبٍ وثني وأمٍّ مسيحية، تحيى إيمانها بدقة. وعرف بحدّة ذكائه وشغفه بالعلم منذ نعومة أظفاره، فتوسّم والداه الخير فيه له ولهم، وأرسلاه إلى ما تيسّر من مدارس في البلاد ثم إلى روما حيث ما عتمَّ أن استسلم إلى اللهو والعبث مع رفاقٍ له فغاص في بحرٍ من الضياع والفساد، راحت أمّه تسدي إليه النصح والتوجيه ولجأت إلى الصلاة من أجله، خوفًا عليه من الهلاك كما استجارت بصلوات أسقف ميلانو القدّيس أمبروسيوس وإذ رآها تذرف الدموع السخينة خلال صلاتها لأجله قال لها ذلك الأسقف: «لا تخافي من الهلاك على من تلدينه بهذه الدموع». فوجدت في كلام الأسقف بعض التعزية.

عاد أغوسطينوس إلى رشده واقتبل العماد المقدّس واستقرَّ على الخط القويم الذي احتفظه لنفسه حتى آخر رمق من حياته ووقف ذاته على خدمة ربه وشعبه كاهنًا وأسقفًا وأكبَّ على التعليم بمواعظه وكتاباته مدافعًا عن الإيمان ضد هجمات البدَع التي تكاثرت آنذاك وسجّل اعترافاته في ثلاثة عشرة فصلًا

أو كتابًا وهي ليست صكّ اتهام ضد نفسه بقدر ما هي شهادة حقّ تنطق بوجود الله وصلاحه ومحبّته وتعترف بفضله عليه. أي لسانٍ بلغ من الصدق في الإقرار بذنبه بقدر ما بلغه لسان أغوسطينس؟ لقد حطّم في اعترافاته قيود الحياء البشري وسحق كبرياءه وقضى على أنانيته. إنه لم يكن خاطئًا أقربَ إلى الناس الخطأة الفجّار أقرب منه تائبًا إلى ربه. أغوسطينوس الظمآن إلى الحقيقة، الساعي إليها، على طريق الضلال قبل عماده واهتدائه يعبُّ من سرابها الوهمي راح ينهك بعد توبته، بالشغف عينه، من ينبوعها الصافي.

من الخطأ الاعتقاد أن أغوسطينوس أوقف نشاطه الكتابي عند الاعترافات بل ثابر على العطاء وألّف كتابه الشهير «مدينة الله» وفيه يقارن بين مدينة الله ومدينة الأرض بأفضل ما يقول عن الإيمان.

وإذاكان هذا اللقاء التكريمي يُقصد منه الإشادة أو التنويه بالاعترافات فلا بدَّ من الإشارة إلى أن مكتبتنا العربية أصبحت تضمُّ بين كتبها العربية إضافة إلى الاعترافات أربعة كتب أوغسطينية أخرى هي شرح رسالة القدّيس يوحنّا الأولى وخواطر فيلسوف في الحياة الروحية وتعليم المبتدئين أصول الدين المسيحي وأخيرًا «مدينة الله» في مجلّدات ثلاثة بلغ عدد صفحاتها ألفًا ومئتين وخمسين صفحة.

فالشكر للداعي إلى رحاب هذه الدار العامرة ولأصحابها الكرام روّاد الحرّيّة وحماتها الأشاوس.

وألف شكر لمن وقف حياته على خدمة الحقيقة رافعًا رأس لبنان عاليًا أمدَّ الله بعمره ليظلّ شامخًا شموخ الأرز في لبنان، ينفح دنيا العرب بأطيب وأذكى ما فيهما من أريج، معلنًا أمام الملأ هذه الخلاصة اللبنانية وما أحوجنا إليها اليوم وفيها يقول وبها يبشّر بفخر واعتزاز قائلًا:

«سوف نبقى، يشاءُ أم لا يشاء الغير فاحمد لبنان ما بك وهنُ
سوف نبقى، لا بدّ في الأرض من حقٍّ وما من حقٍ ولم نبقَ نحن»!

والشكر كلّ الشكر لمن صلّى في خلوةٍ إلى ربه فتناقلت صلاتُه أفواه عذارانا وشباننا وراهباتنا وكهنتنا في رعايانا وأديرتنا مرددةً:

كلّما غبّتِ الحساسين في ماءٍ ... رنت حلوةً إليك بشكر
وتعالت إليك في ضجّة الصبح ... صلاة من زقزقات وزهر
ربّ أعطنا قبل كلّ جدوى ونعمى ... أن نحطّ التفاتة في سَناكا
كلُّ ما دون وجهك الجمّ وهمٌ ... أعطنا ربِّ أعطنا أن نراكا

فالشكر لأستاذنا الكبير وشاعرنا الملهم، المحيي الإيمان في نفوس مواطنيه، الباعث الرجاء بغدٍ أفضل، حيَّاك الله وبيَّاك، وإلى سنين مديدة.

إن ذاك التكريم العلني لشخصي الحقير ولما قدّمته لكنيستي وللشعب المسيحي المشرقي من ترجماتٍ للقدّيس أغوسطينوس تزيدني إيمانًا بفعالية الكلمة في نشر الرسالة المسيحية بين قرّاء اللغة العربية سواء كانوا مسميحيين أم غير مسيحيين ولقد أعجب بكتاب... اعترافات القدّيس أغوسطينوس وسواه من الكتب التي نقلتها إلى اللغة العربية أحد المفكّرين الكبار من مشاهير أئمة الطائفة الشيعية في لبنان العلّامة الشيخ محمد حسن الأمين القاضي الشرعي في مدينة صيدا. وإذ اطلع على نسخة أهديتُها إليه راح يطلب منا نسختين وثلاثًا ليقدّمها إلى أصدقاءٍ له من طائفته الكريمة لشدّة إعجابه بها. وإذ اشتدت بيننا أواصر الصداقة والمحبّة والاحترام المتبادل أراد أن يقدّم إلى الجمهور كتابًا لي بعنوان «كلمات كان لا بدّ منها» في حفلة توقيع ذلك الكتاب ضمَّت نخبة كريمة من الأصدقاء والمحبّين في الفرع التابع لجامعة القدّيس يوسف للآباء اليسوعيين في بلدة البرامية القريبة من صيدا. وعلى سبيل المثال لا الحصر وليس من قبيل التبجُّح والمفاخرة إن أحد المحامين المعجبين بقراءَة ما ترجمته من مؤلّفات القدّيس أغوسطينوس إلى العربية قال لي ذات يوم هاتفيًا ودون سابق معرفة به بعدما هنأني على ما أنجزته في ذاك المجال، إنه قد أرسل بعد اطّلاعه على تلك النفائس الأوغسطينية سبعًا وأربعين نسخة من «الاعترافات» وعددًا مماثلًا من كتاب «خواطر فيلسوف في الحياة الروحية» ويطلب مني نسخًا من «الخواطر» باللغة الفرنسية أو الإنكليزية يقدّمها إلى من يجهل اللغة العربية فلم ألبِّ طلبه

لأني نقلت «الخواطر» عن اللغة اللاتينية وهو كتاب معروف باسم Le vita christiana. وكان قد قدّمه إلي المثلّث الرحمة المطران إغناطيوس زياده من مكتبته الخاصة وألحّ عليَّ بأن أترجمه إلى اللغة العربية لشدة ما كان معجبًا به ذلك الأسقف الجليل رحمه الله ووافانا بدعائه من بيت الآب السماوي.

إنها لذكريات أحياها يوميًا وأشدّد عليها لكي يعرف كهنتنا ما للتأليف وللترجمة من أهمّيّة في نشر الرسالة المسيحية وبخاصة في زمنٍ أصبح للإعلام المتنوع والمتقدّم دورٌ هام في التعليم والتثقيف وهي ناحية لا يجوز إغفالها وتعزيزها لكي ندخل في مجتمع بات يهوى التثقف دون كبير عناء وهو في البيت أو المكتب وقد غزت تلك الأساليب الحديثة بيوت الكبار والصغار، مؤمنين وغير مؤمنين وللنعمة طرق متنوعة تسلكها وصولًا إلى النفوس. ولنا من حديث السيّد المسيح له المجد مع المرأة السامرية دعوة ملحّة إلى ألَّا نضيع فرصة سانحة للتبشير بالحقيقة التي تساندنا فيها النعمة الإلهية ساعة تحين تلك الفرصة لأن الحصاد كثير ولا مجال لوقت يضيع من عمر لنا سوف نؤدي عنه حسابًا لمن منحنا إياه وأرسلنا في هذا المحيط الضيق أو الواسع لنتاجر فيه بالوزنات التي ائتمننا عليها. وأنا لا أتوخى مما قلته سوى مساعدة أخوةٍ لي في الكهنوت ولاسيَّما في هذه الأبرشية الصيداوية التي تفاخر بأن السيّد المسيح له المجد قد زارها مرارًا وصنع فيها عجائب وعلَّم ولا أحد ينكر ذلك وكان من نعمه تعالى علينا أن نتلمَّس فيها على طرقاتها ودروبها وفي مدنها خطاه ونتابع الرسالة رسالة المحبّة والانفتاح فيها على الوثنيين واليهود المقيمين فيها على السواء. وتلك لعمري نعمة يجب أن نثمنها على حقيقتها وألَّا نتأخّر عن فهمها على حقيقتها ونتبيّن من خلال الظروف والأحوال التي نعيشها في هذه المنطقة إرادته والغاية المقدسة من الدعوة التي أنعم بها علينا نحن كهنة وأبناء سكّة صيدا.

وإذا ما عدت وتأمّلت في السنوات التي عشتها كاهنًا وخادمًا في هذه الأبرشية التي فيها نشأت كما نشأ آبائي وأجدادي، ولم أغادرها إلى أبرشية أخرى هروبًا من مسؤوليةٍ ألقيت فيها على عاتقي في ظروف صعبة وما من أحد يستطيع أن ينكرها، إلّا إذا كان جاهلًا للتاريخ، ولا سعيًا إلى رتبةٍ كهنوتية قد يسهل الحصول عليها خارج هذه الأبرشية أجد نفسي مرتاح الضمير، مطمئن البال، لكوني بقيت وعملت حيث وضعتني العناية الإلهية.

وهي التي قادت خطاي وجنبتني المزالق التي واجهتني وكادت تطيح بحياتي لولا يد الرب التي وضعت فيها ثقة عمياء وما برحت تقودني وتسيرني حتى كتابة هذه الأسطر التي ما ابتغيت منها جاهًا أجنيه بالمجان ولا مالًا ما فكّرت به على مدى سنواتي مردّدًا القول المأثور الذي لا أستحقّ أن أذكر قائله «يكفيني القوت والكسوة». وقد توفّر إلي والحمد لله وحسبي نعمة الله ورعايته الأبوية لي التي اعتمدتها في الحياة منذ دخولي المدرسة الإكليريكية حتى سيامتي الكهنوتية. وهي سنوات ليست بالقصيرة وقد بلغت الإحدى عشرة سنة كانت خمس منها في حرب عالمية طاحنة لا بدَّ من أن يذكرها الكثيرون من زملائي في الدراسة. وقد أرخت بثقلها على الكبير والصغير في لبنان وعلى الغني والفقير وشعرنا بضغطها على المجتمع اللبناني وعلى الطلبة الداخليين في جامعة القديس يوسف. وكان الطحين في المدرسة كما في سائر بيوت المواطنين اللبنانيين يوزَّع بمقدارٍ معيّن على كلّ فرد كما هي حال السكر والأرز آنذاك بموجب بطاقة إعاشة. ومع ذلك فقد كانت المعيشة في لبنان أحسن حالًا ممّا كانت عليه في غير بلدٍ من البلدان المجاورة أو البلدان الأوروبية التي عاشت الحروب ودفعت فيها أثمانًا باهظة من البشر والحجر.

لقد رعتني العناية الإلهية كما قلت ولا تزال وإني أقدّر هذه الرعاية ولا حاجة بي لأن أذكر على هذه الصفحات ما شعرت به ولمست لمس اليد في أكثر من حادث تعرَّضت له ونجتني منه طالبًا إكليريكيًا وكاهنًا وتلك نعم الله أشكره عليها مدى الحياة حتى أن وجودي في صيدا، في سني الحرب كما في سني السلام والهدوء، لم يخلُ من صدمات نجوت فيها بفضل رعاية الرب لي واتكالي عليه ولا لزوم لتعدادها إنما من الضروري الإيمان بأن الله يرعى خطانا ويسيّرنا إلى ما فيه خلاصنا وخلاص من وكلّ رعايتهم إلينا في هذه الحياة. وإني لأرى ذاتي مدفوعًا إلى الكلام عن العناية الإلهية التي بات الإنسان وإن كان مؤمنًا إلى عدم الإقرار بحضورها الدائم حتى راح يعزو أمورًا كثيرة إلى ما يسمّيه قضاءً وقدرًا وهو ما لا يجوز للإنسان المؤمن فكيف بالكاهن الذي وكلّ الرب إليه قيادة شعبه إلى طريق الحقّ والحياة؟ وإن كان علينا أن نؤمن برعاية الله لنا فهذا لا يعني أن حياتنا التي نقضيها بخوف الله والتسليم لمشيئته تخلو من ضيق وشدة قد تكون أحيانًا كثيرة خانقة يصعب علينا الخلاص منها لأن الصليب في كلّ حياة مؤمنة يجب أن يُنظر إليه نظرة رضى وقبول إذ أن الرب يسوع قال «من أراد أن يتبعني فليكفر بنفسه ويحمل صليبه ويتبعني».

القبول بالصليب طريق خلاص مضمون وأكيد؛ وما من إنسان قبل الصليب في حياته وأشرك آلامه بآلام المخلّص له المجد إلّا وسار على درب القداسة ليتقدّس ويقدّس معه الآخرين. وإن لم يحظَ بالقدّاس أقلّه يبقى عزيز الجانب موفور الكرامة لدى الآخرين أيًّا يكن دينهم ومذهبهم لأن الخير أو الصلاح أيًّا يكن دين صاحبه أو القائم به يوفّر جوًّا من الطمأنينة الداخلية والاحترام. ولنا على صحّة ما أقول مثل الراهبة تريزيا ده كلكوتا التي جمعت حولها احترامًا لا مثيل له من قبل ممثّلي دول العالم تشاركوا في مأتمها، بشكلٍ لا نظير له مع أنهم مختلفون معها من حيث الدين لأن حكامًا لا دينيين شاركوا في مأتمها وآخرين من البوذيين والمسلمين كرّموها دون أن يكونوا مسيحيين وتلك هي النقطة الرئيسية التي اجتمعوا حولها وهي تضحياتها الجلّى في سبيل الفقراء والمعوزين والذين أهملهم ذووهم فحضنتهم الأخت تريزيا ده كلكوتا لأنها رأت على وجوههم وجه السيّد المسيح القائل: كنت مريضًا فأنقذتموني وجائعًا فأطعمتموني...» ولكونها أحبَّت الفقير والمريض والمظلوم واحتضنته ما كان للعالم إلّا أن يكرّمها حية وميتة لأنها بسلوكها في الحياة التي عاشتها فرضت ذاتها على من شاطرها إيمانها المسيحي أو خالفها في معتقداتها وهنا تكمن عظمة سلوكها مع الناس، وبخاصة المهمّشين والمنبوذين وسكان الأزقة والسياجات هؤلاء الذين نبذهم العالم واحتقرهم هم عادوا ودخلوا في حسابات الكبار والمتنفّذين بواسطة الأخت تريزيا ده كلكوتا حتى كأن دخولها عليهم قد فُرِض فرضًا من دون أن يكون لهم حقّ أو وقت لمناقشة ذاك الموضوع وكأني به أمر واقع غير قابل للمناقشة أو للدرس.

إن التكريم الصيداوي لشخصي بعد خمسين سنة عشتها في صيدا دون انقطاع، مشاركًا سكّانها على اختلاف طوائفهم وأديانهم حالات الفرح والحزن التي عاشوها والذي قامت به شخصيات صيداوية دينية وسياسية ومدنية على أعلى المستويات كان له التأثير العميق عليَّ كما كانت الكلمات والخطب التي ألقيت في تلك المناسبة في القصر البلدي أمام حشد كبير من الحضور القادم من الأبرشية والمدينة معبّرة بصدق عن مشاعر حقيقية لا شك فيها ما كانت غريبة عن أبناء المدينة بمسيحييها ومسلميها وكنت ألمسها طوال اقامتي في المدينة حيث كنت أشعر إنني لست غريبًا عنها وفيها وإني لأرجو من كلّ قلبي أن تظلّ هذه العلاقة الحميمة قائمة بين رجال الدين مسيحيين ومسلمين على مدى الأجيال

لتتوطد أكثر وأكثر قواعد العيش المشترك الذي لا غنى عنه في لبنان ولا قيام لمستقبل له زاهر إلّا على أسس متينة وراسخة من التآخي والتواصل المستمرّ بين جميع أبنائه في السراء والضراء حتى إذا أصيب مواطن في حاله أو رزقه هبَّ الآخر لافتقاده وإقالته من عثرته ليسيرا معًا يدًا بيد رفعًا لشأن الوطن الذي لا يكبر ويعتزّ إلّا باتحاد جميع أبنائه ومواجهة ما يحيق به من أخطار متضامنين، متصافين. وأشادت الجرائد اليومية بالاحتفال الذي صار وتحدّث به في الرعايا على صعيد الأبرشية.

وقد نشرت صحيفة النهار في عددها الصادر في ٢١ آب ٢٠٠٤ عما انطوى عليه كتابي:

[...] وتبدأ صفحات الكتاب برسالة تهنئة من الفاتيكان باسم البابا يوحنّا بولس الثاني. ويضمّ في صفحاته نبذة عن سيرة حياة الحلو منذ دراسته الابتدائية في مدرسة بلدته وادي جزّين والتكميلية في مدرسة دير مشموشة ثم في المدرسة الإكليريكية للآباء اليسوعيين في بيروت وصولًا إلى شغله لمناصب عدة في الكنيسة المارونية في الجنوب والشوف كأمين سرّ المطرانية ومدرّس وخادم رعية صيدا ونائبًا عامًا للأبرشية ورئيس لرابطة كاريتاس لبنان في إقليم صيدا والزهراني والنبطية والشوف وأستاذًا في جامعة القدّيس يوسف في صيدا وصولًا إلى درجة الخورأسقف من غبطة البطريرك صفير ومنحه وسام الأرز من رتبة فارس من قبل رئيس الجمهورية العماد إميل لحّود.

كما يضمّ الكتاب الذين توزّعت على صفحاته مجموعة من الصور تتحدث عن أهمّ الأحداث والمراحل الرعوية والسياسية التي واكبها المونسنيور حلو طوال مسيرته الكهنوتية، نخبة من شهادات قدّمت عن دوره في تعزيز مكانة الكنيسة المارونية في جنوب لبنان ومساهماته الغنية في سبيل إرساء الأسس الوطنية بين اللبنانيين ومناصرته للجنوبيين في مواجهة الآلام التي تعرّض لها الجنوبيون، وهو الذي أغنى مكتبة الكنيسة بأربعة عشر كتابًا توزعت بين المؤلّفات والمقالات والترجمات وآخرها «كلمات كان لا بدّ منها».

ساهم في كتابة هذه الشهادات كلّ من البطريرك الماروني الكردينال نصر

الله بطرس صفير، المطران طانيوس الخوري، المطران سليم الغزال، المطران جورج كويتر، الأرشمندريت سليمان أبو زيد، المفتي الشيخ محمد سليم جلال الدين، العلّامة السيّد محمّد حسن الأمين، الوزير ميشال موسى، الوزير السابق إدمون رزق، النوّاب علي عسيران، بهية الحريري، أسامة سعيد، محافظ الجنوب فيصل الصايغ محافظ الجنوب السابق حليم فيّاض، رئيس بلدية صيدا الأسبق أحمد الكلش، رئيس بلدية صيدا السابق هلال قبرصلي، رئيس غرفة التجارة والصناعة في صيدا والجنوب محمّد الزعتري، رئيس جامعة القدّيس يوسف للآباء اليسوعيين في البرامية –شرقي صيدا الأب جوزف نصّار اليسوعي، الأب عبدو أبو كسم، المحامي إيلي فرنسيس، المهندس سعد الله جحا، رئيس رابطة كاريتاس لبنان الأب لويس سماحه، الأستاذ جان الحلو، إضافة إلى شهادات باسم كهنة أبرشية صيدا وراهبات مار يوسف الظهور وأبناء رعية مار الياس.

فيما كانت الدعوات تتوالى في هذه المدّة التي رافقت ذلك التكريم، كنا في المطرانية قد عزمنا بعد دراسة مستفيضة مع لجنة من المهندسين على توسيع دار المطرانية في صيدا التي بناها المثلّث الرحمة المطران أنطونيوس خريش سنة ١٩٥٦ ليجعل منها مركزًا للأبرشية في صيدا التي، وحتى ذلك التاريخ ومع أنها تحمل اسم أبرشية صيدا المارونية، لم يكن لها مركز في صيدا بل كان مركزها الأساسي في بيت الدين، الشوف، في الدار التي اشتراها المثلّث الرحمة المطران بطرس البستاني سنة ١٨٦٣ من الأمير بشير الشهابي الكبير وجعلها مركزًا رئيسيًا لإقامته. ومع أن الأبرشية كانت تملك منذ أوائل الثلاثينات في القرن الماضي أراض واسعة في منطقة الرميله وعلمان على الساحل القريبة من صيدا، إلّا أنها لم يكن لها موطئ قدم في صيدا. لذلك اختارها المطران خريش الذي باشر ببنائها إلى جانب الكاتدرائية في السنة ١٩٥٦ على أرض مشجرة بأغراس الليمون. وبما أنها لم تكن كافية فقد اشترى قسمًا إضافة إلى العقار الذي أشرنا إليه من بلدية صيدا بسعر أربعة عشر ليرة لبنانية للمتر الواحد حتى استطاع المهندس أن يركز البناء ويجعل له مدخلًا من الشارع الرئيسي، وعليه يقيم فسحة داخلية تربط ما بين دار المطرانية والكاتدرائية من دون أن يمرّ

الداخل إلى الكاتدرائية على الشارع الرئيسي والعكس بالعكس. وكان السعر الذي دفعته المطرانية سعرًا رمزيًا لأن السلطة المدنية المحلية كات تعتبر أن بناء المطرانية في وسط المدينة يشجّع العيش المشترك الذي كانت صيدا ولا تزال تحافظ عليه.

لا بدَّ من الإشارة في هذا المجال إلى أن الغاية الأولى من هذا البناء في مدينة صيدا هو الحضور في المدينة والتفاعل مع سلطاتها الروحية والمدنية ونشأت علاقات مودة واحترام متبادل كما عمل هذا الحضور في المدينة على تسهيل الاتصال بأبناء الأبرشية التي كانت تمتد آنذاك من قضاءَي حاصبيا ومرجعيون جنوبًا حتى نهر الدامور شمالًا والبقاع الغربي بأكمله. وهكذا فقد أصبح على الكهنة عقد اجتماعاتهم الشهرية في دار المطرانية بصيدا كما أصبح من السهل على ذوي الحاجات والعلاقات الاتصال بالمسؤول القائم في صيدا بدلًا من الاتصال به في بيت الدين وهكذا فقد أصبح للأبرشية مركز هام في المدينة تثبت بما لا يقبل الشك خلال سنوات الحرب العجاف التي دامت سبع عشرة سنة كما يعرف القاصي والداني خسرت الأبرشية خلالها كرسيها في بيت الدين ولم يعد لها موطئ قدم إلّا في صيدا... وبالرغم من من كّل ما جرى خلال الحرب القذرة، ما أغلقت المطرانية أبوابها يومًا واحدًا ولا صدَّت طارئًا أو مهجّرًا إلّا واستمعت إليه وتجاوبت مع ما كان بحاجة إليه سواءٌ أكان يطلب مساعدة مالية أو تدخّلًا لدى متنفذ يحجز حريته أو يمنع عنه حقًّا له مغتصبًا.

في أحد الأيام وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر يوم صار تهجير أهالي الشحّار المسيحيين مع أهالي الناعمه، وبينما كنت أصلّي في الدار جاءَني إثنان يلهثان وقد أوقفا سيارتهما على القسم الآخر من الشارع باتّجاه صور وهما على شيء من الذعر والخوف. وقالا لي: «أبونا تهجّرنا من بلدنا الناعمه بدّك تدبرنا». وكان جوابي مطمئنًا: «أدخلا سيارتكما إلى دار المطرانية لأعمل على تلبية طلبكما»، لكنهما أجاباني بصوت واحد: «البلد كلّها تهجّرت وهم وراءنا، كما أن العشرات من العيال تهجّرت أيضًا من الشحّار وها هي في رتل من السيارات وراءنا.» إذّاك خرجت من المطرانية واتخذت سيارة عمومية من مكتب الشهرزاد أمام المطرانية وقلت للإثنين اللذين دخلا عليَّ قولا لمن وراءكما بأن يلحقاني بسياراتهم وسرت إلى درب السيم. وهناك أنزلت بضع عائلات بعد أن أمّنت

لها بيوتًا تأويها وسرت أمام رتل السيارات الباقية صعودًا إلى عين الدلب فالقرية فجنسنايا -بيصور -لبعا -كفرجرّه. وهكذا فقد استضافت كلّ من تلك الرعايا ما كانت قادرة عليه من دون تذمّر ولا تأفّف. وبعد أن اطمأن بالي إلى أن تلك العائلات المهجّرة قد وجدت لها مأوى، رحت في اليوم التالي مع المتطوعين من شبيبة كاريتاس والأخت عيدا يزبك المسؤولة الاجتماعية في المركز بصيدا نستقصي حاجات ضيوف تلك الرعايا لنعمل على تلبيتها. وعلى سبيل المثال إحدى السيّدات الموجودة في ضيافة رعية عين الدلب وهي من الناعمه قد وضعت طفلًا في تلك الليلة فحنا عليها أهل البيت وعملوا على تخفيف وحشة التهجير عنها وكان لنا أن نشكر المضيف ونلبّي حاجات الضيف الطارئة.

في إحدى الليالي وكانت الساعة الواحدة والنصف بعد نصف الليل وقد سمعت أبواق سيارات بشكلٍ كثيف ومزعج وصوتًا يناديني باسمي من الشارع إذّاك قمت من سريري وفتحت شباك غرفتي الذي يعطي على الشارع فناداني أحد الموجودين ويدعى شكيب بستاني وهو من الدبيه والشارع يعج بالسيارات المتوقفة. خرجت إليهم فوجدت على البوابة الخارجية من دار المطرانية سيارة فيها عائلة من سبعة أشخاص على ما أذكر من آل العلية وجميعهم أيتام جمعتهم أمّهم في هذه السيارة وأتت بهم. كما أتى أولئك القادمون وراءَها إلى المطرانية طلبًا لمأوى بعد أن هوجموا في ديارهم فاضطروا إلى مغادرتها تحت جنح الظلام هربًا من الموت. تأثّرت جدًا لمنظر تلك العائلة الفقيرة مع أمّهم التي حملتهم إلى المطرانية بحثًا عن مكان أمين تحميهم فيه من أشرارٍ يريدون قتلهم. وما كان لي في تلك الليلة سوى أن أرسل بهم إلى دير البراميه وإلى فرع جامعة الآباء اليسوعيين في البراميه لكي يقضوا ما بقي من تلك الليلة حتى الصباح الذي قمت فيه بعد القدّاس الإلهي بزيارتهم والعمل على تدبير شؤونهم بانتظار فرج العودة إلى بيوتهم. أما هذه العائلة التي فقدت معيلها منذ أقل من سنة وقد صعقه التيّار الكهربائي وهو عائد من قطاف الزيتون في خراج الدبيه فقد ألقي هم التربية في تلك الأيام الصعبة على عاتق الأم وجميع أولادها قاصرون، فكدت وجدّت ووصلت ليلها بنهارها على حدّ القول المأثور. وكانت دائمًا على اتصال بالمطرانية التي ما تأخرت يومًا عن رعايتها باليسير الممكن وبعد أن ذاقت مرارة اليتم والفقر اكتمل بؤسها مع التهجير من بلدتها الدبيه خارج الأبرشية ولكن سهر الأمّ القديرة المتواصل دفع

بالأولاد إلى أن يتعلّموا وينجحوا بين زملائهم، فتأمّن لهم مستقبل واعد، وراح كلّ يعمل في مجال الاختصاص الذي أراده. وهذا بفضل الأمّ ورعايتها وكدّها المتواصل فقد كافأها الله، على ما أعتقد، بأيام راحة وهناء في رعاية أولادها الذين تبوؤوا في المجتمع مراكز مرموقة بفضل سهر الأمّ وتضحياتها الكثيرة التي تشهد لها بها المطرانية. أقول هذا في معرض الكلام عن علاقة المطرانية بالمهجّرين لكي أبيّن ما لوجودها في هذا المحيط من حسنات أدّتها لذوي الحاجة. وحسبي أن أعود بالذاكرة إلى عشرات الأحداث التي تعرَّض لها أبناؤنا في أيام الحرب التي عصفت بالمنطقة منذ سنة ١٩٧٦ وعلى مدى سبع عشرة سنة لولا وجود المطرانية وحضورها الفاعل في المحيط لكانت التضحيات والضحايا أكثر بكثير.

إذا ما تكلّمت عن الخدمات والمداخلات فلا يجوز أن يفكّر القارئ لهذه السطور أنها كانت محصورة بالجماعة المسيحية دون سواها بل تعدتها مرارًا وتكرارًا إلى المسلمين على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم دون استثناء. وهي لعمري سنوات من حياتي قضيتها في خطر يومي وما باليت به بل كنت أنجد من يطلب نجدة وأغيث كلّ طارئ دون النظر إلى هويّته ودينه بلا منّة ولا تكلّف. وتلك أيام أو سنوات من العمر أظهرت فيها دون تبجح ما يمكن لرجال الكنيسة أن يؤدوه كشهادة لإيمانهم بالسيّد المسيح الذي ما جاءَ ليُخدم بل ليخدم ويبذل نفسه عن كثيرين وهو الذي أودعنا وصيته الأخيرة بكلماته الأخيرة إلى رسله على جبل الزيتون حين قال لهم: «ستكونون لي شهودًا حتى أقاصي الأرض» وليس لنا في لبنان نحن معشر الإكليروس سوى أن نكون أمناء لهذه الوصية التي تركها لنا يسوع لنطبّقها في حياتنا اليومية وإلّا كنا خائنين له قولًا وفعلًا وكنا عبيدًا بطّالين في كرمه نطالب ساعة الدينونة بالحساب عن تأدية الرسالة المقدسة التي أوكلها إلينا.

إذا ما كنت أقول هذا الكلام لا للتبجّح والمفاخرة بل لإظهار نعمة الله التي رافقتني في الحياة وعضدتني في ساعات الخطر فتجاوزته وقوّتني على تخطّي الصعوبات التي كانت تواجهني. وأقول هذا لكي أبعث في القلوب الضعيفة من إخواني الكهنة الحماسة على تحقيق الغاية التي دفعتنا على التجاوب مع الدعوة.

أقول إنها لم تألُ جهدًا ولم توفّر ما لديها من طاقات لمساعدة وتشجيع العودة حتى إنها بموافقة واستئذان صاحب الغبطة مار نصر الله بطرس صفير الكلّي الطوبى

فتحت أمام الراغبين في العودة الذين لم يكونوا مالكين لبيوتهم المهدمّة الباب ضمن شروط بسيطة لمشترى الأرض التي كان البيت قائمًا عليها أو لمشترى ما يلزم لبناء بيت من أملاك المطرانية في الشوف وبخاصة في بكيفا ومزموره ومزرعة الضهر. وهكذا فقد أمَّنت المطرانية أماكن بثمن مقبول لكلّ من أراد أن يبني بيتًا وليس لديه أرض حتى بلغ عدد المستفيدين سبعة وعشرين في تلك القرى المذكورة. ولما منعت روما بيع الأراضي الخاصة بالأوقاف إلّا باذنٍ منها ما عدنا تابعنا ذلك المشروع لأن الإذن كان يتطلّب ستة أشهر تقريبًا للحصول عليه. ولهذا فقد توقّفت المطرانية عن السير في ذلك المشروع وأبقت على مشروع مقايضة أرض بأرض الذي كان باستطاعة السيّد البطريرك أن يوافق عليه.

محاضرة عن القدس

جاءَني ذات يوم وفد من طلّاب الجامعة اللبنانية في صيدا وطلبوا مني بإلحاح أن ألقي عليهم كلمة عن القدس ملتقى الديانتين المسيحية والإسلامية تحت العنوان التالي: «القدس ملتقى قيمنا وتجسيد وحدتنا». وألقيتها بالاشتراك مع الشيخ علي الأمين مفتي صور. وكان نقاشٌ هادئ وأسئلة طرحها الطلّاب علينا وكانت مشاركة في الجواب عليها... وإن لهذه اللقاءَات مع الطلّاب الذين يدينون معظمهم بالإسلام فائدة لنا في الإعلان عن موقفنا المسيحي من مشكلة الأراضي المقدّسة التي ليست مشكلة إسلامية بقدر ما هي مسيحية...

> باسمه تعالى نلتقي في الحوار حول موضوع يشغل العالم اليوم ويستقطب اهتمام الناس وإن تكن النظرة إليه مختلفة. نرى مثلًا أن حديث الأقربين مشوبٌ بالحذر والخوف ونرى حديث الأبعدين ذا طابع سياسي تحرّكه مصالح الشعوب والدول ولا يلتقون على قاسم مشترك بينما ديار القدس الشريف تحترق وأبناؤها يلاحقون في بيوتهم والشوارع والطرقات والحقول ويقتلون فيتساقط الأبرياء ولا من يشفق ولا من يرحم والعالم عنهم غافل.
>
> لا يقتصر لقاؤنا على تبادل الأفكار ولا جئنا إلى هذا الاجتماع للبكاء على الأطلال، حفاظًا على ماء الوجه، أمام شعوب العالم كيلا نتَّهم بالتخلّف

عن واجب وطني وقومي، إنما يجب أن نتفهّم لبّ المشكلة التي ليست عربية وحسب محصورة ضمن نطاق العالم العربي: جذورها عبرية عربية وفروعها عالمية ودورنا نحن ضمن نطاق العالم العربي أن نعزّز وحدتنا الوطنية فننبذ ما يفرّق وننمّي ما يُوحّد ويجمع ونعترف بجرأة بأننا لن نستطيع أن نمدّ يد المساعدة إلى الآخرين إلّا إذا وحّدنا الجهود حلًا لمشاكلهم وتوحيد الجهود حين لا يتحقق إلّا بإيجاد حلول لمشاكلنا الداخلية: فكيف يستطيع إنسان مثلًا ربّ بيت أن يؤمن السلام في بيت جاره وسلام البيت لديه ضائع ومفقود. ولن نلتقي على نصرة القدس الشريف ومقدّساته وإعادة الحقّ السليب في فلسطين إلى أصحابه إلّا إذا كنا متحابين، متضامنين في السراء والضراء. وكيف يمكننا أن ننصر الآخرين إن لم نلتقِ متعاونين على نصرة بلادنا... وكيف يمكن الأناس أن يسترجعوا حقًّا مهضومًا إذا كان الحقّ عندهم مداسًا ومحتقرًا. ومن المعروف لدى القاصي والداني، لدى الجميع، إن المسيحية والإسلام دينان يدعوان الله سبحانه وتعالى إله المحبّة والرحمة: هلّا قرّب المؤمنون به، مسيحيون ومسلمون، هذه الحقيقة من عقول بني أوطانهم فعاشوها وشهدوا للناس أجمعين إننا خلق الله وعياله؛ هل عاشوا المحبّة فيما بينهم وهل مارسوا الرحمة التي بها يؤمنون وعليها سوف يدانون؟؟

لا أحد يستطيع أن ينكر أن القدس قيمة مقدّسة ومشتركة بين المسيحيين والمسلمين: منها انطلقت البشارة المسيحية إلى العالم بأسره تجاوبًا مع نداء السيّد المسيح إلى تلاميذه قائلًا: «انطلقوا إلى العالم كلّه واكرزوا ببشارتي للخليقة كلّها...» فيها كنيسة القيامة ترمز إلى انتصار السيّد المسيح على الموت وعلى الخطيئة... ومنها انبثق رجاء القيامة المجيدة لجميع المؤمنين به... وفيها المسجد الأقصى، ثالث الحرمين الشريفين. إنها لمقدّسات لا تجوز الاستهانة بها، لما تمثّل للمؤمنين، مسيحيين ومسلمين. وهي أمانة مقدّسة في أعناق الأجيال المسيحية والإسلامية على السواء. وإذا قيل إن العالم الغربي وهو مسيحي يستهين بمقدّساته إرضاءً للشعب اليهودي فهذا هو عين الخطأ

وهو تنصُّل من المسؤولية. دول الغرب في هذه الأيام تنظر إلى مصالح شعوبها وتحاول أن تعمل من أجلها ولا همَّ بالنسبة إليها أن تكون هوية القدس يهودية أم عربية. وكم تطوّرت أفكار وتبلورت مفاهيم حول هذه النقطة. وأظن، وآمل أن أكون على حق، ان الحروب الصليبية لم تجرِ بدافع ديني وحسب بل كانت رغبة في الاستعمار والتوسع على حساب دول ضعيفة. وأظن كذلك انه زمن ولّى إلى غير رجعة غير مرغوب فيه ولا مأسوف عليه.

وفي هذا المجال علينا أن ندرك تمام الإدراك أن الدين اليهودي يبقى ناقصًا والإيمان به مبتور طالما أن الهيكل خرب، لم يعمَّر! وما دامت الذبيحة هي من أساس الدين اليهودي ولا يمكن أن تكون مقبولة إلّا إذا تمّت بموجب الشريعة داخل الهيكل.

يقول المؤرّخ اليهودي يوسيفوس عن خراب الهيكل على أيدي الرومان الغزاة ما يلي: «إن القائد الروماني تيضوس قائد الحملة إلى القدس أورشليم في السنة السبعين الميلادية المكلّف بأن يقمع ثورة السكان اليهود على الرومان قد لقي مقاومة ضارية من قبل اليهود الذين خسروا أربعمئة ألف قتيل فوق حجارة الهيكل المعروف بهيكل سليمان أثناء دفاعهم المستميت عنه حتى أنه لم يُبقِ فيه حجرًا على حجر فتمت عنه نبوءة السيّد المسيح. وبعد خراب الهيكل على يد الرومان تشتّت الشعب اليهودي في أنحاء العالم كافة من دون أن يخمد في حناياهم الحنين إلى أورشليم مدينة السلام وإلى الهيكل محط أنظارهم حتى تجمّع اليهود من الشتات وقاوموا بضراوة في فلسطين في أواخر عهد الانتداب الانكليزي على فلسطين وسيطروا على قسمٍ منها بقوّة السلاح وطردوا قسمًا كبيرًا من أهالي البلاد خارجًا عنها إلى أنحاء عديدة في العالم ولا يزالون لاجئين حتى اليوم ومنهم أربعمئة ألف فلسطيني في لبنان يعيشون في المخيّمات التي بنتها لهم منظّمة الأونروا واستضافهم لبنان على أمل أن يعودوا بعد قليلٍ من الزمن إلى ديارهم وها هي ثمان وخمسون سنة تنقضي وهم ينتظرون.

وحدتنا أيها الشباب، رهن إرادتنا، إذا أردنا توحدنا؛ وهذا لا يتحقّق بالكلام

والخطب الطنانة الرنانة التي نثير بها عواطف شعوبنا وليست ردًّا فعّالًا على عدوٍّ شرس محتال، يستعمل وسائل في الداخل والخارج ليقضي علينا ويمزّق صفوفنا ويظهرنا أمام الملأ بأننا شعوب إرهابية تهوى الفساد. أساس وحدتنا يقوم على احترام واحدنا للآخر مع ما بيننا من اختلاف في العقيدة والإيمان وعلى قبول أحدنا للآخر مع ما جرى بيننا في الماضي القريب والبعيد من خلافات ونزاعات دموية فنتعالى على كلّ ذلك ونتناساه ونتعاون على بناء وطن يتساوى فيه الجميع في الحقوق والواجبات يعملون على رفع شأنه في محيطه وفي العالم واعلموا أن من لا يعمل على بناء بيته وتحصينه من الداخل والخارج يعجز عن فرض احترامه على الغير لا بل يهزأ به الآخرون ويصبح لقمة سائغة لجيرانه الطامعين بخيراته... واسمحوا لي بأن أنقل حديثًا مقتضبًا لضابط إسرائيلي فاجأني بزيارة في دار المطرانية بصيدا في الأيام الأولى من اجتياحهم لمدينة صيدا. بدأت الحديث قائلًا: إلى متى يظل طيرانكم ومدفعيتكم وجيوشكم تقصف مدننا وقرانا وشعبنا؟ أجاب: لبنان، بيت فيه أولاد صغار يلعبون بالكبريت ويحرقون بيتهم... خاف جارهم من أن تمتد ألسنة النار إلى بيته فدخل ليطفئ النار... أجبت أن لبنان بيت يعيش فيه أولاد صغار يلعبون بالنار التي أخذت تحرق البيت ولكن من ذا الذي يمدّهم بالكبريت؟ للحال ودون أن يكمل زيارته المفاجئة خرج توًّا وراح يقول وهو خارج من الدار: ليست إسرائيل.. واضطرب المحامي فقال: ليتني كنت غائبًا ولم أسمع ما جرى خوفًا من أن يتبع ذلك الحديث انتقامٌ منا نحن أهل الدار والموجود فيها. لكن موقفي الصامد شدّد على ما أظنّ من عزيمته ذاك المحامي.

وجرى بعد المحاضرتين نقاش هادئ مع المجتمعين أثار فيه بعضهم موضوع استعمال القوّة والعنف خدمة للحقيقة أو وصولًا إلى الهدف المنشود وكان سؤال من فضيلة الزميل الشيخ عمّا إذا كان الدين المسيحي يسمح باستعمال القوّة فأطلعته على موقف السيّد المسيح من التجّار في الهيكل ساعة جدلًا سوطًا وأخرجهم بالقوّة قائلًا: «بيتي بيت صلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة للصوص»، علمًا أن الصمود في المواقف المحقّة ودون استعمال سلاح يتغلّب على كلّ عنف ويظفر القائم به بمبتغاه ولو بعد حين.

التباين بين الآمال والتنفيذ

قبل أن ينهي سيادة المطران طانيوس الخوري عهده، قرّر أن يبني في المطرانية بصيدا طبقتين إضافيتين ليجعل منها مركزًا يتّسع لعدة كهنة يقومون فيها ويعملون بشكلٍ لائق وفقًا لما يتطلبه العمل الرسولي في الأبرشية. كما كان تخطيط لإمكانية تعايش بين المطران الجديد والمطران القديم الذي بلغ السن القانونية، إذ كان من المنتظر قدوم مطران جديد، عملًا بالقانون المرعي في قوانين الكنائس الشرقية. هكذا كان التخطيط وهكذا كان التنفيذ أما تحقيق الآمال فقد ظلّ حبرًا على ورق... إذ لمّا استلم المطران الجديد الياس نصّار مقاليد الأبرشية غادرها المطران القديم طانيوس الخوري إلى البيت الوالدي في صغبين، مسقط رأسه. أمّا أنا خادمكم فقد اتّخذت مركزًا لي في ثانوية مار يوسف الظهور في صيدا تاركًا الرعية، تنفيذًا لأمر سيادته الجديد الذي لم يكن له رأي في اختيار مقرّ إقامتي الجديد، بل هو اختيار شخصي لا دخل لأحد فيه سوى الضيافة السمحاء التي أظهرتها لي راهبات مار يوسف الظهور في صيدا حيث أعطوني غرفة أقرب ما تكون إلى الكنيسة، حيث كنت أشاركهن صباح مساء بتلاوة الفرض الإلهي وأقيم لهن القدّاس كلّ صباح في تمام الساعة السادسة والنصف ما عدا يوم السبت حيث يقام القدّاس الساعة السابعة صباحًا لأنه يوم عطلة في المدرسة.

وبما إني أصبحت محرّرًا من خدمة الرعية التي قضيت فيها ثلاث وخمسين سنة دون انقطاع استنادًا إلى القانون الكنسي الذي أحبّ سيادته أن يطبّقه علي من بين كهنة الأبرشية فقد أفدت من وقتي الحرّ لأكتب مذكّراتي هذه التي أرجو وآمل من كلّ قلبي أن تعطي صورة واضحة وجلية لإخوتي الكهنة في أبرشيتنا بوجه خاص وفي كنيستنا بوجهٍ عام عن الأسلوب الذي مارست فيه واجباتي الكهنوتية والراعوية على مدى خمسٍ وخمسين سنة دون انقطاع، والطريقة التي عاملتني بها السلطة الكنسية ليكون ما أكتبه عبرة لمن أحبّ أن يعتبر ومحطّة تأمّل لمن بيده السلطة ليعرف كيف يجب عليه أن يتعاطى مع الكهنة الذين خدموا بأمانة شعب المسيح وكانوا شهودًا له أمام غير المسيحيين في ظروفٍ صعبة واجهتها بإيمان ثابت واتّكال على العناية الإلهية التي ما تخلّت عني دقيقة منذ أن عيّنتني السلطة الكنسية في صيدا. ولله المجد أوّلًا وآخرًا ومنه العفو أستمده عن كلّ تقصير صدر عني في

سنوات خدمتي الكهنوتية آملًا أن يشملني دومًا بعفوه ورضوانه حتى الساعة الأخيرة التي أمثل فيها أمامه لتأدية الحساب عن الوزنات التي تسلّمتها منه فتاجرت بها تجارة رابحة، على ما أظنّ وأعتقد، ومنه تعالى أنتظر مجازاة العبد التي يعد بها من أحسنوا الأمانة وله الشكر أوّلًا وآخرًا على كلّ ما أعطى ووهب الأغلى من الجواهر الثمينة والذهب.

خاتمة

أمّا وقد أرسلت إلى المطبعة بعض ما عشت وشهدت من أحداث في حياتي حتى الآن فإني أقصد من خلالها إعطاء فكرة آمل أن تكون معبرةً بصدق وإخلاص لأبناء وطني، وبخاصة إلى أبناء الأبرشية الصيداوية التي فيها ولدت وفيها نشأت وترعرعت وفيها تعلّمت أن أكون خادمًا لجميع المقيمين فيها مسيحيين ومسلمين على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم. وقد دعاني الله فيها إلى أن أكون خادمًا للموارنة كما لسائر المسيحيين ووضعني في مدينة معظم سكّانها من المسلمين فانفتحت عليهم وكنت أجد فيهم خرافًا للمسيح مات هو أيضًا لأجلهم وافتداهم بموته على الصليب كما افتدى الذين قبلوا بشارته وحملوا اسمه ولا يزال ينتظر منا أن نكون له شهودًا بينهم، رسلًا نحبّب إليهم الوجود المسيحي فلا يرون في المسيحيين خصومًا لهم وأعداء كما يجب على المسيحيين الذين يعيشون معهم وبينهم اخوة لهم ليس فقط في المواطنية بل وبخاصة في الانسانية. صحيح أن التاريخ حمل بصماتٍ لا نريدها نحن كما لا يريدونها هم ونأبى جميعنا أن تتكرر ولهذا:

أرى أن الاتّصال بهم يجب أن يستمر ولا يجوز أن ننغلق على أنفسنا إذا خالفونا في الرأي أو لمسنا لديهم ومنهم بعض الجفاء. وعلينا أن نعمل على توطيد العلاقات الاجتماعية التي تشدّنا بعضًا إلى بعض كمواطنين وكجيران نتبادل معهم الزيارات فنقف إلى جانبهم في جميع الحالات التي يمرّون بها فنجعل من فرحهم فرحًا لنا ونشاركهم في حزنهم أيضًا ليس فقط كمواطنين بل كإخوة نتقاسم وإياهم حلو الحياة ومرَّها. وأظنّ أن الاحترام المتبادل هو الذي يبني في ما بيننا العيش المشترك على أسسٍ متينة. وبذلك نكون أمناء أوفياء للرسالة التي وضعها الله علينا وائتمننا عليها وعليها سوف نؤدّي حسابًا وإليها يدعونا قداسة البابا ورؤساؤنا الروحيون وحسبنا أن نعود إلى ما كان يشدّد عليه الكردينال إتشيغاراي موفد البابا إلى جزّين ومنطقتها في لقاءَاته بالمسيحيين والمسلمين في تمّوز ١٩٨٥. وهذا

التشديد على إحياء العيش المشترك والمحافظة عليه ليس بدعة جديدة بل إرادة رسولية نابعة من صميم تعاليمنا الانجيلية وإلا كيف يمكن لنا أن نشهد للمسيح إن لم نخترق حاجز العداوة الذي يُطلب منا نحن أبناء هذه الأبرشية التي تضم ضمن نطاقها الجغرافي من لا يشاطروننا ايماننا بالمسيح سواءَ أكانوا مسلمين أم دروزًا موحّدين.

علينا أن نعتبر أن هذا الوجود هو نعمة من الله وليس نقمة. وهو محكٌّ لأمانتنا للمسيح وللرسالة التي يلقيها على عاتقنا في هذا المحيط. من المؤسف أن تكون الأحداث الأليمة التي ضربت لبنان منذ السنة ١٩٧٥ وقد اندلعت فيها نيران الحرب بين اللبنانيين، قد ارتفعت فيها أعلام طائفية ومذهبية ودينية وجرت معارك فيها باسم الدين، لكن الذي يدعو إلى شيء من العزاء والأمل ان أصواتًا قد تعالت فيها من جميع الجهات تدين تلك المعارك وتشجبها داعية إلى التنكّر لما يجري بإسم الدين وهي التي انتصرت في النهاية والحمد لله. إني أدرك تمامًا أن، هنا وهناك، أناسًا ليسوا من رأيي في هذا المجال وقد يتّخذون مني مواقف حازمة وقد يسخرون من كلامي هذا الذي به أتمسَّك وعليه سوف أحاسب في أرض الأحياء، غير أني به أدين وإليه أدعو مواطني، مسيحيين ومسلمين، إلى التقيُّد به لأن به حياةً لجميع اللبنانيين وبه لا بسواه تتحقّق كلمة قداسة البابا يوحنا بولس الثاني إن لبنان ليس وطنًا وحسب بل هو رسالة إلى العالم أجمع.

سيرةُ حياة قدس الخورأسقف يوحنّا الحلو

خادمُ رعيّة مار الياس المارونيّة في صيدا والنائب الأسقفي العام لأبرشيّة صيدا المارونيّة. وُلد في وادي جزّين في السادس من كانون الأوّل ١٩٢٢، والده مسعود عازر خطّار بو شاهين الحلو ووالدته لطيفة زهران الحلو.

تابع دروسه الابتدائيّة في مدرسة وادي جزّين، ثمّ انتقل إلى مدرسة سيّدة مشموشة. تابع دروسه التكميليّة في مدرسة سيّدة مشموشة ثمّ في المدرسة الإكليريكيّة للآباء اليسوعيّين في بيروت. دخل المدرسة الإكليريكيّة في بيروت في الرابع عشر من تشرين الأوّل سنة ١٩٤٠. تابع دروسه الثانويّة في ثانويّة الآباء اليسوعيّين في بيروت. وانتقل إلى جامعة القدّيس يوسف للآباء اليسوعيّين حيث تابع دراسته اللاهوتيّة الجامعيّة وحاز شهادة بكالوريوس في الفلسفة وإجازة في اللاهوت. ترقّى إلى درجة الكهنوت المقدّسة في السادس من أيّار سنة ١٩٥١ بوضع يد المثلّث الرحمة المطران أنطونيوس خريش في كنيسة مار يوسف للآباء اليسوعيّين في بيروت.

الخدمات الكنسيّة الّتي أسندت إليه:

+ ١٩٥١-١٩٥٢: أمين سرّ مطرانيّة صيدا المارونيّة.

+ ١٩٥٢-١٩٥٣: مدرّس ومرشد في المدرسة الإكليريكيّة في غزير.

+ ١٩٥٣: خادم رعيّة صيدا ومدرّس في مدرسة الإخوة المريميّين في صيدا.

+ ١٩٦٢: أسّس مدرسة مار الياس في صيدا وقام بإدارتها.

+ ١٩٧٥: عُيّن نائبًا عامًّا لأبرشيّة صيدا المارونيّة.

+ ١٩٧٥: عُيّن رئيسًا لرابطة كاريتاس لبنان في إقليم صيدا، الزهراني، النبطيّة،

والشوف الساحلي.

+ ١٩٨٧: أستاذ مادّة الترجمة في جامعة القدّيس يوسف -فرع البراميّة.

+ ١٩٩٧: منحه صاحب الغبطة والنيافة الكاردينال مار نصر الله بطرس صفير بطريرك أنطاكية وسائر المشرق الكلّي الطوبى درجة الخورأسقفيّة.

+ ٢٠٠٠: منحه فخامة رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة العماد إميل لحّود وسام الأرز من رتبة فارس.

كتب عدّة ترجمات ومؤلّفات ومجموعة مقالات:

حياة القدّيس أوغوسطينوس، اعترافات القدّيس أوغوسطينوس، خواطر فيلسوف في الحياة الروحيّة للقدّيس أوغوسطينوس، شرح رسالة يوحنّا للقدّيس أوغوسطينوس، تعليم المبتدئين أصول الدّين المسيحي للقدّيس أوغوسطينوس، مدينة الله للقدّيس أوغوسطينوس (٣ أجزاء)، من أنت أيّها الكاهن؟، سيرة حياة القدّيسة تريزيا الأفيليّة، حياة القدّيس أنطونيوس البادواني، إيليّا النّبي، إلهي لا نفع له، مغامرة حبّ... رهان مضمون، كلماتٌ كان لا بدّ منها، أبانا، نقاط على الحروف، عظة الجبل ومحاورة الذات.

ملاحق

ARCHEVECHE MARONITE
DE SAIDA
07 / 721133

Le 21 Juin 1996

EMINENTISSIME SEIGNEUR ,

A la demande de son Excellence Mgr Roland ABOU JAOUDE , je me fais un agréable devoir d'exposer à votre Béatitude ce qui suit :

Quand le gouvernement libanais a exproprié le Collège St Louis des Frères Maristes à Saïda vers la fin des années cinquante , ceux-là ont pensé quitter la région du Liban Sud .

Alertée par cette nouvelle , la hiérarchie catholique locale , représentée par les deux évêques Khoraîche et Basile Khoury , s'est hâtée d'entamer des pourparlers avec les Frères , allant jusqu'à la Nonciature Apostolique et l'évêque latin en vue de garder les Frères dans la région pour continuer leur mission auprès de la jeunesse chrétienne et musulmane assumée dès le début du siècle .

A la suite de ces contacts effectués par la hiérarchie et les notables de Saïda , la Congrégation des Fréres Maristes a opté pour l'achat de la colline de Rmaylé (Chouf) , non loin de la ville de Saïda , pour y reconstruire un Collège moderne . C'est sur cette colline qu'ils ont acheté des dizaines de mille mètres carrés de plusieurs propriétaires dont le principal était l'Archevêché Maronite , qui a beaucoup fait pour les aider dans la réalisation de ce projet vital , soit en demandant des prix modiques et encourageants , soit surtout en leur permettant d'ouvrir à travers sa propriété une route , et cela sans aucun dédomagement financier , les reliant à la route principale Saïda - Beyrouth . Je pense que cette route a une superficie de 6000 m2 .

Maintenant que les Frères sont de retour mais sans aucune activité scolaire après un déplacement qui a duré de longues années , des rumeurs se propagent de bouche à oreille parlant tantôt d'une location à long terme , tantôt d'une aliénation du Collège . L'Archevêché Maronite de Saïda se trouve intéressé , et de droit , d'opter pour l'une ou l'autre de ces deux propositions avant tout autre personne morale ou physique , priant l'autorité ecclésiastique de bien vouloir prendre en considération cette mise au point qu'on voudrait claire et objective pour le bien commun de l'Eglise .

Avec mon profond respect et mon entier dévouement .

ARCHEVECHÉ MARONITE DE SAIDA
مطرانية صيدا
المارونية
(لبنان)
BEIT-EDDINE (LIBAN)

Mgr Jean HELOU
J. Hélou
Vicaire Général
du Diocèse Maronite de Saïda

Saida le 16/8/2006

A Son Eminence Révérendissime le Cardinal Jean Marie Etchegaray

Eminence,

Votre homélie si émouvante, prononcée à la messe du 15 août , en la Basilique Notre Dame à Harissa, en présence des Patriarches , des évêques, des prêtres et une foule de fidèles venus de tous les coins du Liban meurtri par la guerre a fait revivre en moi de très chers souvenirs , lors de Votre Visite historique et inoubliable à JEZZINE du 8 au 12 juillet 1985 comme Délégué Personnel du Saint Père ,le Pape Jean Paul II .

L'un de ces souvenirs multiples et inoubliables est celui de la petite fille ABOU AZIZ, maronite déplacée avec toute sa famille de la paroisse Notre Dame de Darbessim qui, se trouvant au milieu des fidèles groupés à l'Eglise St. Georges de Kaïtouleh autour de Vous , s'avance, à pas lents, vers Vous , ayant dans ses mains tremblantes un papier pour y lire cette parole touchante: Eminence , nous avons tout perdu, notre maison, notre école , nos livres, nos jouets , notre église et notre cimetière; il ne nous reste que notre foi et la prière... Voudriez - Vous le dire à Notre Saint Père le Pape? A ces mots dont Vous avez été touché, Vous avez pris la fillette dans Vos bras pour la serrer profondément et dire hautement: " celui qui a la foi de cette petite aura certainement gain de cause."

Ceux à qui Vous avez promis un retour dans leurs paroisses lors de votre visite ont eu gain de cause et sont déjà dans leurs maisons. J'espère aussi que ceux qui ont eu la grâce de Vous écouter parler d'une paix tant souhaitée au LIBAN puissent en jouir de si tôt.

Veuillez Eminence Vous assurer de mon profond respect .

Fidèlement Vôtre

MGR. Jean Hélou



بطريركية انطاكية وسائر المشرق المارونية

بكركي

أ.م-هـ-١٠ ٢٠٠٤/١١٢

حضرة الخوراسقف يوحنا الحلو،

النائب العام لأبرشية صيدا، الجزيل الاحترام

أعلمنا سيادة أخينا المطران طانيوس الخوري، مطران صيدا السامي الاحترام، أنكم تحتفلون هذه السنة بمرور خمسين سنة على خدمتكم الراعوية لمدينة صيدا، وان بلدية صيدا خصّتكم بتكريم في هذه المناسبة، وطلب منا ان نوجّه إليكم كلمة لنعرب لكم فيها عن عاطفتنا وتقديرنا لما قمتم به من خدمات كهنوتية طوال هذه السنوات التي انقضت، وما زخرت به من أحداث كان بعضها مؤلمًا جدًا.

إنا نشكر معكم الرب يسوع الذي دعاكم لتمثّلوه بين إخوانه البشر، وآتاكم من العافية ومن حسن التصرف، واستقامة المسلك، وسلامة التفكير، وجزالة التعبير ما مكّنكم من القيام برسالتكم الكهنوتية خير قيام. ولا شك في انكم تردّدون قول صاحب المزامير «ماذا ارد للرب عن جميع ما كافأني به» (مز ١١٥/١٢).

ولا نجهل ما مرّ عليكم وعلى أبرشية صيدا وجميع أبنائنا الكهنة والمؤمنين فيها من أحداث كان لها على جميع أبناد صيدا آثار لن تمحى، وما قاسيتم خلالها، انتم والمثلث الرحمة المطران ابراهيم حلو، نسيبكم، من مخاطر، وقاسيتم من أهوال. ولكن الله آتاكم ان تتجاوزوها بثقة وطيدة به تعالى وشجاعة نادرة لتواصلوا خدماتكم الراعوية التي قدّرها حق قدرها أبناء الأبرشية واصدقاؤهم من كل المذاهب.

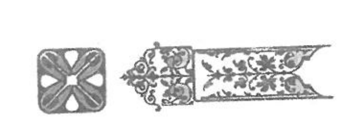
إنا اذ نهنئكم بهذه المناسبة السعيدة نسأل الله، بشفاعة امه البتول، ان يوالي عليكم نعمه وبركاته ويشملكم دائمًا برضاه.

بكركي، في ١٥ حزيران سنة ٢٠٠٤.

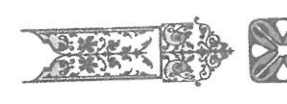
الكردينال نصرالله بطرس صفير

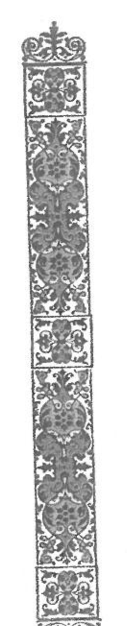
بطريرك إنطاكية وسائر المشرق

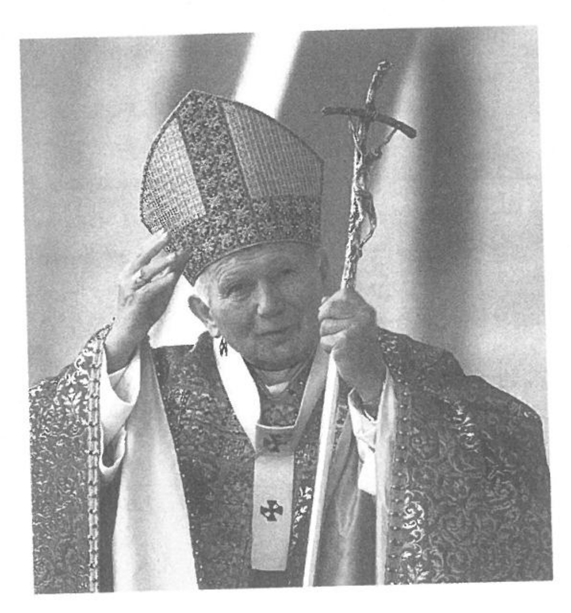












Sa Sainteté Jean Paul II

acorde de grand coeur

la Bénédiction Apostolique à



Monseigneur
Youhanna El Helou

a l'occasion du 50éme Anniversaire

de son Ordination Sacerdotale

en invoquant l'abondance des grâces divines

Ex Aedibus Vaticanis, die 21.5.2004

+ Oscar Rizzato

Archiepiscopus

Eleemosynarius Apostolicus

في نهاية الذكريات

أما وقد أرسلت إلى المطبعة بعض ما عشت وشهدت من أحداث في حياتي حتى الآن فإني أقصد من خلال إعطاء فكرة آمل أن تكون معبرة بصدق وإخلاص عن انتمائي الوطني ومحبتي إلى أبناء أبرشية صيدا التي فيها ولدت وفيها نشأت وترعرعت وفيها تعلمت أن أكون خادمًا لجميع المقيمين فيها مسيحيين ومسلمين على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم وقد دعاني الله فيما بعد أن أكون خادمًا لموارنة كل لبنان المسيحيين وخصوصًا في مدينة معظم سكانها من المسلمين فانفتحت عليهم وكنت أجد فيهم خرافًا للمسيح مات هو أيضًا من أجلهم وافتداهم بموته على الصليب كي افتدى الذين قبلوا رسالته وحملوا اسمه ولا يزال ينتظر منا أن نكون له شهودًا بينهم، رسالة تحمل إليهم الوجه المسيحي فهم يرون في المسيحيين خصومًا لهم وأعداء كما يجب على المسيحيين الذين يعيشون معهم وبينهم إخوة لهم ليس فقط في المواطنية بل وفي محبة في الله. صحيح أن التاريخ حمل بصمات لا نريدها نحن كما لا يريدونها هم ونأبى جميعنا أن تتكرر ولهذا:

أرى أن الاتصال بهم يجب أن يستمر ولا يجوز أن ننغلق على أنفسنا إذا خالفونا في الرأي أو لمسنا لديهم ومنهم بعض الجفاء وعلينا أن نعمل على توطيد العلاقات الاجتماعية التي تشدنا بعضًا إلى بعض كمواطنين وكجيران نتبادل معهم الزيارات فنقف إلى جانبهم في جميع الحالات التي يمرون بها فنفرح من فرحهم فرحًا لنا ونشاركهم في حزنهم أيضًا ليس فقط كمواطنين بل كإخوة نتقاسم وإياهم حلو الحياة ومرها. وأظن أن الاحترام المتبادل هو الذي يبني في ما بيننا العيش المشترك على أسس متينة، وبذلك نكون أمناء وأوفياء للرسالة التي وضعها الله علينا وائتمننا عليها وعليها سوف نؤدي حسابًا والمسيح يدعونا قداسة البابا وروما دائمًا وحينًا وحسبنا أن نعود إلى ما كان يشدد عليه الكردينال اتشيغاراي موفد البابا إلى جزين ومنطقتها في لقاءاته بالمسيحيين والمسلمين في تموز ١٩٨٥. وهذا التشديد على إحياء العيش المشترك والمحافظة عليه ليس بدعة جديدة بل إرادة رسولية نابعة من صميم تعاليمنا الإنجيلية وإلا كيف يمكن لنا أن نشهد للمسيح إن لم نخترق حاجز العداوة الذي يطلب منا نحن أبناء الأبرشية التي تضم ضمن نطاقها الجغرافي من يرتبطون بنا بإيماننا بالمسيح سواء أكانوا مسلمين أم دروزًا أم موحدين.

وعلينا أن نعتبر أن هذا الوجود هو نعمة من الله وليس نقمة. وهو محك أمانتنا للمسيح وللرسالة التي يلقيها على عاتقنا في هذا المحيط. من المؤسف أن تكون الأحداث الأليمة التي ضربت لبنان منذ السنة ١٩٧٥ قد اندلعت فيه نيران الحرب بين اللبنانيين قد ارتفعت فيها أعلام طائفية ومذهبية ودينية وجرت معارك فيها باسم الدين لكن الذي يدعو إلى شيء من التعزية والأمل أن أصواتًا قد تعالت فيها من جميع الجهات تدين تلك المعارك وتشجبها داعية إلى التنكر لما يجري باسم الدين وهي التي انتصرت في النهاية والحمد لله. إني أدرك تمامًا أن هناك وهناك أناسًا لا يساوون رأيي في هذا المجال وقد يتخذون مني مواقف حازمة وقد يسخرون من كلامي هذا الذي به أتمسك وعليه سوف أحاسب في أرض الأحياء غدًا إلى به أدين وإليه أدعو مواطنيّ مسيحيين ومسلمين إلى التقيد به لأن به حياة لجميع اللبنانيين وبه لا بسواه تتحقق كلمة قداسة البابا يوحنا بولس الثاني أن لبنان ليس وطنًا فحسب بل هو رسالة إلى العالم أجمع

فهرست

كلفة العيش المشترك

ترتدي هذه المذكّرات أهمية مزدوجة تجعل منها حاجة لكلّ سياسي وباحث في شؤون الحوار والعلاقات بين الأديان والطوائف والمجموعات الإثنية:

تكمن الأهميّة الأولى في أنّ مسرحها الرئيسي أبرشية صيدا المارونية التي كانت تضمّ، سنة ١٩٧٥، البقاع الغربي وقضاءَي حاصبيّا ومرجعيون والقسم الأكبر من قضاء صيدا -الزهراني، وقضاءَي جزّين والشوف، إضافة إلى قضاء القنيطرة في سوريا، ورعيّتين صغيرتين في الجولان، وفيها من جميع الطوائف الموجودة في لبنان. وكان على المؤلّف، كنائب عام على هذه الأبرشية، أن يتعامل مع الأحداث الكثيرة والكبيرة فيها بكثير من الدقة.

أمّا الأهمية الثانية، فهي في صدور الكتاب في مرحلة ترتسم فيها علامات استفهام عديدة، تتراوح بين التشكيك بنجاح تجربة العيش المشترك في لبنان، وضرورة إعادة النظر فيها أو في صيغتها العملية، وبين اعتبار لبنان نموذجًا أو مختبرًا للعيش المشترك ومقرًا لحوار الثقافات. ويظهر الكاتب مدركًا، من خلال مواكبة منعطفات الحرب اللبنانية وتداعياتها، لجميع الصعوبات التي تعترض مسيرة العيش معًا في لبنان، ساعيًا إلى تسجيل العلامات المضيئة، وإن قليلةً، مُسهِمًا في عدم سقوط المفهوم والمبدأ، مشدّدًا على أنه رسالة لبنان التي لا مفر له منها.

لقد فرض محتوى هذه المذكّرات تبديل العنوان الذي كان قد اختاره الكاتب لها، وهو «مراحم الله في حياة»، وقد أتت خاتمتها بمثابة وصية بضرورة التمسّك بالعيش المشترك «وبه، لا بسواه، تتحقّق كلمة قداسة البابا يوحنا بولس الثاني، إن لبنان ليس وطنًا وحسب، بل هو رسالة إلى العالم أجمع.»

الخورأسقف يوحنا الحلو (١٩٢٢-٢٠٠٩)

حاز شهادة بكالوريوس في الفلسفة وإجازة في اللاهوت. ترقّى إلى درجة الكهنوت في ٦ أيّار سنة ١٩٥١، عُيّن نائبًا عامًّا لأبرشيّة صيدا المارونيّة سنة ١٩٧٥. مارس التعليم فكان أستاذ مادّة الترجمة في جامعة القدّيس يوسف، فرع البرامية.

له عدد كبير من المؤلّفات والترجمات، وارتبط اسمه خصوصًا بفكر القدّيس أوغسطينوس، بعدما نقل

